

أبتون سِنكلير

مملكة الفحم

ترجمة ياسمين العربي


محمد خطاب

مملكة الفحم

تأليف

أبتون سِنكلير

ترجمة

ياسمين العربي

مراجعة

هبة عبد المولى أحمد





مملكة الفحم

أبتون سِنكلير

King Coal

Upton Sinclair



الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٥٣٠ ١

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩١٧.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.



المحتويات

إلى

زوجتي ماري كريج سِنكلير

إلى مَنْ يَدين لها القارئُ بانتفاءِ الكثيرِ من الأخطاء في هذا الكتاب؛ نظرًا إلى جهودها الدءوبة ودِقتها الشديدة في تحرير مُسوَّدة هذه الرواية بعد أن كتبتُها.

مقدمة

يُعَدُّ أبتون سِنكلير أحد الكتَّاب القليلين الذين خصَّصوا حياتَهم للمطالبة بالعدالة الاجتماعية، والذين وضعوا فنَّهم أيضًا في خدمة غرضٍ محدَّد. ولكونه صاحب حماس لا ينطفئ، لم يتراجع قطُّ عن تقديم التضحيات. وكان يحقِّق بين الحين والآخر نجاحاتٍ مادية كبيرة من اشتغاله بالكتابة، ولكنه دائمًا ما كان يستثمر أرباحه ويخسرها في المشروعات التي أمَلَ أن يدرأ، من خلالها، الظلمَ وأن يعزِّز سعادة الإنسان. وعلى الرغم من خيبة أمله المتكرِّرة، لم يفقد الإيمان ولا الشجاعة للبدءِ من جديدٍ.

وبوصفه اشتراكيًّا صميمًا ومُدافعًا مُتحمسًا عن المذاهب التي لا تحظى بشعبية، وكاشفًا للظروف الاجتماعية التي كان من الممكن أن تظلَّ مخفيَّة عن عامة الناس لولا ذلك، كان عادةً ما تهاجمه المجلات الأكثر تأثيرًا في بلاده. وعلى الرغم من كونه فقيرًا، وكونه لم يوافق قطُّ على تقديم تنازلاتٍ لناشِريه كي يحقِّقَ شهرةً واسعة، من خلال توفير طبعاتٍ عديدة، فقد قُدِّم، بنوايا مُغرِضة، بوَصفه عاطلًا راديكاليًّا ومليونيرًا اشتراكيًّا. واضطُر عدة مراتٍ إلى تغيير ناشِره، وهو ما يُثبت أنه لم يكن يبحث عن المكسب المادي.

أبتون سِنكلير هو أحد أكثر الكُتَّاب المعاصرين الذين يستحقون اهتمامًا خاصًّا وتعاطفًا مُتفهِّمًا. إنه يُبرهِن على وطنيَّته الأمريكية، ليس بالمشاركة في التغنِّي بنموذج الحرية المشروطة لدى الولايات المتحدة، ولكن من خلال الحَثِّ على إمدادها بإكسير الحياة المتمثِّل في الحرية الحقيقية؛ حرية الإنسانية والبشرية جَمعاء. إنه لا يقتصر على وصف واقعِ الحال وصفًا مجرَّدًا وممتعًا. ولكنه، في مناشداتِه لمواطني بلده بالتحلِّي بالأمانة وحُسن العِشرَة، يفتحُ أعينهم على الظروف المروِّعة التي يعيش فيها مئاتُ الآلاف من العبيدِ الأُجَرَاء. وكان هدفُه هو تحسين هذه الظروف غير الإنسانية، لكي يجدَ للمواطنين الأشدِّ

فقرًا بَصيصًا من الضوء والسعادة، وليجعلهم أيضًا يعيشون الإحساسَ بدفءِ الرفاهية ويَهنَئُون بالراحة والسَّكينة، عندما يعلمون أنَّ في مقدورهم، هم أيضًا، أنْ يحظَوا بالعدالة.

نَذَرَ أبتون سِنكلير هذه المرة نفسَه لدراسة حياة عامِل المناجم في المناجم المنعَزِلة في جبال رُوكي، وبفضل عقلِه المرهَف المتحمِّس استطاع أن يقدِّم للعالَم نظيرًا أمريكيًّا لرواية «جرمينال»، رائعة إميل زولا الفَنية.

غير أنَّ الظروف الموصوفة في الكتابَين مختلفة اختلافًا جَوهريًّا. فبينما كان عُمَّال زولا جميعهم مواطنين فرنسيين، نلتقي في كتاب سِنكلير بمجموعة متنوعة من المهاجرين الأوروبيين، الذين يتحدَّثون لغاتٍ مختلفة، ومن ثَم لا يتسنَّى لهم تشكيل نقابة من نوعٍ ما لحماية أنفسهم من استغلال الشركة المحدودة المجهولة الهوية. وعلى الرغم من هذا العائق الطبيعي أمام توحُّد العبيد المأجورين، تشعر الشركة أنها بعيدة كُلَّ البُعد عن الهدوء واستقرار الأمور، وتحرس مصالحها بحَيطةٍ وحَذرٍ ضد أيِّ محاولة لتنظيم العُمَّال في ائتلافٍ ما.

يَبرُز شابٌّ أمريكي من الطبقة العُليا، يُكِنُّ الكثيرَ من التعاطُف تجاه المضطهَدين، ولديه رغبةٌ صادقة في الحصول على معلوماتٍ من المضطهَدين أنفسهم عن ظروفهم من أجل مساعدتهم، ويقرِّر هذا الشاب الحصولَ على وظيفة في أحدِ المناجم تحت اسمٍ وَهمي، ويرتدي زيَّ العُمَّال. تُثير طريقتُه، غير المعتادة في محاولة الحصول على عملٍ، الشكوكَ. فيُعتقَد أنه زعيمُ إضراباتٍ محترِف أُرسِل لتنظيم عُمَّال المناجم في تشكيلٍ نقابي ضد مُستغلِيهم، ولم يقف الأمرُ عند عدم حصوله على عملٍ فحسب، بل تعرَّضَ للضرب المبرِّح بلا رحمة. وعندما ينجح أخيرًا في الدخول إلى معسكر الفحم، يَزيدُ من سخطه واستيائه اكتشافُ الطريقة الوَقِحة واللاإنسانية التي يُستغَل بها أولئك الذين يستخرجون الفحم الأسود.

هذه هي الأفكار الأساسية للكتاب، لكنها لا تُعطي سوى فكرةٍ ضئيلة عن الأسلوب الفني المبدِع للمؤلِّف. ويظهر هذا الأسلوب في أبهى صُوَره في علاقة هال بفتاةٍ أيرلندية شابَّة، وهي ماري الصَّهباء. إنها فتاةٌ فقيرة، وحياتها اليومية قاسية وكئيبة، لكن جمالها المدهش من أبرز سِمات الكتاب. الانطباعُ الأول عن ماري أنَّها عذراءُ سِلتية ذات قلبٍ حنون تجاه الأطفال الصغار. تتطوَّر شخصيتُها لتُصبح الربَّة فالكيري للطبقة العاملة، فهي على استعدادٍ دائم للنضال من أجل حقوق العُمَّال.

في الفصولِ الأخيرة من الكتاب، يُقدِّم المؤلِّف وصفًا لثورة عُمَّال المناجم ضد الشركة. إنهم يُصرُّون على إثبات حقِّهم في اختيار مندوبٍ لمراقبة عملية وزن الفحم الذي يستخرجونه، ويُصرُّون أيضًا على رشِّ المناجم بانتظامٍ لمنع انفجارها. كما يطالبون بأن تكون لهم الحرية في شراء طعامهم وأدواتهم من حيث يشاءون، حتى وإن كان من المتاجر غير التابعة للشركة.

يشرح سِنكلير، في تعقيب أخير، الحقائقَ الأساسية التي بُنِي عليها عمله الفني. ولكن حتى من دون هذا التعقيب، لا يسعُ المرءَ إلا أن يشعر بقناعةٍ تامة بأنَّ الظروف الاجتماعية التي يَصِفها تتوافق مع واقع الحياة. الفكرة الأساسية هي أن سِنكلير لم يسمح لنفسه بأن يسترشِد بالعبارات المتداوَلة التي تقول إنَّ العبودية والظلم وغيرهما من الشرور والجرائم التي كانت ترتكبها الممالكُ قد قُضِيَ عليها في الجمهوريات، بل يشير بجدية إلى الأساس الخَرِب الذي قامت عليه أعظمُ القُوى الاقتصادية الحديثة. أساسُ هذه القوة ليس الجرانيت، بل المناجم. إنها تعيش وتتنفَّس في النور؛ لأنَّ لديها آلافَ البائسين الذين يكدحون في الظلام. إنها تعيشُ وتتمتع بكيانها بحريةٍ وخُيَلاء؛ لأنَّ الآلافَ يُستعبَدون من أجلها، وعبوديتُهم هي ثمنُ هذه الحرية.

هذا هو الانطباعُ الذي تهدف هذه الرواية المثيرة أن تُوصِّله إلى القارئ.

جورج براندز

الجزء الأول

نطاق مملكة الفحم

الفصل الأول

تقع بلدة «بيدرو» على حدود الريف الجبلي، حيث توجد مجموعة متناثرة من المتاجر والحانات التي يخرج منها عددٌ من خطوط السكك الحديدية الفرعية إلى الوِديان العميقة لإمداد معسكرات الفحم باحتياجاتها. كانت البلدة تنعم بالهدوء طوال الأسبوع، ولكنها كانت تستيقظ على حياة صاخبة في ليالي السبت، عندما ينزل إليها عُمَّال المناجم بأعدادٍ كبيرة، ويأتي أصحابُ مزارعِ الماشية على صهوات خيولهم وفي السيارات.

في أحد الأيام في أواخر شهر يونيو، ترجَّل شابٌّ من أحد القطارات في محطة السكة الحديدية. كان في الحادية والعشرين من عُمره تقريبًا، بملامح تدُل على رهافة حِسِّه، وشعرٍ بُني يميل إلى التموُّج. كان يرتدي بذلة بالية وباهتة، اشتراها برُبع دولار من مدينته، حيث يقف التجَّار اليهود على الأرصفة لعرض بضائعهم، وكان يرتدي كذلك قميصًا أزرق اللون مُتَّسخًا، بلا رابطة عنقٍ، وكان ينتعل زوجًا من الأحذية الثقيلة التي أكل عليها الدهر وشَرِب. وكان يحزمُ على ظهره صُرَّةً من الملابس الإضافية وبطانية، ويضع في جيوبه مشطًا، وفرشاةَ أسنان، ومرآةَ جيب صغيرة.

في أثناء جلوس الشاب في عربة التدخين بالقطار، راحَ يستمع إلى حديث العاملين في معسكرات الفحم؛ حيث كان يرمي إلى تصحيح لهجته. وعندما ترجَّلَ من القطار واصلَ السير بمحاذاة القضبان، وأدخلَ يديه في الرَّماد، ونثرَ بعضًا منه على وجهِه. بعدما تفحَّص أثرَ ذلك عليه في مرآته، سارَ في شارع بيدرو الرئيسي، واختار متجرًا صغيرًا للتبغ، ودَخَلَه. وبصوتٍ فجٍّ، قدر ما استطاع، سألَ صاحبة المكان: «هل يمكنكِ أن تخبريني كيف أصلُ إلى منجم باين كريك؟»

نظرَتْ إليه المرأة دون أن تحمل نظرتها مثقال ذرَّة من شكٍّ. أعطته المعلومات المطلوبة، وركِبَ عربة ونزلَ عند سفح وادي «باين كريك» العميق، حيث كان لا يزال أمامه مسافة

ثلاثة عشر مِيلًا ليقطعها. كان يومًا مُشمسًا، وكانت السماء شديدة الصفاء، والهواء الجبلي مُنعِشًا. بدا الشابُّ سعيدًا، وبينما كان يُسرع في طريقه، أنشدَ أغنية من عدة أبيات:

«كان مَلِك الفحم رجلًا عجوزًا ومَرِحًا،
وقد كان عجوزًا ومَرِحًا حقًّا،
أنشأ كليةً عامِرةً بالمعرفة …
مَرحى لي ولكم!
أوه، يا ليزا-آن، اخرجي معي،
القمرُ يسطع ببهاءٍ في شجرة الأروكاريا،
أوه، لقد بدأتُ يا ليزا-آن
أُغَني لكِ أغنية هاريجان!
إنَّه يُبقيها تدور، هذا العجوزُ المَرِح …
إنها عجلات الصناعة،
تدور وتدور، من أجل غليونه ووعائه
وكليته!
أوه، يا ماري جين، اخرجي في الزقاق،
القمر يسطع ببهاءٍ في شجرة البَقَّان القديمة،
أوه، يا ماري جين، ألا تسمعينني أقول
إنني سأُغني لكِ أغنية هاريجان!
لذا مَرحى لملك الفحم، وقائمة رواتبه الكبيرة،
وعجلات صناعته!
مَرحى لغليونه، ومَرحى لوعائه …
ومَرحى لي ولكم!
أوه، يا ليزا-آن، اخرجي معي،
القمر يسطع ببهاءٍ …»

وهكذا دواليك … ما دام القمر يسطعُ في حَرَم الكلية. إنه يجمع بين اللَّغو الهَزلي المَرِح والتساؤلات التي شرع الشبابُ العصري يُزعجون بها الجيل الأكبر سنًّا. ولأنَّ الأغنية كانت على شاكلة المسيرات العسكرية، جاءت وتيرتُها سريعةً على مُنحَدَرات الوادي الجبلي العميق؛

حيث كان بإمكان وارنر أن يتوقَّف ويصرخ في جنبات الوادي، ويستمع إلى صدى صوته، ثم يواصِل التقدُّم. كان قلبُه مُفْعَمًا بالشباب، والحُبِّ، والفضول، كما كان يحملُ في جيبِ بِنطاله بعضَ الفكَّة، وورقة بقيمة عشرة دولارات، لحالاتِ الطوارئ القصوى، مَخِيطَةَ في حزامه. لو كان أحدُ مُصوِّري «الشركة العامة للوقود» المملوكة لصاحبها بيتر هاريجان، قد تمكَّن من الحصول على لقطة سريعة له في صباح ذلك اليوم، فربما كانت صورة «العامِل في مناجم الفحم» التي تظهر عادةً في أي منشور دعائي عن «الازدهار».

لكن الارتفاع كان حادًّا، وقبل النهاية شعرَ المسافِرُ بثِقَل حذائه، وكفَّ عن الغناء. وفي اللحظة التي كانت فيها الشمسُ تغوص في الوادي العميق، وصلَ إلى وِجهته … حيث رأى أمامه بوابة على الطريق عليها لافتة:

شركة «باين كريك» لاستخراج الفحم
ملكية خاصة
يُحظَر الدخول

اقتربَ هال من البوابة، التي كانت من القضبان الحديدية، ومُقفَلة. بعدما وقفَ للحظة كي يستعد لإطلاق صوتِه الأجش، ركلَ البوابة وخرجَ رجل من كوخٍ بالداخل.

قال: «ماذا تريد؟»

«أريدُ الدخول. أنا أبحث عن عملٍ.»

«من أين جئت؟»

«من بيدرو.»

«أين عملت من قبل؟»

«لم أعمل في منجم من قبل.»

«أين عملت إذن؟»

«في محل بقالة.»

«أيُّ محل بقالة؟»

«بيترسون وشركاه، في ويسترن سيتي.»

اقتربَ الحارسُ من البوابة، وتفحَّصه عبر القضبان.

نادى: «أنت يا بيل!»، فخرجَ رجلٌ آخر من الكوخ. «هنا رجلٌ يقول إنه كان يعمل في محل بقالة، ويبحث عن عملٍ.»

سأله بيل: «أين أوراقك؟»

كان الجميعُ قد أخبروا هال أنَّ العِمالة نادرة في المناجم، وأنَّ الشركات كانت في حاجة ماسَّة إلى عُمَّال؛ ومن ثَم فقد افترضَ أنَّ كلَّ ما سيكون على العامِل فعله هو أنْ يقرعَ البابَ، وسيُفتَح له. قال: «لم يُعطوني أي أوراق»، وأضافَ على عجلٍ: «لقد ثملتُ وطردوني.» كان مُتأكدًا تمامًا من أنَّ السُّكْر لا يحُول دون العمل في أيٍّ من معسكرات الفحم.

غير أن الرجُلين لم يُحرِّكا ساكنًا لفتح البوابة. تفحَّصه الرجلُ الثاني بتَمَعُّنٍ من مَنْبتِ شعره إلى أَخمَص قَدمَيه، فتوجَّس هال من احتمالية وجود ما يُثير الشكوك. ومن ثَم حاول أن يطمئنهم قائلًا: «ليس بي خَطب. اسمحا لي بالدخول، وسأُثبت لكما.»

ما زال الرجُلان لا يتحركان. تبادَلا النظرات، ثم أجابَ بيل: «لسنا بحاجة إلى عُمَّال.»

صاحَ هال: «ولكن، رأيتُ لافتة أسفل الوادي ...»

قال بيل: «هذه لافتة قديمة.»

«لكنني قطعتُ كلَّ هذه المسافة إلى هنا!»

«ستجدُها أسهل في طريق عودتك.»

«لكننا ... صِرنا في الليل!»

سألَ بيل بسخرية: «هل أنتَ خائفٌ من الظلام يا فتى؟»

أجابَ هال: «أوه، أنا! فلتُعطِني مجالًا فحسب! هل من طريقةٍ أستطيعُ بها المكوث هنا ... أو على الأقل سريرًا للمبيت الليلة، وسأدفعُ المقابل؟»

قال بيل قبل أن يستدير ويدخل إلى الكوخ: «لا مجالَ لأيٍّ من ذلك.»

انتظرَ الرجلُ الآخر، وراحَ يرمقُ هال بنظرةٍ عدائية بالتأكيد. توسَّل هال إليه مرارًا، لكنه كرَّر ثلاثَ مرات: «اذهب إلى أسفل الوادي.» ومن ثَم استسلم هال في النهاية، وابتعدَ قليلًا، وجلسَ يُفكِّر.

في الواقع، بدا من غير المنطقي إلى حَدٍّ سخيف أن ينشروا إعلانًا مُفاده «مطلوب عُمَّال» في أماكن ظاهرة على جانب الطريق، فيضطر المرءُ إلى قطعِ ثلاثة عشر مِيلًا إلى أعلى الوادي الجَبَلي، ليُطرَد دون توضيحٍ. كان هال مُتأكِّدًا من وجود وظائف خلف هذا السور، وكان يرى أنه لو تمكَّنَ فقط من الوصول إلى رؤساء العمل، فسيُمكنه إقناعهم. نهضَ وسَارَ في الطريق مسافة رُبع مِيل، إلى حيث قطعَه خطُّ السكة الحديدية، مُنهِيًا الوادي. كان قطارٌ من «الفوارغ» يمرُّ، مُتَّجهًا إلى داخل المعسكر، وكانت عرباته تُقَعقِع وترتَطِم بينما يشقُّ على المحرك صعودُ الوادي. جعله هذا يفكِّر في حَلٍّ للمشكلة.

كان الظلامُ يزداد بالفعل. انحنى هال قليلًا، واقتربَ من العَرَبات، وعندما أصبحَ في الظِّل، قفزَ وتأرجَح راكِبًا إحداها. لم يستغرق الأمر سوى ثانية واحدة حتى أصبحَ على متنِ العربة، ثم استلقى وانتظرَ مُترقِّبًا ودقات قلبه تتسارع.

قبل أنْ تمرَّ دقيقة سمع صُراخًا، وبالنظر إلى مصدره، رأى كلبَ حراسة البوابة يركضُ على الطريق المؤدي إلى خط السكة الحديدية، ورفيقُه، بيل، خلفه مباشرة. صرخ الحارسان: «أنت! اخرُجْ من عندك!» وقفزَ بيل، ولَحِقَ بالعربة التي كان هال يستقلُّها.

رأى الأخير أنَّ محاولته قد باءت بالفشل، فقفزَ على الأرض على الجانب الآخر من خط السكة الحديدية، وانطلقَ إلى خارج المعسكر. تبِعَه بيل، وعندما مرَّ القطار، ركضَ الحارس الآخر على القضبان لينضمَّ إليه. كان هال يمشي مُسرِعًا، دون أن يَنبِسَ ببِنت شَفة، لكن حارس البوابة أمطره بوابلٍ من الكلمات، معظمها تُحظَرُ طِباعته، وأمسكَ بتلابيب هال، ودفعَه بعنفٍ، ووجَّه له ركلةً مُوجِعة. استعادَ هال توازُنه، وبينما كان الرجل لا يزال يُطارده، استدارَ ووجَّه إليه ضربة أصابت صدره فجعلته يترنَّح.

حرص شقيق هال الأكبر على أن يُعلِّمه كيف يستخدِم قبضتَيه لتسديد الضربات؛ ومن ثَم اتخذَ الآن موقفَ المقاتِل، واستعدَّ لمواجهة المهاجِم الآخر. ولكن، يبدو أنَّ الأمور لا تُحسَمُ في معسكرات الفحم بهذه الطريقة البدائية. فقد توقَّفَ الرجل، ووُضِعَت، فجأة، فُوَّهَة مُسدَّس تحت أنف هال. قال الرجل: «ارفعْ يدَيك!»

لم يدرِ هال ماذا يفعل؛ فاستسلم رافعًا يديه. وفي اللحظة نفسها انقضَّ عليه مهاجِمُه الأوَّل، ووجَّه إليه لكمةً فوق عينه جعلته ينبطح على ظهره فوق الحجارة.

الفصل الثاني

عندما استعادَ هال وعيه، وجد نفسه في مكان مظلم، وشعرَ بالألم الشديد يجتاح كلَّ جسمه، من مَنبت شعره إلى أخمص قَدمَيه. كان مستلقيًا على أرضية حَجَرية، تدحرج، ولكنه سرعان ما تراجع مُتدحرجًا؛ لأنه لم يكن في ظهره جزءٌ لا يؤلمه. ولاحقًا، عندما أصبح قادرًا على تفحُّص نفسه، أحصى عددًا كبيرًا من علامات الحذاءَين الثقيلَين لمهاجِمَيه.

استلقى لمدة ساعة أو ساعتَين، بعدما أيقنَ أنه محبوسٌ؛ حيث استطاع أن يرى ضوء النجوم عبر قضبانٍ حديدية. وقد تمكَّن من سماع غطيط أحدهم، ونادى ستَّ مراتٍ بصوتٍ أعلى وأعلى في كل مرة، حتى سمع أخيرًا هديرًا، فسأل: «هل يمكنك أن تُعطيَني شَربة ماءٍ؟»

قال صاحب الصوت: «الويل لك إذا أيقظتني مُجددًا»، وبعدها ظلَّ هال صامتًا حتى الصباح.

بعد بضع ساعاتٍ من طلوع النهار، دخلَ رجلٌ إلى زنزانته. وقال مُستحثًّا إياه بقَدمه: «انهض.» خُيِّلَ إلى هال أنه لن يَقْوى على ذلك، ولكنه تمكَّنَ من النهوض.

قال سَجَّانُه وهو يُمسك به من كُمِّه: «لا مزيدَ من الخداع الآن»، وأخرجه من الزنزانة، وسار به في ممرٍّ صغير يؤدي إلى مكان يُشبه المكتب؛ حيث كان يجلس شخصٌ ذو وجه أحمر يضع درعًا فضيًّا على طيَّةِ صَدر مِعطَفه. كان الرجُلان اللذان طاردا هال ليلة أمس يقفان في مكانٍ قريب.

قال الشخص الجالس على الكرسي: «حسنًا، ما رأيك يا فتى؟ هل حظِيتَ ببعض الوقت للتفكير مَلِيًّا في الأمر؟»

قال هال مُقتضِبًا: «أجل.»

سأل الشخص الحارسَين: «ما تُهمتُه؟»

«التسلُّل ومقاوَمة الاعتقال.»

كان السؤال التالي: «كم لديك من المال أيها الشاب؟»

تردَّد هال.

قال الرجل: «تكلَّم!»

قال هال: «دولاران وسبعة وستون سنتًا ... بقدر ما أستطيع أن أتذكَّر.»

قال الآخر: «ويحك! أتهزأ بنا؟» ثم قال للحارسَين: «فَتِّشَاه.»

قال بيل على الفور: «اخلع معطفك، وبنطالك، وحذاءك.»

اعترضَ هال قائلًا: «أوه، لا تقل ذلك!»

قال الرجل وضمَّ قبضتَيه: «اخلعها!» خلع هال ملابسه، وشرع الحارسان في تفتيش جيوبه، فأخرجَا محفظة بها المبلغ المذكور، وساعةً رخيصة أيضًا، وسكينَ جيبٍ حادًّا، وفرشاة أسنان، ومشطًا، ومرآةً، ومِنديلَين أبيضَين، نظرا إليهما بازدراءٍ، وألقياهما على الأرض الملطخة بالبُصاق.

فتحَا صُرَّة الملابس، وألقيا بالملابس النظيفة هنا وهناك. ثم، فتحا سكينَ الجيب، وشرعا في نقب نعل الحذاء وكعبه، وشقِّ بطانة الثياب. ومن ثَم عثرا على الدولارات العشرة المدسوسة في الحزام، وطرحاها فوق الطاولة مع بقية المتعلقات الأخرى. ثم أعلن الشخص صاحب الدرع: «أحكمُ عليك بغرامةٍ قدرُها اثنا عشر دولارًا وسبعة وستون سنتًا، وساعة يدك وسكينك.» وأضاف مبتسمًا: «يمكنك الاحتفاظ بخِرَق المخاط خاصتك.»

قال هال غاضبًا: «اسمع! هذا ليس عدلًا!»

«ارتدِ ملابسك أيها الشاب، واخرج من هنا بأسرع ما يمكن، أو سترحل بملابسك الداخلية.»

لكن هال كان غاضبًا إلى درجة جعلته على استعدادٍ للخروج عاريًا. ومن ثَم، أردفَ قائلًا: «أنت، أخبرني مَن أنت، وما هي سلطتُك في أمر كهذا؟»

قال الرجل: «أنا قائدُ المعسكر.»

«هل تعني أنك موظَّف لدى الشركة العامة للوقود؟ وتحاول سرقتي ...»

قال القائد: «أَخرِجه يا بيل.» ورأى هال قبضتَي بيل وقد ضمَّهما استعدادًا لتنفيذ الأمر.

قال وهو يبتلع سخطَه: «حسنًا. انتظر حتى ارتدي ملابسي.» وشرعَ في ارتداء ملابسه بأسرع ما يمكن، ولفَّ بطانيته وملابسه الإضافية، وانطلقَ نحو الباب.

قال القائد: «لا تنسَ أن تنزل على الفور من الوادي، وإذا رأيتُ وجهَك هنا مرة أخرى، فستخترق رصاصةٌ جسدك.»

ومن ثَم، خرج هال إلى ضوء الشمس، ومعه حارسٌ على كلا جانبَيه يُرافِقانِه. كان على الطريق الجبلي نفسه، ولكن في وسط موقع الشركة. رأى من بعيدٍ المبنى الكبير لمحطَّة تكسير الفحم، وسمع هدير الآلات المستمر وصوت سقوط الفحم. مَرَّ بزقاقٍ تصطَفُّ على جانبَيه منازل الشركة وأكواخها؛ حيث النساءُ الشُّعث في مداخل البيوت والأكواخ، والأطفال المتَّسخون يحفرون في التراب على جانب الطريق وقد توقَّفوا وسخروا منه ... لأنه كان يعرج في أثناء سيره، وكان ما حدث له واضحًا بما يكفي.

لقد جاء هال بدافعٍ من الحُب والفضول. وقد تضاءل الحب كثيرًا ... من الواضح أن هذه لم تكن القوة التي أبقت على دوران عجلات هذه الصناعة. لكن ازداد فضوله عن أي وقتٍ مضى. ما الذي يحرصون على إخفائه وراء سور هذا المعسكر؟

استدار هال ونظر إلى بيل، الذي كان قد أظهر شيئًا من حِسِّ الفكاهة في الليلة الماضية. قال: «اسمعا، لقد حصلتما يا رفاق على أموالي، ولكمتُما عينِي حتى اسودَّت وألحقتما الكدمات بجسدي، ولا بد أنكما راضيان الآن. ولكن، فلتُخبراني قبل أن أذهب، هل تفعلان؟»

قال بيل بصوتٍ هادر: «بِمَ نُخبركَ؟»

«لماذا حدث لي هذا؟»

«لأنكَ مُستهتِرٌ للغاية يا فتى. ألم تعلم أنه لا يحقُّ لك محاولة التسلُّل إلى هنا؟»

قال هال: «بلى، ولكن هذا ليس ما أعنيه. لماذا لم تسمحا لي بالدخول من الأساس؟»

سألَ الرجلُ: «إذا كنت تريد عملًا في أحد المناجم، فلماذا لم تسلُك الطريقة النظامية؟»

«لم أكن أعرف الطريقة النظامية.»

«هذا كلُّ ما في الأمر. ولم نكُن نثقُ بك. لم تبدُ شخصًا مستقيمًا.»

«ولكن ماذا ظننتُما فيَّ؟ ممَّ تخافان؟»

قال الرجل: «ويحك! لا يمكنك خداعي!»

مشى هال بضع خطواتٍ في صمتٍ، وهو يفكِّر في كيفية التأثير فيهما. قال: «إنكما تشُكَّان فيَّ. سأخبركما بالحقيقة، إذا سمحتما لي.» ثم قال عندما لم يمنعه الآخر: «أنا فتًى جامِعي، وأردتُ أن أرى الحياة، وأعتمدُ على نفسي لبعض الوقت. حسِبتُ أنه سيكون من الممتِع أن آتي إلى هنا.»

قال بيل: «حسنًا، هذا ليس ملعبًا لكرة القدم. إنه منجم لاستخراج الفَحم.»

رأى هال أنَّ قصتَه قد لاقت تصديقًا. فقال: «أخبرني بلا مواربة، ماذا كان ظنُّك فيَّ؟»

قال بيل بصوتٍ هادر: «حسنًا، لا أمانع أن أقول ذلك، هناك نِقابيُّون مُشاغبون يحاولون تحريض العُمَّال في المعسكرات، ونحن لن نُجازف بالسماح بذلك. تستقدم هذه الشركة عُمَّالها عبر الوكالات، ولو كنتَ ذهبت وأرضيتهم، لكنت قد اجتزتَ الأمر بالطريقة النظامية. أو إذا كنت قد ذهبت إلى المكتب في بيدرو وحصلت على تصريحٍ، لكان لك حقٌّ. ولكن عندما يظهر رجلٌ فجأة عند البوابة، ويبدو شابًّا مُتأنِّقًا ويتحدَّث مثل أستاذٍ جامعي، فلن يتمكَّن من تدبير أمره، هل فهمت؟»

قال هال: «فهمت.» ثم قال: «إذا أعطيتني ثمنَ وجبة إفطار من أموالي، فسأكونُ شاكرًا.»

قال بيل: «لقد انتهى الإفطار. اجلس حتى ينضج الصُّنوبر.» ثم ضحكَ، ولكن مُزحته جعلته يتلطَّف، فأخذ رُبع دولار من جيبه وأعطاه هال. فتحَ قفل البوابة ونظرَ إليه بابتسامة، وهكذا انتهت جولة هال الأولى لكشف خبايا هذه الصناعة.

الفصل الثالث

بدأ هال وارنر يجُر نفسَه على الطريق نزولًا إلى الوادي، لكن قُواه لم تُسعِفه. وصلَ إلى جدول صغير ينحدِرُ من جانب الجبل، والذي كان بإمكانه أن يشرب منه دون الخوف من الإصابة بالتيفوئيد؛ فهناك كان يرقد صائمًا طوال النهار. وبحلول المساء هبَّتْ عاصفةٌ رعدية، وزحفَ ليحتميَ أسفل صخرة لم تكن له مأوًى على الإطلاق. وسرعان ما تبلَّلت البطانية الوحيدة التي كانت معه، وقضى ليلةً تكاد تقترب في بؤسها من الليلة الماضية. لم يستطع النوم، لكنه استطاع التفكير، وقد فكَّر فيما حدثَ له. قال بيل إنَّ منجم الفحم ليس مَلعبًا لكرة القدم، غير أنه بدا لهال أنَّ محصِّلة تأثير كلٍّ منهما — سواء الملعب أو المنجم — واحدة إلى حَدٍّ كبير. وهنَّأ نفسَه على أنَّ مِهنَته لم تكن مُنظِّمًا نقابيًّا.

نهض عند الفجر بشِقِّ الأنفس، وواصل رحلته، وقد أنهكه البردُ ونقصُ الطعام الذي لم يكن يألفه. وصلَ خلال النهار إلى محطة لتوليد الكهرباء بالقرب من سفح الوادي. لم يكن لديه ثمن وجبة، وكان يخشى التسوُّل؛ ولكن في إحدى مجموعات المباني على جانب الطريق كان هناك متجَر، فدخل وسأل عن سعر البرقوق المجفَّف، الذي كان بخمسة وعشرين سِنتًا للرطل. كان السعر مُرتفعًا، ولكن المكان أيضًا كان مرتفعًا، وكما اكتشفَ هال مع مرور الوقت، فقد برَّروا أحدَ الارتفاعَين بالآخر ... مع أنهم لم يوضحوا قطُّ سبب أن ارتفاع الأسعار دائمًا ما يكون أكثر بكثيرٍ من الارتفاع الجغرافي للمتجر. رأى وراء منضدة البيع إشعارًا: «نشتري السندات المالية بخصم عشرة في المائة.» كان قد سمع شائعاتٍ عن وجود قانون في الولاية يحظر دفعَ الأجور في شكل «سنداتٍ مالية»؛ لكنه لم يسأل عن الأمر، وحملَ رطل البرقوق المجفَّف المبخوس وزنه للغاية، وجلس على جانب الطريق وأخذ يمضغه.

خلف محطة توليد الكهرباء مباشرة، وأسفل خط السكة الحديدية، كان هناك كوخٌ صغير بحديقة خلفه. شَقَّ طريقَه إلى هناك، فوجدَ حارسًا عجوزًا مبتورَ الساق. استأذن في المبيت على أرضية الكوخ، وعندما رأى الرجلَ العجوز ينظر إلى عينه السوداء من أثر الكدمة، أوضح له قائلًا: «لقد حاولتُ الحصول على عملٍ في المنجم، وحَسبوني مُنظِّمًا نِقابيًّا.»

قال الرجل: «حسنًا، لا أريدُ أيًّا من المنظِّمين النقابيين هنا.»

توسَّل هال قائلًا: «لكنني لست واحدًا منهم.»

«كيف لي أن أعرف ما أنت؟ ربما تكون جاسوسًا للشركة.»

قال هال: «كلُّ ما أريده هو مكان جافٌّ لأنامَ فيه. وبالطبع، لا ضرر عليك إنْ وفَّرته لي.»

أجاب الرجل: «لستُ متأكِّدًا. ولكن يمكنك فرد بطانيتك في الركن. لكن لا تتحدَّث معي عن أي أمور تتعلق بالنقابات.»

لم يكن لدى هال الرغبة في التحدُّث. لفَّ نفسَه في بطانيته، ونامَ كما لو أنه رجلٌ لا يشغله حُبٌّ أو فضول. وفي الصباح أعطاه الرجل العجوز شريحة من خبز الذُّرَة وبعض البصل الصغير من حديقته، وكان طعمُه ألذَّ من أي إفطار تناوله في أي وقتٍ مضى. عندما شكر هال مضيفَه في أثناء مغادرته، قال الأخير: «حسنًا، أيها الشاب، هناك شيءٌ واحد يمكنك فعله لتشكرني، وهو ألَّا تقول شيئًا عن الأمر. عندما يشيبُ شعرُ الرجل ولا تكون له سوى ساقٍ وحيدة، قد يصبح فقدانه لعَمله كالغرق في جدول ماء.»

وَعَدَه هال أن يكتم الأمر، ومضى في طريقه. لم يعُد ألم كدماته شديدًا، وأصبح قادرًا على المشي. كانت هناك بيوت ريفية في الأُفُق ... وكان الأمر أشبه بالعودة فجأة إلى أمريكا!

الفصل الرابع

كان أمام هال الآن مغامراتٌ لمدة أسبوع سيحيا فيها مُشرَّدًا، مُشرَّدًا بمعنى الكلمة، من دون ورقة بقيمة عشرة دولارات في حزامه تُخفِّف عليه الواقعَ القاسي لتجاربه. تأمَّل فضائله الدنيوية، وتساءل عما إذا كان لا يزال يبدو رجلًا مُتأنقًا. تذكَّر أنه كانت لديه ابتسامة فَتَنَت السيدات؛ فهل سيكون لها الأثر نفسه مع هذه الكدمة التي تلقَّاها في عينه؟ ونظرًا إلى عدم وجود وسائل أخرى لكسب الرزق، فقد استخدمَ ابتسامته مع ربَّات البيوت اللاتي يبدو من مظهرهن أنهن مُرهَفات الحسِّ، ووجدها طريقة ناجحة جدًّا، إلى درجة أنها استمالته للشَّكِّ في حكمة العمل الشريف. لم يَعُدْ يُغَني أغنية هاريجان، بل كلماتٍ لإحدى أغنيات المشرَّدين سمعَها ذات مرة:

«أوه، ما فائدة العمل عندما تكون هناك نساء في البلاد؟»

في اليوم الثاني تعرَّفَ إلى رجُلَين آخرَين، كانا جالسَين على الطريق بجوار خط السكة الحديدية يَشوِيان بعضًا من لحم الخنزير المقدَّد على نارٍ أوقداها في العَراء. رحَّبا به، وبعد أن استمعا إلى قصته، قبِلاه عُضوًا في جماعتهم، وأرشداه إلى كيفية العيشِ وَفقًا لتعاليمها وأعرافها. وسرعانَ ما تعرَّف إلى شخصٍ كان عامِلًا في منجم، واستطاع أن يُعطيه المعلومات التي يحتاج إليها قبل أن يُقدِم على صعود وادٍ آخر.

«مايك الهولندي»، كان هذا اسم الشخص لأسبابٍ لم يشرحها. لقد كان وضيعًا ذا عينَين سوداوَين ومظهر ينمُّ عن الخطر، وعندما طُرِح موضوعُ المناجم والتَّعدِين، أطلقَ وابلًا من الألفاظ النَّابية. لقد تركَ هذه المهنة ... ويستطيع هال أو أيُّ أحمقٍ شقي آخر أن يأخذ وظيفته إن أراد. ولا شيء سوى وجود الكثير من الحمقى الأشقياء بالفِطرة في العالَم

يجعل هذه المهنة تستمر. واصل «مايك الهولندي» سردَ حكاياتٍ مُروِّعة من واقع حياة المناجم، واستدعى أشباحَ مُشرِفي العمل أمامه واحدًا تِلوَ الآخر، مُتمَنِّيًا إرسالَهم جميعًا إلى نيران الجحيم الأبدي.

قال: «أردتُ العملَ عندما كنت صغيرًا، ولكنني الآن شُفِيتُ، وإلى الأبد.» أصبحَ العالَم في نظرِه مكانًا شُيِّد خصيصَى لكي يحمله على الكدح والعمل، وقد سخَّر جميعَ قدراته لإحباط هذه المؤامرة. عندما كان هال جالسًا عند نار أحد المخيِّمات بالقرب من جدول الماء الذي كان يجري عبر الوادي، قضى وقتًا ممتعًا يشرح لـ «مايك الهولندي» كيف كان كَدُّه في التهرُّب من العمل يفوق بكثيرٍ كَدَّ غيره في عملهم. لم يبدُ أن المشرَّد كان يعنيه ما يقول … غير أنها كانت مسألة مبدأ بالنسبة إليه، وكان على استعدادٍ لتقديم التضحيات من أجل قناعاته. وحتى عندما أرسلوه إلى إصلاحية الأحداث، رفضَ العمل؛ حيث حُبِسَ في زنزانة، وكان على وشك الموت لأنه كان يقتاتُ على الخبز والماء فقط، ومع ذلك ظلَّ مُحجِمًا عن العمل. قال إنه إذا حذا الجميع حذوَه، فسرعان ما ستشتعل «حالة الاضطراب والفوضى».

أُعجِب هال بهذا الثوري العَفوي، وسافر معه لبضعة أيام؛ حيث أمدَّه بتفاصيل عن حياة عامل المناجم. تتعامل معظمُ الشركات مع وكالات التوظيف النظامية، كما ذكر الحارس، لكن المشكلة أن هذه الوكالات كانت تحصل على جزءٍ من راتبك لفترة طويلة … وأن رؤساء العمل كانوا «متواطئين» معها. عندما تساءلَ هال عما إذا كان هذا مخالفًا للقانون، قال رفيقه: «كُفَّ عن هذا يا رجل! عندما يكون لديك وظيفة لفترة من الوقت، ستعرف أن القانون في معسكر الفحم هو ما يخبرك به رئيسُك.» واصل العامل المشرَّد التعبيرَ عن قناعاته بأنه عندما يكون توفيرُ الوظائف حِكرًا على رجل واحد، ويكون على الرجال الآخرين أن يتدافعوا للحصول عليها، فلن يكون للقانون سلطة كبيرة في الأمر. استشفَّ هال من كلامه ملاحظةً عميقة، وأمَل في إيصالها إلى أستاذ الاقتصاد السياسي في هاريجان.

في الليلة الثانية من تعرُّفه إلى «مايك الهولندي»، اقتحمَ شرطيٌّ مع ستة من مُساعديه «غابتَهم»؛ حيث كانوا يبذلون جهودًا حثيثة في ذلك الوقت لطرد المشرَّدين من الحي … أو لحملهم على العمل في المناجم. تمكَّن صديق هال، الذي نام وإحدى عينَيه مفتوحة، من الهرب في الظلام، وتبِعه هال، مُفلِتًا من حِراسة المغِيرين بإحدى حيل كرة القدم. تركا خلفهما الطعام والبطاطين، لكن «مايك الهولندي» استخفَّ بالأمر، وسرق دجاجة من أحد الأعشاش ليقضيا ساعاتِ الليل في بهجة، ثم سرقَ ملابسَ داخلية من حبلٍ للغسيل في

اليوم التالي. أكلَ هال الدجاجة وارتدى الملابس الداخلية، وهكذا بدأ حياته المهنية في عالَم الجريمة.

عندما افترقَ عن «مايك الهولندي»، عادَ إلى بيدرو. كان المشرَّد قد أخبره أن أصحاب الحانات دائمًا ما يكون لديهم — تقريبًا — أصدقاء في معسكرات الفحم، ويمكنهم مساعدته في الحصول على وظيفة. ومن ثَم، بدأ هال بالاستفسار، وأجابَ الثاني بالموافقة على إعطائه رسالة إلى رجلٍ في نورث فالي، وإذا حصل على الوظيفة، فسيخصم الصديقُ دولارًا كلَّ شهر من راتبه. وافقَ هال، وانطلقَ في رحلة تشرُّد أخرى عبر وادٍ آخر، وتزوَّد في رحلته بشطيرة «تَسوَّلها» من بيتٍ في مزرعة عند مدخل الوادي. وعند بوابة أخرى مطوَّقة بالأسوار للشركة العامة للوقود، قدَّم رسالته الموجَّهة إلى شخصٍ يُدعَى أوكالاهان، الذي اتضح أيضًا أنه صاحب حانة.

لم يكلِّف الحارسُ نفسه حتى عناءَ فتحِ الرسالة، لكنه سمحَ لهال بالمرور عندما رآها، فبحث هال عن الرجل المنشود، وقدَّمَ طلبًا للحصول على وظيفة. قال الرجل إنه سوف يُساعده، ولكنه سيقتطع لنفسه دولارًا كلَّ شهر، ودولارًا آخر لصديقه في بيدرو. اعترض هال على هذا، وأخذا يتقايضان؛ وفي النهاية، عندما ابتعد هال وهدَّد بالتوجُّه مباشرةً إلى «المسئول الأعلى»، سوَّى صاحبُ الحانة المقايضة على دولار ونصف.

سأله: «هل تعرف شيئًا عن العمل في المناجم؟»

قال هال، وقد أصبحَ الآن على دراية بمسالك هذا العالَم ودُروبه: «لقد نشأتُ عليه.»

«أين كنت تعمل؟»

أخبره هال بأسماءِ عِدَّة مناجم سمع عنها من المشرَّدين. كان يطلق على نفسه اسم «جو سميث»، الذي رأى أنه ربما يجدونه في كشوف مرتبات أي منجم من المناجم. وكان قد أطلقَ لحيته لأكثر أسبوع، ما مكَّنه من خداع الرجل، كما تعلَّم بعضَ الألفاظ النابية كذلك.

أخذه صاحبُ الحانة لإجراء مقابلة مع السيد أليك ستون، رئيس العُمَّال في المنجم رقم ٢، والذي سأله على الفور: «هل تعرف شيئًا عن البِغال؟»

قال هال: «لقد عمِلتُ في إسطبل، وأعرف كيف أعتني بالخيول.»

قال الرجل: «حسنًا، البِغال مختلفة. لقد أُصيب أحد عُمال الإسطبل لديَّ بمغصٍ منذ أيام، ولا أعرفُ إن كان سيتعافى أم لا.»

قال هال: «أعطني فرصة. سأعتني بها.»

نظر إليه رئيس العُمَّال. وقال: «تبدو رجلًا ذكيًّا. سوف أدفعُ لك خمسة وأربعين دولارًا في الشهر، وإذا أبليت بلاءً حسنًا سأزيدها إلى خمسين.»

«حسنًا يا سيدي. متى أبدأ؟»

«يمكنك أن تبدأ على الفور. أين ملابسك؟»

قال هال مشيرًا إلى صُرَّة الملابس الداخلية المسروقة في يده:

«هذا كلُّ ما لديَّ.»

قال الرجل: «حسنًا، ارمِها هناك في الركن»، ثم توقَّف فجأة، ونظر إلى هال عابسًا. وقال: «هل تنتمي إلى أي اتحادٍ نِقَابي؟»

«لا، وربي!»

«هل سبق لك أن كنت مُنتَمِيًا إلى اتحاد نِقابي؟»

«لا يا سيدي. مطلقًا.»

كانت نظرة الرجل تُشير فيما بدا إلى أنَّ هال يكذب، وأنه يكاد يقرأ مكنونَ سِرَّه. ومن ثَم قال له: «عليك أن تُقسِم على ذلك قبل أن تتمكَّن من العمل هنا.»

قال هال: «حسنًا، موافق.»

قال الآخر: «سوف أراكَ لترتيب هذا الأمر غدًا؛ فالأوراق ليست معي الآن. بالمناسبة، ما ديانتك؟»

«أنا على مذهب الكنيسة السَّبتية.»

«بحق المسيح! ما هذا؟»

قال هال: «إنه أمرٌ ليس منه ضرر. لا يُفترَض أن أعمل يوم السبت، لكني أعمل في ذلك اليوم على أي حال.»

«حسنًا، تجنَّب الوَعظ هنا. فلدينا الواعظ الخاص بنا ... وأنت تُسهِم بخمسين سِنتًا له من راتبك شهريًّا. تقدَّم الآن، وسوف آخذك إلى مكان العمل.» وهكذا بدأ هال حياته المِهنية.

الفصل الخامس

من المعروف أنَّ البَغل مخلوقٌ نَجِس ودَنِس؛ طريقٌ مسدود في مسار الطبيعة، إن جاز التعبير، خطأ تخجل منه، ولا تسمح له بالتكاثر. نشأت البِغال الثلاثون التي يتولَّى هال مسئوليتها في بيئة مُعَدَّة خصيصى وعن قصدٍ لتعزيز أسوأ الميول الكامنة فيها بطبيعتها. وسرعان ما اكتشف أنَّ «المغص» الذي أُصِيبَ به سلفُه قد حدث نتيجة ركلة تلقَّاها في مَعِدته من إحدى القائمتَين الخلفيتَين لأحد البغال؛ وأدركَ أنه ينبغي ألا يترك عقله يشرُد لحظة إذا أراد أن يتجنَّب هذا المرض الخطير.

عاشت هذه البغال حياتها في ظُلمة باطن الأرض؛ ولم تكن تخرج منها إلا عندما تمرض، فتُنقَل إلى السطح كي ترى ضوء الشمس، وتتمرَّغ في المراعي الخضراء. كان أحدُها يُدعَى «تشارلي الإيطالي»، تعلَّم مضغَ التبغ، والتفتيش في جيوب عُمَّال المناجم و«رِفاقهم». ولأنه لا يعرف كيف يبصق عصارة التبغ، كان من شأنه أن يُمرِض نفسه، فيكف عن انغماسه في مضغ التبغ. لكن السائقين وعُمَّال المنجم كانوا يعرفون عَيبه، وكانوا يُغرونه حتى يقع في الخطأ. سرعانَ ما اكتشف هال هذه المأساة الأخلاقية، وحملَ ألمها في نفسه في أثناء شروعه في كدحه طوال اليوم.

نزلَ عبر بئر المنجم في المصعد الأول، الذي كان ينطلق في وقتٍ مبكر جدًّا في الصباح. أطعم البغال، وساعد في شَدِّ لجامها. ثم، عندما انطلق آخِر بغل مبتعِدًا، نظَّفَ الأكشاك، وأصلح الألجِمة، ولَبَّى أوامر كلِّ مَن هُم أقدم منه ممن تصادف وجودهم في الجوار.

إلى جانب البِغال، تمثَّل عذابُه في «صِبية المداخل والمخارج» المسئولين عن فتح فوَّهات التهوية وغلقها عند اللزوم، وغيرهم من الشبان الصغار الذين كان عليه التواصل معهم. كان مستجدًّا، من ثَم أزعجوه، كما كانت لديه وظيفةٌ أدنى ... إذ بدا لهم أنَّ ثمة ما يدعو إلى الإذلال والسخرية في مهمة الاعتناء بالبغال. استُقدِم هؤلاء الأشقياء من عدة دول في

جنوب أوروبا وآسيا؛ فقد كان من بينهم تتار مُسطَّحو الوجوه، ويونانيون داكنو البشرة، ويابانيون قِصار القامة من ذوي العيون الماكرة. كانوا يتحدَّثون لغة مشتركة، تتكوَّن بشكلٍ أساسي من الكلمات الإنجليزية البذيئة والفاحشة؛ إذ بدت القذارة التي أفرزتها عقولُهم أمرًا لا يُصدَّق بالنسبة إلى شخص وُلِد ونشأ في ضوء الشمس. كانوا يرمون أُمَّهاتهم وجداتهم بالفواحش والمجون، وكذلك مريم العذراء، وهي الشخصية الأسطورية الوحيدة التي سمعوا عنها. مخلوقات صغيرة مسكينة أتت من الظلام، اتسخت أرواحهم ولُطِّخَت بالسُّخَام أسرع من اتساخ وجوههم، وعلى نحوٍ لا رجعة فيه!

نصح رئيس العُمَّال هال التقدُّم بطلبٍ للإقامة في نُزُلِ «ريمينيتسكي». لَحِق بآخِر عربة تغادر المكان، وكان ذلك في وقت الشَّفَق، وتوجَّهوا به إلى مبنًى خافتِ الضوء من ألواح الحديد المضَلَّع، حيث التقَى الرجلَ الذي جاء في طلبه، وكان روسيًّا بدينًا أخبره أنه يمكنه استضافته مقابل سبعة وعشرين دولارًا شهريًّا، ويشمل ذلك تَختًا في غرفة بها ثمانية رجالٍ غيره. وبذلك، فإنه بعد خصم دولار ونصف شهريًّا لصاحِبَي الحانتَين، وخمسين سِنتًا لرجل الدين التابِع للشركة، ودولارٍ لطبيب الشركة، وخمسين سِنتًا شهريًّا للسماح باستخدام أماكن الاغتسال وغَسْل الملابس، وخمسين سِنتًا لصندوق الإعانات في حالات المرض والحوادث، تبقى لديه أربعة عشر دولارًا في الشهر للكساء، وتأسيس أسرة، وشراء الجِعَة والتبغ، والتردُّد على المكتبات والكليات التي كان يموِّلها محبُّو الأعمال الخيرية من أصحاب مناجم الفحم.

كان طعام العشاء على وشك الانتهاء في نُزُل «ريمينيتسكي» عندما وصل؛ وبدت الأرضية كأنها مشهدٌ من نُزهة لآكلي لحوم البشر، وما بقي من طعامٍ كان باردًا. هكذا كانت دائمًا الأمور معه، هذا ما اكتشفَه، وكان عليه أن يبذل قصارى جهده للاستفادة مما لديه. ذكَّرته غرفة الطعام في هذا النُّزُل، الذي كانت تملكه وتديره الشركة العامة للوقود، بسجن الولاية الذي زاره ذات يوم … حيث صفوف الرجال الذين يجلسون في صمتٍ، ويأكلون النشا والشحوم من الأطباق الصاج المطليَّة بالقصدير. كانت الأطباق هنا من الفَخَّار وبسُمك نصف بوصة، أما الطعام فقد ظلَّ هو النشا والشحوم؛ إذ بدا أن وصفة طبَّاخ «ريمينيتسكي» كانت كالتالي: عندما تشكُّ في الأمر، أَضِف الشحم واغلِه. وحتى هال — رغم نَهمِه الشديد وتشرُّده لفترة طويلة، وعمله الشاق تحت الأرض — لم يستطع ابتلاع هذا الطعام. وفي يوم الأحد، حيث المرة الوحيدة التي أكل فيها في وضح النهار، اجتاح الذباب كلَّ شيء، وتذكَّر أنه قد سمع طبيبًا يقول إن الرجل المستنير يجب أن يخاف من

الذُّبابة أكثر من خوفه من نمر بِنغالي. قدَّم له النُّزُل تختًا وكَمًّا وافرًا من الهَوامِّ، ولكن من دون بطانية، وقد كانت ضرورةً لا غِنى عنها في المناطق الجبلية. لذلك، كان عليه أن يذهب بعد العشاء إلى رئيسه، كي يُرتِّب للشراء بالدَّين من متجر الشركة. اكتشف أنهم كانوا على استعدادٍ لمنح مقدارٍ معين من الدين، بما يُمكِّن قائدَ المعسكر من ضمان استبقاء العامِل والحيلولة دون تركه العمل. صحيحٌ أنه لم يكن هناك قانون يُحتجَز الأفراد بموجبه بسبب الديون ... لكنَّ هال عرف، في ذلك الوقت، إلى أي مدًى يكترث قائدُ المعسكر بأمر القانون.

الفصل السادس

لمدة ثلاثة أيام، كان هال يعمل بكَدٍّ ومشقَّة في غَيَاهِب المنجم، ويأكل طعامَه، ويطارد القوارض والحشرات في نُزُل «ريمينيتسكي». ثم جاء يومُ أحدٍ مبارَك، وكانت لديه استراحة لمدة ساعتَين استطاع خلالهما الخروج لرؤية ضوء الشمس وإلقاء نظرةٍ على معسكر «نورث فالي». كان المكان عبارة عن قرية ممتدة على طول أكثر من ميل من الوادي الجبلي العميق. كانت تقبع في منتصفها الأبنية المخصَّصة لتكسير الفحم، وبئر المنجم، ومحطة توليد الطاقة بمداخنها العالية، وبالقُرب من ذلك كان مَتجر الشركة وحانتان. كانت هناك عدة أماكن لسكن العُمَّال مثل نُزُل «ريمينيتسكي»، وصفوف طويلة من الأكواخ السكنية يحوي كلٌّ منها ما بين غرفتَين إلى أربع غرف، وبعضُها تسكُنه عدة عائلات. وعلى مسافة قصيرة أعلى أحد المنحدَرات، كانت هناك مدرسة ومبنًى صغير آخر مكوَّن من غرفة واحدة يُستخدَم ككنيسة؛ حيث كان يقيم رجلُ الدين الممثِّل للانتماء الديني للشركة العامَّة للوقود. وكان قد مُنِحَ حقَّ الانتفاع بالمبنى؛ بدايةً لتوفير كيانٍ مسئول اجتماعيًّا في مُقابل الحانتَين، اللتَين كان يتوجَّب عليهما أن يدفعا إيجارًا كبيرًا للشركة؛ ولكن فيما يبدو أن هذا الأمر قد برهن على الانحراف الفِطري للطبيعة البشرية؛ حيث إنه، حتى مع وجود هذه الميزة، كانت السماء تخسِر في نضالها ضد الجحيم القابع في معسكر الفحم.

كان الانطباع الأول لدى هال، في أثناء تجوُّله في هذه القرية، هو الشعور بالوَحشَة. الجبال شاهقة، وقاحِلة، ومُنعزلة، وتحمل نُدوبًا متناثرة من أثرِ العصور الجيولوجية المتناوِبة عليها. في هذه الأودية العميقة تغرب الشمس في وقتٍ مبكر خلال فترة ما بعد الظهيرة، وتتساقط الثلوج مُبكرًا في فصل الخريف؛ حيث يتجلَّى بطش الطبيعة بالإنسان في كل مكان، وقد استسلمَ الإنسان لقوتها. وداخل المعسكرات، كان المرء يشعر بمزيدٍ من الوَحشَة ... حيث الوضاعة والحيوانية. كانت هناك بعض المحاولات البائسة لزراعة

حدائق للنباتات، ولكن الرماد والدخان قتل كل شيءٍ، وكان اللون السائد هو لون السُّخام. كان المنظر الطبيعي مطموسًا بأكوام الرماد، والأسلاك القديمة، وعُلَب الطماطم المعدِنية، والأطفال الذين يلعبون مُلطَّخين ومُتَّسخين.

كان هناك جزءٌ من المعسكر يُسمَّى «منطقة الصَّفيح»، وسط أكوام الركام كالجبال، حيث سُمِحَ لبعض الأجانب الوافدين حديثًا من المستويات الأدنى، بأن يبنوا لأنفسهم أكواخًا من الألواح القديمة، والقصدير، وصفائح الورق المُقَطْرَن. كانت أوضاع هذه الأكواخ متدنية للغاية؛ حتى إنها لا ترقى إلى مستوى أعشاش الدجاج؛ حيث كان يتكدَّس في بعضها اثنا عشر شخصًا، رجال ونساء ينامون على خِرَقٍ وبطانيات قديمة على أرضية من الرَّماد. احتشدَ الرُّضَّع هنا كاليَرَقات. كانوا يرتدون، في معظم الأحيان، قطعة واحدة من مَريول رَثٍّ، وكانت أردافهم العارية مكشوفة للعِنان بلا خجلٍ. لا بد أنَّ أطفال رجال الكهوف كانوا يلعبون على هذه الهيئة، هكذا فكَّر هال؛ واجتاحته دفقاتٌ من النُّفور. لقد جاء مدفوعًا بالحب والفضول، غير أنَّ كلا الدافعَين قد انهار هنا. كيف يمكن لرجل مرهَف المشاعر يدرك جماليات الحياة ونِعَمها أن يتعلَّم حُبَّ هؤلاء الناس، الذين كانوا بمثابة إهانة لكل حواسه ... زخمةً لأنفه، ورَطانةً في أُذنَيه، ورَكْبًا من العاهاتِ أمام عينَيه؟ ماذا فعلت لهم الحضارة؟ ماذا كان بإمكانها أن تفعل؟ وفي نهاية المطاف، ما الذي كانوا يصلحون له، سوى هذا العمل المتدنِّي غير الآدمي الذي لم يسعهم سوى القيام به؟ هكذا تحدَّث الضميرُ العِرقي المتغَطرِس لهذا الأنجلوسكسوني عندما راح يتفكَّر في جماعات البحر الأبيض المتوسط هذه، تلك التي حتى شكل رءوسها كان مستهجَنًا ومبغوضًا.

لكن هال رفضَ هذه الأفكار، وشيئًا فشيئًا تولَّدت لديه رؤية جديدة. بادئ ذي بدء، رأى سحرَ المناجم. لقد كانت مناجمَ قديمة ... مُدُنًا حقيقية محفورة على هيئة أنفاقٍ تحت الجبال، تمتد ممرَّاتها الرئيسية لمسافة أميالٍ. في أحد الأيام، انسلَّ هال من عمله، وذهب في رحلة مع عامِلٍ من «راكِبي الجِبال»، واستطاع أن يدرك من خلال حواسِّ جسمه مدى الاتساع والغَرابة والوحدة التي كانت عليها هذه المتاهة القاتمة. في المنجم رقم ٢، امتدَّ عِرْقُ الفحم على مُنحدَرٍ درجةُ مَيله خمسُ درجاتٍ تقريبًا؛ وفي أحد أجزائه كانت العربات الفارغة تُسحَب على هيئة صفوفٍ طويلة بحبلٍ لا نهاية له، ولكن عندما كانت تعود مُحمَّلةً، كانت تأتي مدفوعة بفِعل جاذبيتها. وكان هذا الأمر يتطلَّب بدوره الكثير من الجهد من جانب «اللجَّامين»، أو الصِّبية المسئولين عن كَبح العربات؛ إذ كان يحدث أحيانًا أن تُفلِت العربات، ومن ثَم يُضاف مزيدٌ من المخاطر عِلاوةً على مخاطر استخراج الفحم اليومية.

يتراوح سُمك عِرْقِ الفحم من أربعة إلى خمسة أقدام؛ حيث أجبرت قسوة الطبيعة العُمالَ عند «سطح التشغيل» — المكان الذي يُقطَّع فيه الفحم الجديد — على خفض رءوسهم. وبعد أن جلسَ هال القرفُصاء فترة من الوقت، وشاهدهم وهم يؤدون مهامهم، أدرك السبب الذي كان يجعلهم يسيرون مُنحني الرءوس والأكتاف ومُتدلِّي الأذرع، إلى درجة أنهم بدَوا له عند رؤيتهم وهم يخرجون من بئر المنجم في الغَسق كأنهم صَفٌّ من قُرود البابون. كانت طريقة استخراج الفحم هي «الجَث والتقطيع» باستخدام المِعْوَل، ثم زحزحته بتفجير شحنة من البارود. وكان هذا يعني أن عامِل المنجم يتعيَّن عليه أن يستلقي على جانبه في أثناء العمل، ومن هنا جاءت بقية التغيُّرات غير المألوفة التي تعتري جسدَه.

وهكذا، كما هو الحال دائمًا، عندما يدرك المرءُ حياةَ هؤلاء العُمال، فإنه يشعر تجاههم بالشفقة وليس الازدراء. يوجد هنا نوعٌ مختلف من المخلوقات، كائناتٌ جَوْفية، تماثيل، حبسَها المجتمع لأغراضٍ خاصة به. وبالخارج على طول الوادي الذي تغمُره أشعة الشمس، تنحدر صفوفٌ طويلة من العربات بحمولتها من الفحم اللَّيِّن، ذلك الفحم الذي كان يُنقَل بعد ذلك إلى أقاصي الأرض، إلى أماكن لم يسمع بها عاملُ المنجم، لتدوير عجلات الصناعة التي لن يرَى عاملُ المنجم منتجاتها أبدًا. كان يُستخدَم في نَسْجِ الحرير الباهظ الثمن للسيدات الجميلات، وفي صَقْلِ الحُلِيِّ الثمينة لزينتهن، وفي تسيير قطاراتٍ طويلة من العربات ذات التنجيد الوثير عبر الصحاري وفوق الجبال، وفي دَفْعِ البواخر الفارهة للخروج من العواصف الشتوية في البحار الاستوائية التي تتلألأ مياهُها تحت أشعة الشمس. وكان من شأن السيدات الجميلات أن ينعَمن في ملابسهن الحريرية وحُليهنَّ الثمينة، فيأكُلن ويَنَمْنَ ويضحكن ويستلقين هانِئاتِ البال مُطمئنَّاتِ النفس ... وما كُنَّ ليعرفن شيئًا عن مخلوقات الظلام المتَقَزِّمة أكثر مما عرفته المخلوقات المتقزِّمة عنهن. فكَّرَ هال في هذا، وروَّض كبرياءه الأنجلوسكسوني، مُلتمِسًا العُذر لبشاعة ما عليه هؤلاء الناس ... بدءًا من كلامهم الهمجي الثرثار، ومنازلهم المليئة بالهَوامِّ، وحتى أطفالهم ذوي المؤخرات العارية.

الفصل السابع

تصادف أنه قبل عدة أيام حصل هال على إجازة، مما خفَّفَ من وطأة مهامِّه الرتيبة كعامل إسطَبل، لقد كانت إجازة عارضة، لم تنُص عليها صفقته مع رئيس العُمَّال بالمنجم. حدث خطأ في مسار التهوية في المنجم رقم ٢، وبدأ يشعر بالصداع، وسمع العُمالَ يتذمَّرون من انخفاض ضوء مصابيحهم. ثم، عندما بدأت الأمور تزداد خطورة، صدرت الأوامر بإخراج البِغال إلى السطح.

كان الأمر بمثابة مغامرة مُسلِّية. كانت فرحة حيوانات هال الأليفة عند رؤيتها لضوء الشمس مَشهدًا هَزليًّا تصعب مقاومته. لم يكن بالإمكان منعها من الاستلقاء والتمرُّغ على ظهورها في الشارع المليء بالرماد، وعندما تجمعتْ في جانبٍ قَصِي من المعسكر، حيث ينمو عشب حقيقي، أطلقت للجَذَل العَنان، كأنها مجموعة من التلاميذ الصغار يمرحون في نزهة.

هكذا حظِيَ هال ببضع ساعاتٍ من الراحة؛ ولأنه كان لا يزال شابًّا يافعًا ولم يبرأ بعدُ من نُزوعه الفطري إلى الفضول وحب الاستطلاع، الذي جعله لا يُؤثِر الراحة؛ فقد راح يتسلَّق جدار الوادي لرؤية الجبال. وفي أثناء نزوله، مع اقتراب المساء، لاحت أمامه نقطة مُضيئة في صورته الذهنية لحياة المناجم؛ فقد وجد نفسه في الفناء الخلفي لأحد الأشخاص، ولاحظته ابنةُ أحدهم؛ حيث كانت تجمع ملابس أسرتها بعد غسْلِها ونَشْرها. لقد كانت فتاة بديعة الهيئة، فارعة الطول ومفعمة بالحيوية، وشعرها من ذلك النوع الذي يطلقون عليه في البيئات المهَذَّبة شعرًا كستنائيًّا، ووجنتاها ذواتا حُمرة متوهِّجة تمنحها الطبيعة تعويضًا للأشخاص الذين يعيشون في بيئة مطيرة. لقد كانت أول مشهدٍ جميل رأته عينا هال منذ صعوده الوادي، وكان من الطبيعي أن تُثير اهتمامه. بدا له أنه ما دامت الفتاة

تُحدِّق فيه، فإنه يَحِقُّ له أن يُبادلها التحديق. لم يخطُر بباله أنها أيضًا كانت ترى فيه منظرًا مُبهِجًا لها ... وأنَّ هواءَ الجبل كان قد خضَّبَ وَجنتَيه، وأضفى بريقًا على عينَيه البُنِّيتَين المرِحتَين، بينما عصفت رياحُ الجبل بشعره البُني المتموِّج.

قالت أخيرًا بصوت دافئ، بلهجة أيرلندية واضحة: «مَرحبًا.»

قال هال باللهجة السائدة: «مرحبًا بكِ»، ثم أضافَ بمزيدٍ من الأناقة: «اعذريني إن اقتحمتُ عليكِ مكانكِ.»

ازداد اتساع عينَيها الرَّماديتَين. وقالت: «لا بأسَ، فَلتَمضِ في طريقك!»

قال هال: «ولكني أُفضِّلُ البقاء. إنه مشهدُ غروبٍ جميل.»

«سأغادر كي تتمكَّن من رؤيته على نحوٍ أفضل.» حملتِ الملابس التي ملأت ذراعَيها ووضعتْها في السَّلَّة.

قال هال: «لا. لم يعُد المشهد بهذا الجمال الآن. فألوان السماء تتلاشى.»

التفتَتْ وحدَّقتْ فيه مرة أخرى. وقالت: «ارحل إذا سمحت! لقد نشأتُ على تنمُّر الناس عليَّ بسبب شعري، حتى قبل أن أتمكَّن من الكلام.»

قال هال مُجاريًا إياها: «إنه بدافع الحسَد»، واقترب منها بضع خطواتٍ، حتى يتمكَّن من تفحُّص شعرها مِن كَثَب. كان شعرُها مُنسدِلًا فوق جبينها في خصلاتٍ متموِّجة تتوافق مع حُبِّ الزينة الغريزي لدى الفتيات، وانسدلَت جديلة ثقيلة ومُحكَمة منه على كتفَيها، وتدلَّتْ إلى محيط خصرها. ثم لاحظ كتِفَيها، القويتَين؛ حيث كان من الواضح أنهما قد اعتادتا على العمل الشاق؛ فلا تتوافقان مع معايير الأنوثة الرومانسية المتعارَف عليها، وإنما كان لهما جمالهما الرياضي الخاص. وكانت قد غطَّتهما بثوبٍ قُطني ذي لون أزرق باهت، ولم يكن، للأسف، نظيفًا تمامًا؛ كما لاحظ الشابُّ وجودَ خَرق في كتِف واحدة ظهر منه جزءٌ من جِلدها. بدا التحدي واضحًا في عينَي الفتاة، اللتين كانتا تتَّبعان عينَيه؛ فوضعت قطعة من غسيلها على إحدى كتفَيها، حيث بقيتْ هكذا طوال اللقاء.

ثم سألته فجأة: «مَن أنت؟»

«اسمي جو سميث. أنا عامل إسطبل في المنجم رقم ٢.»

«وماذا كنت تفعل هناك، إذا جاز لي أن أسأل؟» رفعت عينَيها الرماديتَين إلى جانب الجبل العاري، الذي تسلَّقه نزولًا وهو ينزلق في وابل من الحصى الطليق والتراب.

قال: «كنت أتفقَّد إمبراطوريَّتي.»

«تتفقَّد ماذا؟»

«إمبراطوريتي. الأرض ملك للشركة، لكن المنظر الطبيعي ملك لَمَن يهتم به.»

أرجعت رأسها إلى الوراء قليلًا. وقالت: «أين تعلَّمت التحدُّث هكذا؟»

قال: «في حياة أخرى ... قبل أن أُصبح عامل إسطبل. لم آتِ فارغَ الذهن والكيان، بل جئتُ وأنا أحمل معي مُكتَسباتٍ لغوية وأخلاقية بحُكم تَنشِئتي.»

حاوَلَت بصعوبة أن تفهم ما قال. ثم ارتسمت ابتسامة على وجهها. وقالت: «بالتأكيد، إنه مثل كتاب من الشعر! قُل المزيد!»

قال هال مُقتبِسًا بالألمانية: «أوه، استمرِّي في الغناء، أيتها الجميلة الرائعة!» ... ورأى نظرة الدهشة على وجهها.

سألت: «ألستَ أمريكيًّا؟» وضحك هو. لم يكن التحدُّث بلغة أجنبية في نورث فالي علامة على الثقافة!

قال مُبرِّرًا: «لقد كنت أستمع إلى الحشد في نُزُلِ ريمينيتسكي.»

«أوه! هل تأكل هناك؟»

«أذهبُ إلى هناك ثلاثَ مراتٍ في اليوم. لا يمكنني القول إنني آكُل كثيرًا. أيمكنكِ العيشَ على الفاصولياء المُزيَّتة؟»

ضحكت الفتاة قائلة: «بالطبع، ولكن هنيئًا لي البطاطس؛ فهي وجبة جيدة بما يكفي.»

قال: «ظننتُكِ تعيشين على بتلات الورود!»

«كفاكَ إذا سمحت! لا بد أنك قد قبَّلتَ حجر بلارني الأيرلندي، فمنحكَ القدرة على الحديث المعبِّر المقنِع!»

«ولكني لا أُضيع قُبلاتي على الحجارة.»

«لقد أصبحتَ جريئًا يا سيد سميث. لن أستمعَ إليك.» واستدارت بعيدًا، وشرعت بكَدٍّ في جمع ملابسها من على الحبل. لكنَّ هال لم تَرُقْ له فكرةُ أن يُطرَد. ومن ثَم، اقتربَ منها خطوة.

وقال: «عندما نزلتُ من جانب الجبل، وجدتُ شيئًا بديعًا. الأرض قاحلة وكئيبة هناك، لكنني وجدتُ ركنًا ظليلًا، نَمَتْ فيه وردة بريَّة. وردة واحدة فقط! فقلتُ في نفسي: «إذن فالورود تنمو، حتى في أكثر المناطق وَحشةً في العالَم!»

صاحت: «بالطبع، ها هو كتاب شعر مرة أخرى! لماذا لم تُحضِر الوردة؟»

«هناك كتابُ شعرٍ يقول لنا «اتركوا الوردة البرية في ساقها.» عندئذٍ فقط ستواصل الإزهار والتفتُّح؛ أما إذا اقتطفها أحدُهم، فستذبل في غضون ساعاتٍ قليلة.»

لم يكن يقصد بهذا أكثر من مواصلة حديثهما معًا. ولكن إجابتها قلبتْ مجرى تعارفهما.

«لا يمكنكَ الجزم أبدًا أيها الشاب. ربما تهبُّ عاصفةٌ الليلة وتنثُرها إربًا. ربما لو كنت قد اقتطفتَها وأدركتَ السعادة، لآتى الأمرُ ثماره المرجوة وأزهرت الوردة.»

أيًّا كان ما يحاول الشاعر أن يُبديه من إعجابٍ غير صريح في موقفه تجاه الفتاة، فقد تداعتِ الآن حبكتُه في هذا الغموض الماكر الذي لا نهايةَ له. لقد حقَّقت الفتاة أول انتصار للمرأة، سواء أكانت على درايةٍ بهذا الانتصار أو مهتمَّة بتحقيقه من الأساس أم لا. لقد أسَرت عقلَ الرجل، وأثارت فضوله. تُرى، ما الذي كانت تعنيه هذه الوردة البرية، ابنة معسكرات الفحم؟

كانت الوردة البريَّة مشغولة بالغسيل، ويبدو أنها لم تكُن واعية بأنها قالت أيَّ شيء غيَّر مجرى حديثهما، وفي تلك الأثناء تفحَّص هال وارنر ملامحَها، وتأمَّل كلماتها. لو أن هذه الكلمات صدرت من سيدة راقية، لما كان لها إلا معنًى واحد، وهو أنها كلمات من قبيل التودُّد والاستمالة، أما وإنه لم يكن في عينَي هذه الفتاة الرماديتَين الصافيتَين شيء من رعونة، فلا معنى لهذه الكلمات إلا الألَم. ولكن لماذا هذا الألم البادي في وجهِ وكلماتِ شابَّة مثلها شديدة الصغر، مُتَّقدة الحماس، ومفعَمة بالحيوية؟ هل كان الشجنُ والابتئاسُ المتعلق بعِرقها، ذلك الذي نجده في الأغاني الشعبية القديمة؟ أم كان نوعًا جديدًا ومميَّزًا من الكآبة والسَّوداوية، يتولَّد في معسكرات التَّعدين في أقصى غرب أمريكا؟

كانت ملامح الفتاة آسِرة مثل كلماتِها. كانت عيناها الرماديتان مرسومتَين أسفل حاجِبَين داكنَين ومُحدَّدَين، لا يتناسبان وشعرها. وكانت شفتاها مُحدَّدتَين بوضوحٍ، ورفيعتَين، بلا انحناءاتٍ تقريبًا، حتى بدا كما لو أنَّ فمها قد رُسِمَ في وجهها بقلمٍ قِرمزي اللون. كانت ملامحُها، حين تنظر إليكَ، تُضفي عليها مظهرًا حيويًّا، ومُدهشًا، وجريئًا، مع لمسة من التحدي. ولكن عندما تبتسم إليك، كانت شفتاها الحمراوان تنحنيان فتصبحان أرقَّ، وكانت عيناها الرماديتان يملؤهما الحزن، ويزداد لونُهما دكانةً. كانت هذه الفتاة الأيرلندية فاتِنةً بحقٍّ، ولكنها لم تكن ساذجة!

الفصل الثامن

سألَ هال عن اسم الفتاة التي التقى بها للتوِّ، فأخبرته أنَّ اسمها ماري بيرك. قالت: «أعرف أنه لم يمُرَّ على وجودك هنا مدة طويلة، وإلا لكنتَ سمعت عن «ماري الصَّهباء». وهو اسم أطلقوه عليَّ بسبب شعري.»

أجابَ: «لم يمضِ على وجودي هنا مدةٌ طويلة، ولكنني آمُلُ أن أبقى الآن ... لأجْل هذا الشَّعر! هل يمكنني القدوم لرؤيتكِ في وقتٍ آخر يا آنسة بيرك؟»

لم تُجِب، بل ألقت نظرة خاطفة على المنزل الذي تعيش فيه. كان كوخًا غير مَطلي، مكوَّنًا من ثلاث غُرف، وبدا أكثر تهالُكًا من معظم الأكواخ الأخرى، ولم يكن مُحاطًا بأي شيء سوى الأوساخ والسُّخام، وما كان يومًا سياجًا خشبيًّا أصبح الآن مُتهدِّمًا، وباتَ يُستخدَم كحطبٍ لإشعال الفرن. كانت النوافذ مُتصدِّعة ومكسورة، وعلى السطح كانت هناك علامات تسرُّب رُقِّعَتْ ترقيعًا غير مُنَمَّق.

ثم بادر بسؤالها مجدَّدًا ... كي لا يبدو أنه ينظر إلى منزلها بانتقادٍ شديدٍ: «هل يُمكنني القدوم؟»

قالت الفتاة، وهي تلتقط سلَّة الغسيل: «ربما يُمكنك ذلك.» تقدَّم إلى الأمام، وعرض أن يحمل السلَّة، لكنها لم تتركها له. قالت له وهي تمسك بها بقوة، وتنظر في عينَيه بتحدٍّ:

«يمكنكَ أن تأتي، لكنك لن تجدَه مكانًا مبهجًا يستحق الزيارة، يا سيد سميث. سيخبرك الجيران بذلك عمَّا قريب.»

قال: «لا أعتقد أنني أعرف أحدًا من جيرانكِ.»

كان ثمة تعاطفٌ في صوته، لكن التحدي في نظرتها لم يهدأ. حيث قالت: «سوف تسمع بالأمر يا سيد سميث، ولكنك ستسمع أيضًا أنني أعيشُ بعِزَّة ورأسي مرفوع. وهذا ليس سهلًا في نورث فالي.»

سألها: «ألا يُعجبكِ المكان؟» وكان مندهشًا من وَقْعِ هذا السؤال، الذي كان شديد التهذيب. بدا كما لو أنَّ سحابة عاصفة قد اجتاحت وجه الفتاة. «أنا أكرهه! إنه مكانٌ للخَوف والأشرار!»

تردَّد لحظة، ثم قال: «هلا أخبرتِني ماذا تقصدين بذلك عندما آتي مرة أخرى؟»

لكن «ماري الصهباء» عادت ساحرة وجذابة مرة أخرى. وقالت: «عندما تأتي يا سيد سميث، لن أستضيفَك بالمشكلات. سأُعاملك معاملة الأصدقاء، وسنخرج في نزهة لطيفة، إذا أردت.»

فكَّر هال في هذه الفتاة طوال الطريق بينما كان عائدًا إلى نُزُل «ريمينيتسكي» لتناول العشاء، ليس فقط في جمالها الذي يسُرُّ الناظرين، الذي لم يكن متوقَّعًا وسط هذا الخراب، ولكن أيضًا في شخصيتها التي حيَّرته ... ذلك الألم الذي بدا دائمًا أنه يعتمِل تحت سطح أفكارها، والكبرياء الشديدة التي تُبديها مع أقل تعبير عن التعاطُف، وكيف كانت تتألَّق عندما كان يتحدَّث بلغة الاستعارة مهما كانت مُبتذَلة. كيف عرفت بكُتب الشعر؟ كان يريد أن يعرف المزيد عن هذه المعجزة من معجزات الطبيعة ... هذه الوردة البرية التي تُزهِرُ على جانب الجبل القاحِل!

الفصل التاسع

سرعان ما خطَرت على بال هال إحدى ملاحظات ماري بيرك حين قالت إنَّ نورث فالي مكانٌ للخوف. استمعَ إلى حكايات هؤلاء العُمال الذين يعملون تحت الأرض، حتى وصلَ الأمر إلى حَدِّ ارتجافه من الرهبة في كل مرة كان ينزل فيها في المصعد.

كان هناك في الجزء الذي يعمل فيه هال من المنجم رجلٌ كوري سِلكيُّ الشعر وعيناه بلون اللَّوز، يُدعى تشو، وهو من «راكبي الحِبال». كان أحدَ العُمَّال المسئولين عن قطارات طويلة من العربات، تُسمى «الرحلات»، والتي تُسحَب عبر الممرات الرئيسية، وقد أُطلق عليهم «راكبي الحِبال» لأنَّ الواحد منهم كان يجلس على الحلقة الحديدية الثقيلة التي يُربَط بها الحَبل. دعا هال إلى الجلوس معه، وقَبِل هال دعوته، مُعرِّضًا عمله للخطر وكذلك أطراف جسده. كانت معرفة تشو باللغة الإنجليزية بسيطة للغاية، ولم يكن بإمكان المرء أن يفهم منه سوى كلمة بين الحين والآخر. أشار إلى الأرض، وصاحَ فطغى صوتُه على قعقعة العربات: «انظر إلى الغبار الكثيف!» لاحظ هال أن الأرض كانت مغطاة بستِّ بوصاتٍ من غبار الفحم، وحتى الجدران القديمة المهجورة كان بإمكان المرء أن يكتب عليها اسمه من كثرة الغبار. قال راكب الحبل: «من الممكن جدًّا أن يحدث انفجار!» وعندما دُفِعَت آخِر العربات الفارغة إلى غرف العمل، وكان في انتظار القيام «برحلة» عودة، حاولَ جاهدًا أن يشرح ما يعنيه عن طريق الإيماءات. «عربات مُحمَّلة. انفجار مدوٍّ! انفجار كالجحيم!»

عرفَ هال أنَّ الهواء الجبلي في هذه المنطقة كان مشهورًا بالجفاف، ولقد عرف الآن أن جفاف الهواء، الذي يعني الحياة للمَرضى وغير الأصحاء من جميع أنحاء العالم، كان يعني الموتَ لأولئك الذين كانوا يكدحون من أجل توفير الدفء لهؤلاء المرضى في أماكنهم. ذلك أن هذا الهواء في أثناء دفعِه عبر المناجم بواسطة مراوح كبيرة كان يتنزع معه كلَّ ذرَّة

من رطوبة، ويترك غبار الفحم شديدَ الكثافة والجفاف إلى درجة وقوع انفجاراتٍ قاتلة من مجرد احتكاكٍ بسيطٍ من مجارف التحميل. وقد حدثَ أن قتلت هذه المناجم أعدادًا كبيرة من العُمال بما يفوق عدد مَن قُتِلوا في أي مناجم أخرى في جميع أنحاء البلاد.

سأل هال، وهو يتحدَّث مع أحد سائِسي البِغال التابعين له، وهو تيم رافيرتي، في المساء الذي تلا رحلته مع تشو، عما إذا كانت هناك وسيلة لإصلاح الأمر. قال تيم إنه كان ثمة وسيلة لذلك؛ فقد اشترط القانون ضرورة رشِّ المناجم بـ «غبار الطوب اللَّبِن»، ولم يرَ تيم هذا القانون يُطبَّق سوى مرة واحدة في حياته حسبما يتذكَّر. لقد جاءت بعض «الشخصيات الكبيرة» لتفقُّد الأمور، وقبل زيارتهم كانت هناك حملة رشٍّ واسعة النطاق. لكن ذلك كان قبل عدة سنوات، والآن خُزِّن جهاز الرَّش، ولا يَعرف أحدٌ مكانه، ولا يسمع أحدٌ شيئًا عن الرَّش.

حدث الشيء نفسه مع الإجراءات الوقائية المتعلقة بالغاز. بدا أن مناجم نورث فالي كانت «مملوءة بالغاز» للغاية. في هذه الممرات القديمة المُلتَوِية، كان في إمكان المرء أن يشُمَّ رائحة كريهة كما لو كانت رائحة كل البيض الفاسد الموجود في جميع الحظائر على مستوى العالم، وكان هذا يُعزى إلى غاز كبريتيد الهيدروجين، وهو الأقل خطورة بين الغازات التي كان على عامِل المنجم أن يتعامَل معها. فقد كان هناك أيضًا الغازُ «الخانق»، وهو غازٌ عديم الرائحة وأثقل من الهواء. ومن خلال الضرب في الفحم اللِّين المُشحَّم، قد يفتح المرءُ جيبًا من هذا الغاز، حيث تكمن رواسب ترجع إلى عصور سحيقة في انتظار ضحيتها المقدَّرة لها. قد يستغرق رجل في النوم وهو مستلقٍ في مكان العمل، وإذا تصادفَ أن كان «زميله» أو مساعده بعيدًا عن الأنظار، وتأخَّر دقيقة واحدة، فسينتهي أمر الرجل. وكان هناك أيضًا «الغاز المشتعِل» الأكثر رعبًا، الذي كان من شأنه أن يدمِّر منجمًا بأكمله، ويقتُل العشرات، بل وحتى المئات، من العُمال.

في مواجهة هذه الأخطار، كان هناك «مسئول الحرائق»، الذي كان من واجبه المرور في المنجم وتفقُّده، واختبار وجود الغاز، والتأكُّد من سلامة مسارات التهوية وسلامة المراوح. كان من المفترض أن يقوم «مسئول الحرائق» بجولاته في الصباح الباكر، ونصَّ القانون على أنه يتعيَّن ألا يدخل أحدٌ المنجمَ حتى يُقرَّ مسئول الحرائق بأنَّ كل شيء آمن. ولكن ماذا لو غلبَ «مسئول الحرائق» النُّعاس، أو كان سكرانًا؟ لم يكُن لأحدٍ أن يحتمل خسارة آلاف الدولارات لهذا السبب. ومن ثَم، رأينا في بعض الأحيان رجالًا يُؤمَرون بمباشرة عملهم، وينزلون بالفعل إلى المناجم وهم يتذمَّرون ويسِبُّون. وما هي إلا عدة ساعاتٍ حتى ترى

بعضَهم مُطَّرَحين أرضًا من شدة الصداع، ويتوسَّلون لإخراجهم، وربما لا يسمح لهم المشرفُ بالخروج؛ لأنه إنْ سمحَ بخروج القليل منهم فسيُهرع البقيةُ ويطلبون الخروجَ أيضًا.

حدث ذات مرة، في العام الماضي، أن وقع حادثٌ من هذا النوع. أخبر هال بالحادث سائسُ بِغال شاب، وقد كان كُرواتيًّا، وذلك حينما كانا يجلسان ويتناولان عشاءَهما. نزلت أولُ دفعة من العُمال في المنجم محمولين في مصعدٍ، وهم محتجُّون في تجهُّم، وكان أحدُهم قد أنزلَ معه شعلةً مكشوفة، ومن ثَم وقعَ بعدها بوقتٍ قصير انفجارٌ هائل، بدا كأنه انفجارٌ من جَوْفِ العالَم. لقيَ ثمانية عُمال حتفَهم، وكانت قوةُ الانفجار كبيرة إلى درجة أن بعض الجثَث كانت محشُورة بين جدران بئر المنجم والمِصعَد، واستوجَبَ الأمرُ تقطيع الجثث إربًا لإخراجها. كان اليابانيون هم الملُومِين في الأمر، أقسمَ مَن أخبر هال بالحادث على ذلك. لم يكن ينبغي إطلاق العِنان لهم في مناجم الفحم؛ لأنه حتى الشيطان نفسه لم يكن ليتمكَّن من أن يحُول دون تسلُّل رجل ياباني من حين إلى آخر لتدخين سيجارة.

هكذا فهمَ هال كيف كان نورث فالي مكانًا للخوف. تُرى ما الحكايات التي من الممكن أن ترويها الغرفُ القديمة في هذه المناجم، لو كانت لها أصوات؟ شاهد هال جموع العُمَّال يتدفَّقون إلى أعمالهم، واعتقد أنه وَفقًا لإحصائيات الحكومة فقد قُدِّر لثمانية أو تسعة من كل ألف أن يموتوا مِيتةً عنيفة قبل مرور عام واحد، وأنه سيتعرَّض نحو ثلاثين آخرين لإصاباتٍ بالغة. وقد كانوا يعرفون ذلك، كانوا يعرفونه أفضل من كل إحصائيات الحكومة، ولكنهم كانوا يذهبون لمباشرة مهامهم على الرغم من ذلك! عندما جلسَ هال يتفكَّر في ذلك، أصبح ذهنُه مليئًا بالتساؤلات. ما القوة التي أرغمت العُمال على البقاء في هذا العمل؟ هل كان إحساسًا بالواجب؟ هل كانوا يُدركون أن المجتمع يحتاج إلى الفَحم، وأنه على أحدهم أن يؤدي «العمل البغيض» المتمثِّل في توفيره؟ هل كانت لديهم رؤية لمستقبلٍ عظيمٍ ورائع، كان سينبثق من كَدِّهم الذي لا يحصلون عنه على تعويضًا كافيًا؟ أم أنهم مجرد حمقى أو جبناء، يخضعون خضوعًا أعمى؛ لأنهم لم يكن لديهم الذكاء ولا الإرادة لفعل شيءٍ آخر؟ تملَّكه الفضولُ، كان يريد أن يفهم النفوس الداخلية لهذه الجيوش الصامتة والصابرة التي سلَّمت حياتَها على مَرِّ العصور لسيطرة رجال آخرين.

الفصل العاشر

تعرَّف هال بمرور الوقت على هؤلاء الأشخاص؛ ولم يعُد يراهم مجرد شِرذمةٍ تثير الاحتقار أو الشفقة مجتمعةً، بل أفرادًا مُنفَردين، لكل منهم مِزاجُه ومشكلاته الشخصية، تمامًا مثلما هو الحال لدى جميع البشر في أنحاء العالم المتَنَعِّم في ضوء الشمس. ماري بيرك وتيم رافيرتي والكوري تشو والكرواتي مادفيك ... وقد حفر كلٌّ من هؤلاء الأفراد، واحدًا تلو الآخر، شخصيته في صدارة الصورة الذهنية لدى هال، فأصبحت صورة حيَّة في ذهنه تدفعه إلى التعاطُف والمودَّة. من المؤكد أن بعض هؤلاء الأشخاص كانوا يُعانون إحساسًا بالدونية والتبلُّد أوصلهم إلى درجة القُبح الدنيء للروح والجسد ... ولكن من ناحية أخرى، كان بعضُهم صغارًا في السن، ويحملون بصيصَ الأمل في قلوبهم، وشرارةَ التمرُّد.

كان هناك «آندي»، وهو صبيٌّ من أصل يُوناني؛ فقد كان أندروكولوس هو اسمه الحقيقي ... ولكن كان من المستبعَد أن يفهمه أحدٌ في معسكرٍ للفحم. شاهده هال في المتجر، وأذهله جمالُ ملامحه والنظرةُ الحزينة في عينَيه السوداوين الكبيرتَين. أخذا يتحدَّثان، واكتشفَ آندي أن هال لم يقضِ كُلَّ وقته في معسكرات الفحم، ولكنه رأى العالَم الكبير. كانت الإثارة في صوته مثيرة للشفقة؛ لقد كان يشتاق إلى الحياة، بمَبَاهجها ومغامراتها ... وكان قَدَره أن يجلس عشر ساعاتٍ في اليوم بجانب بئر المنجَم، يسمع قعقعة الفحم مُدَوِّية في أذنيه، ويستشعر غبار الفحم في أنفه، ويلتقط بأصابعه صفائح الحجر الصخري (الأردواز). كان واحدًا من العديد من عشرات «صبية تكسير الفحم».

سأله هال: «لماذا لا ترحل عن هنا؟»

«يا إلهي! كيف أرحل؟ إن لي أُمًّا وشقيقتَين.»

«وماذا عن أبيك؟» ثم اكتشف هال أن والِد آندي كان بين تلك الجثث التي تحتَّم تقطيعها إلى أشلاء لإخراجها عبر بئر المنجم. أصبح الابن الآن مُقيَّدًا في مكان أبيه حتى يأتيه قدره هو الآخر!

صاحَ الصبي: «لا أريد أن أكون عامل مناجم! لا أريد أن أُقتَل!»

ثم راحَ يسأل هال، على استحياءٍ، عما يعتقد أن في إمكانه فِعله إذا هرب بعيدًا عن عائلته، وجرَّب حظَّه في العالَم الخارجي. لم يستطِع هال، الذي حاول جاهدًا أن يتذكَّر أين رأى يونانيين من ذوي البشرة الزيتونية اللون والعيون السوداء الكبيرة في أرض الحرية الجميلة هذه؛ أن يتوقَّع شيئًا أفضل من جلوسه في إحدى الردهات ماسحًا للأحذية أو مُنظِّفًا للأحواض في مرحاضِ أحد الفنادق، مُسلِّمًا البقشيش إلى رئيسه البدين.

كان آندي قد ذهب إلى المدرسة، وتعلَّم قراءة اللغة الإنجليزية، وقد أعاره مُعلِّمه كتبًا ومجلات تحتوي على صور رائعة، لكنه الآن يريد أكثر من مجرد صور، يريد الأشياء التي تُصوِّرها. هكذا وجد هال نفسه أمام إحدى المشكلات التي يتسبَّب فيها أصحابُ المناجم. لقد جمعوا عددًا كبيرًا من العبيد متواضعي الحال والمختارين من عشرين أو ثلاثين عِرقًا من عبيدٍ بالوراثة، ولكن نظرًا إلى العادة الأمريكية السخيفة المتمثِّلة في إقامة مدارس عامَّة، تعلَّم أبناء هؤلاء الناس التحدُّث باللغة الإنجليزية، بل وقراءتها. ومن ثَم فطنوا إلى حقيقة الحياة، ما جعلهم عاجزين عن تقبُّل قدرهم فيها، ثم يتسلَّل أحدُ المغرضين ويتجوَّل داخل المعسكر، وفجأة تنفتح أبوابُ الجحيم. ومن هنا، كان لا بد من وجود شكلٍ آخر من «مسئولي الحرائق» في كل معسكر للفحم، مهمتُه حراسة المعسكر من نوعٍ آخر من الانفجارات ... ليس من انفجارات أول أكسيد الكربون، بل من انفجارات الروح البشرية وانفلات زمام الأمور.

انتقلت المهام المباشرة لهذه الوظيفة في نورث فالي إلى جيف كوتون، قائد المعسكر. لم يكن على الإطلاق بالهيئة التي يتوقَّعها المرءُ من شخصٍ في وظيفته ... رجلٌ نحيف، بل وذو مظهر مميَّز، رجلٌ ربما يحسبه المرءُ إذا رآه في ملابس السهرة دبلوماسيًّا. لكن فمه يصبح قبيحًا عندما يكون مُستاءً، وكان يحمل مسدسًا بستِّ طلقات، كما كان يرتدي شارة نائب رئيس شرطة؛ لتمنحه حصانة تُخوِّل له إطلاق المزيد من الطلقات. عندما يتصادف وجود جيف كوتون في مكان ما، فإن أي شخص — حتى وإن كان سريع الغضب والانفعال بطبعه — كان يتجنَّب إظهار غضبه، ويكبح جِماح نفسه أمامه. وهكذا كان هناك «نظامٌ» من الضبط والربط في نورث فالي، يُطبَّق فقط يومَ السبت وفي ليالي الأحد؛ حيث يتوجَّب

قمعُ السُّكارَى، أو في صباح يوم الإثنين؛ حيث يستدعي الأمرُ جرَّهم وركلَهم لمعاودة العمل في المناجم، وهو ما يجعل المرءُ يُدرك الأساسَ الذي كان يرتكز عليه هذا «النظام».

إلى جانب جيف كوتون، ومساعِده «بُود» آدامز، اللذَين كانا يرتديان الشارات، وكانا معروفَين، كان هناك مساعدون آخرون لا يرتدون أيَّ شارات، وكان من المفترض ألا يكونوا معروفين. ذات مساءٍ، عندما كان هال خارجًا من المنجم في القفص، ذكرَ شيئًا لسائِس البِغال الكُرواتي، مادفيك، حول ارتفاع سعر بضائع متجر الشركة، وفوجئ بركلة حادة تهوي على كاحله. بعد ذلك، عندما كانا في طريقهما لتناول العشاء، أخبره مادفيك بالسبب. «إنه ذلك الوغد ذو الوجه الأحمر، جاس. احترس منه ... إنه جاسوس للشركة.»

قال هال باهتمامٍ: «أهذا صحيح؟ كيف عرفت؟»

«إنني أعرف. الكلُّ يعرف.»

قال هال ... الذي تشكَّلت أفكاره حول المحقِّقين من شخصية شيرلوك هولمز: «لا يبدو أنه يتمتع بالقدر الكافي من الذكاء.»

«إنها مسألةٌ لا تتطلَّب كثيرًا من الذَّكاء. اذهب إلى رئيس العُمَّال وقُل له: «إن الوغد جو يتحدَّث كثيرًا. ويقول إنَّ المتجر قد سَرَقَه.» يمكن لأي أحمق سخيف أن يفعل ذلك. أليس كذلك؟»

أقرَّ هال قائلًا: «بالطبع، وهل تدفع الشركة له مقابل ذلك؟»

«يدفع له رئيس العُمَّال. ربما يُعطيه شرابًا، أو ربما عملتَين معدنيتَين. ثم يأتيك رئيس العُمَّال، قائلًا: «لقد تجاوزت في كلامك المدى أيها الوَغد. اخرج من هنا بحق الجحيم!» هل تدرك حجم الأمور؟»

أدركَ هال الأمر.

«وهكذا ستنزل من الوادي. ثم ربما تذهب إلى منجمٍ آخر. ويقول لك رئيسك: «أين سبق لك العمل؟» فتقول: «نورث فالي.» فيقول: «ما اسمك؟» فتقول: «جو سميث.» فيقول: «انتظر.» ويدخل وينظر في الأوراق، ثم يخرج، ويقول: «ليس لدينا عمل.» فتقول: «لماذا؟» فيقول: «إنك كثير الكلام، أيها الوغد. اخرج من هنا بحق الجحيم!» هل تدرك؟»

قال هال: «أتقصد أنَّ هناك قائمة سوداء.»

«بالطبع، هناك قائمة سوداء. سيكتشفون كلَّ شيءٍ عنك، ربما عبر الهاتف. إذا فعلت أيَّ شيءٍ سيئ، مثل الحديث عن أمور الاتحادات والنقابات ...» خفضَ مادفيك صوتَه، وهمسَ بكلمة «الاتحاد» ... «يرسلون صورتَك، ولا تحصل على وظيفة في أي مكان في الولاية. ما رأيك؟»

الفصل الحادي عشر

لم يمضِ وقتٌ طويل حتى سَنَحت لهال الفرصة لرؤية نظام التجسُّس هذا وهو يُمارس عمله، وبدأ يفهم شيئًا عن القوة التي حافظت على أداء هذه الجيوش الصامتة والصبورة لأعمالها. كان في صباح يوم الأحد يتجوَّل مع صديقه تيم رافيرتي، سائِس البِغال، وهو شاب لطيف له زوج من العيون الزرقاء الحالمة في وجهه الملطَّخ بالفَحم. أتَيَا إلى منزل تيم، ودعا هال إلى الدخول ومقابلة عائلته. كان الأب رجلًا مُنحني الظهر ومُرهَقًا، ولكن بُنيانه الصلب كان ذا قوة هائلة، حيث كان نتاج أجيالٍ عديدة من العمل في مناجم الفحم. كان يُعرَف باسم «العجوز رافيرتي»، على الرغم من أن عمره كان أقل من الخمسين بكثير. لقد باشرَ عمله كصبي في المناجم في سن التاسعة، وعرضَ على هال ألبوم صور من الجِلد الباهت لأسلافه في «الريف القديم» ... رجال وجوههم حزينة وتَشقُّها التجاعيد بعُمقٍ، ويجلسون في ثباتٍ ورصانة شديدَين لتخليد صورتهم للأجيال القادمة.

كانت الأم امرأة هزيلة، وذات شعر رمادي، وبلا أسنان، غير أنَّ لها قلبًا طيبًا. أحبَّها هال لأن منزلها كان نظيفًا، وجلسَ على عَتبة باب العائلة، وسط حشدٍ من صغار عائلة رافيرتي ذوي الوجوه المغسولة لتوِّها ليوم الأحد، وأذهلهم بحكايات المغامرات التي نقلها عن كلارك راسل وكابتن ماين ريد. ومكافأةً له دُعِي إلى البقاء لتناول العشاء، ووضعوا له سكينًا وشوكة نظيفتَين، وطبقًا نظيفًا من البطاطس الساخنة المطهوة على البخار، مع شريحتَين من لحم الخنزير المملَّح على جانب الطبق. كانت استضافة رائعة للغاية إلى درجة أنه تساءل على الفور عما إذا كان في إمكانه أن يترك نُزُل الشركة ويأتي للإقامة معهم.

اتسعت عينا السيدة رافيرتي. وصاحت: «بالتأكيد، هل تعتقد أنهم سيسمحون لك بذلك؟»

سأل هال: «ولمَ لا؟»

«بالتأكيد، ستكون مثالًا سيئًا للآخرين ربما يحذون حَذوه.»

«هل تعنين أنه يتعيَّن عليَّ الإقامة في نُزُل ريمينيتسكي؟»

قالت المرأة: «هناك ستة نُزُل تابعة للشركة.»

«وماذا سيفعلون إذا أتيت إليكم؟»

«في البداية، سيُخطرونك، ثم سيخرجونك من الوادي، وربما يخرجوننا من بعدك.»

اعترضَ هال قائلًا: «لكن هناك الكثير من الناس الذين يقيمون في مناطق الصفيح.»

«أوه! إنهم أجانب! لا أحدَ يهتم لأمرهم ... إنهم يعيشون بأي طريقة كانت. لكنك أقمتَ منذ أن قدِمت في نُزُل ريمينيتسكي، ولن يكون من الصواب لهم أن يتركوك.»

ضحك هال، قائلًا: «فهمت. يبدو أن هناك الكثير من الأشياء غير الصائبة لهم في هذا المكان.»

«بالتأكيد! لقد طردوا نيك أمونز؛ لأنَّ زوجتَه اشترت الحليب من خارج الوادي. كان لديهما طفلٌ مريض، والكمية المتاحة في المتجر من هذا النوع الخفيف من الحليب لم تكن تكفي، إنهم يضعون فيه الطباشير، على ما أعتقد، على أي حالٍ يمكنك أن ترى شيئًا أبيض مُترسِّبًا في القاع.»

«إذن يتوجَّب أيضًا الشراءُ من المتجر!»

قال العجوز رافيرتي، الذي كان يستمع في صمتٍ: «أعتقدُ أنك قلت إنك سبقَ لك أن عملت في مناجم للفحم.»

قال هال: «أجل بالفعل. لكن الأمر لم يكن بهذا السوء.»

قالت السيدة رافيرتي: «بالطبع، أودُّ أن أعرف أين كان ذلك ... في هذا البلد. لقد أمضيتُ أنا وزوجي العجوز سنين مُرهِقة في البحث.»

حتى الآن كانت المحادثة تسير في مجراها الطبيعي، ولكن فجأة بدت كما لو أن غشاوة قد اجتاحتها ... غشاوة من الخوف. رأى هال العجوزَ رافيرتي ينظر إلى زوجته، ويعبس ويشير إليها. ففي النهاية، ما الذي يعرفونه عن هذا الشاب الغريب الوسيم، الذي يتحدَّث بكل عفوية، وقد زار أنحاء كثيرة من العالم؟

قال الرجل العجوز: «إننا لا نشكو ذلك.»

وأسرعت زوجته لتُضيف: «إذا سمحوا للباعة الجائلين وأمثالهم بالدخول إلى الوادي، فلن يُوضَع حَدٌّ للأمر، على ما أفترض. إننا نجدهم هنا يعامِلوننا مثلما يُعامَل غيرنا في أي مكان.»

أضافَ الآخر: «إنَّ حياة العُمَّال ليست مزحة، أيًّا ما كان المكان الذي تحاول أن تحياها فيه»، وعندما شرعَ الشاب تيم في التعبير عن رأيه، أسكتوه بهذا القلق الواضح الذي آلَم قلبَ هال، وسارع لتغيير الموضوع.

الفصل الثاني عشر

في مساء يوم الأحد نفسه، ذهب هال للوفاء بوعده بزيارة ماري بيرك. فتحت الباب الأمامي للكوخ لإدخاله، واجتاحه إحساسٌ بالبهجة حتى عبر الأشعة الخافتة لمصباح الكيروسين الصغير. قالت: «مرحبًا» ... تمامًا كما قالتها عندما نزلَ من الجبل وهي أمام حبل الغسيل. تبِعها إلى داخل الغرفة، ورأى أن إحساسَ البهجة الذي اجتاحه قد أتاه من ماري نفسها. كم بدت مُشرقة ونضرة! كان الفستان القُطني الأزرق القديم، الذي لم يكن نظيفًا على الإطلاق، قد غُسِل لتوِّه الآن، ووضِعَت على الكتف في موضع الخرق رقعةٌ مناسِبة باللون الأزرق غير الباهت.

لم يوجد سوى ثلاث غرف في بيت ماري، لا بد أن اثنتين منها كانتا للنوم؛ فاستقبلت ضيفها في المطبخ. وجد هال الغرفة فارغة ... لم تكن هناك حتى ساعة للزينة. كانت اللمسة الفاتنة الوحيدة التي تمكَّنت الفتاة من إضفائها على الغرفة استعدادًا لاستقبال ضيفها هو تنظيفها. فقد رشَّت الرملَ لتوِّها على الأرضية الخشبية وفركتها، ونظَّفت أيضًا طاولة المطبخ، والغلَّاية الموضوعة على الموقد، وإبريق الشاي المتشقِّق والأوعية على الرف. كان شقيقٌ وشقيقة ماري الصغيران في الغرفة: جيني، وهي فتاة صغيرة داكنة العينين والشعر، وضعيفة البِنية، وذات وجه حزين وخائف بعضَ الشيء؛ وتومي، وهو طفل مستدير الرأس، مثل غيره من آلاف الأطفال المستديري الرأس وذوي الوجوه الممتلئة بالنمش. كان كلٌّ منهما يجلس حينها في كُرسيه باستقامة شديدة، مُحدِّقًا إلى الزائر ببعض الاستياء، هكذا حسِبَ. خمَّن أن تكون حملة التنظيف العام قد شملتهُما. نظرًا إلى عدم تأكدهم من موعد حضور الزائر، فلا بد أنه كان عليهم أن يفعلوا ذلك كلَّ ليلة، ويمكنه أن يتخيَّل وقوع شِجار عائلي، مع نقاشاتٍ قد تخلو تمامًا من الإطراء حول «فتى» ماري الجديد.

بدا أنَّ هناك شيئًا من عدم الارتياح في المكان.

لم تدعُ ماري ضيفَها إلى الجلوس، بل وقفت مُتردِّدة، وبعد أن جازفَ هال بإبداء بعض الملاحظات الودِّية للطِّفلين، قالت فجأة: «هلَّا ذهبنا في تلك النزهة التي تحدَّثنا عنها يا سيد سميث؟»

قال هال: «بكل سرورٍ!» وبينما كانت ترتدي قُبَّعتها أمام المرآة المكسورة على الرف، ابتسم للطفلين، واقتبسَ سطرَين من أغنية هاريجان …

«أوه، يا ماري جين، اخرجي في الزقاق،
القمر يلمع مُتلألِئًا في شجرة البَقَّان القديمة!»

حالَ خجلُ تومي وجيني الشديد دون ردِّهما، لكن ماري صاحت قائلة: «يمكنك أن تراه يلمع هنا في وعاءٍ من الصفيح!»

خرجَا إلى نُزهتهما. في ليلة الصيف الناعمة، كان التجوُّل في ضوء القمر مُمتِعًا … لا سيَّما عندما وصلا إلى أقاصي القرية؛ حيث لم يكن هناك الكثير من الأشخاص المُرهَقين على عتبات الأبواب ولا الأطفال الذين يلعبون بأصواتٍ عالية. كان هناك ثُنائي آخر يسير هنا، تحت القمر نفسه؛ فلم يستطع كدحُ اليوم الأشد قسوة أن يستنزف طاقاتهما بالحد الذي لا يجعلهما يشعُران بسحر هذه الليلة الصيفية الناعمة.

كان هال، الذي كان مُتعبًا، سعيدًا بالتنزُّه ومستمتعًا بالسكون، لكن ماري بيرك كانت تبغي معرفة معلوماتٍ عن الشاب الغامض الذي كانت برفقته. قالت: «لَم تعمل طويلًا في مناجم الفحم يا سيد سميث، أليس كذلك؟»

كان هال مُرتبِكًا بعض الشيء. «كيف اكتشفْتِ ذلك؟»

«لا تبدو كعُمَّال المناجم … لا تتحدَّث مثلهم. إنك لا تُشبه أيَّ شخص أو أيَّ شيء هنا. لا أعرف كيف أقول ذلك، لكنك تُذكِّرني أكثر بكُتُب الشِّعر.»

على الرغم من شعور هال بالإطراء من هذا الاعتراف البَرِيء، فإنه لم يكن يرغب في التحدُّث عن سِرِّه. ومن ثَم، لجأ إلى سؤال عن «كتب الشِّعر». قالت الفتاة: «لقد قرأتُ بعضًا منها، ربما أكثر مما تعتقد.» صحِبَ هذا إشارة على تحدِّيها.

طرح المزيدَ من الأسئلة، وعَلِم أنها، مثلها في ذلك مثل الصبي اليوناني، «آندي»، قد وقَعَت تحت تأثير تلك المؤسسة الأمريكية المثيرة للاضطراب، المدرسة العامة؛ فقد تعلَّمت القراءة، وقد ساعدتها مُعلِّمة شابة جميلة بإعارتها الكتبَ والمجلات. وبذلك حصلت على

مِفتاح الكَنز، البساط السحري الذي يمكن السفر به حول العالَم. استخدمت ماري نفسها هذه التشبيهات … لأنَّ «ألف ليلة وليلة» كان أحدَ الكتب التي أُعِيرت لها. كانت في الأيام الممطرة تختبئ خلف الأريكة، وتقرأ في مكان يتسلَّل إليه الضوء … كي تكون في مأمنٍ من إزعاج إخوتها وأخواتها الصغار!

اتضحَ أنَّ جو سميث قد قرأ هذه الكتب نفسَها، وبدا هذا رائعًا بالنسبة إلى ماري؛ لأن الكتب باهظةُ الثمن ويصعب الحصول عليها. أوضحت كيف بحثَت في المعسكر عن بُسُط سحرية جديدة، وعثرت على «كتاب شِعر» للشاعر لونجفيلو، وكتابٍ عن التاريخ الأمريكي، وقصة بعنوان «ديفيد كوبرفيلد»، وأخيرًا، والأغرب على الإطلاق، قصة أخرى بعنوان «كبرياء وهوًى». حَظٌّ عجيب ومثير للفضول … كتاب لجِين أوستن، الشديدة الالتزام، المرهَفَة الحِس، في معسكرٍ للفحم في أقصى القِفار الغربية! مغامرة لجين، وكذلك لماري!

تساءل هال عن الانطباع الذي تركه الكتاب لدى ماري. هل كانت، على غرار فتيات المتاجر، تستمتع بمشاهد الدَّعَة الباهتة؟ عرف أن الكتاب قد أصابها باليأس. فهذا العالم الخارجي، بحُريَّته ونظافته، والبشر الذين يعيشون فيه حياة كريمة وذات شأن، لم يكن لها؛ فقد كانت مُسلسَلةً بدلو التنظيف في معسكرٍ للفحم. قالت إن الأمور قد ازدادت سوءًا منذ وفاة والدتها. أصبح صوتُها خافتًا وقاسيًا … تذكَّر هال أنه لم يسمع قطُّ صوتًا شابًّا يحمل كلَّ هذا اليأس.

سألها: «ألم تذهبي إلى أي مكان بخِلاف هنا؟»

قالت: «لقد كنت في معسكرَين آخرَين … أولًا معسكر جوردون، ثم معسكر إيست رَن. لكنها جميعًا سواء.»

«ولكن هل ذهبتِ إلى المدن؟»

«يومًا واحدًا فقط، مرةً أو مرتَين في السنة. ذات مرة كنت في شيريدان، وفي الكنيسة سمعت سيدةً تغني.»

توقَّفتْ لحظة، منصرفةً بذهنها إلى هذه الذكرى. ثم تغيَّر صوتُها فجأة … وكان في إمكانه أن يتخيَّل في الظلام أنها قد أرجعت رأسها في تحدٍّ. «لن أزعج ضيفي بمشكلاتي! تعلم كم هو مُرهِق عندما تسمع ذلك من شخصٍ آخر … مثل جارتي في المنزل المجاور، السيدة زامبوني. هل تعرفها؟»

قال هال: «لا.»

«السيدة العجوز المسكينة لديها ما يكفيها من المشكلات، الرب وحده يعلم. زوجُها ليس رجلًا جيدًا بدرجة كبيرة ... إنه مُدمن على الكحول ولديها أحد عشر طفلًا، وهذا كثير جدًّا على امرأة واحدة. ألا ترى ذلك؟»

طرحتْ سؤالها ببراءةٍ أضحكت هال. فقال: «بلى، أرى ذلك.»

«حسنًا، أعتقد أن الناس كانوا سيساعدونها أكثر لولا أنها كثيرة الشكوى! ونصف شكواها باللغة السلافية، التي لا يستطيع أحدٌ فهمَها!» هكذا شَرَعتْ ماري تحكي أشياء مضحكة عن السيدة زامبوني وجيرانها متعدِّدي اللغات، وتُقلِّد طَمسَهم للَّهجة الأيرلندية ووَأدَهم لها. استشعر هال البراءة والبهجة في حسِّها الفكاهي وروحها المرحة، فشجعَّها على المزيد من النميمة المَرِحة في أثناء ما تبقَّى من نزهتهما.

الفصل الثالث عشر

ولكن بعد ذلك، عندما كانا في طريقهما إلى المنزل، حدثَ ما عكَّر صفوهُما. سمعت ماري وَقْع خطواتٍ خلفهما فاستدارت ونظرت، ثم أمسكت بذراع هال وجذبته إلى الظل على جانب الطريق، وهمست له بأن يلتزم الصمت. مرَّ بهما رجلٌ مُنحَنٍ، يتمايل من جانبٍ إلى آخر.

عندما استدار ودخل إلى المنزل، قالت ماري: «هذا أبي. إنه يكون قبيحًا عندما يكون في هذه الحالة.» وكان في إمكان هال أن يسمع أنفاسها المتلاحقة في الظلام.

إذن تلك كانت مشكلة ماري … المشقَّة التي تواجهها في حياتها في المنزل التي أشارت إليها في لقائهما الأول! فهم هال أشياء كثيرة في وَمضة من الزمن … السبب في خلو منزلها من الزينة، والسبب في عدم دعوتها ضيفَها إلى الجلوس. وقفَ صامتًا لا يعرف ماذا يقول. وقبل أن يتمكَّن من إيجاد الكلمات المناسبة، انفجرت ماري قائلةً: «أوه، كم أكره أوكالاهان، ذلك الذي يبيع الخمر لأبي! لدَيه طعامٌ وافر في منزله، وزوجته ترتدي الحرير وتذهب إلى القُدَّاس كلَّ أحد، وتظن نفسها أفضل بكثيرٍ من ابنة عامِل منجم عادية! أحيانًا أُفكِّر أنني أريد أن أقتلهما هما الاثنين.»

خاطر هال وقال: «لن يساعد هذا كثيرًا.»

«كلَّا، أعلم … كلُّ ما هنالك أنه سيأتي بشخصٍ آخر ليحلَّ محله. عليك أن تفعل ما هو أكثر من ذلك، عليك أن تُغيِّر الأمور هنا. عليك أن تُلاحق مَن يتربَّحون من وراء أوكالاهان.»

إذن كان عقل ماري يتلمَّس الأسباب! كان هال يعتقد أن قلقها كان خشيةَ الإهانة أو التعرُّض للعُنف عندما تصل إلى المنزل، ولكنها كانت تفكِّر في الجوانب الأعمق لمشكلة مُعاقَرة الشراب الرهيبة. كان لا يزال لدى هال وارنر قدرٌ من التكبُّر اللاواعي، كان كافيًا لأن

يجعله يُفاجأ من وجود هذه الظاهرة في ابنة عامِل منجم عادية؛ ومن ثَم، تحوَّلت شفقته إلى اهتمام فكري، على غِرار ما حدث في لقائهما الأول.

قال: «سوف يمنعون تجارة الخمر تمامًا يومًا ما.» لم يكن يعرف أنه كان أحدَ المؤيدين لتجريم المُسكِرات؛ فقد أصبح واحدًا منهم فجأة!

أجابت: «حسنًا، من الأفضل أن يمنعوها قريبًا، إذا كانوا يريدون تدارك الأمر قبل فوات الأوان. إن من المَشاهِد التي ينفطر لها القلب رؤية الفتيان الصغار وهم يعودون إلى المنزل مُتَرنِّحين، في حالة من السُّكر إلى درجة أنهم لا يقوُون حتى على العِراك.»

لم يكن لدى هال الوقتُ الكافي لرؤية الكثير من هذا الجانب من نورث فالي. ومن ثَم، سألها: «أيبيعون للأولاد؟»

«بالطبع، مَن يُبالي؟ فما يُهمُّ هو المال، سواء كان من صبي أو من رجل.»

«لكن أفترضُ أن الشركة ...»

«الشركة تسمح ببناء الحانات ... ذلك هو كلُّ ما تهتم به الشركة.»

«لكن عليهم أن يهتموا بأهلية عُمَّالهم وسلامتهم!»

«بالطبع، هناك الكثير غيرهم في الأماكن التي أتَوا منها. وعندما لا تستطيع العمل، يطردونك، هذا كل ما في الأمر.»

«وهل الحصول على عُمَّال مَهَرة أمرٌ بهذه السهولة؟»

«استخراج الفحم لا يتطلَّب كثيرًا من المهارة. المهارة هي أن تحافظ على سلامتك ... وإذا كنت تستطيع أن تتحمَّل تعريض سلامتك الشخصية للخطر، فالشركة أيضًا يمكنها ذلك.»

وصَلا إلى الكوخ الصغير. وقفت ماري صامتة للحظة. ثم صاحت فجأة: «أتحدَّث عن أمورٍ مَريرة مجدَّدًا! وقد وعدتُك بمراعاة رفقتِك! لكنَّ ثمة أمورًا تحدث تخرجني عن شعوري.» واستدارت فجأة ودخلت إلى المنزل. وقف هال لحظة مُتسائلًا عما إذا كانت ستعود، ثم رأى أنها بدخولها المنزل كانت تعني أن تقول له «ليلة سعيدة»، وبدأ يسير ببطءٍ في الشارع.

قاوم مشاعر الاكتئاب التي انتابته للمرة الأولى منذ قدومه إلى نورث فالي. كان قد تمكَّن حتى تلك اللحظة من عزل نفسه شُعوريًّا عما يجري حوله، حتى يتمكَّن من رؤية هذا العالم الصناعي بحيادية ودون تحيُّز. لكن شفقته في هذه الليلة على ماري قد جعلته ينخرط أكثر في هذا العالَم. من المؤكَّد أنه قد يكون قادرًا على مساعدتها، والعثور على

عملٍ لها في بيئة أقل قَسوة وسَحقًا، لكن عقله أخذ يتساءل … كم فتاةً قد تكون هنا في معسكرات التعدين، في ريعان شبابها ومُفعَمة بالحماس، تتُوق إلى الحياة، ولكنها مطحونة تحت وطأة الفقر ومشكلة السُّكْر؟

مَرَّ رجلٌ بهال، وحيَّاه في الظلام شبه الحالِك بإيماءةٍ من رأسه وحركة من يده. لقد كان القَسَّ سبراج، الرجل الذي كُلِّف رسميًّا بمكافحة شيطان شراب الروم في نورث فالي.

كان هال قد ذهب إلى الكنيسة البيضاء الصغيرة يوم الأحد الماضي، واستمع إلى القَس سبراج وهو يُلقي عِظةً عقائدية، يتحدث فيها عن ذبيحة الرب التي قُدِّمت قُربانًا، وأين وكيف سيجد الإنسان الخلاص والتعويض من الكروب التي يُكابدها على الأرض، «وادي الدموع».

كم بدا الأمرُ مثيرًا للسخرية! لا شك أن الناس كانوا يعتقدون ذات يوم في مثل هذه العقائد؛ وكانوا على استعدادٍ للجود بأنفسهم دونها. لكن الآن لم يُضَحِّ أحدٌ من أجلها … بل على العكس من ذلك، فقد أجبرت الشركة كلَّ عامل على التبرع من راتبه الضئيل في نشرها والتبشير بها. كيف يمكن لأجهل المتعصبين أن يتقبَّل مثل هذا النظام دون الشك في تقواه؟ لا بد أنه في مكانٍ ما على رأس آلة توزيع الأرباح العظيمة المسماة بالشركة العامَّة للوقود ذكاء شيطاني خطَّط للأمر برُمته، وأعطى الأوامر لموظفيه الكَنَسيين: «نريد الحاضر … ونترك لكم المستقبل! نريد الأجساد … ونترك لكم النفوس! علِّموهم ما شئتم عن السماء … ما دمتم تُمكِّنوننا من نَهْبِهم على الأرض!»

وفقًا لهذا البرنامج الشيطاني، قد يُندِّد القَسُّ سبراج بشيطان شراب الروم، لكنه لا يذكر شيئًا عن الأرباح المتحققة من استئجار محلات شراب الروم، ولا عن السياسيين المحليِّين الذين تدعمهم الشركة ماديًّا، بالإضافة إلى الأرباح المتحصَّلة من بيع الخمور بالجملة. لا يذكر شيئًا عن نتائج الأبحاث الحديثة في مجال الصحة العامة، التي تعُد الإفراط في العمل سببًا في التعطُّش إلى تناول الكحول؛ يبدو أن عبارة «تناول الكحول لأسبابٍ صناعية»، لم تكن معروفة في لاهوت الشركة العامَّة للوقود! في الواقع، عندما كنت تستمع إلى عِظة كهذه، لم تكن لتُخمِّن مُطلقًا أن المستمعين لديهم أجسادٌ مادية على الإطلاق؛ بالتأكيد لم تكن لتخمِّن مُطلقًا أن للواعظ جسدًا يتغذَّى بالطعام الذي ينتجه هؤلاء العبيد المأجورون الذين يُلقي عليهم عِظته، والذين يكِدون في العمل ويعانون سوء التغذية!

الفصل الرابع عشر

كان ضحايا هذا النظام في الغالب قد أُجبِروا على الإذعان، ولم يتحدَّثوا عن أخطائه إلا همسًا، غير أن هال وجد أن هناك مكانًا واحدًا في المعسكر لم يستطيعوا فيه التزامَ الصمت، حيث يحتدم الصراعُ بين مشاعر الغضب والخوف لديهم. كان هذا المكان بمنزلة الضفيرة الشمسية لكائن المنجم، مركز طاقاته العصبية، أو لنُغيِّر التشبيه؛ لقد كان بمنزلة كرسي الحُكم، حيث يُصدَر الحُكم على عامل المنجم ... إما بالسعة والوفرة، وإما بالجوع واليأس.

كان هذا المكان هو «المَقلَب» حيث يُوزَن الفحم المُستخرَج من المنجم ويُسجَّل وزنُه. يتجه كلُّ عامل حفر إلى هذا المكان عندما يخرج من مصعد المنجم. كانت هناك لوحة بيانات، عليها رقم العامل، وأوزان العربات التي تحوي حمولة ما استخرجه من الفحم في ذلك اليوم. وقد تعلَّم كل رجل منهم، بغض النظر عن مدى جهله، ما يكفي من اللغة الإنجليزية لقراءة تلك الأرقام.

لقد أدرك هال تدريجيًّا أن هذا هو المكان الذي تظهر فيه جميع المشاعر. ينظر معظم الرجال إلى اللوحة، ثم، دون أن يَنبِسوا ببنت شفة أو يلتفتوا، يسيرون مُتهدِّلي الأكتاف. ويتمتم آخرون لأنفسهم ... أو، على نحوٍ لا يختلف كثيرًا عن ذلك، يتبادلون التمتمة فيما بينهم بلهجاتٍ همجية. لكن واحدًا من كل خمسة تقريبًا كان في إمكانه التحدُّث باللغة الإنجليزية، ولم يكد يمر مساءٌ دون أن يخرج أحدٌ عن السيطرة، مُلَوِّحًا بقبضته إلى السماء، أو في وجه مسئول تسجيل الأوزان ... الذي يقف خلفه. وقد يجمع حوله مجموعة من زملائه المتذمِّرين، وتجدُر الإشارة إلى أن قائد المعسكر اعتاد على الحضور في هذه الساعة.

في إحدى هذه المرات، التقى هال لأول مرة مايك سيكوريا، وهو عجوزٌ سلوفاكي أشيَبُ الشعر، قضى عشرين عامًا في مناجم هذه المناطق. تجمَّعت كلُّ مشاعر المرارة والأسى جرَّاء

جميع أشكال الظلم والإجحاف التي عانها العجوزُ مايك وغيره طوال كل هذه السنوات، وانطلقت في صيحته وهو يصرخ بنتيجته عاليًا: «تسعة عشر، اثنان وعشرون، أربعة وعشرون، عشرون! هل هذه أوزان حمولتي يا سيدي؟ أتريدني أن أصدِّق أن هذه هي أوزاني؟»

قال مسئول تسجيل الأوزان ببرودٍ: «هذه هي أوزان حمولتك.»

«حسنًا، بحق يهُوذا، ميزانُك معطوبٌ يا سيدي! انظر إلى هذه العربات ... هذه العربات كبيرة! قِس العربات يا سيدي ... إن طولها سبعة أقدام وارتفاعها ثلاثة أقدام ونصف قدم، وعرضها أربعة أقدام. وتقول لي إن وزن حمولتها لا يزيد على العشرين؟»

قال مسئول تسجيل الأوزان: «إنك لم تدُكَّها جيدًا.»

ردَّد عامِل المنجم العجوز: «لم أدُكَّها جيدًا؟» وانتابه الحزنُ فجأة، كما لو كان هذا التلميح في كلامه قد جعل شعوره بالألم يتفوق على شعوره بالغضب. وقال: «أنت تعلم عدد السنين التي عملتُ فيها، وتقول لي إنني لا أعرف كيف أُحمِّل العربة وأَدُكُّها؟ عندما أُحمِّل عربة، أُحمِّلها كعامل منجم، وليس كرجلٍ ياباني لا يعرف شيئًا عن المناجم! إنني أحمِّلها إلى آخِرها ... أكدِّسُها ككَومة من القش. إنني أحمِّلها على شكل مربعات ... هكذا.» وأشار الرجل العجوز موضِّحًا مقصده. ثم أضاف قائلًا: «انظر هناك! هناك طنٌّ في الأعلى، وطن ونصف الطن في الأسفل ... وتقول لي إن وزن حمولتي تسعة عشر، عشرين فقط!»

قال مسئول تسجيل الأوزان بإصرارٍ وتعنُّتٍ: «هذا هو وزن حمولتك.»

«لكن يا سيدي، ميزانك خاطئ! أقول لك إنني اعتدتُ تحقيقَ الوزن المطلوب. لقد اعتدتُ تحقيقَ وزن خمسة وأربعين، ستة وأربعين في هذه العربات. هذا زميلي ... اسأله إن كنت مخطئًا. ما قولك يا بو؟»

قال بو، الذي كان زنجيًّا ... وإن كان يصعب التأكُّد من ذلك بسبب غبار الفحم الذي عَلا وجهه: «إممم.»

صاح العجوز السلوفاكي: «لم أعُد أستطيع إعالة نفسي!» وكان صوتُه يرتجف، وعيناه الداكنتان الذابلتان يملؤهما التوسُّل. «أتدري ما أَجنيه؟ خمسين سِنتًا عن خمسة عشر يومًا! وعليَّ أن أدفع مقابل سكني، وليساعدني الرب، يا سيدي ... وها أنا ذا أقف هنا ... أقسم لك إن ما أجنيه هو خمسون سِنتًا. إنني أعمل بكدٍّ وها أنت تقول إن وزن حمولتي ضئيل! ميزانك خاطئ!»

قال مسئول تسجيل الأوزان منصرفًا: «اغرُب عن وجهي!»

صاح العجوز مايك، وهو يتبعه: «لكن يا سيدي!» وراح يُغدق على كلماته من كُلِّ مشاعره. «أيُّ حياة هذه يا سيدي؟ يظل المرء يعمل كالحمار، ولا يحصل على شيء في المقابل! يشتري بماله البارود المستخدَم في أعمال التفجير بالمنجم ... بنصف دولار في اليوم ... ما رأيك في ذلك؟ يحفر بعرض الأرض ... ولا يحصل على شيء في المقابل! ينزل إلى المنجم ويعمل بأقصى جهده، ولا يحصل على شيء في المقابل! تُفرِّش الأرض ... ولا تحصل على شيء في المقابل! ها هو ذا، بحق يهوذا، رجلٌ فقير مُعدم، يذهب إلى عمله، ويكد بأقصى جهده، ويستنفد كلَّ طاقته! ثم تتركني أنت أتضوَّر جوعًا حتى الموت! لا بد أن أحصل على شيء أقتات به، أليس كذلك؟»

وفجأة، استدار ناحيته مسئول تسجيل الأوزان. وصاح فيه قائلًا: «انصرف من هنا عليك اللعنة! إذا كان الوضع لا يروق لك، فلتأخذ أُجرتك وتترك العمل. اخرس، وإلا أخرستك بنفسي.»

ارتجف الرجل العجوز، ولاذ بالصمت. ووقف لحظة يعضُّ شفتَيه أسفل شاربه بعصبية؛ ثم استدار وانصرف مُتَدلي الكتفَين مخذولًا، يتبعه مساعِدُه الزنجي.

الفصل الخامس عشر

كان العجوز مايك يُقيم في نُزُل «ريمينيتسكي»، وبعد انتهاء العشاء، بحث هال عنه. كان من السهل التعرُّف عليه، واتَّضح أنه من الأشخاص الذين يجد المرء مُتعة في التعرُّف إليهم. تمكَّن هال من التجوُّل في عشرات المعسكرات في المنطقة بفضل وصفه البليغ. كان الرجل العجوز عصبي المزاج وذا طبعٍ حادٍّ لم يستطع التحكُّم فيه، ومن ثَم كان كثيرًا ما يتنقَّل من معسكر فحم إلى آخر، لكنه قال إنَّ كل الأماكن متشابهة؛ فقد كانت هناك دائمًا حيلةٌ ما يبخسون بها العامل أجرَه. كان عامل المناجم بمنزلة رجل أعمالٍ بسيط، مقاولٍ يتولى مهمة معينة، بنفقاتها وفُرص الربح أو الخسارة فيها. كان رئيس العُمَّال يخصِّص له «مكانًا»، ويتولى هو مهمة استخراج الفحم منه، ويحصل في المقابل على خمسة وخمسين سِنتًا للطن، عن كل طنٍّ من الفحم الصافي. في بعض «الأماكن» كان في إمكان المرء أن يَجني الكثيرَ من المال، وفي أماكن أخرى كان المرءُ يعمل أسابيع، ولا يتمكَّن حتى من دفع حساب ما يشتريه من المتجر.

يتوقف الأمرُ كله على كمية الصخور والأردواز التي يُعثَر عليها مع الفحم. إذا كان عِرْق الفحم موجودًا على مسافة كبيرة، يصبح على الرجل إزالة قدم أو قدمَين من الصخور التي تعلوه، وكان لا بد من تحميل هذه الصخور في عرباتٍ منفصلة، وطرحها بعيدًا. كان يُطلق على هذا العمل «إزالة الصخر»، ولم يكن عامل المنجم يتلقَّى عنه أيَّ أجرٍ. أو ربما استدعى الأمر حفرَ ممرٍّ جديد، وإزالة الصخر، أو ربما «دكَّ القاع»، ووضع الوصلات والقضبان لمرور العربات التي ستُحمَّل بالأوزان، أو ربما اصطدم عِرْقُ الفحم بـ «صَدْع»، أي مكان متصدِّع حيث توجد صخور بدلًا من الفحم … ويجب قطع هذه الصخور، والتخلُّص منها قبل أن يتمكَّن عامِل المنجم من الوصول إلى الفحم. كلُّ هذا العمل كان

يُطلق عليه «العمل الميِّت»، وكان هو سبب الصراع المستمر. في الأيام الخوالي كانت الشركة تدفع مبالغ إضافية مقابل هذا العمل، ولكن الآن، ومنذ أن أصبحت لها اليد العليا على العُمَّال، أصبحت ترفض الدفع. ومن ثَم، كان من المهم لعامل المنجم أن يُكلَّف بـ «مكان» حيث لا يوجد الكثير من هذا العمل الميت. ويعتمد «المكان» الذي كان يُكلَّف به العامِل على رئيسه؛ ومن هنا جاءت فرصةٌ لا نهائية، من مبتدأ الأمر، للمحسوبية واستغلال النفوذ، أو الشجار، أو «مُداهنة» رئيس العُمَّال كسبًا لرضاه. ما الفرصة التي يمكن أن يحصل عليها رجلٌ فقير عجوز ومذموم، ولا يجيد التحدُّث بالإنجليزية؟ كان هذا ما تساءل عنه العجوز مايك بمرارة. سرقَ رئيسُ العمَّال عرباته وأعطاها أناسًا آخرين، وأخذ حمولتها وأعطاها الرفقاء الذين كانوا يُقيمون معه، أو يدعونه إلى الشراب، أو يتملَّقونه بطريقة أو أخرى.

قال مايك: «أعمل خمسة أيام في الجنوب الشرقي، وأُقسم لك يا أخي، حتى عندما أعمل الأيام الخمسة كاملة، إلى درجة أنني لا أستطيع القيام عن هذا الكرسي، يظل لديَّ عجز بمبلغ خمسة عشر سِنتًا. أربع عشرة بوصة من الصخور! وأقول للسيد بيشوب، ذلك المراقب: «هل ستدفع لي مقابل تلك الصخرة؟» يقول: «هه؟» فأقول: «حسنًا، إذا لم تدفع لي مقابل الصخرة، فلن أواصل العمل عليها. لا مكانَ لديَّ لأضعَ فيه تلك الصخرة.» فيقول: «اخرج من هنا بحق الجحيم»، وعندما شرعتُ في مهاجمته صوَّب مسدسه نحوي. ثم ذهبتُ إلى جبل سيدار، وأعطاني المشرف عملًا هناك، وقال: «اذهب إلى الموقع رقم ٤، ضَعِ القضبان في الموقع رقم ٣، وكذلك العوارض والوصلات.» وقال: «سأدفع لك عندما تُوصِّلها.» فانصرفتُ بها ووصَّلتُها، وعملتُ حتى الساعة الثانية عشرة. حملتُ الأزواج الثلاثة من القضبان والعوارض والوصلات، اقتلعتُ جميع المسامير …»

سأل هال: «اقتلعتَ المسامير؟»

«لم أحصل على أيِّ مسامير جيدة. ومن ثَم، لم يكن أمامي إلا أن أستخدم المسامير القديمة، التي كنت أقتلعها من العوارض والوصلات القديمة. ثم أقول له: «ماذا عن نصف اليوم الذي وعدتني به؟» فيجيبني قائلًا: «إنك لم تستخرج أيَّ فحمٍ بعد!» فأقول: «ولكن يا سيدي، أنت وعدتني أن تدفع لي مقابل اقتلاع المسامير وتركيب العوارض والوصلات!» فيقول: «الشركة لا تدفع شيئًا مقابل العمل الميت … أنت تعلم ذلك»، وكان ذلك كلَّ ما حصلتُ عليه من تعويض.»

«ولم تحصل على أجر نصف اليوم الذي وعدكَ إياه؟»

«بالطبع لم أحصل على شيء. فرئيس العُمَّال يفعل ما يحلو له في منجم الفحم.»

الفصل السادس عشر

أوضحَ العجوزُ مايك أنَّ هناك طريقة أخرى يكون عامل المنجم بها تحت رحمة الآخرين، وهي سرقة العربات. كان لكل عامل منجم لوحاتٌ نحاسية عليها رقمه، وعندما كان يرسل عربة محمَّلة إلى خارج المنجم، كان يُعلِّق إحدى هذه اللوحات على خطَّافٍ داخل العربة. وفي أثناء الرحلة الطويلة إلى المَقلَب، كان من شأن أي أحدٍ أن يُغيِّر اللوحة، ومن ثَم تضيع حمولة العربة على العامل ولا تُحسَب له. وفي بعض المناجم، كان الرقم يُكتَب على العربة بالطباشير، ومن ثَم كان من السهل على أي شخصٍ أن يمسح الرقم ويُغيِّره! بدا لهال أنه سيكون من السهل وضع قُفلٍ بالرقم على العربة بدلًا من اللوحة، لكن هذه الأقفال كانت ستكلِّف الشركة مائة أو مائتَي دولار، حسبما قِيلَ له، وهكذا استمرت السرقة سنة بعد أخرى.

سأل هال: «هل تعتقد أن الرؤساء هم مَن يسرقون هذه العربات؟»

«أحيانًا الرؤساء، وأحيانًا أصدقاء الرؤساء ... أحيانًا تسرقها الشركة نفسها من عُمَّال المناجم.» أصرَّ العجوز السلوفاكي على أن الشركة نفسها هي التي كانت تسرق العمَّال في نورث فالي. قال إنه لم يكن من المُجدي أن يرسل العامل أكثر من ست عرباتٍ في اليوم الواحد؛ فلم يكن في إمكانك أبدًا الحصول على مقابل لأكثر من ست عربات. كما لم يكن من المُجدي أن تُحمِّل أكثر من طن في العربة الواحدة؛ فلم يكونوا يزِنون العربات كما ينبغي؛ إذ كان مسئول تسجيل الأوزان يُمرِّرها بسرعة فوق الميزان، وكانت لديه أوامر بألَّا يتجاوز متوسِّطًا مُعيَّنًا. حكى مايك عن إيطالي حمَّل عربة، على سبيل الاختبار، على ارتفاع عالٍ إلى درجة أنه بالكاد استطاع تمريرها تحت سقف المدخل، وصعد إلى المَقْلَب، ورآها بنفسه وهي تُوزَن، وكان وزنها ستة آلاف وخمسمائة رطل. فقدَّروها بثلاثة آلاف وخمسمائة، وعندما همَّ بالشجار معهم قبضوا عليه. لم يرَه مايك وهم يقبضون عليه، ولكنه عندما

خرج من المنجم، كان الرجل قد رحل، ولم يره أحدٌ مرة أخرى. بعد ذلك وضعوا بابًا على غرفة تسجيل الأوزان، حتى لا يتمكَّن أحدٌ من رؤية الموازين.

كلما استمع هال إلى العُمال، وتفكَّر أكثر في هذه الأمور، زاد إدراكه بأن عامل المنجم كان متعاقِدًا لم تكن لديه أيُّ فرصة لتحديد حجم العقد قبل تولي تنفيذه، ولا بعد ذلك لتحديد مقدار العمل الذي أدَّاه. والأدهى من ذلك أنه كان مضطرًّا إلى استخدام الإمدادات التي لم تكن لديه سيطرة على أسعارها وأحجامها. كان يستخدم البارود، وقد يجد عجزًا في آخِر الشهر في كمية معينة، ولو ثبت أن الكمية غير سليمة، فإنه لم يكن يحصل على أي تعويض. وكان يُفرَض عليه مبلغٌ معينٌ نظير أعمال «الحِدادة»، مثل صيانة أدواته والمحافظة عليها، وكان من الممكن أن يجد دولارًا أو دولارَين مُستقطَعَين من حسابه كلَّ شهر، حتى لو لم يَقْرَب ورشة الحدادة من الأساس.

تساءل هال عن رأي أي رجل أعمال في العالم إذا قُدِّم إليه هذا العرض، تُرى هل سيُبرم عقدًا بناءً على شروط كهذه! هل سيُقدِم أيُّ شخص على بناء سَدٍّ، على سبيل المثال، ولم تسنح له فرصةٌ لقياس الأرض أولًا، أو تُتَح له وسيلة لتحديد كم ياردة مكعَّبة سيستخدمها من الأسمنت؟ هل يبيع البقَّال إلى زبون يقترح عليه أن يأتي إلى المتجر ويزِن بضاعته بنفسه ... ويمنع البقَّال من دخول المتجر في تلك الأثناء؟ لم يكن طرْح مثل هذه الأسئلة إلا لإظهار عبثية الأمر، ومع ذلك كان هناك في هذه المنطقة خمسة عشر ألف رجل يعملون في هذه الظروف تمامًا، ويخضعون لهذه الشروط بحذافيرها.

بموجب قانون الولاية، كان لعامل المنجم الحَقُّ في المطالبة بمراقِب أوزان كي يحمي مصالحه في أثناء وزن حمولة العربات من الفحم، وكان عليه أن يدفع أجر هذا المراقب من أجره الخاص. وعندما كانت تُوجَّه أيُّ انتقاداتٍ عامة حول ظروف العمل في مناجم الفحم، كان أصحاب المناجم يتشدَّقون بهذا القانون، وينتصرون لأنفسهم به، وكان على المرء أن يعيش الواقع الفعلي، وتكون لديه تجربة حقيقية للأُمور كي يدرك حجم السخرية المريرة التي يشعُر بها عامل المنجم جرَّاء ذلك.

في غرفة الطعام، جلس هال بجوار عملاقٍ سويدي أشقر الشعر، يُدعَى يوهانسون، كان يُحمِّل الأخشاب لمدة عشر ساعات في اليوم. كان هذا الرجل من النوع الذي يتمتَّع برفاهية التعبير عن رأيه صراحة؛ لأنه كان شابًّا ومفتول العضلات، ولم تكن له عائلة تُقيِّده. كان من النوع الذي يُطلَق عليه «عمالة متجوِّلة»؛ حيث كان يتجوَّل من منجمٍ إلى حقل حصاد، ومن حقل حصادٍ إلى مُعسكرٍ لقطع الأخشاب. طرحَ عليه أحدُهم موضوعَ

مراقِب الأوزان، وسمع كلُّ مَن يجلسون إلى الطاولة ضحكته الساخرة. فليحاول أحد أن يطلب مراقِبًا للأوزان!

سأل هال: «هل تقصد أنهم سيطردونه؟»

كان جوابه: «ربما! ربما يجعلونه يطرد نفسه.»

«كيف هذا؟»

«يُنغِّصون عليه حياته حتى يرحل.»

هكذا كان الحال مع مراقِب الأوزان ... مثلما هو الحال مع الإيصالات والصكوك، ومع المتاجر التابعة للشركة، ومع جميع أحكام القانون التي تحمي عامل المناجم من الحوادث. قد تجوز لك المطالبة بحقوقك القانونية، ولكن إن فعلت ذلك، فستُصبح رهن مزاج رئيس العُمَّال. قد يجعل حياتك بائسة لَعِينة حتى تغادر بمحض إرادتك. أو قد يصبُّ عليك وابلًا من الشتائم، ويُصدِر الأمر «بإخراجك من الوادي!» ... وربما تتلقَّى ركلة من حذائه، أو تجد فُوَّهة مسدسه مُصوَّبة أسفل ذقنك.

الفصل السابع عشر

أحالت هذه الظروف منطقة الفحم بأكملها إلى مكانٍ لليأس. ولكن تمكَّن بعض العُمال من التأقلم، بطريقة ما، وتأسيس عائلاتٍ وتدبير منازل لائقة. فقد كان المرءُ إذا حالفه الحظُّ وتمكَّن من تفادي الحوادث، ولم يتزوَّج في سنٍّ مبكرة للغاية أو لم يُنجِب الكثير من الأطفال، وتمكَّن من مقاومة إغراءات الخمور، التي كثيرًا ما يقع فريسة لها نتيجة الإرهاق والرَّتابة، وتمكَّن، قبل كل شيء، من إرضاء رئيسه … فلا عجب إذن من أن يكون لديه منزل، بل ومبلغ بسيط من المال على سبيل الوديعة لدى الشركة.

كانت هذه الظروف تنطبق على جيري مِينيتِّي، الذي أصبح من أفضل أصدقاء هال. كان من ميلانو، وكان اسمه جيرولامو، ثم أصبحَ جيري بعدما امتزجَ في «بوتقة» الأعراق والجنسيات الأخرى. كان في الخامسة والعشرين من عمره تقريبًا، وكان طويل القامة على خلاف المعتاد في الإيطاليين. كان لقاؤهما — على غرار جميع تجارب هال الاجتماعية — يومَ الأحد. كان جيري قد نهض للتوِّ من السرير، واغتسلَ، وارتدى بذلة عملٍ زرقاء جديدة، ومن ثَم بدا مُبهِجًا للغاية في ضوء الشمس. سارَ برأسٍ مرفوع وكتفَين مستقيمتَين، وكان في إمكان المرءِ أن يرى أنه لا يعبأ كثيرًا بالعالم.

ولكن ما لفتَ انتباه هال لم يكن جيري بقدر مَن جاءَ في أعقابه؛ فقد كان استنساخًا مثاليًّا له، في رُبع حجمه، وكان أيضًا قد غسلَ وجهه للتوِّ وارتدى بذلة عمل زرقاء جديدة. وقد مشى أيضًا برأسٍ مرفوع وكتفَين مستقيمتين، لم يكن في إمكانك ألا تلاحظه وهو يرفع عَقِبَيه ويبذل قصارى جهده لمواكبة خطوات جيري. ولأنه كان يظل متأخرًا عن جيري حتى مع أطول خطواتٍ اتخذها لمواكبته، فقد راحَ يركض حتى اقتربَ من جيري، واستأنفَ السير في عَقِبَي أبيه.

كان هال يسير في الاتجاه نفسه، وكان وَقْعُ المشهد في نفسه كوَقْعِ موسيقى إحدى الفرق العسكرية؛ فقد أراد هو أيضًا أن يرفع رأسه إلى الأعلى ويُقِيم كتفَيه ويواكب خطواتهما. ولم يكن من الناس، حين يرون الابتسامة على وجهه، إلا أن يستديروا ويشاهدوه، ويُبادلوه الابتسامة أيضًا. لكن جيري مضى في طريقه بجديَّة، غير مدرك لهذا الهَرج والمرج خلفه.

دخَلا منزلًا؛ ولأنَّ هال لم يكن لديه ما يفعله سوى الاستمتاع بالحياة، وقفَ ينتظر خروجهما. عادا في الموكب نفسه، غير أن الرجل كان يحمل هذه المرة جوالًا على كتفه، به شيءٌ ما، بينما كان الفتى الصغير يحمل حمولةً أصغر تقليدًا له. فابتسم هال مرة أخرى، وعندما أصبحا أمامه، قال: «مرحبًا.»

قال جيري: «مرحبًا» وتوقَّف. ثم عندما رأى ابتسامة هال، ابتسم هو الآخر، ونظر هال إلى الفتى الصغير وابتسم، وبادله الفتى الابتسام. عندما رأى جيري ما جعل هال يبتسم، ابتسم أكثر من أي وقت مضى، وهكذا وقف الثلاثة في منتصف الطريق، يتبادلون الابتسامات دون سببٍ واضحٍ.

قال هال: «مرحى، يا له من فتًى رائع!»

قال جيري: «مرحى، بالطبع!» ووضع جواله. كان دائمًا على استعدادٍ للبقاء لأي فترة من الوقت إذا رغبَ أحدهم في إظهار إعجابه بالفتى.

سأل هال: «أهو ابنك؟»

قال جيري مرة أخرى: «بالطبع!»

قال هال: «مرحبًا أيها الفتى الهُمَام!»

قال الفتى: «مرحبًا بك!» كان في إمكان المرءِ أن يلمح في لحظةٍ أنه قد دخل إلى «بوتَقة الانصهار».

سأل هال: «ما اسمك؟»

كان الرد: «جيري.»

أومأ هال برأسه نحو الرجل ... «وما اسمه؟»

«جيري الكبير.»

«هل لديك أطفال آخرون في المنزل؟»

قال جيري الكبير: «طفل آخر. رضيع.»

قال جيري الصغير: «إنه ليس مثلي. إنه صغير.»

قال هال: «وهل أنت كبير؟»

فردَّ قائلًا: «إنه لا يستطيع المشي!»

ضحكَ هال وقال: «ولا أنت تستطيع المشي!» وأمسكَ به وعلَّقه على كتفه. ثم أضاف: «هيا، سوف نركب!»

ثم حملَ جيري الكبير جواله مرة أخرى، وانطلقوا، ولكن هذه المرة كان هال مَن تخلَّف عن الركب وواكبَ خُطاهما، بكتفَين مستقيمتَين رافعًا عقبَيه. أدركَ جيري الصغير المزحة في الأمر، وضحكَ وركلَ ساقَيه القويتَين في فرحة. استدار جيري الكبير، وهو لا يدرك المزحة، لكنه استمتعَ مثلهما تمامًا.

وصلوا إلى الكوخ المكوَّن من ثلاث غرفٍ، الذي كان منزلًا لجيري الكبير والصغير، وأتت السيدة جيري إلى الباب، وقد كانت فتاة صَقَلِّيَّة ذات عينَين سوداوين، ولم تبدُ كبيرة بما يكفي لإنجاب ولو طفل واحد. انتابتهم نوبةٌ أخرى من الابتسام، قال جيري الكبير عند انتهائها: «هَلَّا دخلتَ؟»

قال هال: «بالتأكيد.»

أضافَ الآخر: «ابقَ لتناول العشاء. لدينا مكرونة سباجيتي.»

قال هال: «مرحى! حسنًا، سأبقى وسأدفع الثمن في المقابل.»

قال جيري: «قطعًا لا! لن تدفع!»

صاحتِ السيدة جيري، وهي تهز رأسها الجميل نفيًا: «لا! لن تدفع!»

قال هال بسرعة، وقد رأى أنه ربما آذى مشاعرهما: «حسنًا. سأبقى إذا كنتِ متأكِّدة من أنَّ لديكِ ما يكفي من الطعام.»

قال جيري: «بالتأكيد، الكثير! أليس كذلك يا روزا؟»

قالت السيدة جيري: «بلى، بالتأكيد الكثير!»

قال هال: «إذن سأبقى. هل تحب السباجيتي أيها الصغير؟»

صاحَ جيري الصغير: «بكل تأكيدٍ!»

جالَ هال بناظرَيه في أرجاء هذا المنزل الإيطالي. لقد كان منزلًا يتماشى مع جمال قاطِنيه. كانت هناك ستائر من الحرير على النوافذ، أكثر لمعانًا وبياضًا مما كانت عليه في منزل رافيرتي، وكانت هناك سجادة ذات ألوان زاهية رائعة على الأرض، وصور زاهية الألوان لجبل فيزوف ولجاريبالدي على الجدران. كما كانت هناك خزانة بها العديد من الكنوز التي مِن الممتِع رؤيتها … بعض من المرجان وصَدَفة مَحَارٍ، وسِن سمكة قرش،

ورأس سَهم هِندي، وحسون تفاحي محشُوٌّ بغطاءٍ زجاجي فوقه. قبل ذلك بقليلٍ، لم يكن هال ليفكِّر في مثل هذه الأشياء باعتبارها محفِّزة للخيال بوجه خاص؛ لكن هذا كان قبل أن يبدأ في قضاء خمسة أسداس ساعاتِ يَقَظته في جوف الأرض.

تناولَ العشاء، عَشاءً إيطاليًّا أصليًّا؛ كانت السباجيتي إيطالية بامتيازٍ، ساخنة يتصاعد منها البخار، مع صلصة الطماطم ونكهة غنية من عُصارة اللحم. وطوال زمن الوجبة، كان هال يلعقُ شفتَيه، ويبتسم إلى جيري الصغير، الذي كان يلعق شفتَيه هو الآخر ويبادله الابتسام. كان الأمر مختلفًا تمامًا عنه في نُزُل «ريمينيتسكي» الشبيه بحوض تغذية الخنازير، إلى درجة أن هال حسب أنه لم يسبق له أن تناول عشاءً جيدًا كهذا في حياته. أما عن السيد جيري وزوجته، فقد كانا فخورَين للغاية بطفلهما الرائع، الذي كان يستطيع السباب باللغة الإنجليزية كما لو كان أمريكيًّا صميمًا، إلى درجة أنَّ الأرض لم تكن تسعُ فرحتَهما.

عندما انتهَوا من تناول الوجبة، رجع هال بظهره إلى الوراء وصاحَ، على غرار ما فعل تمامًا من قبل في منزل رافيرتي، وقال: «يا إلهي، كم أتمنَّى لو كان في إمكاني أن أُقيم هنا!»

رأى مضيفَه ينظرُ إلى زوجته. وقال: «حسنًا. تعالَ إلى هنا. وسأستضيفُك. أليس كذلك يا روزا؟»

قالت روزا: «بلى، بالتأكيد.»

نظر هال إليهما في ذهولٍ. وسألَ: «هل أنت مُتأكِّد أنهم سيسمحون لك؟»

«يسمحون لي؟ ومَن يمنعُني؟»

«لا أعرف. ربما ريمينيتسكي. قد تقع في مشكلة.»

ابتسمَ جيري. وقال: «لست خائفًا. لديَّ أصدقاءُ هنا. كارمينو قريبي. هل تعرف كارمينو؟»

قال هال: «لا.»

«إنه رئيس عُمَّال في المنجم رقم ١. إنه يُساندني. فليذهب العجوزُ ريمينيتسكي إلى الجحيم! تعالَ إلى هنا، سأعطيك سريرًا في تلك الغرفة، وسأعطيك طعامًا جيدًا. كم تدفع إلى ريمينيتسكي؟»

«سبعة وعشرين دولارًا في الشهر.»

«حسنًا، ادفع لي سبعة وعشرين، وستحصل على كل شيءٍ جيد. لا يمكن الحصول على الكثير من الأشياء هنا، لكن روزا طبَّاخة ماهِرة، وتستطيع تدبير الأمر.»

كان صديقُ هال الجديد — إلى جانب كونه المفضَّل لدى رئيسه — «مُفجِّر ألغام»؛ فقد كان من واجبه أن يتجوَّل في المنجم ليلًا، ويفجِّر شحناتِ البارود التي كان عُمَّال المناجم يُعِدُّونها نهارًا. كان هذا عملًا خطيرًا، ويتطلَّب رجلًا ماهرًا، وكان أجره جيدًا؛ ومن ثَم تأقلم جيري مع هذا العالَم، ولم يكن خائفًا من التعبير عن رأيه، في حدودٍ معينة. تجاهلَ احتمالَ أن يكون هال جاسوسًا للشركة، وأدهشه بالحديث المتمرِّد عن أنواع الفساد المختلفة في نورث فالي، وفي أماكن أخرى عمِل فيها منذ قدومه إلى أمريكا عندما كان لا يزال صبيًّا. عَلِمَ هال أنَّ مينيتي كان اشتراكيًّا؛ فقد اشتركَ في صحيفة اشتراكية إيطالية، وقد علِم موظف مكتب البريد توجُّه هذه الصحيفة وانتماءها، وكان «يسخر» منه لهذا الأمر. والأهم من ذلك هو أنَّ السيدة مينيتِّي كانت اشتراكية أيضًا؛ وهذا يعني الكثيرَ للرجل، كما أوضحَ جيري؛ لأنها لم تكن بذلك تحت سيطرة القَس.

الفصل الثامن عشر

اتخذ هال الخطوة على الفور، وضحَّى بالمبلغ، الذي كان ريمينيتسكي سيُحصِّله من أجره لدى الشركة نظير الفترة التي أقامها لديه. لكنه كان على استعدادٍ لدفع ثمن امتياز الإقامة في منزلٍ نظيفٍ وتناوُل طعام نظيف. وقد روَّحَ عن نفسه أن وجدَ أنه في نظر أصدقائه الأيرلنديين كان يخسر مكانته الاجتماعية بالذهاب للعيشِ مع مينيتي. بدا أنه كانت هناك انقساماتٌ اجتماعية أكثر صرامة في نورث فالي. كان الأمريكيون والإنجليز والاسكتلنديون ينظرون بازدراءٍ إلى الويلزيين والأيرلنديين، وكان الويلزيون والأيرلنديون ينظرون بازدراءٍ إلى الإيطاليين والفرنسيين، وكان الإيطاليون والفرنسيون ينظرون بازدراءٍ إلى البولنديين والآتين من أوروبا الوُسطى، وينظر هؤلاء بدورهم بازدراءٍ إلى اليونانيين والبُلغاريين وأهل «الجبل الأسود»، وهكذا عَبْر عشرات الأجناس في أوروبا الشرقية، والليتوانيين، والسلوفاكيين، والكرواتيين، والأرمن، والرومانيين، والروميليين، والروثينيين … إلى أن ينتهي الأمر بالمكسيكيين، والزنوج، وفي المرتبة الأخيرة والأدنى، اليابانيين.

اكتشفَ هال ذلك عندما ذهبَ في زيارة أخرى إلى منزل رافيرتي. تصادفَ وجودُ ماري بيرك هناك، وعندما لمحته، تتطاير الشرر من عينَيها الرماديتَين. صاحت: «كيف حالك يا سيد مينيتي؟»

ردَّ قائلًا: «كيف حالكِ يا آنسة روزيتي؟»

«هل أعجبتكَ السباجيتي؟»

«ألا تعجبكِ السباجيتي؟»

ضحكت الفتاة قائلة: «لقد أخبرتُكَ ذات مرة … هَنيئًا لي البطاطس؛ فهي وجبة جيدة بما يكفي!»

قال: «وهل تذكرين بما أجبتكِ؟»

نعم كانت تذكر! أخذتْ وجنتاها لونَ بتلات الورود التي أخبرها أنها حتمًا تعيش عليها.

ثم انضمَّ إلى المزاح أطفالُ رافيرتي، الذين أصبحوا يعرفون هال جيدًا. فسألوه مازحين: «هل أعجبكَ السباجيتي يا سيد مينيتي!» عندما استوعبَ هال الأمر، أرادَ أن يثأر لنفسه بتذكيرهم بأنه عرضَ الإقامة مع الأيرلنديين، لكنَّ طلبه قُوبِل بالرفض؛ لكنه خشي ألا يستوعب رافيرتي الأكبر هذه المزحة، ومن ثَم تظاهرَ — بدلًا من ذلك — بأنه كان يفترض طوال الوقت أنَّ عائلة رافيرتي كانت من الإيطاليين. وجَّه حديثه إلى رافيرتي الأكبر بجدية، ناطقًا اسمه مع التركيز على المقطع الثاني … «ساينر رافيرتي»؛ وقد أمتعَ ذلك الرجلَ العجوز إلى درجة أنه ظلَّ على مدى ساعة يضحك عليه بين الحين والآخر. انفتحَ قلبه لهذا الشاب المفعَم بالحيوية؛ ونسِي بعضًا من شكوكه، وبعد أن خلدَ الصغارُ إلى النوم، تحدَّث بصراحة — نوعًا ما — عن حياته كعامِل في منجم للفحم.

كان «العجوز رافيرتي» في طريقه ذات يوم إلى أن يتقلَّدَ منصبًا عاليًا. كان قد عُيِّن رئيس مَقْلَب في منجم سان خوسيه، لكنه تخلَّى عن وظيفته لأنه اعتقدَ أن دينه لا يسمح له أن يفعل ما كانوا يأمرونه أن يفعله. لقد كان أمرًا فظيعًا أن يقترحوا تثبيت حمولاتِ العمَّال عند مستوى معين بغض النظر عن كمية الفحم التي قد يستخرجونها؛ وعندما استقالَ رافيرتي بدلًا من الانصياع لمثل هذه الأوامر، كان عليه أن يترك المنجم تمامًا؛ لأن الجميع بالطبع كانوا يعرفون سبب استقالته، وكان لمجرد وجوده تأثيرٌ في إبقاء السخط حيًّا.

سأل هال: «هل تعتقد أنه لا توجد شركاتٌ نزيهة على الإطلاق؟»

أجابَ الرجلُ العجوز: «يوجد بعضٌ منها، لكن الحقيقة أن الأمر ليس بهذه السهولة التي قد تعتقدها. عليهم أن يُعدِّلوا أسعارهم حسب أسعار الشركات الأخرى، وإذا بخس أحدُهم الوزن، فإنه يتعيَّن على الآخرين أن يفعلوا مثله. إنها طريقة مقنَّعة لخفض الأجور دون أن يكتشفها العُمَّال، وهناك أشخاصٌ لا يحبُّون أن يكسبوا أقل من غيرهم.» وجدَ هال نفسه يُفكِّر في العجوز بيتر هاريجان، الذي كان يمتلك الشركة العامة للوقود، والذي قال ذات مرة: «أنا من أشد المطالِبين بالأرباح!»

تابع العجوز رافيرتي: «مشكلة عامل المنجم هي أنه ليس لديه مَن يتحدَّث بالنيابة عنه. إنه يقف بمفرده …»

خلال هذه المحادثة، ألقى هال نظرة سريعة على «ماري الصهباء»، ولاحظ أنها كانت تجلس وذراعاها على الطاولة، وقد انحنت كتفاها القويتان دلالةً على يومٍ من العمل الشاق.

لكنها اقتحمت الحديثَ عند هذه النقطة، وقالت فجأة بنبرة مليئة بالازدراء: «مشكلة عامل المنجم هو أنه عبد!»

قاطعها الرجلُ العجوز مُحتجًّا: «آه، الآن ...»

لكنها واصلت كلامها قائلة: «إنَّ العالَم كلَّه ضده، وليس لديه الوعي الذي يجعله يتعاون مع الآخرين ... لتشكيل اتحادٍ نِقابي ومناصرته!»

ساد صمتٌ مفاجئ في منزل رافيرتي. حتى هال كان مذهولًا ... لأنَّ هذه كانت المرة الأولى في أثناء إقامته في المعسكر التي سمعَ فيها الكلمة المروِّعة «اتحاد» تُنطَق بصوتٍ يعلو مجرد الهَمس.

قالت ماري وعيناها الرماديتان مليئتان بالتحدي: «أعرف! لا تريد أن تسمع هذه الكلمة تُنطَق! لكن البعض سيقولونها رغمًا عنك!»

قال الرجل العجوز: «لا بأس. عندما تكون في سن الشباب، وتكون امرأة أيضًا ...»

«امرأة! هل النساء فقط مَن لديهن الشجاعة؟»

قال بابتسامة ساخرة: «بالطبع، النساء لديهن ألسنة، ولا يمكنهن الكَفُّ عن استخدامها. حتى رئيس العُمَّال يعلم ذلك.»

أجابت ماري، وقد تخضَّبت وجنتاها باللون الأحمر: «عساه كذلك. وربما يكون النساءُ أكثر مَن يعاني في معسكرات الفحم، وربما يعلم رئيس العُمَّال ذلك.»

قال رافيرتي: «عساه يكون كذلك»، ثم سادَ الصمتُ فيما جلسَ هو يدخِّن غليونَه. كان من الواضح أنه لم يكن مهتمًّا بمواصلة الحديث؛ فلم يكن يريد الحديث عن الاتحادات النقابية في منزله. وبعد فترة من الوقت، حاولت السيدة رافيرتي — على استحياء — تغيير مسار الحديث بالسؤال عن حالة أخت ماري التي كانت مريضة، وبعد أن ناقشوا عددًا من أدوية الأطفال، نهضت ماري قائلة: «سأنصرف.»

نهضَ هال أيضًا. وقال: «سأسيرُ معكِ، إذا سمحتِ.»

قالت: «بالتأكيد»، وبدا أن عائلة رافيرتي قد انتشت لرؤيتها هذا المشهد الذي يتجلَّى فيه بعضٌ من الشهامة.

الفصل التاسع عشر

تجوَّلا في الشارع، وعلَّقَ هال قائلًا: «تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها هنا عن الاتحادات النقابية.»

نظرت ماري حولها في توترٍ. وهمست: «صَه!»

«لكنني حسبتُكِ قلتِ إنكِ تتحدَّثين عنها!»

أجابت: «التحدُّث في منزل أحد الأصدقاء شيء، والتحدُّث في الخارج شيءٌ آخر. ما الفائدة من فقدانك لعملك؟»

أخفضَ صوتَه. وقال: «هل ترغبين جديًّا في أن يكون لديكم اتحاد نقابي هنا؟»

قالت: «جديًّا؟ ألم ترَ السيدَ رافيرتي ... يا له من جبان؟ هذا هو حالهم! كلَّا، لقد فقدتُ أعصابي بعضَ الشيء فحسب. لقد فقدتُ رشدي بعضَ الشيء الليلة ... شيءٌ ما حدثَ جعلني لا أتمالك نفسي.»

اعتقد هال أنها ستواصل حديثَها، ولكن من الواضح أنها غيَّرت رأيها.

وأخيرًا سأل: «ماذا حدث؟»

أجابت: «أوه، لن يفيد الحديث»، وسارا مسافة أبعد قليلًا صامتَين.

قال، وقد أحدثَ اللُّطفُ الذي خالج صوتَه أثره فيها: «أخبريني، هلا فعلتِ؟»

قالت: «أنتَ لا تعرف الكثير عن معسكرات الفحم يا جو سميث. لا يمكنك تخيُّل ما يعنيه أن تكون امرأة في مكان كهذا؟ وامرأة، حسبما يعتبرونها، حسنة المظهر!»

قال: «أوه، هذا هو الأمر إذن!» ولاذَ بالصمت مجددًا. ثم غامرَ بعد فترة بأن قال: «هل هناك مَن يُزعجكِ؟»

«بالطبع! هناك مَن يزعجنا دائمًا نحن مَعشَرَ النساء! دائمًا! لا يمرُّ يوم دون أن نسمع ما يزعجنا. الغمزات والوَكزات ... في كل وجهة تقصدها.»

«مَن الذي يُزعجكِ؟»

«رؤساء العمل، والموظفون ... أيُّ شخص يحظَى بفرصة للحياة الرغدة والعمل المرموق، ويعتقد أنه يستطيع تقديم المال للفتيات. يبدأ الأمر والفتاة لا تزال ترتدي التنانير القصيرة، وبعدها لا تنعم بالسلام أبدًا.»

«ألا يمكنكِ ردعهم؟»

«لقد ردعتُهم بعضَ الشيء، لكنهم الآن يلاحقون والدي العجوز.»

«ماذا؟»

«بالطبع! هل تفترض أنهم لم يُجرِّبوا ذلك؟ إنه مهوُوس بالخمر، ولا يشبع منه أبدًا!»

«وهل والدُكِ؟ ...» لكن هال توقَّف. لم تكن لترغب في أن يسألها هذا السؤال!

لكنها رأت تردُّده. فقالت: «لقد كان رجلًا محترمًا ذات يوم. ولكنَّ الحياة هنا تُحيل الرجال إلى جُبناء. في كل ما تحتاج إليه، وفي كل مكان تتجه إليه ... يجب أن تطلب خدماتٍ من أحد رؤساء العمل. المكان الذي تعمل فيه، أو العمل الميت الذي يراكمونه عليك، أو ربما تحتاج إلى المزيد من الرصيد لدى المتجر، أو ربما تحتاج إلى أن يأتيك الطبيب عندما تكون مريضًا. في هذه اللحظة التي أحدِّثُكَ فيها يوجد تسريبٌ في سقف منزلنا ... إلى درجة أننا لا نستطيع العثور على مكانٍ جافٍّ لننام فيه عند هطول المطر.»

قال هال: «فهمت. مَن صاحب المنزل؟»

«لا يوجد هنا بالطبع إلا منازل الشركة.»

«مَن مِن المفترض أنْ يُصلحه؟»

«السيد كوسيجي، سمسار تأجير المنازل. لكننا يَئِسْنَا منه منذ فترة طويلة ... إن كان ثمة ما يفعله، فهو أنه يرفع الإيجار. ذهبَ أبي اليوم إلى السيد كوتون. من المفترض أن يعتني بسلامة المكان، ولا يبدو أنه من الصحي أن يَبيتَ الناسُ مُبتَلِّين في أَسِرَّتِهم.»

سألَ هال، عندما توقَّفتْ مرة أخرى: «وماذا قال كوتون؟»

«حسنًا، ألا تعرف جيف كوتون ... ألا يمكنك تخمين ما عساه أن يقوله؟ «لديك فتاة جميلة يا بيرك! لماذا لا تجعلها تُنصِتُ إلى صوت العقل؟» ثم ضحكَ، وأخبر أبي العجوز أنه من الأفضل أن يتعلَّم الفهم بالتلميح. من السيئ لرجلٍ عجوز أن ينام تحت المطر ... ربما يُصاب بالتهاب رئوي.»

لم يعُد هال قادرًا على كبح سؤاله: «ماذا فعل والدُكِ؟»

قالت بسرعة: «لا أُريدك أن تُسيء الظن في والدي العجوز. لقد كان رجلًا مِغوارًا قبل أن يتمكَّن أوكالاهان منه. ولكنه الآن يعرف ما يمكن أن يفعله قائدُ المعسكر بعامِل منجم!»

الفصل العشرون

قالت ماري بيرك إنَّ الشركة لا تعبأ بكسر عظام عُمالها، ولم يمضِ وقتٌ طويل بعد استئناف العمل في المنجم رقم ٢ حتى أُتيحَتِ الفرصة لهال كي يرى حقيقة هذا الكلام بنفسه.

تعتمد حياةُ عامِل المنجم على استخدام الأخشاب المناسبة لدعم المكان الذي يعمل فيه. تعهَّدت الشركة بتزويد الأخشاب، ولكن عندما كان عامل المنجم يحتاج إليها، فما كان ليجد شيئًا في متناوَل يده، وكان يتعيَّن عليه القيام برحلة طويلة إلى سطح المنجم. كان عليه أن يختار الأخشاب ذات الطول المناسب، وأن يضع العلامات عليها ... على افتراض أن أحد العُمَّال سيُحضرها إلى مكان عمله. ولكن بعد ذلك قد يحملها شخصٌ آخر بعيدًا ... هنا كان يتجلَّى المزيدُ من أوجه استغلال النفوذ والمحسوبية، وربما كان عامل المنجم يخسر يومًا أو يومَين من أجره، بينما كان حسابه في هذه الأثناء يتراكم في المتجر، وربما لم يكن أطفاله يمتلكون أحذية للذهاب إلى المدرسة. وفي بعض الأحيان، كان يفقدُ الأملَ في انتظار الأخشاب، ويستمر في استخراج الفحم؛ ومن ثَم كان من الممكن أن تتساقط عليه الصخور ... وتُصدر هيئةُ المحلَّفين ضده حكمًا «بالإهمال»، ويتحدَّث أصحابُ المناجم في المحافل الرسمية عن مدى استحالة إقناع عُمَّال المناجم بتوخِّي الحذر. قرأ هال قبل ذلك بفترة ليست بطويلة حديثًا صحفيًّا كان قد أدلى به رئيسُ الشركة العامة للوقود إلى إحدى الصحف، وأوضحَ فيه فكرة أنه كلما زادت خبرةُ عامل المناجم، زادت خطورة توظيفه؛ لأنه يظن وقتها أنه يعرف كلَّ شيء، ولن يبالي باللوائح الحكيمة التي وضعتها الشركة حفاظًا على سلامته!

في المنجم رقم ٢، كانت هناك بعضُ الأماكن التي تُدار بطريقة «الغُرَف والأعمدة» أو «الفراغات والدعامات»، حيث يُستخرَج الفحم من سلسلة من الغُرف، ويُترَك الجزءُ المقابل

لجدران الغرف ليدعم السطح. هذه الجدران هي «الأعمدة» أو الدعامات، وعند الوصول إلى نهاية عِرْق الفحم، يبدأ عامل المنجم في العمل على نحوٍ عكسي؛ حيث «يسحب الأعمدة»، ويترك السقف لينهارَ خلفه. وهذه مهمة خطيرة؛ إذ عليه أن يُنصِت جيدًا في أثناء عمله إلى أصوات قرع الصخر أعلى رأسه، وأن يقرِّر لحظة الانسحاب. وفي بعض الأحيان يكون مُضطربًا للغاية لشدة حرصه على الحفاظ على أداةٍ معه، أو أحيانًا يأتي الانهيار دون سابق تحذيرٍ. في هذه الحالة، نادرًا ما يُنتشَل جثمان الضحية؛ لأنه لا مفرَّ من الإقرار بأن الشركة لم تكن لتتمكَّن من توفير طريقة أفضل لدفن جثمان العامِل من تلك التي يُدفَن بها تحت الجبل.

عثروا في المنجم رقم ٢ على رجلٍ في هذه الهيئة. كان قد تعثَّر وهو يركض، وسرعان ما عَلقَ الجزءُ السفلي من جسده بالأرض؛ فكان على الطبيب أن يأتي ويحقنه بالأفيون بينما كان طاقم الإنقاذ يُحرِّره. لم يسمع هال بالحادثة حتى رأى الجثة ممدَّدة على لوحٍ ومغطاة بجِوالَين قديمَين. لاحظَ أنَّ أحدًا لم يتوقف لإرجاع النظر. سأل الصديقَ مادفيك سائسَ البِغال في طريق خروجه من المنجم، وأجابه: «إنه رجلٌ ليتواني ... انسحق تحت الأرض.» وكان هذا كلَّ ما في الأمر. لم يعرفه أحد، ولم يهتم لأمره أحد.

تصادف أنَّ مايك سِيكوريا كان يعمل في مكان قريب، وكان واحدًا من أولئك الذين ساعدوا في إخراج الضحية. كان «زميل» مايك الزنجي في عجلة شديدة من أمره لإزاحة جزءٍ من الصخرة عن الطريق، وقد انسحقت يده، وما كان ليتمكَّن من العمل لمدة شهر أو نحو ذلك. أخبر مايك هال بالأمر، بلُغته الإنجليزية المكسَّرة غير المُتقَنة. كان أمرًا فظيعًا أن ترى رجلًا محاصَرًا هكذا، يلهث، وعيناه تكاد تنبثقان من رأسه. من حُسن الحظ أنه كان شابًّا، ولم تكن لديه عائلة.

سأل هال عما كانوا سيفعلونه بالجثة، وكان الجواب أنهم كانوا سيدفنونه في الصباح. كانت الشركة تمتلك قطعة أرضٍ أعلى الوادي.

سأل هال: «لكن أما كانوا سيُجرون تحقيقًا؟»

كرَّر الآخر: «تحقيق؟ ما هو كي يجروا من أجله تحقيقًا؟»

«ألا يُعاين الطبيبُ الشرعي الجثة؟»

هزَّ السلوفاكي العجوز كتفَيه المنحنيتَين؛ لو كان هناك طبيبٌ شرعي في هذه الناحية من العالَم، فإنه لم يسمع به من قبل، وقد عملَ في عددٍ كبيرٍ من المناجم، ورأى عددًا كبيرًا من العُمال تُوارَى جثامينهم الثرى. «ضَعه في صندوقٍ واحفر حفرة»، هذه كانت الطريقة التي وصفَ بها الإجراءَ المُتَّبع.

«وهل يأتي القَس؟»

«القَس بعيد جدًّا.»

بعد ذلك، استفسرَ هال عن الأمر من المتحدِّثين باللغة الإنجليزية، وعلِم أنَّ الطبيب الشرعي يأتي أحيانًا إلى المعسكر. وأن من شأنه تشكيل هيئة مُحلفين تتألَّف من جيف كوتون، قائد المعسكر، وبريدوفيتش، اليهودي الجاليكي الذي كان يعمل في متجر الشركة، وموظف أو اثنَين من مكتب الشركة، وعامِلَين مكسيكيَّين لم تكن لديهما أدنى فكرة عما حدث. تُعاين هيئةُ المحلَّفين الجثة، وتسأل رجُلَين عما حدث، ثم تُصدِر الحُكم: «نجد أن المتوفَّ قد لقِي حَتفه جراء سقوط صخرة عليه نتيجة خطأ ارتكبه.» (في حالة واحدة أضافوا التفاصيل الوصفية: «ليس لديه أقارب، ولديه عدد قليل للغاية من الأصدقاء!»)

كان الطبيبُ الشرعي يحصل على أتعابٍ مقابل هذه الخدمة، وكانت الشركة تحصل على حُكمٍ رسمي، والذي كان من شأنه أن يكون نهائيًّا تحسُّبًا لتهديد أي من القناصل الأجانب برفع دعوى للضرر. لقد وضعوا الأمور تحت سيطرتهم، وأداروها بعناية شديدة إلى درجة أن أحدًا في نورث فالي لم يحصل على أي شيءٍ تعويضًا عن موتٍ أو إصابة، بل في الواقع، كما اكتشف هال لاحقًا، لم تُرفَع دعوى ضررٍ ضد أي صاحبِ منجم في تلك المقاطعة لمدة ثلاثة وعشرين عامًا!

كانت لهذا الحادث بالتحديد تبعاتٌ على هال؛ لأنه أعطاه فرصة لرؤية حقيقة العمل في مجال التعدين. لم يكن للعجوز مايك مساعِدٌ، واقترحَ أن يتولَّى هال هذه المهمة. كانت أفضل من وظيفة مسئول الإسطبل؛ لأن أجرها كان دولارَين في اليوم.

سأل هال: «ولكن هل سيسمح لي رئيس العُمَّال بتغيير وظيفتي؟»

قال مايك: «أَعْطِه عشرة دولارات، وسيُغيِّر لك وظيفتَك.»

قال هال: «للأسف، ليس معي عشرة دولارات.»

قال الآخر: «أَعْطِه صكًّا بقيمة عشرة دولارات.»

وضحكَ هال. «إنهم يأخذون الصكوك على سبيل الرشوة، أليس كذلك؟»

قال مايك: «بالتأكيد يأخذونها.»

واصلَ الآخر: «ماذا لو عاملتُ بِغالي معاملةً سيئة؟ يمكنني إذن أن أجعله يُغيِّر لي وظيفتي دون مقابل!»

ردَّ مايك: «سيُغيِّر مكانك إلى الجحيم! ستُغضِبه، فيضعنا في غرفة سيئة، ويفرض علينا عشرة دولارات في الأسبوع. لا يا سيدي ... بل تُعطيه شرابًا، وتتحدَّث عنه جيدًا، وتجعله يشعر بالارتياح. تحدَّث معه بلهجة أمريكية ... مازِحْه!»

الفصل الحادي والعشرون

كان هال سعيدًا بهذه الفرصة للتعرُّف بشكلٍ أفضل على رئيس العمَّال. كان أليك ستُّون يبلغ طوله ست أقدام، وكان متناسق القوام، بذراعَين كفخِذَي خنزير ... ناعمتَين وممتلئتَين بالشحوم، ولكنه كان يمتلك قوة هائلة. كان قد تعلَّم أسلوبه في معاملة الرجال في مزرعة لقصب السكر في لويزيانا ... المعلومة التي أوضحت لهال الكثيرَ عنه عندما سمعَها. ومثله مثل مدير المسرح الذي لا يهتم بالأسماء الحقيقية لممثِّليه، وإنما يناديهم بأسماء شخصياتهم، اعتاد ستون مخاطبة رجاله بجنسياتهم: «أنت أيها البولندي، أدخِل هذه الصخرة إلى العربة! أيها الياباني، أحضِر هذه الأدوات إلى هنا! أغلِق فمك الآن أيها الإيطالي واذهب لمباشرة عملك، وإلا ركلتُ مؤخرتَك، هذا بالطبع إنْ ظللتَ على قيد الحياة!»

شهد هال ذات مرة نزاعًا شبَّ حول مَن كان مَنُوطًا بمهمة نقل الأخشاب. كان هناك مِنشار كبير بمقبضَين مُلقًى على الأرض، وأمسكَه ستون ثم بدأ بالتلويح به، كأنه سيفٌ عريض ضخم، وذلك في مواجهة عامِل منجم بوهيمي ضئيل الحجم. «حمِّل هذه الأخشاب أيها الوسط أوروبي، وإلا مزقتُكَ إربًا!» وعندما تراجعَ الرجلُ المذعور منكمشًا، تبِعَه حتى أصبحت ضحيتُه مستندة إلى الجدار، وكان السلاحُ يتأرجح جيئةً وذهابًا تحت أنفه على غرار قصة «الحفرة والبندول». «سأُقطِّعُكَ إلى أشلاء أيها الوسط أوروبي! سأصنعُ منك يَخنةَ لحم!» عندما تراجع رئيس العمَّال أخيرًا، قفزَ البوهيمي الضئيل البِنية لتحميل الأخشاب.

كان الجزءُ الغريب في الأمر بالنسبة إلى هال هو أنَّ ستون بدا هادئًا للغاية على الرغم من تصرُّفه. يكاد لم ينفِّذ تهديداته المتعطِّشة إلى الدماء إلا مرة واحدة من ألف مرة، وكان يضحك عندما ينتهي من سبابه، وكان الشخصُ الواقع تحت تهديده يبادُله الابتسام ... ولكن دون التراخي في عمله الذي كان يواصله مرعوبًا. بعد جولة التلويح بالسيف

العريض، خاطبَ رئيسُ العُمَّال هال، وقد لاحظَ أنه كان يشاهد ما حدث، قائلًا: «هذه هي الطريقة التي عليك أن تديرَ بها هؤلاء الأجانب.» اعتبر هال هذا التعليق بمنزلة تكريم لدمه الأمريكي، وكان يشعر بالإطراء الشديد.

بحثَ عن رئيسه في ذلك المساء، ووجده واضعًا قدمَيه على سور منزله. قال: «يا سيد ستون، لديَّ شيءٌ أريدُ أن أسألكَ عنه.»

قال الآخر: «انطق يا فتى.»

«ألا تريد أن تأتي إلى الحانة وتتناول شرابًا؟»

«تريد الحصول على شيءٍ مني، أليس كذلك؟ لا يمكنك خداعي يا فتى!» لكنه أنزلَ قدمَيه عن السور، وضربَ غليونه مخرجًا منه الرماد، وسار في الشارع مع هال.

قال هال: «يا سيد ستون، أريدُ أن أغيِّرَ عملي.»

«ما الأمر؟ هل ضجرتَ من تلك البِغال؟»

«لا يا سيدي، ولكنَّ أمامي وظيفة أفضل. مساعِدُ مايك سِيكوريا طريحُ الفراش، وأودُّ أن آخذَ مكانه، إذا وافقت.»

«عجبًا، هذا مكان رجل زنجي يا فتى. ألست خائفًا من أخذ مكان رجل زنجي؟»

«لماذا يا سيدي؟»

«ألا تسمع عن نَحْسِهم؟»

قال هال: «ما أريده هو أجر الزنجي.»

قال رئيس العُمَّال من فوره: «لا، ستلزم البِغال. لقد حصلتُ على عامل إسطبل جيد، ولا أريدُ أن أخسره. ستظل، وشيئًا فشيئًا سأعطيكَ زيادة. عندما تذهبَ إلى تلك الحُفَر، فإنَّ أول ما ستعرفه هو أنه من الممكن أن تسقط صخرة على رأسك، ولن يفيدك أجر الزنجي في شيء حينئذٍ.»

وصلَا إلى الحانة ودخلَا. لاحظ هال الصمت قد خيَّم على المكان، وكان الجميع يُومئون برءوسهم ويراقبون. كان لطيفًا أن يراه الحاضرون يصحَب رئيسه في العمل.

تقدَّم أوكالاهان، صاحب الحانة، بابتسامته الراقية المهذَّبة وانضمَّ إليهما، وطلبوا الويسكي بدعوة من هال. واصلَ رئيس العمَّال حديثه مع هال قائلًا: «كلَّا، ستظل في عملك. ستظل فيه، وعندما تتعلَّم إدارة البِغال، سأجعلك رئيسَ عُمَّال، وأجعلك تدير الرجال.»

ضحكَ بعض الحضور. صَبَّ رئيسُ العمَّال الويسكي لنفسه، ووضعَ الكأس على منضدة الشراب. قال بنبرة تمكِّن الجميعُ من سماعها: «تلك ليست مزحة. عرفتُ ذلك عن

الزنوج منذ فترة طويلة. قالوا لي: «بالله عليك، لا تتحدَّث مع زنوجنا بتلك الطريقة. ليلة ما سوف تشتعل النيرانُ في منزلك.» لكنني قلتُ: «إنْ أنت لاطفتَ الزنجي ودلَّلته، أفسدتَه وجعلتَه يُسيئ الأدب.» وقلتُ: «أيها الزنجي، لا تُطلِق شياطينك عليَّ، وإلا ركلتُ مؤخرتَك.» وقد عرفوا أنني رجلٌ عند كلمتي، فأسرعوا في مباشرة أعمالهم.»

قال هال: «فلتتناول كأسًا أخرى.»

احتسَى رئيسُ العمَّال شرابَه، وأصبح أكثر لطفًا ومؤانسة، فروى قصصًا عن الزنوج. كان هناك موسم ذروة في مزارع قصب السكر، حيث كانت القاعدة عشرين ساعة من العمل يوميًّا، وعندما حاول بعض الزنوج التهرُّب من ذلك، كانوا يُلقون القبض عليهم بتهمة السَّبِّ أو لعب القمار، ويعاملونهم باعتبارهم مذنِبين يؤدُّون أحكامًا بالأعمال الشاقة دون أجر. أخبره رئيس العمَّال عن واقعة مُثول «زنجي أمريكي» أمام قاضي الصلح، وكانت التهمة: «أنه أحول العينَين»، الجريمة التي حُكم عليه فيها بستين يومًا من الأشغال الشاقة. استمتعَ بهذه الحكاية الرجالُ في الحانة ... الذين بدت مشاعرهم العنصرية أقوى من مشاعرهم الطَّبقية.

عندما خرج الثنائي مرة أخرى، كان الوقت مُتَأخرًا، وكان رئيس العُمَّال ودودًا. استهلَّ هال حديثه: «يا سيد ستون، لا أريد أن أزعجك، لكني أودُّ بشدةٍ الحصول على أجرٍ أكبر. إذا استطعتَ أن تساعدني بطريقتك في الحصول على وظيفة هذا المساعِد، فسيُسعدني جدًّا مشاركة الأجر معك.»

قال ستون: «أشاركَ الأجر؟ ماذا تقصد؟» انتظر هال مُتوجِّسًا بعضَ الشيء ... لأنه في حال ما لم يوافق مايك، فعلى هال أن يتوقَّع ضربة من ذراع رئيس العُمَّال القوية.

«هذا يعني أنَّ أجري سيزيد بنحو خمسة عشر دولارًا في الشهر. ليس معي أي أموال، ولكن إذا أردتَ أن تأخذ عشرة دولاراتٍ من حسابي في المتجر، فسيَفي هذا بالغرض.»

سارا مسافةً قصيرة في صمتٍ. قال رئيس العمَّال أخيرًا: «حسنًا، سأخبرك، هذا السلوفاكيُّ العجوز كثيرُ الكلام ... إنه أحدُ هؤلاء الرجال الذين يعتقدون أنَّ باستطاعتهم إدارة المنجم إذا أُتيحت لهم الفرصة. وإذا بدأتَ في الاستماع إليه، واعتقدتَ أن في استطاعتك المجيء إليَّ والتذمُّر، فأُقسمُ إنني ...»

بادرَ هال بقوله: «لا بأسَ يا سيدي. سأتدبَّر أمره ... سأُسكِتُه. إذا كنت تريد أن أرى مَنِ الذين يتحدَّث معهم، وإذا كان أيٌّ منهم يحاول إثارة المشكلات، فسأُخبركَ.»

قال رئيسُ العمَّال على الفور: «حسنًا، هذا هو الكلام السليم. فلتفعل ذلك، وسأُبقي عيني عليك وأعطيك فرصة. ليس لأنني أخافُ من ذلك الرجل العجوز … لقد أخبرتُه في المرة الأخيرة أنني إذا سمعتُه يتحدَّث مرة أخرى فسأُركل مؤخرته. ولكن عندما يكون لديك نصفُ ألف من هذه الحثالة من الأجانب، فسيكون بعضُهم من الفوضويِّين وبعضُهم من بلغاريا والجبل الأسود، الذين كانوا يتنازعون في أوطانهم …»

قال هال: «فهمت. حُقَّ لك أن تراقبهم.»

قال رئيسُ العُمَّال: «هذا كلُّ شيء. وبالمناسبة، عندما تخبر موظف المتجر بشأن الخمسة عشر دولارًا، فلتقُل له فحسب إنك خسرتها في لعبة البوكر.»

استدرك هال بسرعة: «لقد قلتُ عشرة دولارات.»

أجاب الآخر: «نعم، أعرف. لكني قلتُ خمسة عشر!»

الفصل الثاني والعشرون

قال هال لنفسه بكل ارتياحٍ ورضًا إنه سيباشر الآن العمل الحقيقي لتعدين الفحم. لقد كان خياله مشغولًا به فترة طويلة، ولكن، كما يحدث غالبًا في حياة المرء، فإن أول احتكاكٍ فعلي بالواقع يقتل ما نسجَه خيالُ سنواتٍ عديدة. لقد قتل كلَّ ما جالَ في مُخيِّلته، في الواقع؛ فقد وجد هال أنَّ كامل مخزونه من الطاقة، الذهنية والجسدية على حَدٍّ سواء، كان مُستهلَكًا في العذاب الدائم. لو أنَّ أحدًا أخبره بالرعب الذي تنطوي عليه محاولته للعمل في غرفة يبلغ ارتفاعها خمس أقدام، ما كان ليصدِّقه. لقد كان الأمر أشبه بأجهزة التعذيب المروِّعة التي كان المرءُ يراها في القِلاع الأوروبية، «العذراء الحديدية»، و«الطوق المسنَّن». كان ظهر هال يحرقه كما لو كانت مَكَاوٍ ساخنة تمرُّ عليه ذهابًا وإيابًا، وكما لو كان كلُّ مفصلٍ وعضلة تصرخ من الألم. بدا كما لو أنه لم يستطع قطُّ أن يتذكر وجودَ السقف المسنَّن فوق رأسه … لقد اصطدم به وظلَّ يصطدم به حتى أصبحت فروة رأسه كتلةً من الجروح والكدمات، وكان رأسه يؤلمه حتى كاد لا يرى شيئًا، وكان عليه أن يُلقي بنفسه متمدِّدًا على الأرض.

ثم ابتسمَ العجوزُ مايك سِيكوريا. «أعرف. كبَغلٍ غضٍّ! يومًا ما ستصبح أقوى!»

تذكَّر هال الثَّفَن السميك الذي كان في خواصر بغاله، حيث كان اللِّجامُ يحتك بها. «أجل، أنا «بَغلٌ غَض»، حسنًا!»

كان ثمة عدد مذهل من الطرق التي قد تُصاب بها أصابعُ المرء بالكدمات والتمزُّقات في أثناء تحميله لكُتَل الفحم في العربات. كان يرتدي زوجًا من القفازات، لكنه كان يبلَى في يومٍ واحدٍ. ثم كان هناك الغاز، ودخان البارود الخانق، والتهاب العينَين الرهيب بفِعل الغبار والضوء الخافت. لم تكن هناك من طريقة أمام العامل كي يفرك عينَيه المحترقَتين؛

لأن كل شيء حوله كان مُغبَرًّا بالقدر نفسه. هل يمكن لأحدٍ أن يتخيَّل هذا العذاب ... هل يمكن أن تتخيَّله أيٌّ من هؤلاء السيدات اللاتي كُنَّ يركبن عربات القطار المترَفة والمُنَجَّدة بالأقمشة الناعمة، أو يتكِئنَ على أسطح السفن البخارية في البحار الاستوائية بمياهها المتلألئة.

كان العجوزُ مايك يعامل «مساعِده» الجديد معاملةً حسنة. كان مايك منحني الظهر وقد ازدادت يداه قوة وصلابة جراء أربعين عامًا في هذا العمل الشاق، حتى أصبح في إمكانه أن يؤدي عمل رجلَين، والترفيه عن صديقه بتعليقاته. كان لدى الرجل العجوز عادة التحدُّث طوال الوقت، مثل الأطفال؛ فقد كان يتحدَّث إلى مساعِده، وإلى نفسه، وإلى أدواته. كان يُطلِق على هذه الأدوات أسماءً بذيئة ومرعبة ... ولكن بدافعٍ من الود الخالص وروح الدعابة اللطيفة. فقد كان يقول لِمعوَله: «ادخل أيها الوغد!» ويقول لعربته: «تعالَي إلى هنا أيتها الحقيرة!» ويقول لقطعة الفحم: «تحركي أيتها المغفلة العجوز!» وكان يُلقي على هال محاضراتٍ حول تفاصيل التعدين. ويروي قصصًا عن أيام النجاح المثمرة أو الحوادث الفظيعة. وفوق ذلك كله، كان يتحدَّث عن الحقارة والوضاعة ... يلعن «الشركة العامَّة للوقود»، ورؤساء عُمَّالها، ومشرفيها، ومسئوليها، ومديريها، وحاملي أسهُمها، والعالَم الذي سمحَ بوجود مثل هذه المؤسسة الإجرامية.

أتى وقتُ الظهيرة، واستلقى هال على ظهره، لا يستطيع تناول الطعام من فرط إنهاكه. كان العجوز مايك يجلس ويمضغ طعامه، وقد شكَّلت لحيتُه الكثيفة مُثلثًا فوق ذقنه، وبينما كان فكَّاه يتحركان، كان ينظر إلى العالَم كله كأنه تَيسٌ مُسِن. كان تَيسًا عجوزًا طيبَ القلب ومَهمُومًا، وسعى إلى إغراء مساعِده بقليلٍ من الجُبن أو برشفةٍ من القهوة الباردة. كان يؤمن بأهمية الأكل ... ما كان لأحدٍ أن يشحذَ طاقته إذا لم يُشعِل التَّنُّور. وكان إذا فشلَ في ذلك، يحاول صرفَ عقل هال بإخباره قصصًا عن حياة التعدين في أمريكا وروسيا. لقد كان فخورًا جدًّا بوجود «رفيق أمريكي» يعمل مساعِدًا له، وحاول أن يجعل العمل سهلًا قدر الإمكان، خشية أن يترك هال العملَ.

لم يترك هال العمل، لكنه كان يتسلَّل خارجًا في الليل، وقد بلغ به التعب مبلغه إلى درجة أنه كان يُغالِب النومَ في أثناء وجوده بالمصعد. وكان يُوشك أن ينام في أثناء تناوله العشاء، وكان يدخل إلى مكان نومه ويغوص في تختِه ويغطُّ في نومٍ عميقٍ. ويا له من عذاب حين كان يستيقظ قبل الفجر! فقد كان يضطر إلى أن ينفض عن رأسه النوم، ويحرِّك مفاصله المنهكة إلى حَدِّ الطقطقة، ويشعر بالتهاب عينَيه، وما يعلو يدَيه من بُثورٍ وقروحٍ!

لقد مرَّ أسبوعٌ قبل أن يحظى بلحظة لم يشعر فيها بالألم، ولم يصل قطُّ إلى الاعتياد التام على العمل. كان من المستحيل لأي شخص أن يعمل بجدٍّ شديد ويحافظ، في الوقت نفسه، على يقظته الذهنية، وحماسه، وحِسِّه المرهَف؛ فقد كان من المستحيل أن تعمل بجدٍّ وأن تكون مغامرًا في الآن نفسه … كان من المستحيل في الحقيقة أن تكون سوى آلة. لقد سمع هال عن حالة «الخمول العام» التي تعتري جميع العمَّال؛ فأثارت امتعاضَه وحيرته. ولكنها لم تعد تُحيِّره، فقد جرَّبها بنفسه. هل يمكن للمرءِ أن يمتلك الشجاعة الكافية للاحتجاج على رئيس العمَّال وجسده مُخدَّر من أثر التعب؟ هل يمكنه أن يُميِّز الصواب والخطأ في أفعاله بوضوحٍ، ويدعم استنتاجه بإجراءاتٍ فعَّالة عندما تكون قواه الذهنية مشلولة تحت وطأة هذا الإرهاق الجسدي؟

كان مجيء هال إلى هنا أشبه بشخصٍ يصعد على سطح سفينة في وسط المحيط كي يرى العاصفة. في هذا المحيط من البؤس الاجتماعي، والجهل، واليأس، رأى وُجوهًا مُشرَئبَّة ومُعذَّبة، وأطرافًا تتلوَّى ألَمًا، وأيديًا مُتشبِّثة ببراثن من حديدٍ، وتُدوي في أذنَي المرءِ عاصفةٌ من الرثاء، ويقطر على وجنتَيه رذاذٌ من دماء ودموع. وجد هال نفسه غارقًا في أعماق هذا المحيط إلى درجة أنه لم يجد عزاءً في فكرة أن في إمكانه الهروب متى يشاء؛ فلم يكن يستطيع أن يقول لنفسه إنه أمر محزن، إنه أمر فظيع … ولكن، حمدًا لله، فأنا أستطيع الخروج منه متى أردت! يمكنني العودة إلى الحانة الدافئة ذات الإضاءة الجيدة، وإخبار المسافرين الآخرين عن جمال المنظر، وعن روعة التجربة التي فاتتهم.

الفصل الثالث والعشرون

خلال هذه الأيام المُضنية، لم يذهب هال لرؤية «ماري الصهباء»، ولكن حدثَ بعد ذلك، في إحدى الأمسيات، أن كان طفلُ عائلة مينيتي مريضًا، فأتت لتطمئن عليه، وأحضرت وعاءً به «قليل من الكسترد» حسبما أسمته. كان هال يشكُّ بما يكفي في سلوك الرجال، وخصوصًا رجال الأعمال، ولكنه كان بلا بصيرة حينما يتعلق الأمر بالنساء ... لم يخطر بباله أنَّ فتاةً أيرلندية تُعاني العديدَ من المشكلات في منزلها قد تخرج للاعتناء بطفل امرأةٍ إيطالية. لم يخطر بباله أنَّ هناك الكثير من الأطفال الأيرلنديين المرضى في المعسكر، والذين ربما كانت ماري تأخذ لهم «القليل من الكسترد» الذي كانت تصنعه. وعندما رأى المفاجأة على وجه روزا، التي لم تقابل ماري من قبل، شعر بامتنان المرأة المسكينة الذي يمسُّ القلب!

يوجد في الواقع أنواعٌ كثيرة من النساء، وفي جُعبتهن الكثير من المهارات، ولكن ما من رجل لديه الوقت كي يتعلَّمها جميعًا. رأى هال نوعَ فتاة المتجر التي تحيط نفسها بالكثير من الزركشة، وتلقي نظراتٍ خاطفة بطرف عينها، وتنخرط في نوباتٍ من الضحك لجذب انتباه الذكور، وكان على معرفة بنوعِ فتاة المجتمع، التي تحقِّق الغاية نفسها بوسائل أكثر مَكرًا وجاذبية. ولكن هل يمكن أن يوجد نوعٌ من النساء يحمل أطفال الإيطاليين الصغار في أحضانه، ويناديهم بأسماءٍ أيرلندية جميلة، ويُطعِمهم الكسترد بالملعقة؟ لم يسمع هال عن هذا النوع من قبل، واعتقدَ أن «ماري الصهباء» جسَّدت صورة ساحرة ... عذراءَ سِلتية تحمل رضيعًا صَقَلِّيًّا بين ذراعَيها.

لاحظَ أنها كانت ترتدي الفستان القُطني نفسه، ذا اللون الأزرق الباهت، والذي به رقعةٌ على الكتف. ومع أنه رجلٌ، فقد أدركَ أن الفستان من الأمور التي تُعيرها المرأة اهتمامًا كبيرًا في حياتها. كاد يحسب أنَّ هذا الفستان القطني الأزرق قد يكون الثوب الوحيد لدى ماري، ولكن نظرًا إلى أنه كان يراه مغسولًا لتوِّه في كل مرة، فقد خلص إلى أنه لا بد أنَّ

لديها فستانًا آخر على الأقل. على أي حالٍ، ها هي هنا، نَضِرة ومنتعِشة، بزيِّها النظيف اللامع، وقد تحلَّت بخُلُق «الرفقة الطيبة» التي وعدت بها منذ فترة طويلة؛ من معنوياتٍ عالية وروح الدعابة، تمامًا مثل أي حسناء في عالَم الرفاهية تتخذ كامل زينتها وزُخرفها لحضور حفلٍ راقص. لقد كانت متجهِّمة ومتذمِّرة في لقاءاتها السابقة مع هذا الشاب المثير للاهتمام، ويبدو أنها قد جعلته يتوجَّس منها خيفةً، ولكن ربما تمكَّنت من استعادته بالأنوثة وروح الدعابة.

داعبت فروة رأسه المليئة بالقروح وظهره المتيبس، وأخبرته أنه يبدو أكبر من عمره بعشر سنوات ... الأمر الذي كان مستعدًّا تمامًا لتصديقه. كما مازحته بشأن عمله تحت قيادة رجل سلوفاكي ... ما بدا خسارةً طَبَقية أخرى! وشاركها هذه المزحة آل مينيتي ... لا سيَّما جيري الصغير، الذي كان يُحب النِّكات. أخبر ماري كيف أَنَّ جو سميث اضطُرَّ إلى أن يدفع خمسة عشر دولارًا مقابل وظيفته الجديدة، بالإضافة إلى العديد من كئوس الشراب في حانة أوكالاهان. كما أخبرها كيف أطلقَ مايك سيكوريا على جو «بَغله الغَض». وتذمَّر جيري الصغير لِما آلت إليه الأمور؛ لأن جو كان قد علَّمه في الأيام السابقة الكثيرَ من الألعاب الجديدة الرائعة ... وها هو الآن يشعر بالألم، ولن يلعبها معه. كما أنه قد غنَّى في السابق الكثيرَ من الأغاني المرِحة، المليئة بأروع القوافي. كانت هناك أغنية عن «شجرة الأروكاريا»! هل رأت ماري هذا النوع من الأشجار من قبل؟ لم يتعب جيري الصغير قطُّ من محاولة تخيُّل شكلها.

وقفَ الشقيُّ الإيطالي يشاهِد — بجدية — ماري وهي تُطعِم الطفلَ الصغير الكسترد، وعندما تُلقِمه ملعقتين أو ثلاث ملاعق ملء فمه، كان يفغَر فاه، ثم يلعَقُ شفتَيه. مَرحى، يا له من مذاقٍ جيد!

عندما كانت الملعقة الأخيرة، وقفَ يُحدِّق إلى شعر ماري اللامِع الذي يتوِّج رأسها كالإكليل. ثم قال: «أخبريني، هل هذا هو حالُ شعركِ دائمًا؟»

انفجر هال وماري في الضحك، بينما صاحت روزا: «صَه!» لم تكن تضمن ما قد يقوله هذا الصبيُّ بعد ذلك.

قالت ماري: «بالطبع، هل تعتقد أنني لوَّنته؟»

قال جيري الصغير: «لا أعرف. يبدو جميلًا جدًّا ونظيفًا.» والتفت إلى هال. وقال: «أليس كذلك؟»

قال هال: «بالطبع»، وأضافَ: «أخبرها المزيدَ عنه. تحبُّ الفتياتُ المجامَلات.»

ردَّد جيري الصغير: «المجامَلات؟ وماذا تعني؟»

قال هال: «عجبًا، إنها تعني القول بأنَّ شعرها يُشبه شروق الشمس، وأن عينَيها كالشَّفَق، أو أنها وردة بَرِّية على جانب الجبل.»

قال المشاكس الإيطالي الصغير بشيء من الشك: «حسنًا.» وأضافَ: «على أي حال، إنها تصنع كسترد لذيذًا!»

الفصل الرابع والعشرون

حانَ الوقتُ كي تُغادر ماري، ونهضَ هال جَفلًا مُتألِّمًا لمرافقتها إلى منزلها. نظرتْ إليه بجدية، ولم تكن قد أدركتْ قبل تلك اللحظة مدى مُعاناته. سألته، في أثناء سيرهما معًا: «لماذا تمارس هذا العمل، وأنت لست مضطرًّا إلى ذلك؟»

«لكنني مضطرٌّ إلى ذلك! لا بد أن أكسبَ قوت يومي!»

«لست مضطرًّا إلى أن تكسبها بتلك الطريقة! شابٌّ ذكي مثلك ... أمريكي!»

قال هال: «حسنًا، اعتقدتُ أنه سيكون من الممتع لي أن أُشاهِدَ استخراج الفحم.»

قالت الفتاة: «الآن وقد رأيته ... فلتُغادر إذن!»

«لكنه لا ضررَ من أن أظلَّ فترة من الوقت!»

«لا ضررَ؟ كيف لكَ أن تعرف؟ عندما يحملونك في أي لحظة على لوح خشبي!»

اختفت أخلاق «الرفقة الطيبة» التي كانت تتحلَّى بها؛ وأصبح صوتُها مليئًا بالمرارة، كما كان دائمًا عندما كانت تتحدَّث عن نورث فالي. «أنا أعرف ما أقوله لكَ يا جو سميث. ألم أفقِد شقيقَين لي في هذا العمل ... كانا شابَّين يافعَين لا يختلفان عمَّن تجدهم في أي مكان في العالَم؟! وغيرهم كثيرٌ من الشباب الذين رأيتُهم يدخلون إلى المنجم ضاحكين، ويخرجون منه جُثثًا هامدة ... أو الأسوأ من ذلك، يخرجون منه مشلولين، كما في حالة العُمَّال. تتملَّكني الرغبة أحيانًا في أن أذهبَ إلى هناك، وأقفَ عند فتحة المنجم صباحًا، وأصيحَ فيهم: «ارجعوا، ارجعوا! اخرجوا من الوادي اليوم! جُوعوا إذا اضطرِرتم إلى ذلك، تَسوَّلوا إذا اضطررتم إلى ذلك، ولكن ابحثوا عن عملٍ آخر غير استخراج الفحم!»»

ارتفع صوتُها ليأخذ طابعًا احتجاجيًّا مُفعَمًا بالحماس، وعندما واصلت اكتسَبَ صوتُها نبرة جديدة ... نبرة من الذُّعر الشخصي. «صار الأمرُ أسوأ الآن ... منذ مجيئكَ

يا جو! أن أراكَ تشرع في أن تحيا حياة عامل المنجم ... أنت ذلك الشاب القوي المختلف. أوه، ارحل يا جو، ارحل بينما لا يزال في إمكانك ذلك!»

أدهشته حماستُها. وقال: «لا تقلقي عليَّ يا ماري. لن يحدث لي شيء. سأرحل بعد فترة.»

كان الطريقُ وَعرًا، وكان يمسك بذراعها في أثناء سيرهما. أحسَّ بها ترتجف، وتابعَ مرة أخرى بسرعة: «لستُ أنا مَن يجب أن يرحل يا ماري، بل أنتِ. أنتِ تكرهين هذا المكان ... من الفظيع أن تضطرِّي إلى العيش هنا. ألم تُفكري يومًا في الرحيل؟»

لم تُجِبْ على الفور، وعندما أجابت اختفى الحماسُ من صوتها؛ فقد أصبحَ رتيبًا وفاترًا من اليأس. «لا طائلَ من التفكير فيَّ. لا يسعُني أن أفعل شيئًا ... لا يسعُ أي فتاة أن تفعل شيئًا عندما تكون فقيرة. لقد حاولتُ ... ولكن يبدو الأمر كأنك تقف أمام جدارٍ حجري. إنني لا أستطيع حتى توفير المال لركوب القطار! لقد حاولتُ ذلك ... ادَّخرتُ لمدة عامَين، أتدري كم المبلغ الذي حصلتُ عليه يا جو؟ سبعة دولارات! سبعة دولارات في عامَين! كلَّا ... لا يمكنكَ توفير المال في مكان يعجُّ بالأشياء التي يعتصِرُ لها القلب. قد تكرههم لكونهم جُبناء ... ولكن يجب أن تساعِد عندما ترى رجلًا يُقتَل وتصبح عائلته بلا مأوًى يسترها في فصل الشتاء!»

«أنتِ حنونة القلب للغاية يا ماري.»

«لا، الأمر ليس كذلك! هل أذهب وأترك أخي وأختي اللذَين يحتاجان إليَّ؟»

«ولكن يمكنُكِ كسبُ المال وإرسالُه إليهما.»

«أنا أكسب القليل هنا ... أقوم بأعمال التنظيف والتمريض لبعض مَن يحتاجون إليَّ.»

«ولكن في الخارج ... ألا يمكنكِ كسبُ المزيد؟»

«في إمكاني الحصول على وظيفة في مطعمٍ مقابل سبعة أو ثمانية دولاراتٍ في الأسبوع، لكنني سأضطر إلى أن أنفق المزيد، وما سأرسله إلى المنزل لن يكون كثيرًا، ولن يكافئ غيابي عنهم. أو يمكنني الحصول على وظيفة في منزل سيدةٍ ما، والعمل لمدة أربع عشرة ساعة في اليوم. لكني يا جو لا أريدُ مزيدًا من الكدح والتعب، بل أريدُ شيئًا جميلًا أهتم به ... شيئًا خاصًّا بي!» بسطَت ذراعَيها كأنها شخص يختنق. وقالت: «أوه، أريدُ شيئًا جميلًا ونظيفًا!»

شعرَ بارتعاشها مرة أخرى. وأصبح الطريقُ وعرًا من جديدٍ، وبدافعٍ من التعاطف، وضعَ ذراعَه حولها. في حياة الترف، قد ينغمس المرءُ في مثل هذا الاهتمام بمشاعر الآخرين،

وقد افترَض أن الأمر لن يكون مختلفًا مع ابنة عامِل منجم. لكن بعد ذلك، عندما أصبحت قريبة منه، شعرَ بنَحيبها، بل سمعَه.

همس: «ماري!» وتوقَّفا. وتقريبًا دون أن يدرك، وضَعَ ذراعه الأخرى حولها، وبعد لحظة أخرى شعر بأنفاسها الدافئة فوق وَجنته، وكانت ترتجف وترتعش في حضنه. همست: «جو! خُذني بعيدًا!»

كانت بمنزلة وردة في معسكر التعدين، وقد أثَّرت في هال بشدة. رأى طريقًا من المرح وزهور الربيع يمتد أمامه، هنا في الليلة الصيفية الناعمة، والقمر فوق رأسه يحمل الرسالة نفسها التي كان يحملها في الحدائق الإيطالية للطبقة المترفة. ولكن لم تمر عدة دقائق حتى بدأ الخوفُ يتسلَّل إلى هال إلى حَدِّ القَشعَريرة. كانت هناك فتاة في موطنه تنتظره، وكان هناك أيضًا العزم الذي كان ينمو داخله منذ مجيئه إلى هذا المكان ... عزمٌ على إيجاد طريقة ما لتعويض الفُقراء، ليُسدِّد لهم ثمن الحرية والثقافة اللتين حصل عليهما، لا أن يستغلَّ خوفهم، أو خوف أي أحدٍ بينهم. فقد تولَّى جيف كوتون تلك المهمة!

قال مُتوسِّلًا: «ماري، ينبغي ألا نفعل هذا.»

«لمَ لا؟»

«لأنني ... لست حُرَّ نفسي. هناك فتاةٌ أخرى.»

شعرَ بجفولها، لكنها لم تبتعد.

سألت بصوتٍ منخفض: «أين؟»

«في موطني، تنتظرني.»

«ولماذا لم تُخبرني؟»

«لا أعرف.»

أدرك هال في لحظة أنَّ للفتاة الحقَّ في إلقاءِ اللوم عليه. وفقًا لقانون عالَمِها البسيط، فقد قطعَ شوطًا في علاقتهما؛ فقد شُوهِدَ وهو يخرج معها، وأصبحَ يُعَدُّ «رفيقها». لقد قادها للتحدُّث معه عن نفسها ... أصرَّ أن تبوح له بأسرارها. وهؤلاء الفقراء لم يكن لديهم خفايا، فلم يكن هناك مجالٌ في حياتهم لفضول المثقفين، أو الصداقات الأفلاطونية، أو المغازلة. ومن ثَم، قال: «سامحيني يا ماري!»

لم ترد، ولكن تنهيدة أفلتت منها، وابتعدتْ عن ذراعَيه ... ببطءٍ. قاوم رغبته في احتضانها مرة أخرى. كانت جميلة ومُفعَمة بالحياة ... وفي أَمَسِّ الحاجة إلى الشعور بالسعادة!

لكنه سيطرَ على نفسه، وظلَّا مبتعدَين لمدة دقيقة أو دقيقتَين. ثم سألَ بتذلُّل: «لا يزال في إمكاننا أن نكون صديقَين يا ماري، أليس كذلك؟ يجب أن تعرفي ... أنني في غاية ... الأسف!»

لكنها لم تتحمَّل أن تكون محلًّا للشفَقة. فقالت: «لا بأس. كلُّ ما هنالك هو أنني اعتقدتُ أنني كنت سأرحلُ من هنا! هذا ما كنتَ تعنيه لي.»

الفصل الخامس والعشرون

كان هال قد وعدَ أليك ستون بمراقبة مُثيري الشغب، وفي إحدى الأُمسِيات، أوقفه رئيس العمَّال في الشارع، وسأله عما إذا كان لديه شيءٌ يريد إبلاغه به. انتهز هال الفرصة لمجاراته في روح الدعابة التي يتحلَّى بها.

قال: «لا يوجد أيُّ ضرر من مايك سيكوريا. إنه يحبُّ الثرثرة، ولكن إذا وجدَ مَن يستمع إليه فحسب، هذا كلُّ ما يريده. إنه مجرد عجوزٍ مُتذمِّر. لكن هناك شخصًا آخر أعتقدُ أنه يستحق المراقبة.»

سألَ رئيسُ العمَّال: «مَن هو؟»

«لا أعرفُ اسم عائلته. يسمونه جاس وهو «عامل مِصعَد». رجلٌ أحمر الوجه.»

قال ستون: «أعرفُه ... جاس دوركينج.»

«حسنًا، لقد بذلَ قصارى جهده ليجعلني أتحدَّث عن الاتحادات. ظلَّ يطرح الأمر، وأعتقدُ أنه من مُثيري المتاعب.»

قال رئيس العمَّال: «أتفهَّم ذلك. سأقتفي أثره.»

قال هال بنبرة من التوتر: «لا تقُل إنني أخبرتُك.»

«أوه، لا ... بالطبع لا.» ولاحظ هال أثرَ ابتسامة على وجه رئيس العمَّال.

انصرفَ، وهو يبتسم بدوره. كان «جاس ذو الوجه الأحمر» الشخص الذي وصفه مادفيك بأنه «جاسوسُ» الشركة!

كانت هناك تفاصيل كثيرة في مسألة «التجسُّس» هذه، وفي بعض الأحيان لم يكن من السهل أن يحزم المرءُ أمرَه بشأنها. في صباح أحد أيام الأحد، خرجَ هال للسير في الوادي، وفي الطريق التقَى بشابٍّ صغير السن تحدَّث إليه، وبعد فترة طرحَ مسألة ظروف العمل في نورث فالي. قال إنه لم يكن قد مرَّ على وجوده هنا سوى أسبوع، ولكن بدا أن كلَّ مَن

التقى بهم كانوا يتذمَّرون بشأن مسألة بخس الأوزان. كان هو نفسه «عامِلًا خارجيًّا»، فلم يكن الأمر يشكِّل فرقًا بالنسبة إليه، لكنه كان مهتمًّا، وتساءل عما اكتشفه هال.

جاء السؤال على الفور، هل كان هذا — حقًّا — عامِلًا، أم أنَّ أليك ستون قد عيَّن شخصًا للتجسُّس على جاسوسه. كان رجلًا ذكيًّا، أمريكي الجنسية … الأمر الذي كان مثيرًا للريبة في حَدِّ ذاته؛ لأن معظم العمَّال الجُدد الذين استقدمتهم الشركة كانوا من «مكان ما شرق قناة السويس».

قرَّر هال مجادلته بعض الوقت. قال إنه لم يكن يعرف أنَّ الظروف هنا كانت أسوأ من أي مكان آخر. فقد سمع شكاوى، بغض النظر عن وظيفة المشتكي والمهمة التي يؤديها.

وافقَه الغريبُ، ولكنه قال إنَّ الأمور بَدت سيئة، على وجه الخصوص، في معسكرات الفحم. ربما يُعزَى ذلك إلى كونها بعيدة للغاية، ولأنَّ الشركات تمتلك كلَّ شيء في الأفق.

سأل هال، معتقدًا أنَّ هذا قد يُوقِعُه في الفخ: «أين سبق لك العمل؟»

لكن الآخر أجاب إجابة مباشرة؛ من الواضح أنه عمِل في عددٍ ليس بالقليل من المعسكرات. في ماتيو كان يدفع دولارًا في الشهر مقابل امتيازات استخدام المَغْسَل، ولم يكن يتبقَّى أيُّ ماءٍ بعد انتهاء أول ثلاثة رجال من غسل ملابسهم. كان هناك حوضُ غسيل مشترك لجميع الرجال، وقد كان مكانًا قذِرًا على نحوٍ لا يمكن تصوُّره. وفي باين كريك — شعر هال بتوقف قلبه عند مجرد ذكر الاسم — أقامَ في باين كريك مع رئيسه، لكن سقف المبنى كان يُسرِّب، ودُمِّر كلُّ ما في حوزته، ومع أن رئيسه لم يفعل شيئًا لإصلاح المشكلة، فما حدثَ أنه عندما قرَّر الانتقالَ إلى مكانٍ آخر ليقيم فيه، فقدَ وظيفته. في إيست ريدج، استأجر هذا الرجلُ واثنان من زملائه كوخًا من غرفتَين، وبدءُوا في الاعتناء بأنفسهم، على الرغم من أنهم اضطُروا إلى دفع خمسين دولارًا مقابل جِوال البطاطس وأحد عشر سِنتًا لرطل السكر من متجر الشركة. استمروا في ذلك حتى اكتشفوا أنَّ إمدادات المياه قد نفدت، وأنَّ المياه التي كانوا يدفعون مقابلها دولارًا للشركة في الشهر كانت تُضَخ من قاع المنجم المليء بمخلفات البِغال والرجال!

أجبرَ هال نفسه على عدم التعبير عن رأيه صراحة؛ ومن ثَم هزَّ رأسه وعقَّبَ بأنه كان أمرًا شديدَ السوء، لكن العمَّال كانوا دائمًا ما يُعاقَبون بشدة، ولم يرَ ما يمكنهم فعله حيال ذلك. لذا عادا إلى المعسكر، ومن الواضح أنَّ الغريبَ كان في حيرة من أمره، وأنَّ هال، من جانبه، كان يشعر كأنه يقرأ نهاية الفصل الأول في قصة بوليسية. تُرى هل كان هذا الشابُّ هو القاتِل أم البطل؟ كان عليه أن يواصل القراءة ليعرف!

الفصل السادس والعشرون

أبقى هال عينَيه على ذلك الذي تعرَّف عليه لتوِّه، وأدركَ أنه كان يتحدَّث مع آخرين غيره. لم يمضِ وقتٌ طويل حتى تعاملَ الرجل مع العجوز مايك، ولم يكن مايك بالطبع يستطيع أن يرفض دعوة للتذمر، على الرغم من أنها جاءت من الشيطان ذاته. قرر هال أنه يجب فعل شيء حيال الأمر.

استشار صديقَه جيري، الذي ربما لديه معيارٌ بحُكم كونه راديكاليًّا لاختبار الرجل الغريب. بحثَ جيري عنه في وقت الظهيرة، ثم عاد وأفاد بأنه كان جاهلًا بالأحوال مثل هال تمامًا. إما أن الرجل كان محرِّضًا يسعى إلى «بدء شيء ما»، وإما كان محقِّقًا أرسلته الشركة. ولم يكن هناك سوى طريقة واحدة لمعرفة ذلك؛ وهي أن يتحدَّث معه شخصٌ ما بحرية وصراحة، ونرى ما سيحدث لذلك الشخص بعد ذلك!

بعد فترة من التردُّد، قرر هال أنه سيكون الضحية. فقد أيقظ الأمرُ فيه من جديدٍ حُبَّ المغامرة، الذي كان الحفرُ في منجم الفحم قد أخمدَه. كان الغريبُ الغامض بمنزلة نوعٍ جديد من عمَّال المناجم، نوع يحفر في نفوس الرجال؛ ومن ثَم كان على هال أن يرسمَ له خطة مضادة ليكشفه، كان عليه أن يضع له الألغام، وربما يُفجِّره. وكان في إمكانه اجتياز هذه التجربة أفضل من غيره … أفضل، على سبيل المثال، من السيدة ديفيد الضعيفة، التي استقبلت الغريبَ في منزلها بالفعل، وكشفت له عن حقيقة أنَّ زوجها عضو في واحدة من أبرز منظمات عمَّال المناجم الثورية؛ اتحاد جنوب ويلز.

ومن ثَم، دعا هال الغريبَ في يوم الأحد التالي إلى نزهة أخرى. كان الرجل مترددًا … حتى قال هال إنه يريد التحدُّث إليه. في أثناء سيرهما في الوادي، استهلَّ هال حديثه: «كنت أفكِّر فيما قلتَه عن الظروف في هذه المعسكرات، ولقد خلصتُ إلى أنه سيكون من الجيد لو أحدثنا بعضَ التغيير هنا في نورث فالي.»

قال الآخر: «أحقًّا؟»

«في بداية وجودي هنا، كنت أعتقد أنَّ العمَّال مجرد أُناسٍ متذمِّرين. لكن الآن أُتيحت لي الفرصة لأرى بنفسي، ولا أعتقد أن أحدًا يُعامَل بإنصافٍ. فمن ناحية، لا يحصل أحدٌ على وزن حمولته الكامل في هذه المناجم ... على الأقل ليس إلا إذا كان من المفضَّلين لدى رئيس العمَّال. أنا متأكد من ذلك، فقد جرَّبتُ كلَّ شيء مع زميلي. حمَّلنا عربة بحمولة خفيفة للغاية، وقُدِّر وزنُها بألف وثمانمائة، ثم حمَّلنا عربة بحمولة كبيرة وثقيلة، كي نتأكَّد من أنها تحتوي على ضِعف حمولتها ... ولكن كل ما حصلنا عليه كان اثنَين وعشرين وثلاثة وعشرين. لا توجد طريقة يمكنك بها التغلُّب على الأمر ... على الرغم من أن الجميعَ يعلم أن تلك العربات الكبيرة تتَّسع لحمولة طنَّين أو ثلاثة أطنان.»

قال الآخر: «نعم، أعتقد أنها تتَّسع لذلك.»

«وإذا وضعتَ أصغر قطعة من الصخر، فكلُّ ما هنالك أن وزن حمولتك سيصبح «صفرَين»، وبالطبع يدَّعون أحيانًا أنك قد وضعتَ الصخر عمدًا لتزيد الوزن في حين أنك لم تفعل ذلك. ولا يوجد قانون يجبرهم على التحقُّق من الأمر.»

«نعم، أظنه لا يوجد.»

«الأمر ببساطة كالتالي ... يجعلونك تعتقد أنهم يدفعون خمسة وخمسين للطن، لكنهم يبخسونك الوزن لتحصل على خمسة وثلاثين. وبالأمس في متجر الشركة دفعتُ دولارًا ونصف دولار مقابل بذلة عمل زرقاء كنت أدفع فيها في بيدرو ستين سِنتًا.»

قال الآخر: «حسنًا، تتحمَّل الشركة مصاريفَ نقل البذلات إلى هنا، كما تعرف!»

اكتشف هال تدريجيًّا أن الوضعَ قد انعكسَ ... أصبح الغريبُ الغامض مشغولًا الآن بتجنُّب التباسُط معه في الحديث! لسببٍ ما، لم يترك اهتمامُ هال المفاجئ بالعدالة في العمل أيَّ أثر لدى الشخص الذي يُحادثه.

وهكذا انتهت مسيرته المهنية كمحقِّق نهاية غير مشرِّفة. ومن ثَم، صاح مغيِّرًا الموضوع: «أخبرني يا رجل! ما هي خطتُك، على أي حال؟»

قال الآخر بهدوء: «خطة؟ ماذا تعني؟»

«أعني، لماذا أنتَ هنا؟»

«أنا هنا من أجل دولارَين في اليوم ... مثلُك على ما أخمِّن.»

شرع هال في الضحك. وقال: «أنا وأنت مثل غواصتَين، تحاول كلٌّ منهما العثور على الأخرى تحت الماء. أعتقد أنه من الأفضل أن نصعد إلى السطح لمباشرة قتالنا.»

فكَّر الآخر في التشبيه، وبدا أنه أعجبه. وقال: «فلتبدأ أنتَ أولًا.» لكنه لم يبتسم. كانت عيناه الزرقاوان الهادئتان مُثبَّتتَين على هال بجدية شديدة.

قال هال: «حسنًا. قصتي ليست مثيرة للغاية. لستُ مجرمًا هاربًا، ولست جاسوسًا للشركة، كما قد يتبادر إلى ذهنك. ولست عامِل مناجم «في الأصل». تصادفَ أنَّ لديَّ أخًا وبعض الأصدقاء في موطني يعتقدون أنهم يعرفون صناعة الفحم، وقد استفزَّني هذا، فجئتُ لأرى بنفسي. هذا كلُّ ما في الأمر، غير أنني وجدتُ أشياء مثيرة للاهتمام، وأريد البقاء فترة من الوقت، لذلك آملُ ألا تكون «محلَّ إزعاج»!»

مشى الآخر في صمتٍ، وهو يفكِّر في كلمات هال. ثم علَّق أخيرًا: «تلك قصة لا يمكنك وصفها بالعادية.»

أجاب هال: «أعرف. ولكن أفضل ما يمكنني قوله عنها هو إنها صحيحة.»

قال الغريب: «حسنًا، سأُصدِّقها. يجب أن أجد أحدًا أثق به، إذا كنت أريد تحقيق شيء. لقد اخترتُك لأن وجهَك أعجبني.» ثم ألقى على هال نظرة فاحصة أخرى وهو يمشي. «ابتسامتُك ليست ابتسامة شخصٍ مخادع. لكنك صغير السن ... ولذا دعني أذكِّرك بأهمية التكتُّم والسرية في هذا المكان.»

قال هال: «سألتزم الصمت»، وفتحَ الغريبُ جيبًا في قميصه، وأخرج خطابًا يثبت أنه توماس أولسون، مُنظِّم «اتحاد عمَّال المناجم»، وهو الاتحاد الوطني الكبير لعُمَّال مناجم الفحم!

الفصل السابع والعشرون

فَزِع هال من هذا الاكتشاف؛ إلى درجة أنه توقَّف فجأة وحدَّق في الرجل. لقد سمع الكثير عن «مُثيري المتاعب» في المعسكرات، ولكن النوع الوحيد الذي كان قد رآه حتى ذلك الحين هو أولئك الأشخاص الذين وظفَّتهم الشركة لإثارة مشكلاتٍ لدى العمَّال. ولكن الآن، ها هو ذا أحد المنظِّمين النِّقابيين! ألمحَ جيري إلى هذا الاحتمال، لكن هال لم يأخذه على محمل الجد؛ كان المنظِّم النقابي كائنًا أُسطوريًّا يتهامس بشأنه عمَّال المناجم، ملعونًا من الشركة وخُدَّامها، ومن أصدقاءِ هال في موطنه. شخصٌ مثير للمتاعب، مُحرِّض، صاخِب، غير مسئول، يستثير العواطفَ العمياء والخطيرة! ونظرًا إلى أنَّ هال كان يسمع عن أمورٍ كهذه طوال حياته، فإنَّ أول ما بدر منه هو عدم الثقة. شعرَ هال بشعور عامِل التحويلة العجوز الأعرج الذي أعطاه مكانًا لينامَ فيه، بعد ضربه في باين كريك، والذي قال: «لا تتحدَّث معي عن أمورٍ تتعلق بالاتحادات النقابية!»

عندما لاحظ المنظِّم النقابي ما اعترى هال من مشاعر، أطلقَ ضحكة مزعجة. وقال: «بينما تأمل ألا أكون «محل إزعاج»، أثق أنك تفهم — بدورك — أنني آمل ألا تكون أنت الآخر كذلك.»

كانت إجابة هال في صلب الموضوع. قال ويداه تتحسَّسان مكان كدماته القديمة: «لقد اعتقدوا أنني مُنظِّم نقابي ذات مرة.»

ضحكَ الآخر. وقال: «هل انتهى الأمر بضربك؟ لقد كنت محظوظًا. في الجنوب في ألاباما، منذ وقتٍ ليس ببعيدٍ، سكبوا على أحدِنا القَطِران وغطَّوه بالريش.»

ظهر الفزعَ على وجه هال، ولكن بعد لحظة بدأ يضحك هو الآخر. وقال: «كنت أفكِّر لتوِّي في أخي وأصدقائه … ماذا كان عساهم سيقولون لو أني عدت إليهم في الديار من باين كريك وأنا مُغطًّى بالقَطِران والريش!»

تجرأ الآخر، قائلًا: «ربما كانوا سيقولون إنك حصلتَ على ما تستحقه.»

«نعم، يبدو هذا دَيدَنهم ودأبهم. تلك هي القاعدة التي يطبقونها على كلِّ العالم … إذا وقع لك خَطب ما، فلا بد أنه خطؤك أنت. إنها أرض الفُرَص المتساوية.»

قال المنظِّم النقابي: «وسوف تلاحظ أنه كلما زادت الامتيازات لدى الأشخاص، تجرَّءوا أكثر على التحدُّث بتلك الطريقة.»

بدأ هال يشعر بإحساسٍ من الرفقة مع هذا الغريب، الذي كان قادرًا على تفهُّم مشكلات عائلته! لقد مضى وقتٌ طويل منذ أن تحدَّث هال مع أي شخصٍ من العالَم الخارجي، وقد وجدَ في ذلك راحة لذهنِه. تذكَّر كيف أنه بعد أن تعرَّض للضرب استلقى تحت المطر، وهنَّأ نفسه على أنه لم يكن ما ظنَّه الحُرَّاس فيه. كان في ذلك الحين لديه فضولٌ بشأن سيكولوجية المنظِّم النقابي. لا بد أنَّ لدى الرجل قناعاتٍ قوية كي ينشغل بهذا الأمر!

أبدى هال هذه الملاحظة، وأجاب الآخر: «يمكنك الحصول على راتبي في أي وقتٍ تقوم فيه بعملي. لكن دعني أخبرك أيضًا أن الضرب والطرد من المعسكر ليسا أكثر ما يزعج المرء؛ وليس أيضًا قائد المعسكر والجاسوس والقائمة السوداء. فأسوأ مشكلاتك تكمن في أذهان الرجال الذين تحاول مساعدتهم! هل فكَّرتَ يومًا فيما تعنيه محاولة شرح الأمور لرجالٍ يتحدَّثون عشرين لغة مختلفة؟»

قال هال: «نعم، بالطبع. أتساءل كيف ستبدأ الحديث معهم من الأساس.»

«حسنًا، عليك أن تبحث عن مترجمٍ … وربما يكون جاسوسًا للشركة. أو ربما يكون أول رجلٍ تحاول إقناعه هو مَن سيُبلغ عنك رئيس العمَّال. ولأن بعض الرجال بالطبع جبناء، وبعضهم محتالون، فسوف يبيعون الزميل التالي من أجل الحصول على «وضعٍ» أفضل … ربما مقابل كأس من الجِعَة.»

قال هال: «لا بد أن لهذا تأثيرًا في إضعاف قناعاتك.»

قال الآخر بلهجة واقعية: «لا، إنه أمرٌ صعب، ولكن لا يمكن للمرء أن يلوم هؤلاء المساكين التُّعساء. إنهم جاهلون … أَبقَوهم على جهلهم عن عمدٍ. يجلبهم الرؤساء إلى هنا، ولديهم نَسقٌ منتظم لمنعهم من الالتقاء والاجتماع معًا. وبالطبع، فإن هذه الشعوب

الأوروبية لديها تحيُّزاتها القديمة … تحيُّزات وطنية، وتحيُّزات دينية، تُبقيهم منفصلين. فربما ترى رجلَين، أحدُهما لا يقل بؤسًا عن الآخر … ولكنك تجد أحدَهم يحتقر الآخر؛ لأنه كان في وطنه أفضل من الآخر. وهكذا يخدمون مصالح رؤسائهم دون أن يدروا.»

الفصل الثامن والعشرون

وصلَا إلى مكانٍ بعيد في الوادي، وجلسَا على صخرة مسطَّحة؛ حيث تمكَّنا من التحدُّث على راحتهما.

قال المنظِّم النقابي: «ضَعْ نفسك مكانَهم. إنهم في بلدٍ غريب، وإذا بأحدِ الأشخاص يقول لهم شيئًا، ويقول آخر شيئًا غيره. يقول السادة ووُكلاؤهم: «لا تثقوا بمحرِّضي الاتحادات النقابية. إنهم مُحتالون يعيشون حياة سهلة، ولا يضطرون إلى العمل. يأخذون أموالكم ويُطالبونكم بالإضراب، فتخسِرون أموالكم ومنازلكم، وربما يبيعونكم ويذهبون إلى مكان آخر ليُكرِّروا الخُدعة نفسها.» ويعتقد العمَّال أن ذلك ربما يكون صحيحًا؛ فليس لديهم من الفِطنة ما يمكِّنهم من أن يرَوا أنه إذا كان قادة الاتحادات النقابية فاسدِين، فلا بد أن ذلك بسبب أن رؤساء العمل يشترونهم بالرِّشا، ومن ثَم، تجدهم، كما ترى، في حيرة تامة؛ لا يعرفون إلى أي صَوْبٍ يتَّجهون.»

كان الرجل يتحدَّث بهدوء، ولكن كان القليلُ من وَهج الإثارة يرتسم على وجهه. «تظل الشركة تكرِّر إلى الأبد أنَّ هؤلاء الأشخاص راضون ... وأننا نحن مَن نستنهضهم ونثيرهم. ولكن هل هم راضون؟ لقد قضيتَ هنا وقتًا طويلًا بما يكفي لتعرف الإجابة!»

أجاب هال: «الأمر لا يستدعي النقاش. بالطبع ليسوا راضين؟ لقد بدَوا لي كأنهم مجموعة كبيرة من الأطفال يبكون في الظلام ... لا يعرفون ما خطبُهم، أو مَن المسئول عما هم فيه، أو إلى أين يتجهون طلبًا للمساعدة.»

وجد هال أنَّ عدم ثقته بالرجل قد بدأ يتلاشى. فلم يتطابق بأي شكلٍ من الأشكال مع الصورة التي كانت في مُخيِّلة هال عن المنظِّمين النقابيين؛ كان شابًّا أمريكيًّا أزرق العينَين ونظيفَ المظهر، ولم يكن مُتَهوِّرًا وصاخبًا، بل كان مُتروِّيًا فَطِنًا. كان يشعر بالسخط بالطبع، لكنه لم يعبِّر عن سخطه بالضجيج أو البلاغة المتكلِّفة؛ وقد لاقى هذا الانضباط

إعجابَ هال، الذي، على الرغم من ميوله الديمقراطية، اعتاد التفكير كواحدٍ من أبناء الطبقة التي يَقبِضُها الضجيجُ والتأكيد الزائد على الأمور.

كان هال مُهتمًّا أيضًا بموقفه تجاه نقاط ضعف العمَّال. «خمول» الفقراء، الذي جعلَ الكثيرين ييئَسون منهم — جُبنهم واضطرابهم — كانت هذه هي الأشياء التي سمع عنها هال طوال حياته. سيقول الناس: «لا يمكنك مساعدتهم. إنهم قذرون وكسالى، يشربون الخمرَ ويتهرَّبون من عملهم، ويخونون أنفُسَهم. لقد كانوا دائمًا هكذا.» وملخص الفكرة أنك «لا يمكنك تغيير الطبيعة البشرية!» حتى ماري بيرك، التي هي نفسها من أبناء الطبقة العاملة، تحدَّثت عن العمَّال بهذه الطريقة الغاضِبة والساخرة. لكن أولسون كان يؤمن برجولتهم، وسعَى إلى إيقاظهم وتعليمهم.

كان الطريق أمامه واضحًا ومُستقيمًا. «يجب أن يتعلَّموا التَّضافُر. إنهم، كأفرادٍ، عاجزون أمام سلطة الشركات الكبرى، ولكن إذا اتَّحدوا، إذا باعوا عملهم كوحدة واحدة … فسيكون لهم شأن حقًّا.» توقَّف، ونظر إلى الآخر مُتسائلًا. «ما شعورك تجاه الاتحادات النقابية؟»

أجاب هال: «إنها أحدُ الأشياء التي أريد أن أعرف معلوماتٍ عنها. يسمع المرء هذا وذاك … هناك الكثير من التحيُّز في كلا الجانبَين. أريد أن أساعد المستضعَفين، لكني أريد أن أتأكَّد من الطريقة الصحيحة.»

سأل أولسون: «وهل من طريقة أخرى في رأيك؟» وتوقَّف قليلًا. ثم قال: «أن تتودَّد إلى القلوب العطوفة لأصحاب الشركات؟»

«ليس بالضبط؛ ولكن ألا يمكن للمرء أن يجذب الناسَ بشكلٍ عام … الرأي العام؟ لقد نشأتُ أمريكيًّا، وتعلَّمت أن أُومِن ببلدي. لا يسعُني التفكير، ولكن ثمة طريقة لتحقيق العدالة. ربما إذا خاض الرجالُ العمل بالسياسة …»

صاح أولسون: «السياسة؟ يا إلهي! كم قضيتَ في هذا المكان؟»

«شهرين فقط.»

«حسنًا، ابقَ حتى نوفمبر، وانظر ماذا سيفعلون بصناديق الاقتراع في هذه المعسكرات!»

«يمكنني أن أتخيَّل، بالطبع …»

«لا، لا يمكنك. مثلما لا يمكنك أن تتخيَّل الفسادَ والبؤس!»

«ولكن إذا كان على الرجال أن يُصوِّتوا معًا …»

«كيف يمكنهم أن يصوِّتوا معًا … في حين أن أيَّ أحدٍ يذكر الفكرة يُطرَد من الوادي؟ عجبًا، لا يمكنك حتى الحصول على أوراق التجنُّس إلا إذا كنت رجل الشركة؛ لن يقوموا بتسجيلك إلا إذا منحهم رئيسُك في العمل الموافقة. كيف ستشرع في الأمر إذا لم يكن لديك اتحاد نقابي؟»

كان على هال أن يعترف أنَّ الأمر قد بدا معقولًا، لكنه فكَّر في القصص التي سمعها عن «المندوبين المتجوِّلين»، وكلِّ العواقب المروِّعة المترتِّبة على «هيمنة الاتحادات النقابية.» لم يكن ينوي الدخول في نظام اتحادٍ نقابي للعمَّال!

كان أولسون يواصل حديثه. «لقد مرَّرنا القوانين؛ مجموعة كاملة من القوانين حول تعدين الفحم … قانون الساعات الثماني، قانون مكافحة الصكوك المالية، قانون متجر الشركة، قانون رش المناجم، قانون مُراقبي الأوزان. ما الفرق الذي يُحدِثه وجودُ مثل هذه القوانين في سجلات التشريع على نورث فالي؟ هل كنت حتى تسمع عنها يومًا؟»

قال هال: «آه، الآن! إذا كان الأمر كذلك … إذا كانت حركتك تهدف إلى تفعيل القانون … فأنا معك!»

«لكن كيف سيُفعَّل القانون، إلا بوجود اتحادٍ نقابي؟ لا يمكن لفردٍ أن يفعل ذلك وحده … «سيُطرَد من الوادي» إذا ذكر القانون. يذهب أعضاء اتحادنا النقابي في ويسترن سيتي إلى مسئولي الحكومة، لكنهم لا يفعلون شيئًا أبدًا … ولماذا؟ إنهم يعلمون أن العمَّال لا يسيرون في ركابنا! إن موقف السياسيين هو نفسه موقف رؤساء العمل … الاتحاد النقابي هو الشيء الوحيد الفعَّال!»

وجد هال هذا المنطق جديدًا تمامًا. ومن ثَم، قال: «الناس لا يدركون تلك الفكرة … أن الرجال يجب أن يُنظِّموا جهودَهم كي يحصلوا على حقوقهم القانونية.»

ورفع الآخر يديه في إيماءة هَزلية. وقال: «يا إلهي! إن حاولت أن تُحصي كَمَّ الأمور التي يجهلها الناس عن عُمَّال المناجم، فحَدِّث ولا حَرَج!»

الفصل التاسع والعشرون

كان أولسون حريصًا على إقناع هال، واستمر في إخباره بكل أسرار عمله. لقد بحث عن رجالٍ يؤمنون بالاتحادات النقابية، وكانوا على استعدادٍ للمخاطرة بمحاولة إقناع الآخرين. كانت خطته أنه في كل مكانٍ يزوره سيؤلِّف مجموعة، ويرتِّب طريقة ما للتواصل معهم، وبعد مغادرته سيُهرِّب منشوراتٍ دعائية لتوزيعها. وستكون هذه بمنزلة النواة لتشكيل منظمة نقابية. وفي غضون عام أو عامَين ستكون لديهم نواةٌ كهذه في كلِّ معسكرٍ، ومن ثَم سيكونون مستعدِّين للظهور إلى العَلن، والدعوة إلى عقد اجتماعاتٍ في المدن وفي أماكن أخرى في الوديان التي يتوافد إليها عمَّال المناجم. ومن ثَم، تشتعل نيران الثورة؛ حيث سيزداد معدل انضمام العمَّال إلى الحركة بما لا يدع مجالًا أمام الشركات لاستيعاب ما يجري والتخلُّص منهم، وسيُطالبون بحقوقهم، مُعوِّلين على تهديدات الإضراب التي سيُطلقها العُمَّال في جميع أنحاء المنطقة.

أضافَ أولسون: «كما تفهم، لدينا حقٌّ قانوني في تشكيل منظمة نقابية ... حتى مع عدم موافقة رؤساء العمل على ذلك. وعلينا الثبات على هذا الهدف وعدم الحيود عنه.»

قال هال؛ «أجل، ولكن يبدو لي أنه سيكون من الأفضل، من الناحية التكتيكية هنا في نورث فالي، إذا اخترت مشكلة لا يدور حولها خلافٌ كبير، كأن تُركِّز على وجود مراقِب للأوزان.»

ابتسم الآخر. وقال: «يجب أن يكون لدينا اتحادٌ نقابي لدعم الطلب؛ فما الفارق إذن؟»

قال هال: «حسنًا، هناك تحيُّزاتٌ يجب أخذها في الاعتبار. بعض الأشخاص لا تروق لهم فكرة الاتحاد النقابي ... يعتقدون أنها تعني الاستبداد والعنف ...»

ضحكَ المنظِّم النقابي. وقال: «أنت غير مقتنع، ولكن هذا عهدُك، أليس كذلك؟ حسنًا، كلُّ ما يسعني قوله هو أنك إذا كنت تريد التعامل مع مسألة وجود مراقِب للأوزان في نورث فالي، فلن أقفَ في طريقك!»

ها هي فكرةٌ ما تلُوح في الأفق … فكرةٌ حقيقية ملموسة! فقد أصبحت حياة هال باهتة وكئيبة منذ أن بدأ عمله كمساعِدٍ في مكان يبلغ ارتفاعُه خمس أقدام. أما الآن، فمن شأن هذه الفكرة أن تَعِدَ بأوقاتٍ أكثر طاقةً وحيوية!

ولكن هل كان هذا هو الشيء الذي يريد فعله؟ حتى ذلك الوقت، كان هال يكتفي بمراقبة الأحوال في معسكر الفحم. كان مقتنعًا بأنَّ الأحوال قاسية، وكان في رأيه أيضًا أن هذه القسوة غير ضرورية ومتعمَّدة. ولكن عندما تعلَّق الأمر باتخاذ إجراءٍ حيال ذلك … تردَّد، وتصدَّرت التحيُّزات والمخاوف القديمة المشهدَ. فقد قِيلَ له إنَّ العمَّال «متمردون» و«كُسالى»، ومن ثَم كان لا بد من «حُكمهم بقبضة من حديدٍ»، أما الآن، فهل هو على استعدادٍ لإضعاف هذه القبضة الحديدية، هل هو على استعدادٍ للتحالف مع أولئك الذين «أثاروا روح التمرُّد بين العمَّال»؟

ولكنه قال لنفسه إنه شتانٌ بين هذا وذاك. كان اقتراح أولسون مختلفًا عن فكرة النقابة العُمَّالية، التي قد تكون بمنزلة قوة مُعرقِلة، تقود العمَّال من مطلبٍ إلى آخر، حتى يَطمحوا إلى «الهيمنة على الصناعة ككل». فقد كان اقتراحُه مجرد لجوءٍ إلى القانون واحتكامٍ إليه، مجرد اختبار لمزاعم المصداقية والتعامُل المنصِف التي تتشدَّق بها الشركة في كل مكان. إذا كان العمَّال يتمتعون، كما ادَّعى رؤساءُ العمل، بحماية كاملة بموجب قانون مراقبي الأوزان، وإذا كان السبب وراء عدم وجود مراقبين، يُعزى ببساطة — كما أوهموا العالَم كله — إلى عدم مطالبة العمَّال بذلك، فلا ضررَ إذن. أما إذا كان الرؤساء يعتبرون أنَّ المطالبة بحقٍّ لم يكن فقط حقًّا قانونيًّا، بل أخلاقي أيضًا، شكلٌ من أشكال التمرد ضد الشركة، فهذا من شأنه أن يخبرَ هال بالمزيد عن أسباب «تمرد» العمَّال! وإذا كان هدف الرؤساء، كما أكدَّ العجوزُ مايك والباقون، أنْ «يجعلوا حياة العمَّال مأساةً لعينة» حتى يضطروا إلى ترك العمل، فإنه على استعدادٍ لأن يجعل حياةَ الرؤساء مأساةً في المقابل!

قال هال فجأة: «ستكون تجربة مثيرة.»

وضحك الآخر. «حقًّا، ستكون كذلك!»

أضاف هال: «ترى أنني سأخوض تجربة أخرى كتجربة باين كريك.» ثم أردفَ: «حسنًا، ربما يحدث ذلك … ولكن عليَّ أن أجرِّب بنفسي. اسمَع، لديَّ أخٌ في موطني، وعندما

أفكِّر في المشاركة في تمرد، أتخيَّل أنني أخوض جدالًا معه. أريد أن يسعَني القول حينها إنني «لم أنسَق انسياقًا أعمى وراء آراء الآخرين وأفكارهم؛ بل خُضْتُ التجربة بنفسي، وهذا ما حدث.»

أجاب المنظِّم النقابي: «حسنًا، لا بأس. ولكن بينما تسعى إلى تعليم نفسك وأخيك، لا يغيب عن ذهنك أنني قد اكتسبت معرفتي بالخبرة والتجربة. ومن ثَم، فأنا أعلم ما يحدث للرجال الذين يطالبون بتعيين مراقبين للأوزان، ولا أستطيع أن أُضحِّي بنفسي لإثبات ذلك مرة أخرى.»

ضحك هال، وقال: «لم أطلب منك ذلك قطُّ. إن كنتُ لم أنضم إلى حركتك، فلا يمكنني أن أتوقَّع منك الانضمام إلى حركتي! ولكن إذا تمكَّنتُ من العثور على بعض الرجال الذين هم على استعدادٍ لتحمُّل المخاطرة بالمطالبة بوجود مراقِب للأوزان، فلن يضر ذلك بعملك، أليس كذلك؟»

قال الآخر: «مُطْلَقًا! بل على العكس تمامًا ... سوف يعطيني ذلك مثالًا عمليًّا يمكنني الرجوع إليه. يوجد رجالٌ هنا لا يعرفون حتى أنَّ لديهم الحقَّ القانوني في المطالبة بتعيين مراقِب للأوزان. وهناك آخرون يعرفون أنهم لا يحصلون على ما يُكافئ أوزان حمولتهم الفعلية من الفحم، لكنهم ليسوا متأكِّدين من أن الشركة هي مَن يغشُّهم. إذا رفضَ الرؤساء السماحَ لأحدٍ بمراقبة الأوزان، وإذا تمادَوا وطردوا الرجال الذين يطالبون بذلك، فسينخرط الكثير ممن في اتحادي المحلي!»

قال هال: «حسنًا. لا أُخطِّط لإمداد اتحادك المحلي بالرجال، ولكن إذا كانت الشركة ترغب في ذلك، فهذا شأنها!» وعلى هذا الاتفاق تصافَح الاثنان.

الجزء الثاني

عبيد مملكة الفحم

الفصل الأول

بدأ هال الآن في مباشرة مهنة جديدة، أكثر إثارةً من مهنة مسئول الإسطبل أو المساعِد، وفيها من المخاطر ما يفوق في فداحته مخاطرَ سقوط صخرة أو تلقي ركلاتٍ في البطن من قوائم البِغال الخلفية. لم يكن الخمول الذي شعر به نتيجة العمل الزائد قد تحوَّل إلى مشكلة صحيَّة؛ نظرًا إلى أنه كان لا يزال شابًّا، ولديه حماسٌ شديد لاكتساب المزيد والمزيد من الخبرات. وجدَ أنه من المثير أن يصبح مُتآمِرًا، أن يُخفي في جُعبته أسرارًا مُبهَمة وغامضة كممرَّات المنجم الذي يعمل فيه.

لكنَّ جيري مينيتي، أول شخصٍ أخبره عن مقصِد توم أولسون من الوجود في نورث فالي، كان أقدم عهدًا في مثل هذه الأمور المثيرة. لقد زال فجأة عن جيري ما يُبديه عادة من مظهرٍ خالٍ من الهموم، ولاح الخوف في عينَيه. وصاح قائلًا: «أعلم أنه سيجيء اليوم ... الذي يجلِب المشكلات لي ولروزا!»

«ماذا تعني؟»

«لقد تورَّطنا في الأمر ... تورَّطنا بالتأكيد. كنت أقول لروزا: «تُسمِّين نفسكِ اشتراكية ... ما الفائدة من ذلك؟ لا شيءَ. لا فائدة من التصويت هنا ... إنهم لا يحسبون أصوات الاشتراكيين، إنها مجرد مزحة!» كنت أقول لها: «لا بد أن يكون لدينا اتحادٌ نقابي. لا بد من حدوث إضراب!» لكن روزا كانت ترد بقولها: «انتظِر قليلًا. ادَّخر بعضَ المال، انتظِر حتى يكبر الأطفال. ثم سنساعدُ، ولن يهمنا لو خسرنا منزلنا.»»

قال هال معترِضًا: «لكننا لسنا بصدد إنشاء اتحادٍ نقابي الآن! لديَّ خطة أخرى في الوقت الراهن.»

لكنَّ انفعالَ جيري لم يهدأ. وقال: «لا مجالَ للانتظار!» لن يُطيق الرجالُ صبرًا! أقولها لك: «سيحدث الأمر فجأة ... كانفجارٍ في أحد المناجم! شخص ما سيبدأ القتال، ومِن

بعده سيقاتل الجميع.» ونظرَ جيري إلى روزا، التي جلست وعيناها السوداوان مثبَّتتان بترقُّبٍ وتوجُّس على زوجها. ثم قال: «سيُزَج بنا في الأمر»، ورأى هال عيونهما تتجه نحو الغرفة التي ينام فيها جيري الصغير وأخوه الرضيع.

التزم هال الصمتَ ... لقد بدأ يفهم ما يعنيه التمرُّد لهؤلاء الناس. راقبَ بفضولٍ وشفقة الصراعَ الدائر، الذي يعتمل داخل الروح الإنسانية منذ قديم الأزَل ... بين صوت المصلحة الذاتية والراحة والحيطة، وبين نداء الواجب ونَشْد المثالية. إنه ليس بصراعٍ مُعلَن، بل صوتٌ داخلي خافت.

بعد فترة، سألَ جيري عما خطَّط له هال وأولسون، وأوضح هال أنه يرغب في اختبار موقف الشركة تجاه قانون مراقبي الأوزان. رأى هال أنها خطة جيدة، ولكن ماذا كان رأي جيري؟

ابتسم جيري بحزن. وقال: «أجل، خطة جيدة بالنسبة إلى شاب في مُقتَبَل العمر ... ليس لديه عائلة!»

قال هال: «لا بأس، سأتولى المهمة ... سأكون أنا مراقب الأوزان.»

قال جيري: «لا بد من تشكيل لجنة ... لجنة تتحدَّث إلى رئيس العمَّال.»

«حسنًا، ولكننا سنجلب زملاء شبابًا لذلك أيضًا ... رجالًا ليس لديهم عائلات. بعض الزملاء الذين يعيشون في أعشاش الدجاج في منطقة الصفيح. لن يهتموا بما يحدث لهم.»

لكن جيري لم يبادِل هال الابتسام. وقال: «هؤلاء الرجال لا يتَّسمون بالقدر الكافي من الفطنة وحُسن التمييز. الفطنة شرطٌ أساسي للاتحاد.» أوضح أنهم سوف يحتاجون إلى مجموعة من الرجال لدعم اللجنة؛ ولا بد من تشكيل هذه المجموعة لعقد الاجتماعات سِرًّا ... سيكون الأمر في الواقع أشبه باتحادٍ للعُمَّال، وهكذا سيراه رؤساءُ العمل وجواسيسهم. ولم يُسمَح من قبل بتشكيل تنظيم من أي نوعٍ في المعسكرات. كان هناك بعضُ الصِّرب الذين أرادوا الانضمام إلى أحد التنظيمات الأخوية في وطنهم، ولكن حتى ذلك لم يُسمَح به. إذا أرادَ أحدهم التأمينَ على حياته أو صحته، كانت الشركة تتولَّى الأمر ... وتتربَّح منه. ومن ثَم، لم يكن في إمكان المرءِ حتى شراء حوالة مالية من مكتب البريد لإرسال أموال إلى بلده؛ إذ كان موظف مكتب البريد، الذي كان في الوقت نفسه موظفًا في متجر الشركة، يبيع لك نوعًا خاصًّا من الحوالات موجودًا لدى المتجر.

وهكذا، أخذ هال يواجه الصعوبات نفسها التي حذَّره منها أولسون. كان أولُها مخاوف جيري. غير أن هال عرف أن جيري لم يكن «جَبانًا»؛ فلو أنَّ أحدًا يزدري تصرف جيري؛ فذلك لأنه لم يكن قطُّ في موقف جيري!

قال هال: «كلُّ ما سأطلبه منك الآن هو النصح والإرشاد. أعطني أسماءَ بعض زملائك الجديرين بالثقة، وسأحصل على مساعدتهم دون أن يشكَّ فيك أحد.»

كان ردُّ جيري على هذا: «أنتَ تعيش معي!»

وهكذا أصبح هال مرة أخرى «في مواجهة الأمر.» ومن ثَم، قال: «تقصد أن هذا سيُعرِّضك للمتاعب؟»

«بالتأكيد! إنهم يعرفون أننا نتحدَّث. يعرفون أنني أتحدَّث عن الاشتراكية، على أي حال. سيطردونني بالتأكيد!»

«ولكن ماذا عن قريبك، رئيس العُمَّال في المنجم رقم ١؟»

«لا طائلَ منه. ربما يُطرَد هو نفسه. سيقولون ذلك الأحمق اللعين ... يستضيف في بيته مُراقبًا للأوزان.»

قال هال: «حسنًا. إذن سأرحل الآن، قبل فوات الأوان. يمكنك أن تقول إنني كنت مثيرًا للمُشكلات، وأنك طردتني.»

جلسَ مينيتي وزوجته يحدِّق كلٌّ منهما إلى الآخر ... في حزنٍ واغتمام. لقد ساءَهما أن يفقِدا ضيفَهما، الذي كانت رفقته جيدة، وكان يدفع لهم مبلغًا جيدًا من المال. وبالنسبة إلى هال، فقد ساءَه الأمرُ بالقدر نفسه تقريبًا؛ لأنه أحبَّ جيري وزوجته التي تُشِع شبابًا، وجيري الصغير ... وحتى الطفل ذا العينَين السوداوين، الذي تسبَّب في الكثير من الضوضاء وقاطعَ حديثهما مرارًا!

قال جيري: «لا! لن أهرب! سأفعل ما يُمليه عليَّ ضميري!»

أجاب هال: «لا بأس. فلتُؤدِّ ما يُمليه عليك ضميرُك ... ولكن ليس الآن. عليك البقاء في المعسكر ومُساعدة أولسون بعد أن أُطرَد. نحن لا نريد أن نفقِد أفضل الرجال دفعة واحدة.»

هكذا، بعد نقاشٍ كثيرٍ، حسموا أمرهم، ورأى هال روزا تغوص مجدَّدًا في كُرسيها بجسمها الضئيل، وتأخذ نَفَسًا عميقًا في ارتياحٍ. تأجَّل موعد تنفيذ تلك المهمة الصعبة الأشبه بالمهمة الفدائية أو الاستشهادية؛ ومن ثَم ربما ما زال في مقدورها أن تنعم بملكية كوخها الصغير ذي الغُرَف الثلاث، وأثاثها، ومقاليها اللامعة، وستائرها الحريرية البيضاء الجميلة لبضعة أسابيع قادمة!

الفصل الثاني

عاد هال إلى نُزُل «ريمينيتسكي»، ويا لها من تضحية جَسيمة، لكنها لم تكن بلا مقابل؛ فقد أعطته فرصة أكبر للتحدُّث إلى العُمَّال.

وضع هال وجيري قائمة بالأشخاص الذين يمكن ائتمانُهم على السر، وجاء على رأس القائمة مايك سيكوريا. ذلك أن العجوز مايك إذا وُضِع في لجنة، وأُرسِل لمقابلة أحد رؤساء العمل، فإنه سيتحمَّس للأمر لكونه يتفق مع غايته المنشودة في الحياة! لكنهم لن يخبروه بالأمر إلا في اللحظة الأخيرة، خشية أنْ يَفضَح أمرهم في خِضَم ثورته في المرة القادمة التي يفقد فيها إحدى عرباته.

كان هناك عامل منجم بُلغاري شاب يُدعى فريسماك يعمل بالقرب من هال. كان الطريق المؤدي إلى سَكَنِ هذا الرجل يمرُّ عبر منحَدَر، وكان يقوى بمشقَّة على دفع «عرباته الفارغة» إلى أعلاه. وعلى الرغم من الجهد المضني الذي كان يبذله في هذه المهمة ويتصبَّب له عَرَقًا، مرَّ أليك ستون، الذي كان ينظر إلى الأشخاص ضعيفي البِنية بازدراءٍ من منطلق كونه شخصًا ضخم البنية، وشرعَ في لكمه. رفعَ الرجلُ ذراعَه، وهمَّ أن يرد إليه الضربة أو يدرأَها، لا أحد في وُسعه الجزم بذلك، لكن ستون انقضَّ عليه وظلَّ يركله على طول الطريق، صابًّا عليه وابلًا من اللعنات الحانقة. ثم دخل الرجل غرفة أخرى، أخرج منها أكثر من أربعين عربة محمَّلة بالصخور، ولم يتقاضَ مقابلها إلا ثلاثة دولارات. لم يكن لأحدٍ مِمن شاهدوا وجهَه عندما مرَّ رئيسُ العمَّال ليشُك في أن هذا الرجل سيكون على أُهْبة الاستعداد لاقتناص فرصة الدخول في حركة احتجاجية.

ثم كان هناك رجلٌ يعرفه جيري، كان قد خرج للتوِّ من المستشفى، بعدما تلقَّى ضربة من مؤخرة مسدس قائد المعسكر. كان هذا الرجل بولنديًّا، ولسوء الحظ لم يكن

يعرف كلمة بالإنجليزية؛ لكن أولسون، المنظِّم النقابي، كان على اتصالٍ ببولندي آخر يتحدَّث الإنجليزية قليلًا، ومن ثَم سيُترجِم كلامه إلى زميله الآخر، ابن بلده البولندي. كما كان هناك شاب إيطالي يُدعى روفيتا، كان جيري يعرفه ويضمن ولاءَه.

كان هناك شخص آخر فكَّر به هال … ماري بيرك. كان يتجنَّبها عمدًا في الآونة الأخيرة؛ إذ بدا ذلك الشيءَ الوحيد الآمن الذي يمكنه فعلُه، على الرغم من أنه بدا أيضًا أمرًا قاسيًا، وقد جعله مضطربَ الذهن. تذكَّر مرارًا وتكرارًا ما حدث. كيف بدأت المشكلة؟ من واجب الرجال في مثل هذه الأحوال أن يتحمَّلوا اللَّوم، لكنهم لا يحبُّون أن يلوموا أنفسهم، ويحاولون أن يخفِّفوا من وطأة الأمر بقدر الإمكان. هل يجدُر بَهال أن يقول إن ما حدث في تلك الليلة كان بسبب حرصه الشديد على مساعدة ماري لأنَّ الطريق كان وَعرًا؟ لم تكن في الواقع في حاجة إلى مثل هذه المساعدة، بل كانت قادرة تمامًا على الوقوف على قدمَيها مثله! لكنه ذهبَ في الحقيقة إلى أبعد من ذلك … كان لديه دافعٌ عاطفي واضح، وكان نَذْلًا … وكان ينبغي أن يعرف منذ وقتٍ طويل أن الفتاة ستصُبُّ عليه جامَّ استيائها، وجُلَّ اشتياق روحها المحرومة المتعطِّشة، ذلك الشاب «المختلف» تمامًا، الذي منحته فرصة لقائها والحديث معها، والذي جعلها تفكِّر في «كُتُب الشِّعر»!

ولكن هنا ظهر فجأة حَلٌّ لهذه المعضلة؛ فقد لاحت في الأفق مصلحةٌ جديدة لماري، قناة آمنة يمكن أن تسري فيها عواطفها. ما كان لامرأة أن تعمل في لجنة لعُمَّال المناجم، غير أنه كان من شأنها أن تكون مُستشارة جيِّدة، وكان من شأن لسانها اللاذع أن يكون سلاحًا لدفع الآخرين وإقناعهم. تبنَّى هال، في غمرة حماسه لهذا المشروع، موقفًا موضوعيًّا على عادة الرجال عمومًا … وهكذا وقعَ في فخٍّ عاطفي جديد! لم يُفسح لنفسه المجال ليفكِّر في أن اهتمام ماري بحركة مراقبة الأوزان قد تكون مشروطة بعضَ الشيء بالرغبة في قضاء وقتٍ أطول معه، والأدهى من ذلك أنه لم يخطر بباله أنه قد يكون سعيدًا بوجود سبب يمكنه من رؤية ماري.

كلا، بل كان يتخيَّلها في دورٍ جديدٍ، نشاط أكثر إلهامًا من الطبخ والتمريض. تدفَّقت مُخيِّلته المتأثِّرة بـ «كتب الشعر»؛ أعطاها أملًا وغاية، طريقًا في نهايته هدف. ألم تكن هناك قائدات من النساء في كل حركة بروليتارية عظيمة؟

ذهبَ لزيارتها، والتقى بها عند باب كوخها. قالت: «أسعدتني رؤيتُكَ يا جو سميث!» ونظرت في عينه مباشرة وابتسمت.

أجاب: «وأنا أيضًا يا ماري بيرك!»

رأى أنها متعاوِنة؛ فقد كانت تتمتَّع بـ «روح رياضية». ولكنه لاحظ أنها كانت أكثر شُحوبًا مما كانت عليه عندما رآها آخِر مرة. هل يمكن لهذه البشرة الأيرلندية الرائعة أن تصبح باهتة في يوم من الأيام؟ ولاحظَ أنها أصبحت أنحف أيضًا؛ فقد بدا الفستان القُطني الأزرق القديم أقل إحكامًا على جسدها.

دخل هال في موضوعه فجأة. وقال: «ماري، لقد رأيتُكِ في المنام اليوم!»

«أرأيتني أيها الشاب؟ وماذا رأيت؟»

ضحك. وقال: «رأيتُكِ وقد أنارَ وجهُكِ، ولمعَ شعرُكِ مثل تاج من الذهب. كنتِ تمتَطينَ حِصانًا أبيض بياضَ الثلج، وترتدين رداءً أبيض ناعمًا ولامعًا ... مثل جان دارك، أو قائدة في موكبٍ للاقتراع. كنتِ على رأس حشد ... ما زلتُ أسمع صوت الموسيقى في أُذُنَيَّ يا ماري!»

«وماذا بعد أيها الشاب ... ماذا يعني كلُّ هذا؟»

قال: «ادخُلي وسأُخبركِ.»

ثم دَلَفَا إلى المطبخ الخالي، وجلسا على كُرسيَّين خشبيَّين غير مُنجَّدَين ... عقدت ماري يديها في حِجْرها مثل طفل تلقَّى وعدًا بسماع قصة خيالية. قالت: «الآن أسرع. أريدُ أن أعرف أمرَ هذا الفستان الجديد الذي ستُعطيني إياه. هل سئمتَ فستاني القطني القديم؟»

بادلها الابتسام. وقال: «هذا ثوب ستنسجينه لنفسكِ يا ماري، من أرقى الخيوط في بيئتكِ ... من الشجاعة والإخلاص والتضحية بالنفس.»

«بالطبع، ها هو كتاب شِعر مرة أخرى! ولكن ما الذي تقصده حقًّا؟»

نظر حوله. «هل من أحدٍ هنا؟»

«لا أحد.»

لكنه خَفض صوته على نحوٍ غريزي وهو يروي قصته. كان في المعسكر منظِّم نقابي عن «الاتحاد الكبير»، وهو ينوي إيقاظ روح المقاومة لدى العبيد وتحريضهم على الاحتجاج.

زالت الضحكة عن وجه ماري. وقالت بنبرة فاترة: «أوه! ذلك هو الأمر!» تلاشت صورة الحصان الأبيض بياضَ الثلج والرداء الناعم اللامع. وأردفت: «لا يمكنك أبدًا أن تفعل أيَّ شيء من هذا القبيل هنا!»

«لِمَ لا؟»

«بسبب الرجال الموجودين في هذا المكان. ألا تتذكَّر ما قلتُه لك في منزل السيد رافيرتي؟ إنهم جُبناء!»

«حسنًا، يا ماري، من السهل أن نقول ذلك. ولكن ليس من السار على الإطلاق أن يُطرَد المرءُ من منزله ...»

صاحت بانفعالٍ مفاجئ: «هل أحتاج إلى أن تخبرني بذلك؟ ألا أرى بنفسي؟»

«نعم يا ماري، لكني أريد أن أفعل شيئًا ...»

«نعم، وهل لا أريد أنا فِعلَ شيء أيضًا؟ بالطبع أردتُ أن أقضمَ أنوفَ الرؤساء!»

ضحك قائلًا: «حسنًا، سنجعل ذلك جزءًا من خطتنا.» لكن ماري لم تكن لتنجذب إلى المرح؛ فقد كان مزاجُها مليئًا بالألم والحيرة؛ إلى درجة أن هال شعرَ بالحاجة إلى الاقتراب منها والإمساك بيدها مرة أخرى. لكنه كبح جماح نفسه؛ لقد جاءَ لتوجيه طاقاتها نحو قناة آمنة!

«يجب أن نُوقِظَ هؤلاء الرجال من أجل المقاومة يا ماري!»

«لا يمكنك فعل ذلك يا جو ... ليس الرجال الناطقين بالإنجليزية. اليونانيون والبُلغار، ربما ... إنهم يقاتلون في أوطانهم، وربما يقاتلون هنا. لكنَّ الأيرلنديين لا يمكنهم مطلقًا ... مطلقًا! أولئك الذين كانت لديهم عزيمة غادروا منذ زمنٍ بعيدٍ. ومَن بقُوا حوَّلوهم إلى مُتمَلِّقين. إنني أعرفهم، أعرف كلَّ رجل منهم. إنهم يتذمَّرون ويلعنون رؤساءَهم، لكنهم بعد ذلك يُفكِّرون في القائمة السوداء، ويعودون ويتذلَّلون عند أقدامهم.»

«ما يريده هؤلاء الرجال هو ...»

«إنهم يريدون الخمرَ، والعَربَدة مع النساء الفاسدات في مُدن الفحم، والجلوس طوال الليل ليتربَّح كلٌّ منهما من أموال الآخر بحزمة من بطاقات اللَّعب المُلطَّخة! إنهم يأخذون مُتعتَهم أينما وجدوها، ولا يريدون شيئًا أفضل من ذلك.»

«إذن يا ماري، إذا كان الأمر كذلك، ألا تَرَين أن هذا سبب أدعى لمحاولة توعيتهم؟ إن لم يكن من أجل مصلحتهم، فمن أجل أطفالهم! يجب ألا ينشأ أطفالهم على هذه الحال! يتعلَّمون الإنجليزية، على الأقل ...»

أطلقت ماري ضحكة ساخرة. وسألت: «هل ذهبتَ إلى تلك المدرسة؟»

أجاب هال بالنفي، وأخبرته أنه كان هناك مائة وعشرون طفلًا مُكدَّسين في غرفة واحدة، ثلاثة في مقعدٍ واحدٍ، مالئين المكان إلى الجدران. ثم تابعت كلامَها بغضبٍ مُتَسارِع ... كان من المفتَرَض أن تُدفَع نفقاتُ المدرسة من أموال الضرائب، ولكن بما أنه لا

أحد يملك أي عقارات سوى الشركة، فقد كان كلُّ شيءٍ في أيدي الشركة. تَكوَّن مجلسُ إدارة المدرسة من السيد كارترايت، مشرف المناجم، وجيك بريدوفيتش، موظف في المتجَر، والواعِظ القَس سبراج. كان العجوز سبراج على استعداد أن يضرب الأرض بأنفه إذا طلبَ منه «المشرفُ» ذلك.

قال هال وهو يضحك: «مهلًا، مهلًا! أنتِ حاقدة عليه؛ لأن جدَّه كان عضوًا في الأَخَوية البرتقالية البروتستانتينية!»

الفصل الثالث

لقد فُطِمَتْ ماري بيرك على اليأس، وتغلغلَ سُمُّه عميقًا في دمِها. بدأ هال يدرك أنه سيكون من الصعب منحها أيَّ أمل في إيقاظ العمَّال الذين احتقرَتهم. كانت بلا شكٍّ تمتلك ما يكفي من الشجاعة، ولكن كيف يمكنه أن يقنعها بأن تكون شجاعة من أجل رجال لا يمتلكون الشجاعة لأنفسهم؟

قال: «يا ماري، أنتِ لا تكرهين هؤلاء الناس في صميم قلبكِ. تعرفين مدى معاناتهم، وتَرثين لحالهم. تُعطين أطفالهم آخِر سنتٍ معكِ عندما يحتاجون إليه ...»

«آه أيها الشاب!» بكت ماري، ورأى هال الدموع تتدفق فجأة من عينَيها. «أنا أكرههم لأنني أُحبهم! أحيانًا أريد أن أقتل الرؤساء، وأحيانًا أريد أن أقتل الرجال أنفسهم. ما الذي تريد مني أن أفعله؟»

وقبل أن يتمكَّن حتى من الإجابة، بدأتْ في مراجعة قائمة معارفها في المعسكر. أجل، كان هناك رجلٌ يجب أن يتحدَّث إليه هال؛ كان كِبَر سنِّه سيمنعه من الانضمام إليهم، لكن نصيحته لا تُقدَّر بثمن، ويمكنهم التأكد من أنه ما كان ليخونهم أبدًا. ذلك الرجل هو العجوز جون إدستروم، سويدي من ولاية مينيسوتا، وقد عمل في هذه المنطقة منذ بداية المناجم بها. كان أحد مَن شاركوا في الإضراب الكبير قبل ثماني سنوات، وأُدرجَ في القائمة السوداء، وأبناؤه الأربعة معه. تفرَّق الأبناء الآن في أنحاء العالم الأربعة، لكن الأب بقي في مكان قريب، وعمِل في مزرعة وفي السكة الحديدية، وقبل عامَين فقط، خلال أحد مواسم الذروة، حصلَ على فرصة للعودة إلى المناجم.

قالت ماري إنه عجوز جدًّا؛ لا بد أنه في الستين من عمره. وعندما أشار هال إلى أنَّ هذه ليست بسِنٍّ متقدِّمة للغاية، أجابت بأنها نادرًا ما سمعتْ عن رجل قادر على العمل

في منجم للفحم في تلك السن؛ في الواقع، لم يكن هناك الكثير ممن تمكَّنوا من العيش حتى تلك السن. كانت السيدة إدستروم تحتضر حينها، وكان يمرُّ بوقتٍ عصيب.

قالت ماري: «لن يكون من العدل أن نترك رجلًا عجوزًا كهذا يفقد وظيفته. ولكن على الأقل يمكنه أن يقدم لك نصيحة جيدة.»

ومن ثَم، ذهبا في ذلك المساء لمقابلة جون إدستروم، في كوخ صغير في «منطقة الصفيح»، غير مَطلي، وذي أرضية عارية، ونصف جدار من ألواح الخشب غير المصقولة لحَجبِ زوجته المحتضرة عن ضيفَيه. كانت المرأة مصابة بالسرطان، ما صعَّب من زيارتها، حيث كانت هناك رائحة مُخيفة في المكان. في بادئ الأمر، كان من المستحيل على هال أن يُجبر نفسه على التفكير في أي شيء آخر، لكنه في نهاية المطاف تغلَّب على هذا الضعف، قائلًا لنفسه إنهم في حالة حرب، وإن المرء يجب أن يكون مستعدًّا للذهاب إلى المستشفى قدر استعداده للذهاب إلى ساحة العرض العسكري.

نظرَ حوله، ورأى أنَّ الشقوقَ في كوخ إدستروم كانت مسدودة بالخِرَق، وأنه قد أصلح زجاج النوافذ المكسور بالورق البُنِّي. من الواضح أنَّ الرجل العجوز قد بذلَ جهدًا للحفاظ على نظافة المكان، وقد لاحظ هال صفًّا من الكتب على رفٍّ. ولأن الطقس كان باردًا في هذه المناطق الجبلية ليلًا، حتى في شهر سبتمبر، كان لدى الرجل العجوز موقدٌ من الحديد الزَّهْر، وقد جلسَ مُكوَّمًا بجانبه. لم يتبقَّ سوى بعض الشعيرات في رأسه، وكان بياضُ لحيته الشعثاء كما يمكن أن يكون بياضَ أي شيء آخر في معسكر للفحم. كان أولُ ما يلاحظه المرء في وجهه هو شُحوبه، ثم الرأفة في عينَيه الداكنتَين المتعَبتَين، كما كان صوتُه أيضًا لطيفًا، كما لو كان يَربتُ به على مَن أمامه. نهضَ لتحيَّة ضَيفَيه، ومدَّ نحو هال يدًا مرتعشة تُشبه مِخلب حيوان مُشوَّه. تحرَّك ليُقرِّب مقعدًا واعتذرَ عن افتقاده المهارة في تدبيره لمنزله. خطرَ على بال هال أنَّ الرجل قد يقدر على العمل في منجم للفحم في سن الستين، ولكنه لن يقدر على العمل فيه في سن الواحد والستين.

كان هال قد طلب من ماري ألا تقول شيئًا عن هدفِه، إلا بعد أن تسنَح له الفرصة للحُكم على الرجل بنفسه. لذلك سألت الفتاةُ الآن عن السيدة إدستروم. أجاب الرجل بأنه لم يكن ثمة جديد في حالتها؛ وكانت ترقد في سُبات، كالعادة. زارها الدكتور باريت مرة أخرى، لكن كل ما استطاع فعله هو إعطاؤها المورفين. قال الطبيب إنه لا يمكن لأحدٍ أن يفعل شيئًا أكثر من ذلك.

قالت ماري هازئةً: «بالطبع، لم يكن ليعرف ما إذا كان في استطاعتهم فعل شيء!»

قال إدستروم برَباطة جأش: «إنه ليس شخصًا سيئًا عندما لا يكون في حالة سُكر.»

قالت ماري هازئةً مرة أخرى: «وكم مرة يكون في وعيه؟» أضافت، على سبيل التوضيح لهال: «إنه قريبُ المشرِف.»

قال إدستروم إنَّ الأمور كانت أفضل هنا مما كانت عليه في بعض الأماكن. في هارفيز ران، حيث كان يعمل، أصيب رجلٌ في عينه وفقدَها بسبب انزلاق أداة من يد الطبيب، كما لم تكن الأذرع والسيقان المكسورة تُجبَر جيدًا، وكان على المرء إما أن يعيش طوال حياته مُعاقًا، وإما أن يذهب إلى مكان آخَرَ ويُعاد كسر عظامه وإصلاحها ... ومثل أي شيء آخر، كان الطبيب جُزءًا من منظومة الشركة، وإذا أكثرت في الحديث عنه، يطردونك من الوادي. لم يكن يُقتطَع من راتبك دولارٌ كلَّ شهر فحسب، بل إذا أُصِبتَ وجاء الطبيب لزيارتك، وطلب رُسومًا إضافية، فإنه يحصل على ما يشاء من زيادة.

سأل هال: «وهل عليك أن تدفع؟»

قال الرجل العجوز: «إنهم يأخذونها من حسابك.»

أضافت ماري: «أحيانًا يأخذونها دون أن يفعل شيئًا على الإطلاق. لقد أخذوا من السيدة زامبوني خمسة وعشرين دولارًا لطِفلها الأخير ... ولم تَجُز قدمُ الدكتور باريت بابَها قطُّ إلا بعد مرور ثلاث ساعاتٍ من حملي الطفلَ بين ذراعَيَّ!»

الفصل الرابع

استمرَّ الحديث. ولأن هال كان يرغب في حَثِّ الرجل العجوز على الكلام، تحدَّث عن مشكلات عُمَّال المناجم المختلفة، واقترح في النهاية أن الحل ربما يكمُن في تشكيل اتحاد. تفحَّصته عينا إدستروم الداكنتَان، ثم التفت إلى ماري. قالت الفتاة مُسرِعةً: «لا بأسَ من جو. تستطيع أن تثقَ به.»

لم تصدُر من إدستروم إجابةٌ مباشرة على هذا، لكنه أشار إلى أنه شاركَ في أحد الإضرابات ذات مرة. باتَ رجُلًا مشبوهًا الآن، وأصبح لا يمكنه البقاء في المعسكر إلا إذا التزم شئونه الخاصة وحسب. لم يُنْسَ قطُّ دورُه في الإضراب الكبير، ولكن الرؤساء سمحوا له بالعودة إلى مزاولة العمل؛ من ناحية لأنهم كانوا في حاجة إليه في وقت الذروة، ومن ناحية أخرى لأنه تصادفَ أن كان رئيس العمَّال صديقًا شخصيًّا له.

قالت ماري: «أخبِره عن الإضراب الكبير. إنه جديدٌ في هذه المنطقة.»

بدا أنَّ الرجل العجوز قد قبِل كلام ماري عن حُسن نية هال؛ لأنه بدأ يروي تلك الأحداث الرهيبة التي كانت قد اعتِيد تناقُلُها همسًا في المعسكرات. بذل عشرة آلاف عَبدٍ كادِح جهدًا جبَّارًا من أجل الحرية؛ وقد قُمِعوا بقسوة مطلَقة. منذ أن بدأت هذه المناجم، كان أصحابُها يسيطرون على السلطات المحلية للحكومة، وبعدها، في حالة الطوارئ، جلبوا ميليشيا الدولة أيضًا واستخدموها عَلنًا لإعادة المضربين إلى العمل. لقد قبضوا على القادة والنُّشطاء، وألقوا بهم في السجن دون محاكمة أو اتهامات، وعندما لم يبقَ مكان في السجون، احتجزوا نحو مائتَي شخص في حظيرة مفتوحة كانت تُسمى «حظيرة الثيران»، وأخيرًا حملوهم في عربات الشحن، وأخذوهم ليلًا إلى خارج الولاية، وألقوا بهم في وسط الصحراء دون طعام أو ماء.

كان جون إدستروم أحدَ هؤلاء الرجال. روى كيف تعرَّضَ أحدُ أبنائه للضرب وأُصيبَ بجروح خطيرة في السجن، وكيف احتجزوا ابنًا آخر لأسابيع في قَبوٍ رَطِبٍ، حتى خرجَ مشلولًا مدى الحياة لإصابته بالروماتيزم. قام ضباط ميليشيا الدولة بتلك الأشياء، وعندما تحرَّكت بعضُ السلطات المحلية للاحتجاج، اعتقلتهم الميليشيا … حتى إن قضاة المحاكم المدنية قد مُنِعوا من عقد جلسات استماعٍ عن طريق التهديد بسَجنهم. كانت كلمة الجنرال المسئول: «فليذهب الدستورُ إلى الجحيم!» وقد أشاع مرءُوسه العبارة: «لا يوجد أمرٌ بالمثول أمام القضاء؛ سنُعطيهم إياه بعد الوفاة!»

أثار توم أولسون إعجابَ هال برباطة جأشه، لكن هذا الرجل العجوز قد نجحَ في ترك انطباعٍ أعمق في نفس هال. عندما استمع هال إليه، خشعَ وشعر بالرهبة. عندما تحدَّث جون إدستروم عن تجاربه القاسية، خَلا صوتُه من المرارة، وبقدر ما بدا الأمر لا يُصدَّق، كان من الواضح أن قلبه أيضًا قد خلا منها. هنا، وسط العَوَز والخراب، وتفكُّك عائلته وتشتُّتها، والجوع المتربِّص به كالذئب عند باب منزله، استطاعَ أن ينظر إلى الماضي دون أن يُضمر كراهيةً لأولئك الذين دمَّروا حياته. ولم يكن ذلك بسبب كِبر سنِّه وضعفه، وفقدانه لروح الثورة؛ بل لأنه قد درسَ الاقتصاد، وتوصَّل إلى قناعة بأن النظام القائم كان نظامًا شريرًا، قد أعمى عيون الرجال وسمَّم أرواحهم. قال إنَّ يومًا أفضل سيأتي، عندما يتغيَّر هذا النظام الشرير ويتمكَّن الرجالُ من التراحُم فيما بينهم.

عندما وصلت المناقشة إلى هذه المرحلة، أعربَت ماري بيرك مرة أخرى عن يأسِها الساحق. كيف يمكن أن تتغيَّر الأمور في أي يومٍ من الأيام؟ الرؤساء قُساة القلوب، والعمال جُبناء وخَونة. ولم يعد في استطاعة أحد تغيير ذلك سوى الله … والله قد ترك الأمور على حالها وقتًا طويلًا!

كان هال مُهتمًّا بمعرفة كيفية تعامُل إدستروم مع هذا الموقف. قال: «ماري، هل قرأتِ من قَبل عن النمل في أفريقيا؟»

قالت: «لا.»

«إنه يتحرك في طوابير طويلة، تُقدَّر بالملايين. وعندما يصل إلى خندق، تسقط النملةُ الأولى في الطابور، ويتبعها المزيدُ والمزيد من النمل في الأعلى، حتى يملأ النملُ الخندقَ، وتعبُر البقيةُ عليه. نحن نمل يا ماري.»

صاحت الفتاة: «مهما كان عددُ مَن يدخلون، فلن يتمكَّن أحدٌ من العبور أبدًا. ليس ثمة قاعٌ للخندق!»

أجاب: «ذلك أكثر مما يمكن أن تعرِفه أيُّ نملة. يا ماري. كلُّ ما يعرفه النملُ هو أن يدخل إلى الخندق. تتشبَّث كلُّ نملة بجسد الأخرى، حتى في حال موتها؛ لتشكيل جسر، وتمرُّ البقيةُ عَبرَه.»

قالت بجِدَّة: «سأتحرَّكُ جانبًا! لن أُلقي بنفسي إلى التهلُكة.»

أجاب الآخر: «ربما تَنتحِين جانبًا ... لكنكِ ستعودين إلى الطابور مرة أخرى. أعرفُكِ أكثر مما تعرفين نفسكِ يا ماري.»

سادَ الصمتُ في الكوخ الصغير. دوَّت رياحُ أوائل الخريف بالخارج، وبدتِ الحياةُ فجأة لهال صارمةً وقاسية. كان يعتقد في فَورة شبابه أنه من المثير أن يُصبح ثوريًّا، ولكن أن يكون نملة، واحدة من ملايين وملايين النمل، أن يَفنى في خندقٍ لا قاعَ له ... فذلك كان شيئًا يصعب على المرء أن يحمل نفسه على مواجهته! نظر إلى الجسد المنحني لهذا الكادِح الأشيب الشعر، الضئيل في ضوء المصباح الخافت، ووجدَ نفسه يُفكِّر في لوحة «زيارة عمواس» لرامبرانت، حيث الغرفة الرديئة الإضاءة في الحانة القذِرة وقد أُصيبَ الرجلان الرثَّا الثياب بالذهول من وَهج الضوء على جبين رفيقِ طاولتهما. لم يكن من الرائع أن يتخيَّل وهجًا من الضوء حول جبين هذا العجوز ذي الصوت الخفيض!

كان الرجل العجوز يقول بهدوءٍ: «لم يكن لديَّ أيُّ أمل على الإطلاق أن أشهد ذلك اليوم. لقد كنت آمل حقًّا أن يتمكَّن أبنائي من رؤيته ... لكنني الآن لست متأكدًا حتى من ذلك. غير أني طوال حياتي لم أشك قطُّ في أنه في يومٍ من الأيام سوف يعبر العمَّال إلى الأرض الموعودة. لن يكونوا عبيدًا بعد ذلك، وما يصنعونه لن يضيعه الكُسالى. ولتصدِّقي رجلًا عليمًا بالأمور يا ماري ... عندما لا يملك العامل أو العاملة ذلك الإيمان، يفقد السببَ للحياة.»

قرَّر هال أنه سيكون من الآمِن أن يثق بهذا الرجل، وأخبره بخطته للعمل مُراقِبًا للأوزان. أوضحَ متذكِّرًا تحذير ماري: «لا نريد سوى نصيحتك. زوجتُكَ المريضة ...»

لكن الرجل العجوز أجاب بحزنٍ: «إنها في الرمق الأخير، وسألحق بها قريبًا. ما تبقَّى لي من قوة يمكن بذله أيضًا في سبيل القضية.»

الفصل الخامس

لم يكن جو المؤامرات هذا بالأمر الهيِّن على نفوس الرجال الذين يكسبون عيشَهم من الفحم، لكن هال كان لا يزال يرى فيه جوًّا من التشويق والإثارة، حتى في أخطر اللحظات. كان قد قرأ قصص الثوار، والشرطة التي طاردتهم. لا بد أن مثل هذه الإثارة كانت موجودة في روسيا، فقد كان يعلم ذلك، ولكن لو أن أحدًا قد أخبره أنه يمكن أن يجدها في موطنه الأمريكي الحُر، على بُعد ساعاتٍ قليلة من مدينته ومدينة جامعته، فما كان ليصدق هذا الكلام.

في المساء الذي تلا زيارة هال لإدستروم، أوقفه رئيسُه في الشارع. جفلَ هال عندما التقى به فجأة كأنه لصٌّ اصطدمَ بشرطي.

قال رئيس العمَّال: «مرحبًا يا فتى.»

كان الرد: «مرحبًا يا سيد ستون.»

قال رئيس العمَّال: «أريد التحدُّث إليك.»

«حسنًا يا سيدي.» وبعد ذلك، قال لنفسه: «لقد كَشَفَ أمري!»

قال ستون: «تعالَ إلى منزلي.» وتبِعه هال، وهو يشعر كما لو كانت الأصفادُ حول مِعصَمَيه بالفعل.

قال الرجل وهما يسيران: «بالمناسبة، اعتقدتُ أنك ستخبرني إذا سمعتَ أيَّ حديث.»

«لم أسمع شيئًا يا سيدي.»

تابعَ ستون: «حسنًا، عليك أن تشرع في مهمتك؛ من المؤكَّد أن هناك ثرثارين في كل معسكر فحم.» وفي أعماقه، تنفَّس هال الصعداء. كان إنذارًا كاذبًا!

وصلا إلى منزل رئيس العُمَّال، واتخذ رئيس العُمَّال لنفسه كُرسِيًّا في الشُّرفة وأشار إلى هال أن يتخذ لنفسه كرسيًّا آخر. جلسَا في إضاءة خافتة، وأخفضَ ستون صوتَه عندما استهلَّ حديثه. «ما أريد التحدُّث معك بشأنه الآن هو أمرٌ آخر ... إنها هذه الانتخابات.»

«أيُّ انتخاباتٍ يا سيدي؟»

ألم تعلم أنه كانت هناك انتخابات؟ تُوفِّي عضو الكونجرس عن هذه المنطقة، وستُجرى انتخاباتٌ استثنائية بعد ثلاثة أسابيع اعتبارًا من يوم الثلاثاء المقبل.»

«أرى يا سيدي.» وضحكَ هال بينه وبين نفسه. سيحصل على المعلومات التي أوصاه توم أولسون أن يعرفها!

سأل رئيس العمَّال: «ألم تسمع أيَّ حديثٍ عن ذلك؟»

«لا شيءَ على الإطلاق يا سيدي. لا أُولي الكثيرَ من الاهتمام بالسياسة نهائيًّا ... لا شأنَ لي بها.»

قال رئيس العمَّال بحماسٍ: «جيد، هذه هي الطريقة التي أحبُّ أن أسمع عمَّال المناجم يتحدَّثون بها! إذا كان لديهم جميعًا ما يكفي من العقل لترك السياسة للسياسيين، فسيكونون في وضعٍ أفضل بكثيرٍ. ما عليهم فعله هو الاهتمام بوظائفهم.»

وافق هال بحِلمٍ وخنوع: «نعم يا سيدي ... مثلما يتعيَّن عليَّ أن أعتني بالبِغال، إذا كنت لا أرغب في الإصابة بالمغص.»

ابتسم الرئيس بتقديرٍ. وقال: «أنت أرجحُ عقلًا من معظمهم. إذا بقيتَ بجانبي، فستكون هناك فرصة لك لتحسين أوضاعك.»

قال هال: «شكرًا لك يا سيد ستون. أعطني فرصة.»

«حسنًا الآن، إليك أمرَ هذه الانتخابات. إنهم يرسلون إلينا كلَّ عام مجموعة من أموال الحملة لإدارتها. قد تُصادِف القليل منها في طريقك.»

قال هال وقد تهلَّلت أساريرُه: «أعتقد أنني أستطيع إدارتها. ماذا تريد أن أفعل؟»

توقَّفا عن الكلام برهةً، بينما كان ستون ينفخ في غليونه. ثم تابعَ ستون بنبرة احترافية. ما أريدُه هو شخصٌ يستطلع لي الأمور قليلًا، ويُطلِعني على الوضع. اعتقدتُ أنه من الأفضل عدم استخدام الرجال الذين يعملون معي عادةً، بل شخص لا يمكن الشك فيه. في شيريدان وبيدرو يقولون إن الديمقراطيين يُحدِثون ضجة كبيرة، والشركة قَلِقة. أفترضُ أنك تعرف أنَّ «الشركة العامة للوقود» تتَبع الحزبَ الجمهوري.»

«لقد سمعتُ ذلك.»

«قد تحسب أنَّ عضو الكونجرس في واشنطن لا شأن له بنا، ولكنْ لحملته أثرٌ سيئ علينا؛ حيث يخبر الرجالَ أنَّ الشركة تستغلهم. ولذا، أودُّ منك أن تتجوَّل قليلًا، وأن تبدأ في التحدُّث مع الرجال عن السياسة، وأن ترى ما إذا كان أحدٌ منهم كان يستمع إلى حديث ماكدوجال هذا. (ماكدوجال هذا ديمقراطيٌّ، كما تعلم.) وأريدُ معرفة ما إذا كانوا يرسلون المنشورات إلى هذا المعسكر، أو إذا كان لديهم أيُّ عملاء هنا. كما ترى، يزعمون الحقَّ في الحضور إلى هنا وإلقاء الخُطب، وكل تلك الأمور. نورث فالي هي مدينة مجالس بلدية، ولذا فإن القانون يدعمُها، وإذا أخرسناهم، فسيثيرون الشغب في الصحف، ولا يبدو هذا جيدًا. ومن ثَم، علينا أن نتقدَّم عليهم بطرقٍ هادئة. لحُسن الحظ أنه لا توجد أي قاعة في المعسكر ليجتمعوا فيها، وقد أصدرنا مرسومًا محلِّيًّا يحظُر التجمعات في الشوارع. إذا حاولوا إدخال المنشورات، فلا بد أن نتعامل معهم بشكلٍ ما قبل أن يتمكَّنوا من توزيعها. هل تفهم؟»

قال هال: «أفهم» وفكَّر في منشورات توم أولسون الدعائية!

«سننشر الأمر ... إنَّ الشركة تريد انتخابَ الجمهوريين، وستكون لهم بالمرصاد، وترى كيف يشعرون حِيال الأمر في المعسكر.»

قال هال: «يبدو هذا سهلًا للغاية. لكن أَخبِرني يا سيد ستون، لماذا تهتم بالأمر؟ هل يملك الكثيرُ من هؤلاء الأجانب أصواتًا؟»

«لا يتعلق الأمرُ كثيرًا بالأجانب. لقد جنَّسناهم لغرضٍ ما ... إنهم يعطون أصواتهم لَمن نريد مقابل كأسٍ من الجِعَة. ولكنَّ الناطقين بالإنجليزية، أو الأجانب الذين مرَّ الكثيرُ من الوقت على وجودهم هنا، وأصبحوا مُعتَدِّين بأنفسهم ... فهم الذين يجب أن نضع أعيننا عليهم. إذا بدءُوا بالحديث في أمور السياسة، فإنهم لا يتوقفون عند هذا الحَدِّ؛ ومن ثَم سرعان ما يستمعون إلى مُحرِّضي الاتحادات النقابية ويطمحون إلى إدارة المعسكر.»

قال هال: «أوه نعم، أرى!»، وتساءل في نفسه عما إذا كانت نبرةُ صوتِه قد بدت مناسبة.

لكن رئيس العمَّال كان مهتمًّا بمشكلاته الخاصة. فقال: «كما قلتُ لسي آدامز في ذلك اليوم، ما أبحث عنه هو رجال يتحدَّثون لغة جديدة ... لغة لن يفهمها أحدٌ أبدًا! ولكني أفترض أن ذلك سيكون سهلًا للغاية. لا توجد طريقة لمنعهم من تعلُّم القليل من الإنجليزية!»

قرَّر هال الاستفادة من هذه الفرصة لتحسين معرفته بالأمور. فقال: «بالطبع يا سيد ستون، ليس عليك إحصاء أي أصوات إذا كنت لا تريد ذلك!»

أجابَ ستون: «حسنًا، سأخبرك. ما يُهمني هو الطريقة الأسهل لإدارة الأمور. عندما كنت مشرفًا في معسكر هابي جالش، لم نُضِع أيَّ وقتٍ في السياسة. كانت الشركة ديمقراطية في ذلك الوقت، وعندما أتت ليلة الانتخابات، سجَّلنا أربعمائة صوتٍ لصالح المرشحين الديمقراطيين. لكن أول شيء عرفناه هو أنهم نقلوا مجموعة من الزملاء إلى المدينة، وأقسموا إنهم صوَّتوا للقائمة الجمهورية في معسكرنا. ملأَ الخبرُ الصحف الجمهورية، وأصدرَ قاضٍ أحمق حُكمًا بإعادة فرز الأصوات، واضطُررنا إلى العمل طوال الليل ووضع العلامات على الكثير من بطاقات الاقتراع الجديدة. لقد سبَّب لنا هذا الكثير من الإزعاج!»

ضحكَ رئيس العمَّال، وانضمَّ إليه هال بتحفُّظ.

«ولذا، كما ترى، عليك أن تتعلَّم إدارة الأمور. إذا كانت هناك أصوات للمرشح الخطأ في معسكرك، فستنكشِف الحقيقة، وإذا كانت النتائج لصالح جانبٍ واحدٍ، يحدث الكثير من التذمُّر. هناك الكثير من رؤساء العمل الذين لا يهتمون بالأمر، لكنني تعلَّمتُ الدرس في ذلك الوقت، ووضعتُ لنفسي طريقتي الخاصة ... وهي عدم السماح باندلاع أي مُعارضة. أتفهم؟»

«نعم، أفهم.»

«ربما ليس لرئيس المنجم أيُّ حقٍّ للتدخل في السياسة ... ولكن هناك شيئًا واحدًا لديه رأيٌ فيه، وهو مَن يعمل في منجمه. أسهل شيء هو التخلص من العناصر غير المرغوب فيها ... اقتلاعُها ...» لم ينسَ هال قطُّ الحركة التي أوضحَ بها أليك ستون هذه الكلمات بيدَيه البدينتَين. مع مواصلته لحديثه، لم تبدُ نبراتُ صوته لطيفة كالعادة. وأضافَ قائلًا: «الرجال الذين لا يريدون التصويتَ وفقًا لما أريد يمكنهم الذهاب إلى مكان آخر ليُدلوا فيه بأصواتهم. هذا كلُّ ما لديَّ لأقوله في السياسة!»

توقَّفَا عن الكلام برهة، بينما كان ستون ينفخ في غليونه. ثم ربما خطرَ في باله أنه ليس من الضروري الخوضُ في مثل هذه التفاصيل في أثناء ترويضه لمستجَدٍّ في السياسة. عندما استأنفَ حديثَه، كان حديثه حَثًّا لطيفَ اللهجة على المغادرة. فقال: «إليكَ ما ستفعله يا فتى. غدًا ستُصاب بالتواءٍ في معصمك، ومن ثَم لن تتمكَّن من العمل بضعة أيام، وذلك سيُعطيك فرصة للتجوُّل في المعسكر والاستماع إلى ما يقوله الرجال. في تلك الأثناء، سأحرص على حصولك على راتبك.»

قال هال: «يبدو هذا جيدًا» لكنه لم يُظهِر إلا قدرًا ضئيلًا من شعوره بالرضا!

نهضَ رئيس العمَّال من كرسيه وضربَ غليونه مخرِجًا منه الرماد. وقال: «تذكَّر ... أريدُ معلوماتٍ موثوقة. يعمل لديَّ رجالٌ آخرون، وأقارنُ بينهم. ولعلمك، ربما أكلِّفُ شخصًا بمراقبتك.»

قال هال، وابتسمَ مبتهجًا: «نعم. لن أنسى ذلك.»

الفصل السادس

أول شيء فعله هال هو أنْ بحثَ عن توم أولسون وروى له ما مرَّ به. وقد قضى الاثنان وقتًا ممتعًا في ذلك. قال هال ضاحكًا: «أنا الآن المفضَّل لدى رئيس العمَّال!»

لكن المنظِّم النقابي أصبح جادًّا فجأة. فقال: «كُن حذِرًا فيما تفعله لذلك الرجل.»

«لماذا؟»

«قد يستخدمه ضدك لاحقًا. أحدُ الأشياء التي يحاولون فعلها إذا تسبَّبت في أي مشكلة لهم، هو إثباتُ أنك أخذتَ منهم مالًا أو حاولتَ فعل ذلك.»

«لكنه لن يكون لديه أي أدلة.»

«هذا ما أعنيه … لا تُعطِه أيًّا منها. إذا قال ستون إنك كنت تعمل في السياسة لصالحه، فربما يتذكَّر أحدُ الزملاء أنك سألتَه عنها. ولذلك، لا تحمل أي أموال مختومة معك.»

ضحك هال. وقال: «المال لا يبقى معي طويلًا هذه الأيام. ولكن ماذا أقول إذا طلبَ مني تقريرًا؟»

«من الأفضل أن تنفِّذ خطتك على الفور يا جو … كي لا يكون لديه الوقتُ لطلب أي تقرير.»

كان الرد: «حسنًا. ولكن على أي حال، سأستمتع كثيرًا بكوني المفضَّل لدى رئيس العمَّال!»

وهكذا، في وقتٍ مبكر من صباح اليوم التالي، عندما ذهبَ هال إلى عمله، شرعَ في «ليِّ مِعصَمه.» كان يتجوَّل في مكان عمله وهو يتألَّم، ما أثار قلقَ العجوز مايك، وعندما قرَّر أخيرًا أنه يجب عليه التوقف عن العمل، تبِعَه مايك إلى منتصف طريق بئر المنجم، ونصحه بالكمادات الساخنة والباردة. ترك هال السلوفاكي العجوزَ يكدح قدر استطاعته

بمفرده، وخرجَ ليستمتع ببهجة العالَم العُلوي الرائعة، وبالبهجة الأروع لكونه المفضَّل لدى رئيسه.

ذهبَ أولًا إلى غرفته في نُزُل «ريمينيتسكي»، وربطَ شريطًا من قميصٍ قديمٍ حول معصمه، ومنديلًا نظيفًا فوقه، أصبحت له بهذا الرمز الحرية في التجوُّل في المعسكر والحصول على تعاطف جميع الرجال، وهكذا انطلقَ.

في أثناء سيره نحو مَقلَب المنجم رقم ١، قابلَ رجلًا نحيلًا وقويًّا سريعَ الحركة وضئيلَ الحجم، ذا عينَين سوداوَين مضطرِبتَين، ووجه نحيل ينمُّ عن الذكاء. كان يرتدي «بذلة» عمَّال المناجم العادية، ولكن على الرغم من ذلك، لم يكن يبدو مثلهم. كان كلُّ شيء فيه يدل على كونه يتمتع بسُلطة ما.

قال هال: «صباح الخير يا سيد كارترايت.»

أجاب المشرف: «صباح الخير» ثم قال، وهو يرمقُ ضمادة هال: «هل تؤلمُكَ؟»

«نعم يا سيدي. لقد أُصِبتُ ببعض الالتواء، لكنني رأيتُ أن من الأفضل أن أتوقَّفَ عن العمل.»

«هل زُرْتَ الطبيب؟»

«لا يا سيدي. لا أعتقد أنَّ الأمر بذلك السوء.»

«من الأفضل أن تذهب إلى الطبيب. لا أحد يتوقَّع أبدًا مدى سوء الالتواء.»

قال هال: «أجل يا سيدي.» ثم في أثناء مرور المشرف، قال: «هل تعتقد يا سيد كارترايت أن ماكدوجال لديه فرصة لانتخابه؟»

أجاب الآخر مُتعجِّبًا: «لا أعرف. لا أتمنَّى ذلك. لن تُصوِّت له، أليس كذلك؟»

«أوه، نعم. أنا جمهوريٌّ ... نشأتُ على ذلك. لكنني تساءلتُ عما إذا كنت قد سمعتَ أيَّ حديث لماكدوجال.»

«حسنًا، لستُ الشخصَ الذي يسمع ذلك. هل أنت مهتَم بالسياسة؟»

«نعم يا سيدي ... بطريقةٍ ما. في الواقع، هذا سببُ التواء مِعصَمي.»

«كيف ذلك؟ هل خُضْتَ عِراكًا؟»

«لا يا سيدي؛ لكن كما تعلم، أرادَ مني السيد ستون أن أستطلع الآراءَ في المعسكر، وأخبرني أنه من الأفضل أن ألوي معصمي وأتوقَّف عن العمل.»

بعد أن حدَّق «المشرف» إلى هال، لم يستطع أن يمنع نفسه من الضحك. ثم نظر حوله. وردَّ قائلًا: «عليك أن تكون حذِرًا عندما تتحدَّث عن مثل هذه الأشياء.»

قال هال بشكلٍ جافٍّ: «اعتقدتُ أنه يمكنني بالتأكيد أن أثِقَ بالمشرف.»

تفحَّصه الآخر بعينَيه الثاقبتَين، وتجرَّأ هال، الذي شعرَ بروح الديمقراطية السياسية، فراحَ يحدِّقُ إليه هو الآخر. قال كارترايت أخيرًا: «أنت شابٌّ واعٍ تمامًا. ما دمتَ تعرف كيف تسير الأمور هنا، وتقوم بعملٍ مفيدٍ، سأضمن لك ألَّا يتجاهلوك.»

«حسنًا يا سيدي ... شكرًا لك.»

«ربما ستُصبح موظف انتخاباتٍ هذه المرة. هذه الوظيفة راتبُها ثلاثة دولاراتٍ في اليوم، كما تعلم.»

«جيد جدًّا يا سيدي.» ورسم هال الابتسامة على شفتَيه مرة أخرى. وأردفَ: «أخبروني أنكَ عُمدة نورث فالي.»

«أنا كذلك بالفعل.»

«وأنَّ قاضي الصلح موظف في متجرك. حسنًا، يا سيد كارترايت، إذا كنت تريد رئيسًا لمجلس الصحة أو صائدًا للكلاب، فأنا تحت أمرك ... بمجرد أن يتحسَّن مِعصَمي.»

وهكذا مضى هال في طريقه. كان بالطبع هذا «المزاح» الذي صدر عن أحد «المساعدين» صَلَفًا سخيفًا؛ فقد وقفَ المشرف ينظر إليه وقد علا وجهَه العبوسُ والحيرة.

الفصل السابع

لم ينظر هال خلفه، بل توجَّه إلى متجر الشركة. كُتِبَ على اللافتة فوق الباب «شركة نورث فالي التجارية»، وكان بالداخل امرأةٌ صِربيَّة تُشير إلى ما تريد شراءَه، وفتاتان صغيرتان من ليتوانيا تُشاهدان رطلًا من السكر وهو يُوزَن. مشى هال نحو الشخص الذي كان يزِن البضائع، كان رجلًا في منتصف العمر ذا شارب أصفر ملطَّخٍ بعصارة التَّبغ. قال: «صباح الخير أيها القاضي.»

ردَّ سيلاس آدامز، قاضي الصُّلح في مدينة نورث فالي بقوله: «هاه!»

قال هال: «ما رأيك في الانتخابات، أيها القاضي؟»

قال الآخر: «لا أفكِّر في الأمر. فأنا مشغول بوزن السكر.»

«هل سيُصوِّت أحد هنا لصالح ماكدوجال؟»

«من الأفضل ألَّا يخبروني إذا كانوا سيفعلون ذلك!»

ابتسم هال، وقال: «ماذا؟ في هذه الجمهورية الأمريكية الحُرَّة؟»

«في هذا الجزء من الجمهورية الأمريكية الحُرَّة، يتمتَّع المرءُ بحرية استخراج الفَحم، ولكن ليس بالتصويت لصالح شخصٍ بغيضٍ مثل ماكدوجال.» ثم بعد أن غلَّف «قاضي الصلح» السكر، أخذَ قضمة طازجة من علكة التبغ التي في حوزته، واستدار إلى هال. وسأله: «ماذا ستأخذ؟»

اشترى هال نصفَ رطل من الخوخ المجفَّف، كي يتمكَّن من إيجاد سبب للتلكؤ وقضاء الوقت في الحديث إلى القاضي. بينما كان طلبه يُعبَّأ، جلسَ إلى طاولة البيع. وقال: «كما تعلم، كنت أعمل في محل بقالة.»

«أحقًّا؟ أين؟»

«بيترسون وشركاه، في أمريكان سيتي.» قال هال هذا كثيرًا إلى درجة أنه بدأ في تصديقه.

«هل يدفعون جيدًا هناك؟»

«نعم، جيدًا جدًّا.» ثم عندما أدرك هال أنه ليس لديه أي فكرة عما يُعَدُّ راتبًا جيدًا في مجال البقالة، أضافَ سريعًا: «أُصيبَ مِعصَمي إصابةً بالغة!»

قال الآخر: «أحقًّا؟»

لم يُظهِر الكثيرَ من الأُلفة، لكن هال أصرَّ رافضًا التصديقَ بأنَّ أي شخص في متجر ريفي كان سيُفوِّت فرصةً للمناقشة في السياسة، حتى لو كان مع مساعِد عامل منجَم. قال: «أخبرني، ما خطبُ ماكدوجال بالضبط؟»

«خطبُه أنَّ الشركة ضده.» نظر بحِدَّة إلى عامل المنجم الشاب. وقال بصوتٍ هادر: «هل تهتم بالسياسة؟» غير أن عينَي عامل المنجم الشاب البُنِّية المبهجة لم تُظهِر إلا التقدير للرد السابق، وهو ما أغرى «قاضي الصلح» لذكر رذائل عضو الكونجرس المحتمَل. وهكذا بدأت المحادثة، وسرعان ما انضمَّ إليها آخرون في المتجر … «بوب» جونسون، محاسب ومدير مكتب البريد، و«جيك» بريدوفيتش، اليهودي الجاليكي الذي كان عضوًا في مجلس إدارة المدرسة المحلية، وكان يعرف أسماءَ مواد البقالة الأساسية بخمس عشرة لغة.

استمعَ هال إلى عرضٍ لجرائم المعارضة السياسية في مقاطعة بيدرو. لقد جاءَ مرشحُهم ماكدوجال إلى الولاية بصفته «مُقامرًا يَدَّعي امتلاكَ المال»، لكنه الآن أصبح يتجوَّل ويُلقي الخُطب في الكنائس، ويتحدَّث عن الشعور الأخلاقي للمجتمع. قال سي آدامز: «ويتعهَّد هو ورئيسُ المنطقة برعاية ثلاث عائلاتٍ في بيدرو!»

غامرَ هال، قائلًا: «حسنًا، إذا كان ما أسمعُه صحيحًا، فإن المرشَّح الجمهوري ليس قِديسًا كما يدَّعي. يقولون إنه كان في حالة سُكر في المؤتمر …»

قال «قاضي الصلح»: «ربما يكون الأمر كذلك، لكننا لا ندعم حظر التصويت، ولا ندعم تصويت العُمَّال … لا نحاول إثارة الحثالة في معسكرات الفحم هذه، بوعدهم بأجورٍ عالية وساعات عمل قصيرة. ألا يعلم أنه لا يستطيع أن يحقق لهم ذلك؟ لكنه يعتقد أنه سوف يذهب إلى واشنطن ويتركنا هنا لنتعامل مع الفوضى التي أثارها!»

قال بوب جونسون: «لا تقلق … لن يذهب إلى واشنطن.»

وافقَ الاثنان الآخران، وغامر هال مجدَّدًا قائلًا: «يقول إنكم تملئُون صناديق الاقتراع بالأصوات المزوَّرة.»

«ما ظنُّك فيما يفعله جمهورُه في المدن؟ علينا أن نتصدى لهم، أليس كذلك؟»

قال هال بسذاجة: «أوه، فهمت. أنتم تملئُونها بمزيدٍ من الأصوات المزيَّفة!»

«أحيانًا نملأ الصناديق، وأحيانًا نملأ بطون الناخبين.» صدرت ضحكة تقديرٍ مكتومة من الآخرين، وقاد ذلك «قاضي الصلح» إلى أن يتذكَّر أمرًا. فقال: «قبل عامَين، كنت موظفًا في الانتخابات في شيريدان، ولاحظنا أنهم كانوا سيتقدَّمون علينا ... لقد سيطروا على الولاية بأكملها. قال ألف ريموند: «أقسم إننا سوف نريهم خدعة لا تخطر لهم على بالٍ من مقاطعات الفحم! ولن يكون هناك مجالٌ لإعادة فرز الأصوات أيضًا!» وبالفعل، أوقفنا رصد نتائجنا حتى انضمَّ الباقون للإدلاء بأصواتهم، وعندما حقَّقنا عددَ الأصوات التي كنا في حاجة إليها، سجَّلناها. وهكذا سَوَّينا الأمر.»

علَّق هال: «تبدو هذه طريقة بسيطة. سيتعيَّن عليهم النهوض مبكرًا للتغلُّب على ألف.»

قال سِي بقناعة ورضًا بوصفه أحد مَن شاركوا في هذا الأمر: «بالطبع، إنهم يطلقون على هذه المقاطعة اسم «إمبراطورية ريموند».»

قال هال: «لا بد أنه أمرٌ سهل ... أن تكون رئيس الشرطة، وأن تُعيِّن عددًا كبيرًا جدًّا من النواب حسبما يريدون في معسكرات الفحم هذه!»

قال الآخر، موافقًا: «نعم. وهناك أيضًا تجارته في مجال بيع المشروبات الكحولية بالجملة. إذا كنت تريد الحصول على ترخيص في مقاطعة بيدرو، فليس عليك أن تصوِّت لصالح ألف فحسب، بل أن تدفع فواتيرك في الوقت المحدَّد!»

علَّق هال: «لا بد أن الأمر سيعود عليه بثروة طائلة!» وبدا القاضي، ومدير مكتب البريد، ووكيل المدرسة مثل أطفال يستمعون إلى قصة مأدبة فخمة. «بالطبع!»

أضاف هال: «أعتقد أن إدارة السياسة في هذه المقاطعة تتطلَّب أموالًا.»

«حسنًا، لا يساهم ألف بأي أموالٍ، بالطبع! فهذه وظيفة الشركة.»

هذا ما قاله قاضي الصلح، وأضاف وكيلُ المدرسة: «العُملة في هذه المعسكرات هي الجِعَة.»

ضحك هال، وقال: «أوه، أرى ذلك! تشتري الشركات جِعَةَ ألف، وتستخدمها في حصد الأصوات لصالحه!»

قال مديرُ البريد: «أمرٌ مؤكَّد!»

في هذه اللحظة، صادف أنه مدَّ يده إلى جيبه ليُخرِج سيجارًا، ولاحظ هال درعًا فضيًّا على صدريَّته. سأله: «أتلك شارة النائب؟» ثم التفت ليتفحَّص زيَّ وكيل المدرسة. «أين شارتُك؟»

قال جيك مبتسمًا: «سأحصلُ على شارتي عندما تأتي الانتخابات.»

«وماذا عن شارتك أيها القاضي؟»

قال سيلاس باعتزازٍ: «أنا قاضي صلح أيها الشاب.»

انحنى هال ولاحظ انتفاخًا جهة الورك الأيمن لوكيل المدرسة، فمدَّ يده نحوه. حرَّك الآخرُ يده عفويًّا إلى المكان.

التفت هال إلى مدير مكتب البريد. وسأل: «أين مسدسُك؟»

ابتسم بوب قائلًا: «مسدسي تحت طاولة البيع.»

«وماذا عن مسدسك أيها القاضي؟»

قال القاضي: «مسدسي في المكتب.»

التقط هال أنفاسه. قال: «مَرحى! يا له من فخٍّ فولاذي مُحكَم!» تمكَّن من الاحتفاظ بالضحكة على وجهه، ولكن في داخله كان يشعر بمشاعر أخرى غير مشاعر التسلية. لقد كان يخسر «نشوة عدم الاكتراث اللطيفة الأولى»، تلك النشوة التي رافقته وهو ينطلق للركض مع الأرانب البرية وكلاب الصيد في نورث فالي!

الفصل الثامن

بعد يومَين من بداية عمل هال بالسياسة، تقرَّر أن يتجمَّع العمَّال الذين كانوا سيُطالبون بمراقِبٍ للأوزان في منزل السيد ديفيد وزوجته. عندما خرج مايك سيكوريا من المنجم في ذلك اليوم، أخذه هال جانبًا وأخبره بالتجمُّع. عَلَتْ نظرةٌ من البهجة وجهَ السلوفاكي العجوز وهو يستمع؛ فأمسكَ برفيقه من كتِفَيه وصاح: «أتعني ما تقول حقًّا؟»

قال هال: «بالتأكيد، أعني ذلك. ألا تريد أن تكون في اللجنة كي تذهب وترى رئيس العُمَّال؟»

صاحَ مايك بما يعني «شيئًا فظيعًا» في لغته الأم. وأردفَ: «بحق يهوذا، سأعيدُ حزم صندوقي القديم!»

شعر هال بتأنيب ضمير. هل كان عليه إقحامُ هذا الرجل العجوز في الأمر؟ ومن ثَم سأله: «هل تعتقد أنك ستضطرُّ إلى الخروج من المعسكر؟»

«سأخرج من الولاية هذه المرة! ربما أعود إلى بلدي القديم!» وأدرك هال أنه لا يستطيع إيقافَه الآن، حتى لو أراد ذلك. كان الرجل العجوز متحمِّسًا للغاية إلى درجة أنه لم يتناول شيئًا في العشاء، وكان مساعِدُه يخشى أن يتركه بمفرده لئلَّا يُفشي الخبر.

اتُّفِق على أن مَن سيحضرون الاجتماع يجب أن يأتوا فُرادى، ومن طرقٍ مختلفة. كان هال من أوائل مَن وصلوا، ورأى أن ستائر البيت قد أُسدِلَت، ومصابيحه قد خُفِّض ضوءُها. دخلَ من الباب الخلفي، حيث وقفَ ديفيد «جاك الكبير» للحراسة. تأكد «جاك الكبير»، الذي كان عضوًا في اتحاد جنوب ويلز في موطنه، من هوية هال، ثم أدخله دون أن ينبِس ببِنت شَفة.

كان مايك بالداخل … وكان أولَ الواصلين. وكانت السيدة ديفيد، ذات العينَين السوداوين الصغيرتَين واللسان الذي لا يكفُّ عن الكلام، تتجوَّل في المكان وتُرتِّبه؛ كانت متوترة للغاية إلى درجة أنها لم تستطع الجلوس ساكنةً. كان هذان الزوجان قد أتيَا من مسقط رأسَيهما قبل عام أو نحو ذلك فحسب، وقد أحضرا جميع هدايا زفافهما إلى منزلهما الجديد … صور، وطُرَف، ومفروشات. لقد كان أجمل منزل زاره هال حتى ذلك الحين، وكانت السيدة ديفيد تخاطر به عمدًا، بسبب سخطها على زوجها الذي كان عليه أن يتخلَّى عن اتحاده النقابي من أجل الحصول على عملٍ في أمريكا.

جاء الشابُّ الإيطالي روفيتا، ثم جاء العجوز جون إدستروم. ولعدم وجود ما يكفي من الكراسي في المنزل، كانت السيدة ديفيد قد وضعت بعض الصناديق أمام الجدار، وغطَّتها بالقماش؛ ولاحظ هال أن كلَّ شخصٍ أخذ صندوقًا منها، تاركًا الكراسي لَمن وصلوا لاحقًا. كان كلٌّ منهم يُومئ إلى الآخرين عندما يدخل، ثم يخيِّم الصمتُ مرة أخرى.

عندما دخلت ماري بيرك، توقَّع هال من مظهرها وأسلوبها أنها قد غاصت مرة أخرى في مزاجها التشاؤمي القديم. شعر باستياءٍ لَحْظي. كان سعيدًا جدًّا بهذه المغامرة، وأراد أن يشعر الجميعُ بالسعادة … وخصوصًا ماري! ولكن مثل كل مَنْ لم يعانوا كثيرًا، صدَّته فكرة المعاناة الدائمة التي يعيش فيها الآخرون. بالطبع كان لدى ماري أسبابٌ وجيهة وراء مزاجها الكئيب … لكنها اعتبرت أنه من الضروري الاعتذار عما أسمته «شكواها»! كانت تعلم أنه يريدها أن تساعد في تشجيع الآخرين وتحفيزهم، ولكن ها هي تجلس في أحد الأركان وتشاهد هذا الحدث الرائع، كما لو كانت تقول: «أنا نملة، وسأشارك في الأمر … ولكنني لن أتظاهر بأن لديَّ أيَّ أمل في أن يفلح ذلك!»

أصرَّت روزا وكذلك جيري على المجيء، رغم أن هال عرض إعفاءهما من الحضور. جاء بعدهما البُلغاري فريسماك، ثم البولندِيَّان، كووفوسكي وزاميروفسكي. وجد هال صعوبة في تذكُّر هذَين الاسمَين، لكنَّ البولندِيَّين لم يزعجهما الأمر على الإطلاق؛ إذ كانا يبتسمان بلطفٍ عندما يحاول تذكر اسمَيهما، ولم يكونا ليمانعا إذا يئسَ ودعاهما توني وبيت. كانا رجلَين متواضعَين، وقد اعتادا طوال حياتهما تلقي الأوامر من الغير. نظر هال إلى الرجال واحدًا تلو الآخر، بأجسادهم المنحنية ووجوههم المنهكة من التَّعب، التي بدت في ظل الضوء الخافت أكثر تجهمًا وحزنًا من أي وقتٍ مضى، وتساءل عما إذا كان الاضطهاد القاسي الذي دفعهم إلى الاحتجاج سيكون كافيًا للحفاظ على حماسهم الجماعي ورغبتهم في المشاركة.

أتى أحد المستجَدِّين، الذي أساءَ فهم الأوامر، إلى الباب الأمامي وطرقَه، ولاحظ هال أن الجميع قد جفلوا، وبعضهم نهضَ على قدمَيه في ذُعرٍ. تذكَّر مرة أخرى أجواءَ روايات الحياة الثورية الروسية. كان عليه أن يُذكِّر نفسه بأن هؤلاء الرجال والنساء، المجتمعين هنا كالمجرمين، لا يفعلون شيئًا سوى التخطيط للمطالبة بحقٍّ يكفله لهم القانون!

كان آخِر مَن انضمَّ إليهم هو عاملَ منجم نمساويًّا يُدعى هوسار، الذي كان أولسون قد تواصلَ معه. ثم حان وقتُ بدء الاجتماع، ونظر كلٌّ منهم إلى الآخر في ترقُّب. قليلٌ منهم سبق له المشاركة في مؤامراتٍ من قبل، ولم يعرفوا تمامًا كيفية التعامُل مع الأمر. تعمَّد أولسون، الشخص الذي كان من شأنه أن يكون زعيمهم بطبيعة الحال، أن يبقى بعيدًا. يجب عليهم التعامل مع أمر مراقِب الأوزان هذا بأنفسهم!

قالت السيدة ديفيد أخيرًا: «فليتحدَّث شخصٌ ما»، ثم التفتت إلى هال عندما استمر الصمت. وقالت له: «سوف تكون مراقِب الأوزان. تكلَّم أنت.»

قال هال مبتسمًا: «أنا أصغر رجل هنا. فليتحدَّث أحدُ الزملاء الأكبر سنًّا.»

غير أنَّ أحدًا لم يبتسِم. صاحَ مايك العجوز: «تكلَّم!» ومن ثَم، نهضَ هال واقفًا في النهاية. إنه شيء سيمرُّ به كثيرًا في المستقبل؛ لأنه أمريكيٌّ ومتعلِّم، ومن ثَم أُجبر على أن يتولَّى زمامَ القيادة.

«كما أفهم، أنتم تريدون مراقِبًا للأوزان. الآن يقولون لي إن أجر مراقِب الأوزان يُفترض أن يكون ثلاثة دولارات في اليوم، غير أن بيننا سبعة فقط من عمَّال المناجم، وهذا ليس كافيًا. سأعرض الحصول على الوظيفة مقابل خمسة وعشرين سنتًا في اليوم من كل رجلٍ، وهو ما مجموعه دولار وخمسة وسبعون سنتًا، أقل مما أحصل عليه الآن في وظيفة المساعِد. إذا حصلنا على ثلاثين رجلًا لينضموا إلينا، فسأحصل على عشرة سنتات في اليوم من كلٍّ منهم، وأحصل على الثلاثة دولارات كاملة. هل يبدو ذلك عادلًا؟»

قال مايك: «بالطبع!» ووافقَ الآخرون لفظًا بألسنتهم أو إيماءً برءوسهم.

«حسنًا. والآن، لا يَخفى على أحدٍ من العاملين في هذا المنجم أن العمَّال لا يحصلون على المقابل الصحيح لأوزان ما يستخرجونه من الفحم. سيُكلِّف الأمرُ الشركة عدة مئاتٍ من الدولارات في اليوم لتعطينا المقابل الصحيح لأوزاننا، وينبغي ألا نكون من الحماقة بحيث نتصوَّر أنهم سوف يفعلون ذلك دون صراعٍ. علينا أن نعزم أمرنا على الوقوف معًا والتصدي لهم.»

صاحَ مايك: «بالطبع، يجب أن نتَّحد!»

صاحَ جيري بتشاؤمٍ: «لا يمكننا الحصول على مراقِب للأوزان!»

قال هال: «لن نحصل عليه إلا إذا حاولنا يا جيري.»

وضربَ مايك على ركبته. وقال: «بالطبع نحاول! ونحصل عليه أيضًا!»

صاحَ «جاك الكبير»: «صحيح!» لكنَّ زوجته الضئيلة الجسم لم تكن راضية باستجابة الآخرين. لقد أعطت هال درسه الأول في ترويض هذه الجماهير المتعددة اللغات.

«تحدَّث إليهم. اجعلهم يفهمونك!» وأشارت إليهم واحدًا تلو الآخر بإصبعها: «أنت! أنت! فريسماك، هنا، وأنت، يا كووفوسكي، وأنت يا زام … وأنت أيها البولندي الآخر. تريدون مراقِبًا للأوزان. تريدون الحصول على أوزانكم كاملة. تريدون الحصول على أموالكم كاملة. أتفهمون؟»

«نعم، نعم!»

«شكِّلوا لجنة، واذهبوا لرؤية المشرِف! تريدون مراقِبًا للأوزان. أتفهمون؟ يجب أن يكون لديكم مراقِب للأوزان. لا تراجُع ولا خوف.»

سرعان ما شرحَ كووفوسكي، الذي كان يفهم بعضَ الإنجليزية، لزاميروفسكي بقوله: «لا … لا خوف!»، ومن ثَم أومأَ زاميروفسكي، الذي كان عنقه لا يزال مُلتويًا إلى الموضع الذي ضربه جيف كوتون فيه بمسدسه، برأسه في لهفة بالموافقة. على الرغم من كدماته، كانت لديه الرغبة في الوقوف بجانب الآخرين، ومواجهة رئيس العمَّال.

ومن هنا طُرِح سؤالٌ جديد. «مَن سيتحدَّث إلى رئيس العُمَّال؟»

قالت السيدة ديفيد مخاطِبةً هال: «أنت مَن سيفعل ذلك.»

«ولكن أنا الشخص الذي سيُدفَع له الأجر. ليس لي أن أتحدَّث.»

أعلنت المرأة: «لا أحدَ غيرك يمكنه فعل ذلك على نحوٍ سليمٍ.»

قال مايك: «بالطبع … يجب أن يكون المتحدِّث أمريكيًّا!»

لكن هال أصرَّ. إذا تحدَّث هو، سيبدو الأمرُ كما لو أن مراقب الأوزان هو منظِّم الحركة، وأنه مشارك في اختلاق وظيفة جيدة الأجر لنفسه.

دارت المناقشات أخذًا وردًّا، حتى عَلَا صوتُ جون إدستروم أخيرًا. وقال: «ضعوني في اللجنة.»

قال هال: «أنت؟ لكنهم سيطردونك! وماذا ستفعل زوجتك؟»

قال إدستروم بوضوحٍ شديدٍ: «أعتقد أن زوجتي ستموت الليلة.»

ثم جلس مُطبق الشفتَين، ناظرًا أمامه مباشرة. وبعد توقُّف مؤقَّت، تابع قائلًا: «إذا لم يكن الليلة، فسيكون غدًا، هكذا يقول الطبيب، وبعد ذلك لن يُهم أيُّ شيء. يجب أن

أذهب إلى بيدرو لدفنِها، وإذا اضطررت إلى البقاء هناك، فلن يُحدِث ذلك فارقًا كبيرًا بالنسبة إليَّ، لذلك ربما أفعل ما في وسعي من أجل بقِيَّتكم. إنني أعمل في المناجم طوال حياتي، والسيد كارترايت يعرف ذلك؛ ربما يكون لذلك وزنٌ عنده. دعني أنا وجو سميث وسيكوريا نذهب لرؤيته، ولتنتظر بقيتُكم، ولا تتخلَّوا عن وظائفكم إلا إذا اضطُررتم إلى ذلك.»

الفصل التاسع

بعد تسوية مسألة اللجنة، أخبر هال الجَمْعَ كيف طلبَ منه أليك ستون التجسُّس على الرجال. رأى أنه ينبغي لهم معرفة الأمر؛ فقد يحاول الرؤساء استخدام هذا الأمر ضده، كما سبق وحذَّر أولسون. ومن ثَم قال: «قد يقولون لكم إنني خائن. يجب أن تثقوا بي.»

صاحَ مايك بحماسة: «نحن نثِق بك!» وأومأ الآخرون بالموافقة.

أجاب هال: «حسنًا. يمكنكم التأكُّد من هذا الشيء الوحيد ... إذا حصلتُ على هذه الوظيفة، فسوف تحصلون على أوزانكم الصحيحة!»

صاحَ «جاك الكبير» بطريقته الإنجليزية: «اسمعوا، اسمعوا!» وسَرَت همهمة في أرجاء الغرفة. لم يجرُءُوا على إحداث الكثير من الضجيج، لكنهم أوضحوا أنَّ هذا هو ما أرادوا فعله.

جلس هال، وبدأ في فكِّ الضمادة عن معصمه. قال: «أعتقد أنها قد أدَّت مهمتها»، وأوضحَ كيف انتهى به الحال لارتدائها.

صرخ العجوز مايك: «ماذا؟ أتخدعني هكذا؟» وقبض على معصمه، وبعد أن تأكد من عدم وجود أي أثر لتورُّم به، هزَّه حتى كاد يلويه بالفعل، وهو يضحك حتى سالت الدموع على وجنتَيه. ثم صاحَ: «أيها المخادع العتيد!» في هذه الأثناء كان كووفوسكي يروي القصة لزاميروفسكي، وكان جيري مينيتي يوضحها لفريسماك فيما يشبه لغة إنجليزية هجينة تفي بالغرض في مثل هذه المعسكرات. لم يرَ هال مثل هذه الضحكات الصادقة من قبل منذ مجيئه إلى نورث فالي.

لكن المتآمرين لا يسعهم الابتهاج طويلًا. ومن ثَم، عادوا مرة أخرى للعمل. اتفقوا على أن وقت زيارة اللجنة للمشرف يجب أن يكون عند انتهاء وقت العمل غدًا. ثم تحدَّث جون إدستروم، مقترِحًا أنَّ عليهم الاتفاق على خطة عمل في حال تعرَّضوا للعنف.

قال أحدهم: «هل تعتقد أنَّ العنف محتمَل بدرجة كبيرة؟»

صرخَ مايك سيكوريا: «بالطبع! ذات مرة في جبل سيدار ذهبنا لمقابلة رئيس العمَّال، لإخباره بانسداد مسار الهواء. أتدري ماذا فعل بالرجال؟ سدَّد إليهم لكمة في الأنف، وثلاث ركلات في المؤخرة، وركض خلفهم!»

قال هال: «حسنًا، إذا احتمل حدوث أي شيء من هذا القبيل، فلا بد أن نستعد له.»

سأل جيري: «ماذا ستفعل؟»

هنا حان الوقت ليتولَّى هال دوره في قيادة الأمور. ومن ثَم قال: «إذا لَكمني في أنفي، فسوف أردُّ له اللكمة في أنفه، هذا كلُّ شيء.»

صفَّق بعضُهم عند سماع ذلك. هكذا يكون الكلام، القول ما قالَ هال! شعر هال ببهجة تولِّيه زمام القيادة. غير أن ثقته بنفسه قد تعرَّضت لَمَحَكٍّ مفاجئ ... «لكمة في أنف» كبريائه، إذا جاز التعبير. جاء صوت امرأة من الركن، منخفضًا وكئيبًا: «نعم! وتسوقُ نفسَك إلى حتفها بعد كل ما بذلته من جهدٍ!»

نظر نحو ماري بيرك، ورأى وجهَها المفعم بالحيوية، مُتورِّدًا وعابسًا. ومن ثَم سألها: «ماذا تقصدين؟ هل تريدين منا أن ندير ظهورنا ونهرب بعيدًا؟»

قالت: «أودُّ ذلك! بدلًا من أن تُقتَلوا. ماذا ستفعلون إذا أشهرَ مُسدَّسه في وجوهكم؟»

«أيُشهر مسدسَه في وجوه لجنة بأكملها؟»

قاطع العجوز مايك الحديث مرة أخرى. وقال: «ذات مرة في باريلا ... ألم أخبرك كيف خسرتُ عرباتي؟ أخبرتُ رئيس الأوزان أنَّ شخصًا ما يسرق عرباتي، فأشهرَ مسدسه في وجهي، وقال: «تبًّا، اخرج من ذلك المَقلَب، أيها العجوز الخَرِف، سأطلق عليك النار فلا أترك في جسدك مكانًا سليمًا!»»

اعتاد هال بين زملائه في الكلية بأنَّ أفضل طريقة للتعامُل مع اللص هي أن تصرخ في وجهه، قائلًا: «تعالَ أيها الرجل العجوز، وتفضَّل، لا يوجد شيء هنا يستحق أن أتلقَّى رصاصة من أجله.» ما قيمة أي شيء يمكن للص أن يسرقه مقارنة بحياة المرء نفسها؟ وبالطبع، كما كان للمرء أن يتصوَّر، هذا هو الوقت المناسب لتطبيق تلك النظرية الوجيهة. ولكن لسببٍ ما لم تخطر هذه النظرية حتى على بال هال في ذلك الحين. كان يمضي قُدُمًا، تمامًا كما لو كان أجر استخراج طنٍّ من الفحم يوميًّا هو الشيء الوحيد المهم في الحياة!

سأل: «ماذا عسانا أن نفعل؟ لا نريد التراجُع.»

ولكن حتى في أثناء طرحه للسؤال، كان هال يُدرك أن ماري على حقٍّ. كان موقفُه هو موقف أبناء الطبقة المرفَّهة الذين اعتادوا أن تكون لهم طريقتهم الخاصة، لكن ماري، على الرغم من عصبيَّتها تلك، كانت تؤكد ضرورة ضبط النفس. كانت هذه هي المرة الثانية التي تجرح فيها كبرياءه في هذه الليلة. ولكنه سامحها الآن لإعجابه بما قالت؛ كان يعلم دائمًا أن ماري لديها عقلٌ راجحٌ وأنه كان في إمكانها مساعدته! زادَ إعجابه بما كان يقوله جون إدستروم … يجب ألا يفعلوا شيئًا من شأنه أن يضُرَّ بقضية «الاتحاد الكبير»، ولذا يجب أن يعقدوا العزم على عدم إبداء أي مقاومة جسدية، بغض النظر عما قد يحدث لهم.

كان هناك جدالٌ حاد على الجانب الآخر. صاح العجوز مايك: «فلنقاتل! فلنقاتل!» وصرخ فجأة، كالمتوجس من الألم الذي سيشعر به إذا تلقَّى لكمةً في أنفه: «أتقول إننا ينبغي أن نتحمَّل ذلك؟»

قال إدستروم: «إذا أجبناهم بالعنف، فسوف ينالنا جميعًا أسوأ ما في الأمر. ستقول الشركة إننا بدأنا المشكلة، وستُحمِّلنا جريرة أفعالنا. يجب أن نعزم أمرنا على أن نعتمد على القوة المعنوية.»

وهكذا، بعد مزيدٍ من النقاش، اتفقوا على أن كلًّا منهم سيحافظ على رباطة جأشه … إذا استطاع! وعلى هذا تصافحوا كلهم متعهدين بالثبات. ولكن عندما أُعلِنَ انتهاء الاجتماع، وتسلَّلوا واحدًا تلو الآخر في الليل، كانوا زُمرة من المتآمرين الشديدي اليقظة والترقُّب.

الفصل العاشر

لم يَنَم هال إلا قليلًا في تلك الليلة. فقد استلقى وسط أصوات غطيط ثمانية من الأشخاص المقيمين معه في نُزُل «ريمينيتسكي»، تجتاح ذهنه سيناريوهاتٌ مختلفة ربما تحدث غدًا. كان بعضُها بعيدًا عن أن يكون سيناريوهاتٍ سارة؛ فقد حاول تصوُّر نفسه بأنفٍ مكسور، أو بجسده مُغطًّى بالقطِران والريش. تذكَّر نظريتَه في التعامل مع اللصوص. كانت «الشركة العامَّة للوقود» لصًّا عملاقًا ومُروِّعًا؛ من المؤكَّد أن هذا كان الوقت المناسب ليقول لنفسه: «فلتهرب بجلدك!» لكن بدلًا من ذلك، فكَّر هال في إدستروم والجمْع الذي معه، وتساءل عن القوة التي جعلتهم مُتَّقدي الحماس في سبيل بلوغ هدفهم.

عندما حَلَّ الصباحُ، صعِدَ إلى الجبال؛ حيث يمكن للمرء أن يتجوَّل ويجدِّد قوته المعنوية. وعندما توارت الشمس وراء قمم الجبال، تبِعها هو أيضًا، والتقى بإدستروم وسيكوريا أمام مكتب الشركة.

أومَئُوا برءوسهم لتحيَّته، وأخبر إدستروم هال أن زوجته تُوفِّيت في نهار هذا اليوم. ولأنه لم يكن هناك متعهِّد لدفن الموتى في نورث فالي، رتَّب مع إحدى صديقاتها أن تتولَّى نقل الجثمان إلى بيدرو كي يتمكَّن هو من حضور المقابلة مع كارترايت. وضع هال يدَه على كتف الرجل العجوز، لكنه لم يحاول أن يُعزِّيَه بكلمة؛ فقد رأى أن إدستروم قد واجه الأزمة وأنه كان جاهزًا لأداء واجبه.

قال الرجل العجوز: «هيا»، ودخل الثلاثة إلى المكتب. بينما كان الموظف ينقل رسالتهم إلى غرفة المكتب الداخلية، وقفوا دقيقتَين، وهم يُبدِّلون في وقفتهم ما بين قدمٍ والأخرى في اضطرابٍ، ويديرون قبعاتهم في أيديهم مقهورين أذلاء.

ظهر السيد كارترايت أخيرًا عند الباب، بهيئته النحيلة الهزيلة المغلَّفة بهالة من السلطة الواضحة للعيان. سأل: «حسنًا، ما الأمر؟»

قال إدستروم: «نودُّ التحدُّث إليك، إذا سمحت. لقد قرَّرنا يا سيدي أننا نريد أن يكون لدينا مراقِب للأوزان.»

«ماذا؟» خرجت الكلمة كضربة سَوط.

«نودُّ أن يكون لدينا مراقِب للأوزان، يا سيدي.»

سادت لحظةٌ من الصمت. «تعالوا هنا.» اصطفوا داخلين إلى غرفة المكتب الداخلية، وأَغلقَ الباب.

«حسنًا. ما الأمر؟»

كرَّر إدستروم كلماته مرة أخرى.

«ما الذي وضعَ هذه الفكرة في رءوسكم؟»

«لا شيء يا سيدي؛ كل ما هنالك أننا نرى أننا سنكون أكثر رضًا في هذه الحالة.»

«هل تعتقدون أنكم لا تحصلون على أوزانكم الصحيحة؟»

«حسنًا يا سيدي، كما ترى ... بعض الرجال ... نعتقد أنه سيكون من الأفضل لو كان لدينا مراقب للأوزان. نحن على استعدادٍ أن ندفع له.»

«مَن سيكون مراقب الأوزان هذا؟»

«جو سميث، إنه بيننا هنا.»

استعد هال لمواجهة عينَي الآخر. قال السيد كارترايت: «أوه! إذن إنه أنت!» ثم، بعد وهلة، قال: «إذن، لهذا السبب كنتَ مُبتهجًا!»

لم يشعر هال بالابتهاج على الإطلاق في تلك اللحظة، لكنه امتنعَ عن قول ذلك. سادَ الصمت.

«الآن، لماذا تريدون إضاعة أموالكم أيها الرجال؟» أخذَ المشرِف يجادلهم، مُوضِّحًا سخافة الفكرة، وأنهم لا يسعُهم أن يكسبوا أيَّ شيء جراء هذا التصرف. يعمل المنجم على نظامه الحالي لسنواتٍ، ولم يكن هناك أي شكوى. وأوضح أنه لا يُعقَل أن شركة كبيرة ومسئولة بحجم «الشركة العامَّة للوقود» يتردَّى بها الحال إلى أن تحتال على عُمَّالها من أجل الحصول على بضعة أطنان من الفحم! وأخذ يُعدِّد المزيدَ من الحُجج والأسباب، لعدة دقائق.

قال إدستروم عندما انتهى الآخر من كلامه: «يا سيد كارترايت، تعلم أنني عملتُ طوال حياتي في المناجم، ومعظمها في هذه المنطقة. إنني أتحدَّث إليك عن علمٍ عندما أقول إن هناك حالة من الاستياء العام تعمُّ أنحاء هذه المعسكرات؛ لأن الرجال يشعرون أنهم لا

يحصلون على أوزانهم الصحيحة. تقول إنه لا توجد شكوى عامة؛ أنت تفهم السبب وراء ذلك ...»

«ما السبب؟»

قال إدستروم بلطفٍ: «حسنًا، ربما لا تعرف السبب ... لكن على أي حال، قرَّرنا أننا نريد تعيين مراقب للأوزان.»

كان من الواضح أن المشرِف قد أُخِذَ على حين غِرة، ولم يكن يعرف بالضبط كيفية مواجهة الأمر. قال أخيرًا: «لك أن تتخيَّل مدى الاستياء الذي ستشعر به الشركة عندما يتنامى إلى علمها أن عمالها يعتقدون أنها تخدعهم ...»

«نحن لا نقول إن الشركة تعلم بالأمر يا سيد كارترايت. من الممكن أن يكون هناك بعضُ الأشخاص الذين يستغلُّوننا، دون أن تكون للشركة أو لك أي علاقة بالأمر. ولذا، فإننا نريد مراقبًا للأوزان، لحمايتك وحمايتنا نحن أيضًا.»

قال الآخرُ بفتورٍ وجفاء: «أشكرك.» كشفت نبرةُ صوته أنه كان يحاول جاهدًا أن يبدو متماسكًا. وأضافَ أخيرًا: «جيد جدًّا. كفانا حديثًا في هذا الشأن، إذا كنتم قد اتخذتم قراركم وعقدتم عزمكم. سأخبركم بقراري لاحقًا.»

كان هذا بمنزلة طردٍ لهم، ومن ثَم استدارَ مايك سيكوريا بتواضُعٍ، وتوجَّه نحو الباب. لكن إدستروم كان أحد أفراد الجَمْع الذين لم «يتنحَّوا جانبًا» بسهولة، ورمقه مايك، ثم عادَ إلى الصف على عجلٍ، كما لو كان يأمل ألا يلاحظ أحدٌ جنوحَه.

قال إدستروم: «إذا سمحت يا سيد كارترايت، نرغب في معرفة قرارك، لكي يبدأ مراقِب الأوزان عمله في الصباح.»

«ماذا؟ هل أنتم على عجلة من أمركم إلى هذا الحَدِّ؟»

«ليس هناك ما يدعو للتأخير يا سيدي. لقد اخترنا رجلنا، ونحن على استعدادٍ لأن ندفع له.»

«مَن هم الرجال المستعدون لأن يدفعوا له؟ أنتما الاثنان فحسب.»

«لستُ في موقعٍ يُخوِّل لي ذكر أسماء الآخرين يا سيدي.»

«أوه! إذن هي حركة سرية!»

«بطريقة ما ... نعم يا سيدي.»

قال المشرِف، بنبرة تُنذِر بالسوء: «حقًّا! وأنتم لا تهتمون برأي الشركة في هذا الشأن!»

«ليس الأمر كذلك يا سيد كارترايت، ولكننا لا نرى مجالًا لأن تعترض الشركة على شيء. إنه إجراءُ عملٍ بسيط ...»

قاطعه الآخر: «حسنًا، إذا كنتم ترَون الأمرَ بسيطًا، فإنني لا أراه كذلك.» ثم تمالك زمامَ نفسه قائلًا: «افهموني، الشركة لن يكون لديها أدنى اعتراض على رغبة العُمال في التأكد من أوزانهم، إذا كانوا يعتقدون حقًّا أنَّ الأمر ضروري. الشركة دائمًا على استعدادٍ لفعل الصواب. لكنها مسألة لا يمكن تسويتها دون سابق تفكير. سوف أخبركم لاحقًا.»

طردهم مرة أخرى، والتفت العجوزُ مايك مجددًا، وإدستروم أيضًا. ولكن، هنا انضمت إليهم نملةٌ أخرى لتشاركهم الخندقَ نفسه. سأل هال: «متى ستكون مستعدًّا للسماح لمراقب الأوزان ببدء العمل يا سيد كارترايت؟»

رمقه المشرِف بنظرة حادَّة، ومرة أخرى بدا واضحًا أنه بذلَ جهدًا كبيرًا في محاولة تمالُك أعصابه. أجاب: «لستُ مستعدًّا للرد. سأخبركم في أقرب وقتٍ يُناسبني. هذا كلُّ شيء الآن.» وبينما كان يتحدَّث فتح الباب، وكانت حركته تحمل إيماءة آمِرة.

قال هال: «يا سيد كارترايت، ليس هناك قانونٌ يمنعنا من الحصول على مراقب للأوزان، أليس كذلك؟»

بدا من النظرة التي رسمتها هذه الكلماتُ على وجه المشرِف أنه يعرف القانون جيدًا. قَبِلَ هال هذه النظرة باعتبارها الإجابة، وتابع: «لقد اختارتني لجنةٌ من العُمال لأقوم بدور مراقب الأوزان، وقد أخطَرَتْ هذه اللجنةُ الشركةَ على النحو الواجب. هذا يجعلني مُراقبًا للأوزان، على ما أعتقد، يا سيد كارترايت، ومن ثَم فكل ما يجب عليَّ فعله هو أن أتولَّى مهام وظيفتي وأضطَلع بواجباتي.» ودون أن ينتظر ردًّا من المشرِف، مشى نحو الباب، وتبِعه رفيقاه اللذان كانا في حالة ذهولٍ بعض الشيء.

الفصل الحادي عشر

كانوا قد اتفقوا في اجتماع الليلة الماضية على نشر خبر حركة مراقب الأوزان، لما له من قيمة في الدعاية وترويج الفكرة. ولذا، عندما خرج العُمال الثلاثة من المكتب، كان هناك حشد في انتظار معرفة ما حدث؛ انهال الحشد بالأسئلة، وأحاط الآخرون بكل مَن يعرف الخبر، لسماعه في حماسٍ. شقَّ هال طريقه إلى النُّزُل، وعندما انتهى من تناوُل عشائه، انطلقَ من مكانٍ إلى آخر في المعسكر مخبِرًا العُمال بخطة مراقِب الأوزان، وموضحًا أنَّ ما طالبوا به هو حَقٌّ قانوني. في أثناء هذا كله، وقفَ العجوزُ مايك إلى أحد جانبَيه، ووقفَ إدستروم إلى الجانب الآخر؛ ذلك أنَّ توم أولسون كان قد أصرَّ بشدة على ألا يُترَك هال وحده لحظة. من الواضح أن أمرًا مماثلًا قد وصلَ إلى الرؤساء؛ فعندما خرج هال من نُزُل «ريمينيتسكي»، كان هناك «جيك» بريدوفيتش، موظف المتجر، يقف بجانب الحشد، وتبِع هال أينما ذهب، وكان بلا شكٍّ يُدوِّن ملاحظاتٍ عن كل شخص تحدَّث إليه.

تشاوروا حول المكان الذي سيَقضون فيه الليل. كان العجوزُ مايك متوترًا؛ لأنه فسَّر ما يفعله ذلك الجاسوس بأنه يعني أنهم ستُسفَك دماؤهم في الظلام. فقد روى قصصًا مروِّعة عن مثل هذه الحوادث. ما الطريقة الأسهل التي في إمكان الشركة اتباعها لتسوية الأمر؟ كان من شأنهم أن يُلفِّقوا قصة ما؛ فالعالَم بالخارج سيصدِّق أنهم قُتِلوا في خلافٍ وهم في حالة ثمالة، ربما خلاف على امرأة. أقلقَ هذا الاقتراحُ الأخير هال على وجه التحديد؛ فقد فكَّر في الناس في منازلهم. كلَّا، يجب ألا ينام في القرية! ومن ناحية أخرى لم يتمكَّن من الخروج من الوادي؛ لأنه بمجرد عبوره البوابة، قد لا يُسمح له بالدخول مرة أخرى.

خطرت بباله فكرة. لماذا لا يتَّجه إلى أعلى الوادي؟ لم يكن هناك حاجز في الطرف العلوي للقرية ... لا شيء سوى البرية والصخور، دون حتى طريق.

سأل العجوزُ مايك مذعورًا: «ولكن أين ننام؟»

قال هال: «في الهواء الطلق.»

ردَّد مايك عبارته المعهودة التي تعني «شيئًا فظيعًا» في لغته، ثم قال: «وينخر هواءُ الليل في عظامي؟»

«أتظن أنَّ هواء النهار يدخل في عظامك عندما تنام في الداخل؟» وضحك هال.

«لِمَ لا، عندما أغلقُ النوافذ بإحكام، وأُدفئُ عظامي؟»

قال هال: «حسنًا، خاطِر بتجربة هواء الليل مرة واحدة. إنه أفضل من أن يطعنك أحدُهم بسِكِّين.»

«ولكن ذلك الرجل المدعو بريدوفيتش ... إنه يتبعنا عبر الوادي أيضًا!»

«نعم، لكنه رجلٌ واحد فقط، وينبغي ألَّا نخاف منه. إذا ذهبَ ليجلب رجالًا آخرين، فلن يتمكَّن أبدًا من العثور علينا في الظلام.»

أما إدستروم، الذي لم تكن معرفته بالتشريح بدائية مثل مايك، فقد دعم هذا الاقتراح؛ ومن ثَم أخذوا بطانياتهم وتسلَّقوا الوادي مُتعثِّرين في سكون الليل وضوءِ النجوم. سمعوا لوهلة وقعَ أقدام الجاسوس خلفهم، ولكنه تلاشَى في النهاية، وبعد أن ذهبوا أبعدَ قليلًا، اعتقدوا أنهم سيظلون آمنين حتى بزوغ ضوءِ النهار. كان هال قد قضى العديدَ من الليالي في العراء صيَّادًا في رحلات الصيد، لكنها كانت مغامرة جديدة أن ينام في العراء وهو مُطارَد!

نهضوا في الفجر، ونفَّضوا الندى عن بطانيَّاتهم، ومسحوه عن أعينهم. كان هال شابًّا، وشاهدَ جمال الصباح، بينما كان مايك سيكوريا المسكين يتأوَّه ويتذمَّر من مفاصله المتصلِّبة والمسِنَّة. ظنَّ أنه دمَّر نفسه إلى الأبد، لكنه تحلَّى بالشجاعة عندما ذكرَ إدستروم القهوة، وأسرعوا لتناول الإفطار في النُّزُل.

حانَ الآن وقتٌ عصيب، حيث كان لا بد من ترك هال بمفرده. اضطر إدستروم إلى النزول من الوادي لحضور جنازة زوجته، وكان واضحًا أن مايك سيكوريا لم يكن ليذهب إلى العمل اليوم، ومن ثَم سيقدِّم لرئيسه عُذرًا لطرده. لم يكفل قانون مراقب الأوزان تعيين حارسٍ شخصيٍّ له!

كان هال قد أعلن عن خطته في لحظة التحدي تلك في مكتب كارترايت. وبمجرد أن بدأ العمل، ذهبَ إلى المَقلَب. قال لرئيس المَقلَب: «يا سيد بيترز، لقد جئتُ لتولِّي وظيفة مُراقب الأوزان.»

كان رئيس المَقلَب رجلًا ذا شارب أسود كبير، وهو ما جعله يبدو مثل صور نيتشه. حدَّق إلى هال، في ذهولٍ تامٍّ. وقال: «ماذا تقول بحق الجحيم؟»

أوضح هال بنبرةٍ احترافية: «لقد اختارني بعضُ العُمال لوظيفة مراقِب الأوزان. عندما تأتي عرباتُهم، سأراقبُ عملية وزنها.»

قال بيترز: «ابتعد عن هذا المَقلَب أيها الشاب!» كانت نبرة احترافية بالقدر نفسه.

ومن ثَم، خرجَ مراقبُ الأوزان المُنتظَر وجلسَ على الدرج مُنتظِرًا. كان المَقلَب مكانًا عامًّا إلى حَدٍّ ما، ورأى أنه كان في مأمنٍ هناك كما في أي مكان آخر. ابتسم بعضُ العُمال وغمزوا له في أثناء ذهابهم إلى مباشرة عملهم، ووجدَ العديدُ منهم فرصةً ليهمسوا بكلمات التشجيع. وجلسَ طوال الصباح، مثل بروتستانتي يجلس عند أبواب قصرٍ ماندرينيٍّ في الصين، كان عملًا شاقًّا، لكنه اعتقدَ أنه سيتمكَّن مِن تحمُّله لفترة أطول مما كان بإمكان الشركة.

الفصل الثاني عشر

جاءه رجلٌ في منتصف النهار ... إنه «بود» آدامز، وكان أخًا أصغر لـ «قاضي الصلح» ومساعِدَ جيف كوتون. كان بود رجلًا مكتَنِزًا، أحمر الوجه، وتُعرَف عنه قوة قبضتَيه. ومن ثَم، نهض هال بحذرٍ عندما رآه.

قال بود: «مرحبًا، أنت. هناك برقية لك في المكتب.»

«لي أنا؟»

«اسمك جو سميث، أليس كذلك؟»

«بلى.»

«حسنًا، هذا ما تقوله.»

فكَّر هال لحظة. لم يكن هناك مَن يرسل برقية إلى جو سميث. لقد كانت مجرد خدعة لإبعاده.

سأله: «ماذا تقول البرقية؟»

قال بود: «كيف لي أن أعرف؟»

«من أين هي؟»

«لا أدري.»

قال هال: «حسنًا، يمكنك أن تُحضِرها لي هنا.»

اتَّسعت عينا الآخَر عن آخِرهما. لم يكن هذا تمردًا، بل كانت ثورة! سأله: «أتظنني رسولَك بحق الجحيم؟»

ردَّ هال بأدبٍ: «ألا تُوصِّل الشركة البرقيات؟» ووقفَ بود يقاوم دوافعه البشرية، بينما كان هال يراقبه بحذرٍ. ولكن يبدو أن الذين أرسلوا الرسول قد أعطَوه تعليماتٍ دقيقة؛ لأنه سيطر على غضبه واستدار وابتعدَ.

واصلَ هال وقفته اليقِظة. وكان قد أخذ غداءَه معه، وكان مستعدًّا لتناول الطعام بمفرده ... فقد فهم خطر أن يُظهِر أحدُ العُمال تعاطُفًا معه. لذلك تفاجأ عندما جاءَ يوهانسون، السويدي العملاق، وجلس بجانبه. وجاءَ أيضًا عاملٌ مكسيكي شاب، وعامل منجم يوناني. وكانت الثورة تنتشر!

كان هال على يقين من أن الشركة لن تسمح باستمرار هذا الأمر. وبالطبع، مع اقتراب فترة ما بعد الظهيرة، خرجَ رئيس المَقلَب وأومأ إليه برأسه. «تعالَ إلى هنا، أنت!» ودخل هال.

كانت «غرفة الوزن» مكانًا مفتوحًا إلى حَدٍّ ما، غير أنه في أحد جوانبها كان هناك بابٌ يُفتَح على مكتب. قال الرجل: «من هنا.»

لكن هال توقَّفَ في مكانه.

«هذا هو مكان مُراقِب الأوزان يا سيد بيترز.»

«لكنني أريدُ أن أتحدَّث إليك.»

«أستطيع أن أسمعك يا سيدي.» كان هال على مرأى من العُمال، وكان يعلم أن تلك كانت الطريقة الوحيدة التي يضمن بها حمايته.

عادَ رئيسُ المَقلَب إلى المكتب، وبعد دقيقة رأى هال ما كان مُخطَّطًا له. فُتِحَ الباب وخرجَ أليك ستون.

وقفَ لحظة ينظر إلى حليفه السياسي. ثم اقتربَ. قال بصوتٍ منخفض: «يا فتى، أنت تُبالِغ في هذا الأمر. لم أكن أعتزم أن تذهب إلى هذا الحَدِّ.»

أجاب هال: «ليس هذا ما اعتزمتَه أنت يا سيد ستون.»

اقتربَ رئيس العمَّال أكثر. وسأله: «ما الذي تسعى إليه يا فتى؟ ما الذي تتوقع الخروج به من هذا؟»

كانت نظرة هال حازمة. وأجابَ: «الخِبرة.»

«تعتقد أنك ذكيٌّ يا بُني. ولكن من الأفضل أن تتوقَّف عن ذلك وتدرك حجم ما تواجهه. لن تُفلت بفَعلتك، كما تعلم، تذكَّر ذلك ... لن تفلت بفَعلتك. من الأفضل أن تدخل وتتحدَّث إليَّ.»

سادَ الصمتُ.

«ألا تعرف إلامَ سيئُول ذلك يا سميث؟ تندلع هذه الحرائق الصغيرة ... لكننا نخمدها. نحن نعرف كيف نفعلُ ذلك، ولدينا الآلياتُ لفِعله. سيكون كلُّ شيءٍ طي النسيان خلال أسبوع أو أسبوعَين، ثم أين ستكون؟ ألا تستطيع أن ترى؟»

ولأنَّ هال لم يكن قد أجابَ بعد، انخفضَ صوتُ الآخر. «أنا أفهم موقفك. فقط أعطني إيماءة، وسيكون كلُّ شيءٍ على ما يُرام. أُخبر العُمال أنك راقبتَ الأوزان، وأنها جميعًا صحيحة. سيكونون راضين، ويمكنني أنا وأنت إصلاح الأمر لاحقًا.»

قال هال بجدية شديدة: «يا سيد ستون، هل أنا محقٌّ في ظني بأنك تعرض عليَّ رشوة؟»

وفي غمضة عين، اختفت سيطرةُ الرجل على نفسه. ودفعَ قبضته الضخمة، فأصبحت على بُعد بُوصةٍ من أنف هال، وأطلقَ سُبابًا بغيضًا. لكن هال لم يُبعِد أنفَه عن منطقة الخطر، وكان فوق قبضة الرجل زوجٌ من العيون البُنِّية الغاضبة تحدِّق إلى رئيس العمَّال. «يا سيد ستون، من الأفضل أن تدرك هذا الموقف. أنا جاد جدًّا في هذا الشأن، ولا أعتقد أنه سيكون من الآمن لك أن تعاملني بعنفٍ.»

للحظة أو لحظتَين، استمر الرجلُ في التحديق إلى هال، لكن بدا أنه، مثله مثل بود آدامز، قد تلقَّى تعليمات. التفَتَ فجأة وعادَ إلى المكتب.

ظلَّ هال واقفًا بعض الوقت، حتى تأكد من استعادة توازنه. ثم سار نحو الميزان. واجه صعوبةً للمرة الأولى ... وهي أنه لم يكن يعرف شيئًا عن كيفية عمل موازين الفحم.

لكنه لم يكن لديه الوقتُ ليتعلَّمها. عادَ رئيس المَقلَب للظهور. وقال: «اخرج من هنا أيها الرجل!»

قال هال بلطفٍ: «لكنكَ دعوتني للدخول.»

«حسنًا، الآن أدعوك للخروج مرة أخرى.»

وهكذا استأنفَ البروتستانتي وقفته اليقِظة عند بوابات القصر الماندريني.

الفصل الثالث عشر

عندما انطلقت صافرةُ انتهاءِ موعد العمل، جاءَ مايك سيكوريا مُسرعًا للانضمام إلى هال وسماع ما حدث. كان مايك مُبتهِجًا؛ لأن العديد من العُمال الجُدد قد جاءوا إليه، وعرضوا عليه الانضمام إلى حركة مُراقِب الأوزان. لم يكن الرجل العجوز مُتأكِّدًا مما إذا كان هذا بسبب بلاغته كدَاعية، أو بسبب صديقه الأمريكي الشاب الرائع، ولكنه كان فخورًا بالقدر نفسه في كلتا الحالتَين. أعطى هال رسالةً في يده، وقد أدرك هال أنها قادمة من توم أولسون. أفادَ المنظِّمُ النقابي أنَّ كل فرد في المعسكر كان يتحدَّث عن مراقب الأوزان، ومن ثَم، فمن وجهة نظر دعائية يمكنهم اعتبار أن حركتهم قد نجحت، بغضِّ النظر عما قد يفعله رؤساؤهم. وأضاف أن هال يجب أن يكون معه عددٌ من العُمال في تلك الليلة، كي يكونوا شهودًا إذا حاولت الشركة «ممارسة أي ألاعيب». وأضاف: «وعليك أن تتوخَّى الحذر من العُمال الجُدد. من المؤكَّد أن بينهم جاسوسًا أو اثنَين.»

ناقش هال ومايك خطتَهما لليلة الثانية. لم يكن أيٌّ منهما على استعداد للنوم في العراء مرة أخرى ... السلوفاكيُّ العجوز بسبب عظامه، وهال بسبب ما أدركه الآن من وجود العديد من الجواسيس الذين يتبعونه. في نُزُل «ريمينيتسكي»، تحدَّث إلى بعض أولئك الذين عرضوا عليه دعمَهم، وسألهم عما إذا كانوا على استعدادٍ لقضاء الليلة معه في كوخ إدستروم. لم يُحجِم أحدٌ عن الأمر الذي كان بمنزلة اختبار لإخلاصهم؛ فقد حملوا جميعًا بطانياتهم، وذهبوا إلى المكان، حيث أشعل هال المصباح، وعقد اجتماعًا ارتجاليًّا بصفته مراقبًا للأوزان ... مستمتعًا على هامشه بالبحث عن أي جواسيس بين الحضور!

كان أحدُ الوافدين الجُدد بولنديًّا يُدعى فوييتشيتسوفسكي؛ هذا الاسم، علاوة على اسم زاميروفسكي، قد جعلا هال ييئس من محاولاته لمخاطبة البولنديين بأسمائهم الفعلية. كان «فويي» رجلًا ضئيلَ الحجم وجادًّا، ذا وجه مُتعَب وحزين. قال إنَّ سبب

وجوده بينهم أنه سَئِم من تعرُّضه للسرقة، وأنه كان على استعدادٍ لدفع حصته في أجر مراقِب الأوزان، وإذا طردوه فلا بأس، سيمضي في طريقه، وليذهبوا إلى الجحيم. بعد هذا التصريح، لفَّ نفسه ببطانية وذهبَ لينام على أرضية الكوخ مُصدرًا غطيطًا. لم يبدُ ذلك سلوكَ جاسوس.

كان هناك آخَرُ إيطاليٌّ يُدعى فارنزينا، كان رجلًا ذا حاجبَين داكنَين ومظهر شرير، ربما كان يصلُح في دور الشرير في أي مسرحية ميلودرامية. جلسَ إلى الحائط، وتحدَّث بصوتٍ أجش، ونظر إليه هال بارتيابٍ شديد. لم يكن من السهل فهم إنجليزيته، ولكن هال تمكَّن أخيرًا من فهم القصة التي كان يرويها ... كان يحب فتاةً «حسناء»، وكانت «الحسناء» تتلاعب به. وكان على وشك أن يتخذ قرارًا بأنها فتاة لَعُوب، ولم تكن تستحق الاهتمامَ بها، لذلك لم يعُد يهتم بأي لعناتٍ، ولم يعُد يهتم حتى إذا ما طردوه من الوادي. اختتم بصوتٍ هادر: «لا تقاتِل من أجل حسناء، ولكن قاتِل من أجل مراقب الأوزان!»

كان هناك متطوع آخَر، وهو عامل يوناني، وقد كان شابًّا ثرثارًا صغير السن جلس مع هال في وقت الغداء، وقال إن اسمه أبوستوليكاس. خاض مع هال محادثة بطلاقة، موضِّحًا كم كان مهتمًّا بخطة مراقِب الأوزان، وأراد أن يعرف ما الذي كانوا سيفعلونه، وما هي فرصة النجاح التي كانوا يعتقدون أنهم سيحظَون بها، ومَن بدأ الحركة ومَن كان فيها. اتخذَ ردُّ هال شكلَ خُطَب قصيرة حول تضامُن الطبقة العاملة. وفي كل مرة كان الرجل يشرع فيها في «سحب» الكلام منه، كان هال يشرح أهمية هذه القضية لعمَّال المناجم، كيف يجب عليهم أن يتحدوا ويُضحوا من أجل مصلحة الجميع. بعد أن تحدَّث عن نظريات مجردة لمدة نصف ساعة، يئس أبوستوليكاس منه وانتقل إلى مايك سيكوريا، الذي تحدَّث، بعد غمزة من هال له، عن «الأنذال»، والأشياء المروِّعة التي سيفعلها العمَّال الشرفاء بهم. عندما شعر اليوناني أخيرًا بالتعب مرة أخرى، واستلقى على الأرض، انتقل هال إلى العجوز مايك وهمس له بأن الاسم الأول لأبوستوليكاس لا بد أنه يهوذا!

الفصل الرابع عشر

غرق العجوزُ مايك في النوم سريعًا؛ ولكن هال لم يعمل لعدة أيام، وكانت لديه أفكار مثيرة أبقته مُستيقظًا. كان مستلقِيًا في سكون لبضع ساعاتٍ عندما أدركَ أن ثمة مَن يتحرك في أرجاء المكان. كان هناك مصباح خافت الضوء، وبعينَين نصف مغمضتَين تبين له أن أحد العُمَّال يتخذ وضعية الجلوس. لم يكن متأكِّدًا في البداية مَن يكون، لكنه في النهاية أدركَ أنه اليوناني.

استلقى هال بلا حراكٍ، وبعد دقيقة، أو نحو ذلك، ألقى نظرةً خاطفة أخرى ورأى الرجل يجلس القرفصاء ويُنصت بعناية، وكانت يداه لا تزالان على الأرض. استمر هال في اختلاس النظر عبر جفنَين نصف مفتوحَين، فيما نهضَ الآخر وتوجَّه نحوه على أطراف أصابعه، بخطواتٍ حذِرة فوق الأجساد النائمة.

بذل هال قُصارى جهده للتظاهر بالتنفُّس في أثناء النوم؛ لم يكن بالأمر السهل والرجل ينحني فوقه، وكان من الممكن أن يطعنه بسكين. لكنه انتهز الفرصة، وبعد ما بدا كأنه دهر من الزمان، شعر بأصابع الرجل تلمس جانبه بخِفَّة. وبعدها انتقلت إلى جيب معطفه.

فكَّر هال قائلًا لنفسه: «هل سيُفتشني؟!» وانتظر متوقعًا أن تنتقل اليد إلى جيوبه الأخرى. ولكن بعد ما بدا كأنه زمنٌ لا نهاية له، أدركَ أن أبوستوليكاس وقفَ مجدَّدًا، وهمَّ أن يعود إلى مكانه. وفي غضون دقيقة أخرى كان مستلقيًا، وساد الصمتُ في الكوخ.

انتقلت يَدُ هال إلى جيبه، وانزلقت أصابعُه داخله. فلمست شيئًا أدركَ على الفور أنه لفافة من الأوراق النقدية.

قال لنفسه: «فهمت! إنها مكيدة!» وضحكَ في نفسه، راجِعًا بذاكرته إلى مرحلة الطفولة المبكرة ... إلى صندوق متهالِك في عِلِّيَّة منزله يحتوي على كتبٍ قصصية كان

والده يملكها. كان في استطاعته أن يراها الآن، بأغلفتها البُنية البالية وصورها البدائية: «سلسلة الحظ والجسارة» لهوراشيو ألجر، و«حياة أو موت»، و«القوي الهُمَام»، إلخ. كم تحمَّس لقصة الصبي الريفي الذي يأتي إلى المدينة، ويلتقي بالشرير الذي يسرق درج النقود الخاص بصاحب عمله، ويضع مفتاحه في جيب البطل! من الواضح أن أحدًا ذا صلة بالشركة العامة للوقود قد قرأ لهوراشيو ألجر!

أدرك هال أنه لا يمكنه التسرع في إخراج تلك النقود من جيبه. فكَّر في إعادتها إلى «يهوذا»، لكنه قرَّر أنه سيدَّخرها لإدستروم، الذي من المرجَّح أنه سيحتاج إلى المال قريبًا. انتظر نصفَ ساعة لينام اليوناني، ثم بسكين جيبه، أحدث بهدوء ثَقبًا في رماد الأرض ودفن المال قدر استطاعته. وبعد ذلك تسلَّل إلى مكان آخر، وراح يفكِّر مستلقيًا.

الفصل الخامس عشر

هل سينتظرون حتى الصباح أم سيأتون قريبًا؟ كان يميل إلى التخمين الأخير، ومن ثَم لم يذهَل إلا قليلًا عندما سمع، بعد ساعة أو ساعتَين، مقبض باب الكوخ يدور. وبعد برهة، سمعَ صوت ارتطام، وانفتح البابُ مظهرًا خلفه كَتِف رجلٍ ضخم.

سرعان ما سادت الغرفة حالةٌ من الارتباك. هبَّ العُمال واقفين وهم يصيحون، وجلسَ آخرون مذهولين، وكانوا لا يزالون نصفَ نائمين. كان أحدُ المقتحمين يُمسك في يده بمصباح جيب كهربائيٍّ أضاءَ الغرفة. صاحَ صوتٌ، أدرك هال على الفور أنه صوتُ جيف كوتون، قائد المعسكر: «ها هو الرجل! ارفع يديك يا جو سميث!» لم ينتظر هال ليرى بريقَ مسدس قائد المعسكر.

أعقبَ ذلك صمتٌ مُطبق. ونظرًا إلى أن هذا المشهد التمثيلي كان الغرض منه أن يكون على مرأى ومسمع الرجال الآخرين، كان من الضروري منحهم الوقت للاستيقاظ بالكامل، ولكي تعتاد أعينهم الضوءَ. في هذه الأثناء وقف هال، رافعًا يديه في الهواء. واستطاع في ضوء المصباح أن يستبينَ وجوه الحاضرين: قائد المعسكر، وبود آدامز، وأليك ستون، وجيك بريدوفيتش، ورجلَين أو ثلاثة آخرين.

قال كوتون أخيرًا: «الآن يا رجال، أنتم بعض مَن يطالبون بتعيين مراقِبٍ للأوزان. وهذا هو الرجل الذي اخترتموه. أليس كذلك؟»

لم يُجِب أحد.

«سأُريكم أي نوعٍ من الرجال هو. لقد جاء إلى السيد ستون هنا وعرضَ عليه خيانتكم مقابل المال.»

قال هال بهدوءٍ: «هذا كذبٌ وافتراء يا رجال.»

أصرَّ قائد المعسكر: «لقد أخذ بعضَ المال من السيد ستون للتخلِّي عنكم!»

قال هال مجددًا: «هذا كذب.»

صاحَ الآخر: «إنَّ المال معه الآن!»

وصاح هال بدوره: «إنهم يحاولون توريطي في شيءٍ ما أيها الفِتية! لا تدعوهم يخدعونكم!»

نهره قائدُ المعسكر بنبرة آمرة: «اخرس»، ثم قال للرجال: «سأُريكم. أعتقد أن المال معه الآن. جيك، فَتِّشه.»

تقدَّم موظف المتجر.

صاح هال: «انتبهوا أيها الفتية! سيضعون شيئًا في جيوبي.» ثم قال للعجوز مايك، الذي بدأ يتقدَّم في غضبٍ: «لا بأسَ يا مايك! دعهم وشأنهم!»

أمرَ كوتون: «جيك، اخلع معطفك. شمِّر أكمامك. أظهِر يديك.»

كان الأمرُ للجميع أشبه بعرض الحاوي. خلعَ اليهوديُّ الضئيل الحجم معطفَه وشمَّر أكمامَه فوق مرفقَيه. وعرضَ يديه للجمهور، وقلَّبهما لأعلى ولأسفل، ثم أبقاهما أمامه، وتقدَّم ببطءٍ نحو هال، كأنه منوِّم مغناطيسي على وشك أن يُنوِّمه.

قال كوتون: «راقِبوه جيدًا! المال معه، أعلم ذلك.»

صاح هال: «انظروا جيدًا! إذا لم يكن هناك مال، فسوف يدُسُّونه.»

أمرَ قائد المعسكر: «ارفع يديك إلى أعلى أيها الشاب. وأنتم هناك، ابتعدوا عنه!» وجَّه جملته الأخيرة إلى مايك سيكوريا والمشاهدين الآخرين الذين كانوا يقتربون أكثر، وينظر كلٌّ منهما من فوق كتف الآخر.

كان الأمر برُمَّته قد أصبح شديد الجديَّة في ذلك الوقت، ولكن عندما تذكَّر هال المشهد لاحقًا، ضحك على هيئة بريدوفيتش البشِعة، الذي كان يُفتِّش في جيوبه مع حرصه على الابتعاد عنه قدر الإمكان، كي يعلم الجميع أنَّ الأموال قد خرجت بالفعل من جيب هال. وضعَ المفتش يدَيه أولًا في جيوب هال الداخلية، ثم في جيوب قميصه. كان الأمر يتطلَّب بعض الوقت لإحداث هذا التصاعُد الدرامي وبلوغ ذروة المشهد!

أمرَ كوتون: «استدِر»، فاستدار هال، وأخذ اليهودي يُفتِّش في جيوب بنطاله. أخرجَ ساعة هال، ثم مشطه، ثم مرآته، ومنديله، وفحصَ كُلًّا منها وألقاه أرضًا. سادَ صمتٌ لاهث عندما وصلَ إلى محفظة هال، وشرع في فتحها. وبفضل جشع الشركة، لم يكن في المحفظة سوى بعض الفكَّة. طوى بريدوفيتش المحفظة وألقاها على الأرض.

صاح رئيس التشريفات: «انتظر! لقد وضع ذلك المال في مكان ما، أيها الفتية! هل بحثتَ في الجيبَين الجانِبيَّين يا جيك؟»

قال جيك: «ليس بعد.»

صاح قائد المعسكر: «انظروا جيدًا!» ومال الجميع إلى الأمام بفارغ الصبر، بينما جثا بريدوفيتش على ركبة واحدة، ووضعَ يدَه في أحد جيبَي المعطف ثم في الآخر.

أخرجَ يده مرة أخرى، وكانت نظرة الفزع على وجهه واضحة للغاية إلى درجة أن هال لم يستطع أن يمنع نفسه من الضحك. وقال: «إنها ليست هنا.»

صاح كوتون: «ماذا؟» وحدَّق كلٌّ منهما إلى الآخر. «وربِّي لقد تخلَّص منها!»

أعلن هال: «ليس معي أموال أيها الفتية! إنهم يحاولون خداعنا!»

صاح قائد المعسكر: «لقد أخفاها! اعثر عليها يا جيك!»

ثم بدأ بريدوفيتش في البحث مرة أخرى، وبسرعة، وبتمحيصٍ أقل. لم يكن يفكِّر كثيرًا في المشاهدين الآن بقدر ما كان يفكِّر في أن كل تلك الأموال قد ذهب هباءً! جعل هال يخلع مِعطفه، ومزَّق بطانته، وفكَّ أزرار البنطال، وتحسَّس داخله، ودسَّ أصابعه للأسفل إلى داخل حذاء هال.

لكن لم يكن هناك مال، ووصلوا في تفتيشهم إلى طريق مسدود. أعلنَ قائد المعسكر: «لقد أخذ خمسة وعشرين دولارًا من السيد ستون ليبيعكم! لقد تمكَّن من التخلُّص منها بطريقة ما.»

صاح هال: «أيها الفتية، لقد أرسلوا جاسوسًا إلى هنا، وطلبوا منه أن يضع المال في جيوبي.» كان ينظر إلى أبوستوليكاس وهو يتكلَّم، ورأى الرجل يجفل ويتراجع.

صاح العجوز مايك: «ذلك هو! إنه نَذْل! المالُ معه، أُراهِن على ذلك!» وتحرَّك نحو اليوناني.

هكذا أدرك قائد المعسكر فجأة أن الوقت قد حان لإسدال الستار على هذه المسرحية. أعلن قائلًا: «كفى هذه الحماقة. أحضروا هذا الرجل إلى هنا!» وفي لمح البصر أمسك اثنان من الجمع بِمعصمَي هال، بينما أمسكه ثالثٌ من حاشية قميصه. وقبل أن يتمكَّن عمَّال المناجم من إدراك ما كان يحدث، دفعوا بسجينهم مسرعين خارج الكوخ.

لم ينعَم مراقِب الأوزان المُنتظَر بالراحة طوال رُبع الساعة التي تلت ذلك. وفي الخارج، استطاع قائد المعسكر، وكذلك أليك ستون، التنفيس عن غضبهما بحرية. فقد أمطراه بوابلٍ من اللعنات، وركلاه، وقيَّداه في أثناء سيرهم. ولوى أحدُ الرجلَين اللذين

أمسكا بمعصمَيه ذراعَه حتى صرخَ من الألم؛ ثم لعناه بشدة، وأمراه أن يصمت. أسرعوا في الشارع المظلم الصامت، ودلفوا إلى مكتب قائد المعسكر، ثم إلى الطابق العلوي إلى الغرفة التي كانت بمنزلة سجن نورث فالي. كان هال سعيدًا للغاية عندما تركاه هنا صافعَين البابَ الحديدي خلفهما.

الفصل السادس عشر

لقد كان مُخطَّطًا بِدائيًّا وأحمق، لكن هال أدرك أنه حِيكَ بما يتناسب مع ذكاء الرجال المعنيِّين به. ولولا أنه تصادف أنْ باتَ مستيقظًا يومها، لكانوا قد وجدوا المال معه، ولكان المعسكر بأكمله قد سمعَ في صباح اليوم التالي أنه خانهم. بالطبع لم يكن أصدقاؤه المقرَّبون، أعضاء اللجنة، سيُصدِّقون ذلك، لكن جموع العمَّال كانت ستصدق، ومن ثَم كان الهدف من زيارة توم أولسون إلى نورث فالي سيُصبح بلا جدوى. خلال جميع التجارب التي خاضها هال لاحقًا، ظلَّت هذه الحادثة حيَّة في ذهنه؛ فقد كانت تشي بأشياء كثيرة. وكما حاول الرؤساءُ تشويه صورته، وإخماد تأثيره على أتباعه، رأى فيما بعد أنهم يحاولون تشويه الحركة العُمالية، وتضليل بلد بأكمله والتشويش على ذكائه.

أصبح هال الآن في السجن. اتجه إلى النافذة، وحاول فكَّ القضبان، لكنه وجدها قد صُنعَت لمثل هذه المحاكمات. فتحسَّس طريقه في الظلام، مستكشِفًا سجنه، الذي تبيَّن أنه قفص فولاذي بُني داخل جدران غرفة عادية. كان هناك نَضَد في أحد الأركان، ونَضَد آخر في ركن آخر، أوسع إلى حَدٍّ ما، وعليه مرتَبة. كان هال قد قرأ قليلًا عن السجون ... قرأ ما يكفي لأن يتجنَّب هذه المرتبة. قعد على النَّضَد العاري وبدأ يُفكِّر.

من المؤكَّد أن هناك سيكولوجية غريبة تتكوَّن للمرء في السجن، تمامًا كما أن هناك سيكولوجية غريبة تتكوَّن عندما يُجهَد ظهرُك أو تُكسَر يديك في أثناء تحميل عربات الفحم بعِرْق فحم يبلغ طوله خمسة أقدام، وسيكولوجية أخرى، وأخرى مختلفة تمامًا، تنتج عن عيش حياة رغدة بمنأًى عن الحياة الشاقة لعُمَّال مناجم الفحم. في السجن، أول ما تشعر به على الإطلاق هو كونك حيوانًا؛ إذ يتم التركيز على الجانب الحيواني من كيانك، وتُستدعَى المشاعر الحيوانية المتمثِّلة في الكراهية والخوف لتكون في صدارة المشهد، وإذا أردتَ الهرب من هيمنتها عليك، فلا يمكن أن يكون ذلك إلا عن طريق جهدٍ عقلي

شديد وتركيز مُضنٍ. ومن ثَم، إذا كنت شخصًا يميل إلى التفكير بطبعه، فستفكِّر كثيرًا في السجن؛ حيث تكون الأيام طويلة، والليالي أطول ... حيث يكون لديك الوقت لجميع الأفكار التي يمكن أن تُراودك.

كان النَّضَد صلبًا، وبدا أنه يزداد صلابةً. لم تكن هناك جِلسة من شأنها أن تكون أخفَّ وطأةً عليه. نهض هال وتجوَّل في المكان، ثم استلقى قليلًا، ثم نهضَ ومشَى مرة أخرى، وكان طوال الوقت يُفكِّر، وكانت سيكولوجية السجن تترك بَصمَتَها طوال الوقت على عقله.

فكَّر أولًا في مشكلته المباشرة. ماذا سيفعلون به؟ كانت الإجابة الواضحة هي إخراجه من المعسكر، ومن ثَم يتخلَّصون منه، ولكن هل سيكتفي الباقون بذلك، في ثورة غضبهم من الحيلة التي لعِبها عليهم؟ كان هال قد سمع شيئًا غامضًا عن إجراءٍ يرجع إلى سكان أمريكا الأصليين يُسمَّى «الدرجة الثالثة»، لكن الفرصة لم تكن قد أُتيحت له من قبل للتفكير فيه باعتباره أمرًا قد يشهده في حياته. كم هو مختلف أن تُفكِّر في الأمر بهذه الطريقة!

كان هال قد أخبر توم أولسون أنه لن يتعهَّد بتشكيل اتحادٍ نقابي، لكنه سيتعهَّد بحصولهم على مراقِب للأوزان، وقد ضحكَ أولسون، وبدا سعيدًا للغاية ... لقد افترَض، على ما يبدو، أن ذلك سيؤدي إلى النتيجة نفسها. والآن، بدا أن أولسون كان يعرف ما يتحدَّث عنه. ونظرًا إلى أن هال وجد أنه لم يَعُد يخشى من هيمنة الاتحادات العُمَّالية واستبداد المندوبين المتجوِّلين؛ بل على العكس من ذلك، أصبح فجأةً راغبًا في أن يكون لشعب نورث فالي اتحاد نقابي، وأن يفرضوا سيطرتهم قدر ما يستطيعون! كان هال بهذا التغيير، وإن لم تكن لديه أي فكرة عنه، يُكرِّر تجربة شائعة بين الإصلاحيين؛ فقد بدأ الكثير منهم دُعاةً معتدلين وخيِّرين للدفاع عن بعض الحقوق الصغيرة الواضحة، ولكنهم يصبحون، بفِعل سيكولوجية السجن، ثوريين متوقدي الغضب وثابتي العَزم. يقول بايرون: «أيتها الروح الخالدة للعقل الطليق الحُرِّ. أيتها الحرية، كم أنتِ أعظم داخل الزنازين!»

ويضيف الشاعر: «عندما يُقيَّدُ أبناؤك في الأغلال ...» فسوف «تجد الحريةُ في كل ريح أجنحةً تُحلِّق بها وتنتشر.» بدا الحال في قلعة شيلون، التي ألهمَ سجينُها الشاعرَ بكتابة تلك الأبيات، كالحال تمامًا في نورث فالي. مع بزوغ الفجر، وقف هال أمام نافذة زنزانته، وسمع صوتَ صافرة بدءِ العمل ورأى العمَّال، مخلوقات العالَم السفلي الشاحبة

وجوههم، التي انحنت ظهورها كَدحًا، يذهبون لمباشرة مهامهم وقد بدَوا مثل صَف من قرود البابون في ضوء الفجر الخافت. لوَّح لهم بيده، فتوقَّفوا وحدَّقوا، ثم لوَّحوا له بدورهم؛ أدركَ أن كلَّ واحدٍ من هؤلاء الرجال يفكِّر حتمًّا في سَجنه، والسبب وراءه ... وهكذا كانت سيكولوجية السجن تنتقل إليهم. إذا كان أيٌّ منهم لا زال لا يثق بالاتحادات النقابية، أو يشكُّ في الحاجة إلى تشكيل اتحادٍ نقابي في نورث فالي ... فلا بد أن حالة عدم الثقة والشك هذه كانت في طريقها إلى أن تتبدَّد.

ثمة شيء ثبَّط من عزيمة هال بينما كان يفكِّر في الأمر. لماذا تركه الرؤساء هنا على مرأًى من الجميع بينما كان من الممكن، وبمنتهى السهولة، أن يضعوه في سيارة، وينطلقوا به سريعًا إلى بيدرو قبل شروق الشمس؟ هل كان ذلك دلالةً على الازدراء الذي حملوه تجاه عبيدهم؟ هل اعتمدوا على أن رؤية السجين من النافذة ستُثير الخوف وليس الاستياء؟ ألا يُحتمَل أنهم يعرفون عمَّالهم أفضل من مراقِب الأوزان المرتقب؟ تذكَّر تشاؤمَ ماري بيرك بشأنهم، ونخرَ القلقُ في روحه؛ وها هو نِتاج سيكولوجية السجن ... قاوم هال هذا القلق جاهدًا. وشعرَ بالكُره تجاه الشركة بسبب تهكُّمها، قبضَ كفَّيه وكزَّ على أسنانه، وتملَّكَته الرغبة في تلقين الرؤساء درسًا، في أن يُثبت لهم أن عُمَّالهم ليسوا عبيدًا، بل رجالٌ أحرار!

الفصل السابع عشر

في منتصف النهار، سمع هال وَقْع أقدامٍ في الممر بالخارج، وفتحَ رجلٌ لا يعرفه البابَ ذا القضبان، ووضعَ إبريقَ مياهٍ وطَبَقًا من الصفيح به قطعةٌ كبيرة من الخبز. عندما شرعَ في المغادرة، تحدَّث هال: «دقيقة واحدة، من فضلك.»

عبسَ الآخر في وجهه.

«هل يمكنك أن تعطيني أي فكرة عن المدة التي سأقضيها هنا؟»

قال الرجل: «لا يمكنني.»

قال هال: «إذا كانوا سيحبسونني، فمن المؤكد أن من حقي أن أعرف التهمة الموجَّهة إليَّ.»

قال الآخر: «فلتذهب إلى الجحيم!» وأغلقَ البابَ، ومضى في الممر.

عاد هال إلى النافذة، وقضى الوقت في مشاهدة المارَّة. تجمَّعت مجموعاتٌ من الأطفال بثياب رثة، ناظرين إليه مبتسمين وملوِّحين ... حتى ظهر شخصٌ ما في الأسفل وأمرَهم بالرحيل.

مع مرور الوقت، أصبح هال جائعًا. سرعان ما يصبح مذاقُ الخبز الذي يؤكَل وحده رتيبًا، ولا يخفِّفه مذاق الماء، ولكن هال مضغَ الخبز، وشرب الماء، وطلبَ المزيد منهما.

مرَّ اليوم ببطء، وفي وقتٍ متأخر من فترة ما بعد الظهيرة جاء الحارس مرة أخرى، ومعه قطعة خبز كبيرة أخرى وإبريق آخر من المياه. قال هال والرجل يغادره: «اسمعني لحظة.»

قال الآخر: «ليس لديَّ ما أقوله لك.»

توسَّل هال قائلًا: «لديَّ شيءٌ لأقوله لك. لقد قرأتُ في كتاب … نسيت اسمه، لكن مؤلِّفه كان طبيبًا … أن الخبز الأبيض لا يحتوي على العناصر الضرورية للإبقاء على صحة الإنسان.»

قال السجَّانُ بصوتٍ هادِر: «وَيْحك! أتهزأ بنا؟»

أوضح هال: «أعني أن طعامًا يتكوَّن من الخبز والماء ليس بالنظام الغذائي الذي سأختاره لأعيشَ عليه.»

«وماذا ستختار؟»

بدا من نبرة صوته أنَّ السؤال كان تهكميًّا، لكن هال أخذه بحُسن نية. وقال: «لو أمكنَ أن أحصل على بعض شرائح اللحم البقري والبطاطس المهروسة …»

أُغلِقَ بابُ الزنزانة بصفعةٍ قوية طغى صداها على بقية تلك القائمة التخيُّلية. وهكذا جلس هال مرة أخرى على النَّضَد الصلب، ومضغَ قطعة خبزه الكبيرة، وفكَّر كما يفكِّر السجناء.

عندما انطلقت صافرة انتهاء العمل، وقفَ عند النافذة، ورأى مجموعات أصدقائه مرة أخرى، وتلقَّى منهم إشارات التشجيع السرية. حَلَّ الظلامُ وبدأت سهرَة طويلة أخرى.

كان الوقتُ متأخرًا، ولم يكن لدى هال وسيلةٌ لمعرفة إلى أي مدًى قد تأخَّر الوقت، باستثناء انطفاء جميع الأضواء في المعسكر. أدرك أنه كان سيبيت في الحبس في تلك الليلة، وقد استقر على الأرض مُتوسِّدًا ذراعه، وغفا في النوم حتى سمع فجأة صوتَ كَشطٍ على قضبان نافذته. جلسَ جافلًا، وسمع صوتًا آخر، حفيف ورق لا شك. هَبَّ إلى النافذة، حيث كان في إمكانه أن يرى في ضوء النجوم الخافت شيئًا يتدلَّى. التقطه، وبدا أنه كان دفتر ملاحظاتٍ عاديًّا، كالذي يستخدمه الكُتَّاب المختزلون، مربوطًا في طَرْفِ عَصًا.

نظر هال بالخارج، لكنه لم يتمكَّن من رؤية أحد. أمسكَ بالعصا وهزَّها مُرسِلًا إشارة، ثم سمعَ همسًا عرف على الفور أنه روفيتا. قال: «مرحبًا! اسمع. اكتب اسمك مائة مرة في الدفتر. وسأعود. هل تفهمني؟»

كان الطلب مُحيِّرًا للغاية، لكن هال أدرك أنه لم يكن هناك وقتٌ للتفسيرات. أجاب: «أجل»، وقطعَ الخيط وأخذَ الدفتر. كان هناك قلم رصاص مُرفق، تحيط قطعة من قماشٍ بسِنِّه لحمايته من الكسر.

سُحِبت العصا، وجلس هال على النَّضَد، وراح يكتب اسمه، ثلاث أو أربع مراتٍ في الصفحة، «جو سميث … جو سميث … جو سميث.» لم يكن من الصعب أن يكتب

«جو سميث»، حتى في الظلام، وهكذا، بينما كانت يَدُ هال تتحرك، انشغلَ عقلُ هال بهذا اللُّغز. لم يفترض هال بمنطق الحال أنَّ لجنته تريد مثلًا توزيع توقيعه عل سبيل التذكار؛ لا بد أنهم يريدونه لغرضٍ مهمٍّ ما، لمجابهة مؤامرة جديدة من الرؤساء. لم يمر وقت طويل حتى عرف حَلَّ اللغز: عندما لم يتمكَّن الرؤساء من العثور على المال معه، كتبوا رسالة وأخذوا يعرضونها على اعتبار أن مَنْ كتبها هو مراقب الأوزان المُنتظَر. فأراد أصدقاؤه الحصول على توقيعه للطعن في صحة الرسالة.

كتب هال بسرعة وحرية، مُزيِّنًا أحرُفَه؛ فقد كان واثقًا أن الأمر سيكون مختلفًا عن فكرة أليك ستون عن شخبطة صبي من العمَّال. أخذَ قلمُه ينطلق على الورق «جو سميث ... جو سميث ...» صفحة تِلوَ الأخرى، حتى تأكد من أنه كتبَ توقيعًا لكل عامل منجم في المعسكر، وكان يشرع في الكتابة إلى المساعدين. ثم سمع صوتَ صفير في الخارج، فتوقَّف وقفزَ إلى النافذة.

همس صوتٌ: «ارمِ بها!» وألقى هال بالورقة. رأى شخصًا يختفي في الشارع، وبعد ذلك ساد الهدوءُ كلَّ شيء مرة أخرى. استرق السمع بعض الوقت، ليرى ما إذا كان قد أيقظ سجَّانه، ثم استلقى على النَّضَد ... وعاد ليفكِّر فيما يفكِّر فيه السجناء!

الفصل الثامن عشر

حَلَّ الصباح، وانطلقت صافرة بدء العمل في المنجم، وعاد هال للوقوف عند النافذة. لاحظَ هذه المرة أن بعض عمَّال المناجم الذين كانوا في طريقهم إلى العمل كانت في أيديهم قصاصات صغيرة من الورق، وقد لوَّحوا له بها بوضوحٍ كي يراها. ظهر العجوزُ مايك سيكوريا حامِلًا مجموعة كاملة من قصاصات الورق في يديه، كان يوزِّعها على جميع مَن أراد أن يأخذها. لا شكَّ أنه قد حُثَّ على العمل في سرية، ولكن الإثارة التي انطوى عليها الحدث كانت أكبر من قدرته على كبح جماح نفسه؛ فوثبَ في كل مكان مثل حَمل صغير فَرِح بالربيع، ولوَّح إلى هال بالقصاصات الورقية على مرأى من الجميع.

لاقَى هذا السلوكُ الطائش النتيجةَ التي استدعاها. بينما كان هال ينظر من النافذة، رأى شخصًا يمشي عند المنعطف، في مواجهة العجوز السلوفاكي الذي هالته المفاجأة. كان بُود آدامز، حارس المنجم، قابضًا يديه القويتَين، ومُستجمِعًا جسده استعدادًا لتسديد ضربته. رآه مايك، وبدا كما لو أنه أُصيبَ فجأة بالشلل؛ حيث غاصت كتفاه اللتان أحناهما الكدح، وتدلَّت يداه إلى جانبَيه … انفتحت قبضته، وتناثرت قصاصات الورق الثمينة على الأرض. حدَّق مايك إلى بود مثل أرنب مأخوذ، ولم يتحرك قيد أنملة لحماية نفسه.

أمسك هال بالقضبان، وكان لديه دافعٌ للقفز للدفاع عن صديقه. لكن حارس المنجم لم يسدِّد الضربة المتوقَّعة؛ بل اكتفى بالتحديق إلى الرجل العجوز بشراسة، وإملاء الأوامر عليه. انحنى مايك والتقطَ الأوراق … وقد استغرق ذلك بعض الوقت؛ إذ لم يستطع، أو ربما لم يرغب في، رفع عينَيه عن حارس المنجم. عندما صارت جميع الأوراق في يديه، أصدر بود أمرًا آخر بأن يُسلِّمه تلك الأوراق. وبعدها تراجعَ خطوة إلى الوراء، وتبِعه الآخر، وما زال قابضًا يديه، وبدا أنه كان يوشك أن يسدِّد إليه الضربة في أي لحظة. تراجع مايك خطوة أخرى، ثم أخرى … وهكذا اختفى كلاهما عن الأنظار عند المنعطف.

التفتَ الرجال الذين كانوا شهودًا على هذا الحدث الدرامي القصير وذهبوا مُتسلِّلين، ولم تكن لدى هال فكرة عما آلَ إليه الأمر.

بعد ذلك بساعتَين، ظهر سجَّان هال، لكنه لم يكن معه هذه المرة أيُّ خبز أو ماء. فتح البابَ وأمر السجينَ أن «يتقدَّم». نزل هال إلى الطابق السفلي، ودخل مكتب جيف كوتون.

جلس قائد المعسكر على مكتبه والسيجار بين أسنانه. كان يكتب، واستمر في الكتابة حتى خرج السجَّان وأغلق الباب. ثم أدار كرسيه الدوَّار ووضعَ ساقًا فوق الأخرى، متكئًا إلى الخلف ينظر إلى عامل المنجم الشاب في بذلة عمله الزرقاء المتَّسخة، وشعره الأشعث ووجهه الشاحب من فترة حبسه. ظهرت ابتسامةٌ على الوجه الأرستقراطي لقائد المعسكر. قال: «حسنًا أيها الشاب، لقد حظِيتَ بكثيرٍ من المرح في هذا المعسكر.»

أجاب هال: «كان الأمر مُرضيًا جدًّا، شكرًا لك.»

«لقد هَزَمْتَنا على طول الخط، أليس كذلك؟» ثم، بعد برهة، قال: «الآن، أخبرني ما الذي تظن أنك ستَجنيه من ذلك؟»

أجاب هال: «سألني أليك ستون السؤال نفسه. لا أعتقد أنَّ هناك فائدة كبيرة من الشرح. أعتقد أنك لا تؤمِن بالإيثار أكثر من ستون.»

أخرج قائد المعسكر السيجار من فمه، ونفضَ عنه الرماد. علت وجهه الجدية، وساد الصمت بينما كان يتفحَّص هال. سأل أخيرًا: «هل أنتَ منظِّم نقابي؟»

قال هال: «لا.»

«أنت رجل متعلِّم؛ لست عاملًا، هذا ما أعرفه. مَن الذي يدفع لك؟»

«ها أنت ذا! أنت لا تؤمن بالإيثار.»

نفثَ الآخر حلقةً من الدخان في أنحاء الغرفة. وقال: «كلُّ ما تريده هو أن تسبِّب متاعب للشركة، أليس كذلك؟ هل أنت محرِّض من نوعٍ ما؟»

«أنا عامِل منجم، وأريد أن أكون مراقبًا للأوزان.»

«هل أنت اشتراكي؟»

«يعتمد هذا على تطورات الأوضاع هنا.»

قال قائد المعسكر: «حسنًا، أنت شاب ذكي، أستطيع أن أرى ذلك. ولذا سأخبرك بوضوحٍ بما سيكون، وسيُمكنك استيعابه. لن تعمل مراقبًا للأوزان في نورث فالي، ولا في أي مكان آخر له أدنى صلة بـ «الشركة العامَّة للوقود». ولن تنعم بفرصة التسبُّب

في متاعب للشركة. ولن نَمَسَّك حتى بالضرب ونجعل منك شهيدًا. أوشكت أن أفعل ذلك الليلة الماضية، لكنني تراجعتُ.»

قال هال بنبرة مرِحة: «يمكنك تغيير الكدمات على ذراعَيَّ.»

تابعَ قائد المعسكر، دون الاكتراث لهذه النبرة الساخرة: «سوف نعرض عليك الاختيار بين أمرَين. إما أن توقِّع على ورقة تعترف فيها بأنك أخذتَ الخمسة والعشرين دولارًا من أليك ستون، وفي هذه الحالة سنطردك وننهي الأمر؛ وإما سنُثْبِت أنك أخذت ذلك المبلغ، وفي هذه الحالة سنزجُّ بك في السجن لمدة خمس أو عشر سنوات. هل فهمتَ ذلك؟»

عندما تقدَّم هال بطلب الحصول على وظيفة مراقِب الأوزان، كان من المتوقَّع أن يُطرَد من المعسكر، وكان ينوي الرحيل، مُعتبرًا أنه وصلَ إلى بُغيته في الإلمام بهذا المجتمع وتجربة أحواله. ولكن هنا، بينما كان يجلس وينظر في عينَي قائد المعسكر المتوعِّدتَين، قرَّر فجأة أنه لا يريد أن يغادر نورث فالي. أراد أن يبقى ويتعرَّف من كثبٍ أكبر على هذا «اللص المحترف» العملاق، المتمثِّل في الشركة العامة للوقود.

قال: «هذا تهديد خطير يا سيد كوتون. هل تفعل عادةً أشياء من هذا القبيل؟»

كان الرد: «نفعل عندما نضطر إلى ذلك.»

«حسنًا، هذا عرضٌ جديد. أخبرني بالمزيد عنه. ماذا ستكون التُّهمة؟»

«لست متأكدًا من ذلك ... سنترك الأمر لمحامينا. ربما سيُسمونها مؤامرة، وربما ابتزازًا. سيختارون التهمة الأطول من حيث سنوات العقوبة.»

«وقبل أن أمثل أمام المحكمة، هل تمانع في السماح لي برؤية الرسالة التي من المفترض أنني كتبتُها.»

قال قائد المعسكر، رافِعًا حاجبَيه وقد تفاجأ بعضَ الشيء: «أوه، لقد سمعت عن الرسالة، أليس كذلك؟» أخذَ من مكتبه ورقة وسلَّمها إلى هال، الذي قرأ:

> «عزيزي السيد ستون، لا داعي للقلق بشأن مراقِب الأوزان. ادفع لي خمسة وعشرين دولارًا، وسأتعاملُ مع الأمر كما ينبغي. المخلِص دائمًا، جو سميث.»

بعد استيعاب هال لكلمات الرسالة، تفحَّص الورقة، وأدركَ أن أعداءَه قد تحمَّلوا العناء، ليس فقط لتزوير رسالة باسمه، ولكن أيضًا بتصويرها فوتوغرافيًّا، ثم إعداد لوح طباعة منها، ثم طباعتها. ومما لا شك فيه أنهم وزَّعوها في المعسكر. وكلُّ هذا في بضع ساعات! كان الأمر كما قال أولسون ... نظامًا مُنسَّقًا لإبقاء الرجال في حالة من التشكُّك.

الفصل التاسع عشر

استغرق الأمر من هال دقيقة أو نحو ذلك للتفكير في الوضع. قال أخيرًا: «يا سيد كوتون، أعرف كيف أتهجَّى الكلمات أفضل من ذلك. كما أن خَطَّ يدي أكثر انسيابية قليلًا.»

كان هناك أثر لابتسامة على شفتَي قائد المعسكر القاسيتَين. أجاب: «أعرف. لم تستعصِ عليَّ المقارنة بينهما.»

قال هال: «لديك قسم استخباراتٍ ماهِر!»

«قبل أن ينتهي الأمر أيها الشاب، ستكتشف أنَّ قسمنا القانوني على القدر نفسه من الكفاءة.»

قال هال: «حسنًا، يجب أن يكونا كذلك؛ لأنني لا أعرف كيف يمكنك الالتفاف على حقيقة أنني مراقب للأوزان، اختِرتُ وَفقًا للقانون، ومن قِبَل مجموعة من الرجال الذين يدعمونني.»

ردَّ كوتون: «إذا كان هذا هو ما تعتمد عليه، فلتنسَ الأمر. لم تعُد لديك مجموعة تدعمك بعد الآن.»

«أوه! هل تخلَّصتم منهم؟»

«لقد تخلَّصنا من زعماء العصابة.»

«مِمن؟»

«ذلك التَّيْس العجوز، سيكوريا، على سبيل المثال.»

«هل رحَّلتَه؟»

«أجل.»

«لقد رأيتُ بداية ذلك. أين أرسلته؟»

ابتسم قائد المعسكر: «تلك وظيفة قسم الاستخبارات الخاص بك!»

«ومَن غيره؟»

«ذهب جون إدستروم ليَدفن زوجته. إنها ليست المرة الأولى التي يسبِّب لنا فيها ذلك الواعظ العجوز الشاحب الوجه المتاعبَ، لكنها ستكون الأخيرة. ستجده في بيدرو ... ربما في مأوى الفقراء.»

بادره هال بالإجابة: «كلَّا»، وهنا ظهرت نبرة ابتهاجٍ في صوته ... «لا يجدُر به الذهابُ إلى مأوى الفقراء في الحال. لقد أرسلتُ إليه للتوِّ خمسةً وعشرين دولارًا.»

عبس قائد المعسكر. «حقًّا!» ثم، بعد صمتٍ مؤقَّت، قال: «لقد كان معك هذا المال بالفعل! حسبتُ أنَّ ذلك اليوناني الحقير قد أخذه!»

«كلَّا. كان خادمُك أمينًا. ولكن هكذا كنتُ أنا أيضًا. علمتُ أنَّ إدستروم كان يُبخَسُ وزنُه لسنواتٍ، ومن ثَم هو الشخص الوحيد الذي يحقُّ له الحصول على المال.»

لم تكن هذه حقيقة الأمر بالطبع؛ فقد كان المالُ لا يزال مدفونًا في كوخ إدستروم. لكن هال كان يعتزم أن يحصُل عامل المنجم العجوز على هذا المبلغ في نهاية المطاف، وفي الوقت نفسه كان يريد إبعادَ كوتون عن طريقه.

قال قائد المعسكر: «خدعة ذكية أيها الشاب! لكنك سوف تندم عليها قبل أن تُتمَّها. لا يزيدني هذا الأمر إلا إصرارًا على الزجِّ بكَ حيثما لا يمكنكَ أن تُسبِّب لنا أيَّ ضرر.»

«تقصد في السجن؟ أنت تفهم، بالطبع، أنَّ ذلك يعني محاكمة أمام هيئة مُحلفين. هل يمكنك أن تحمل هيئة المحلَّفين على فِعل ما تُريد؟»

«أخبروني أنكَ كنت مهتمًّا بالسياسة في مقاطعة بيدرو. ألم تطَّلِع على نظام هيئة المحلَّفين لدينا؟»

«كلَّا، لم أصل إلى هذا الحَدِّ.»

أخذ قائد المعسكر ينفث حلقاتٍ من الدخان مرة أخرى.

«حسنًا، هناك نحو ثلاثمائة رجل في قائمة المحلَّفين لدينا، ونحن نعرفهم جميعًا. ستجد نفسك في مواجهة مقصورة يجلس فيها جيك بريدوفيتش بصفته رئيس المحلَّفين، وثلاثة من موظفي الشركة، واثنان من عمَّال حانة ألف ريموند، وصاحب مزرعة برَهنٍ عقاري لدى بنك الشركة، وخمسة مكسيكيين ليس لديهم أدنى فكرة عما يدور حوله الأمر، ولكنهم على استعدادٍ أن يغرسوا سكينًا في ظهرك مقابل كأس من الويسكي. والمدَّعي العام هو سياسيٌّ يُساند عمَّال المناجم في خطاباته ويدعمنا قلبًا وقالبًا بأفعاله، بينما

القاضي دينتون، من محكمة المقاطعة، فهو الشريك القانوني لدى فاجلمان، مستشارنا الرئيسي. هل فهمت الوضعَ الآن؟»

قال هال: «نعم. لقد سمعت عن «إمبراطورية ريموند»؛ وأنا مهتمٌّ أن أرى آلياتها. أنت تتحدَّث بصراحة تامة عن الأمر!»

أجاب قائد المعسكر: «حسنًا، أريدك أن تعرف ما أنتَ بصدده. نحن لم نبدأ هذه المعركة بعد، ونحن على استعدادٍ تام لإنهائها دون مشكلات. كلُّ ما نطلبه هو أن تعوِّضنا عن الضرر الذي سبَّبتَه لنا.»

«هل تعني بـ «تعويضكم» أنْ أُلحقَ العار بنفسي … أن أقول للرجال إنني خائن؟»

قال قائد المعسكر: «بالضبط.»

قال هال: «أعتقدُ أنه حريٌّ بي أن أجلسَ بينما أفكِّر في الأمر.» وأخذ كرسيًّا، ومدَّ ساقَيه، وجلس في وضعٍ مريحٍ للغاية. قال: «ذاك النَّضَد في الطابق العلوي صلبٌ للغاية»، وابتسمَ بسخرية إلى قائد المعسكر.

الفصل العشرون

أخذت المحادثة بعد استئنافها اتجاهًا مغايرًا تمامًا وغير متوقَّع. قال السجين: «كوتون، أرى أنك رجلٌ مُتعلِّم. يبدو لي أنك كنت حتمًا، ذات يومٍ، مثالًا لما يدعوه العالَمُ رجلًا نبيلًا.»

فارت الدماء في وجه قائد المعسكر. وقال: «فلتذهب إلى الجحيم!»

تابع هال: «لم أكُن أنوي طرح الأسئلة. أفهم جيدًا أنك قد لا تهتم بالإجابة عنها. ولكن ما أريد توضيحه هو أنك بصفتك رجلًا نبيلًا سابقًا، فقد تُقدِّر جوانبَ معينة من هذه القضية تفوق فَهم مُروِّضِ زنوجٍ مثل ستون، أو خبير كفاءة مثل كارترايت. يمكن للرجل النبيل أن يميِّز الرجل النبيل ولو كان في زي عامِل منجم، أليس كذلك؟»

توقَّف هال منتظرًا الإجابة، ونظر إليه قائد المعسكر بحذرٍ. وقال: «أفترض ذلك.»

«حسنًا، بادئ ذي بدء، لا يُدخِّن الرجلُ النبيل دون أن يدعو الآخر إلى الانضمام إليه.»

رمقه الرجلُ بنظرة أخرى. حسبَ هال أنه سيَلعنه مجددًا. ولكنه أخرج سيجارًا من جيب سترته وأعطاه إياه.

قال هال بهدوء: «لا، شكرًا لك. أنا لا أُدخِّن. لكنني أحب أن أُدعَى.»

ساد الصمت فترة، بينما كان الرجلان يتفحَّص كلٌّ منهما الآخر.

شرع السجينُ في الحديث قائلًا: «الآن يا كوتون، لقد وصفتَ مشهدَ محاكمتي. اسمح لي أن أُكمِلَ لك القصة. لقد خطَّطتَ لقضيتك بالكامل، هيئة المحلَّفين التي اخترتها بنفسك للجلوس في المقصورة، والقاضي الذي اخترته بنفسك لاعتلاء المنصة، والمدعي العام الذي اخترته بنفسك ليتولَّى المهمة؛ أنت الآن على أُهْبة الاستعداد للزجِّ بضحيتك في السجن،

ليكون عبرة لبقية موظفيك. لكن ألا يجب أن نفترض أنه في ذروة إجراءات الدعوى، قد تكتشف أن ضحيتك شخصٌ لا يمكن الزج به في غياهب السجن؟»

ردَّد الآخر: «لا يمكن الزج به في غياهب السجن؟» كانت نبرتُه تشير إلى أنه يُجيل الأمر في ذهنه. وأضافَ: «هلَّا فسَّرت ما تعني؟»

«بالطبع، ولكن ليس لرجلٍ في ذكائك! ألا تعلم يا كوتون أنَّ هناك أشخاصًا لا يمكن الزج بهم في غياهب السجون؟»

أخذ قائد المعسكر بعض الأنفاس من سيجاره. وقال: «يوجد بعضٌ منهم في هذه المقاطعة. لكنني كنت أعتقد أنني أعرفهم جميعًا.»

قال هال: «حسنًا، ألم يخطُر ببالك قطُّ أنه قد يوجد بعضٌ منهم في الولاية؟»

امتدت ذلك فترةُ صمتٍ طويلة. راحَ كلٌّ منهما يحدِّق إلى عين الآخر، وكلما حدَّقا، استشفَّ هال الشكَّ الذي اعترى قائد المعسكر وبدا واضحًا في وجهه.

تابعَ قائلًا: «فكِّر كم سيكون الأمر مُحرِجًا! لقد خطَّطتم لمسرحيتكم على أكمل وجه ... كما فعلتم في الليلة قبل الماضية ... ولكن ستُعيدون الكَرَّة الآن على مسرح أكبر، أمام جمهور أكثر أهمية؛ وفي النهاية ستجدون أنكم بدلًا من أن تُبرِّئوا ساحتكم أمام العمَّال في نورث فالي، تُدينونَ أنفسكم أمام جمهور الولاية. ستُثبتون للمجتمع بأسره أنكم منتهكون للقانون، والأسوأ من ذلك ... ستُثبتون أنكم حَمقى!»

حدَّق إليه قائد المعسكر هذه المرة طويلًا حتى انطفأ سيجاره. وفي هذه الأثناء كان هال مستلقيًا على كرسيه، ويبتسم له ابتسامة غريبة. كان المشهد كما لو أنه يتبدَّل أمام عينَي قائد المعسكر؛ سقطت «بذلة عامل المنجم الزرقاء» عن جسد هال، واكتسى مكانَها بملابس السهرة!

صاح الرجل: «مَنْ أنت بحق الجحيم؟»

ضحكَ هال: «عجبًا! تتباهَى بكفاءة قسم الاستخبارات لديك! فلتكلِّفهم بحل هذه المعضِلة. شابٌّ في الحادية والعشرين من عمره، طوله خمسة أقدام وعشر بوصات، ووزنه مائة واثنان وخمسون رطلًا، ذو عينَين بُنيتَين، وشعر كستنائي مموَّج بعضَ الشيء، دَمِثُ الخلق، ويتمتَّع بالحُظوة والقبول لدى النساء ... هذا على الأقل ما تقوله ملاحظات صفوة المجتمع ... مفقود منذ أوائل شهر يونيو، من المفترض أنه ذهبَ لصيد الماعز الجبلي في المكسيك. كما تعلم يا كوتون، لا توجد إلا مدينة واحدة فقط في الولاية لديها «نخبة اجتماعية» بشكلٍ من الأشكال، وفي تلك المدينة لا يوجد إلا خمسة وعشرون أو ثلاثون

عائلة ذات شأن. وفي الواقع، هذه مهمة سهلة للغاية على قسم استخباراتٍ كذلك التابعِ لـ «الشركة العامة للوقود».»

ساد الصمتُ مرة أخرى، حتى كسره هال. فقال: «انزعاجُك هذا يدُل على أنك قد أدركتَ الأمر. الشركة محظوظة بأن يتصادف كون أحد قادة معسكراتها من الرجال النبلاء سابقًا.»

تورَّد وجه الآخر حنقًا مجدَّدًا. وقال لنفسه بصوتٍ منخفض بعضَ الشيء: «حسنًا، يا إلهي!»

ثم قام بمحاولة أخيرة لإحكام خدعته ... «أنتَ تمزح معي!»

فردَّ عليه هال: «المزاح، كما تُسميه، هو إحدى الحالات المفضَّلة لدى مجتمعنا، يا كوتون. جزءٌ كبير من تعامُلاتنا ينطوي عليه ... على الأقل بين الفئة الأصغر سنًّا.»

نهضَ قائد المعسكر فجأة. وسأله: «اسمع، هل تمانع في العودة إلى الطابق العلوي لبضع دقائق؟»

لم يستطع هال أن يمنع نفسه من الضحك عند سماع هذا السؤال. ومن ثَم قال: «أمانع جدًّا. لقد عشتُ على الخبز والماء طوال ست وثلاثين ساعة، ويُفترَض أنني أتوق بشدة الآن إلى الخروج وتنفُّس الهواء النقي.»

قال الآخر بصوتٍ واهن ضعيف: «لكن، يجب أن أرسلك إلى الطابق العُلوي.»

أجاب هال: «هذه مسألة أخرى. إذا أرسلتني، سأذهب، لكنكم في حاجة إلى توخِّي الحذر. لقد أبقيتموني هنا دون حقٍّ قانوني، ودون تُهمة ضدي، ودون مَنحي فرصة لتوكيل محامٍ. وإذا لم يجانبني الصواب كثيرًا، فأنت مسئول جنائيًّا عن ذلك، والشركة مسئولة مدنيًّا. الأمرُ يرجع إليك بالطبع. أردتُ أن أوضِّح موقفي فحسب ... عندما تسألني هل أمانع من العودة للطابق العلوي، فإن إجابتي هي أنني حقًّا أُمانع بشدة.»

وقفَ قائد المعسكر برهة لا يُحرِّك ساكنًا، وهو يمضغ في توتر سيجاره المنطفئ. ثم اتجه صوبَ الباب. ونادى: «أنت يا جاس!» ظهر سجَّان هال، وهمسَ له كوتون، وانصرفَ مرة أخرى. وقال القائد: «أخبرته أن يُحضِر لك بعض الطعام، ويمكنك الجلوس وتناوله هنا. هل سيكون ذلك أفضل لك؟»

قال هال مُستغِلًّا الموقف إلى أقصى حَدٍّ: «على حسب. هل تدعوني بصفتي سجينًا لديك أو بصفتي ضيفَك؟»

قال الآخر: «أوه، كفاك!»

«لكني يجب أن أعرف وضعي القانوني. سيكون له أهميته لدى المحامين الذين سيتولَّون قضيتي.»

قال قائد المعسكر: «بصفتك ضيفي.»

«ولكن إذا أكلَ الضيف، فله مطلق الحرية في الخروج إذا كان يريد ذلك!»

«سأخبرك بما سيحدث قبل أن تُنهي طعامك.»

«حسنًا، أسرع. فأنا آكلُ بسرعة.»

«هل تَعِدُ أنك لن ترحل قبل ذلك؟»

ردَّ هال ضاحكًا: «إذا رحلتُ، فسأرحلُ إلى مكان عملي. ويمكنك أن تبحث عني في المَقلَب يا كوتون!»

الفصل الحادي والعشرون

خرجَ قائد المعسكر، وبعد لحظات قليلة عادَ السجَّان ومعه وجبةٌ كانت على العكس تمامًا من الوجبات التي قُدِّمت إلى هال من قبل. كان هناك صينية تحتوي على لحم الخنزير البارد، وبيضتَين نصف مسلوقتَين، والقليل من سلطة البطاطس، وفنجان من القهوة مع لفائف وزُبد.

قال هال باستخفافٍ: «حسنًا، حسنًا! هذا أفضلُ حتى من شريحة من لحم البقر مع البطاطس المهروسة!» جلس يُشاهد الآخر وهو يفسح مكانًا للصينية على الطاولة أمامه دون أن يعرض عليه المساعدة. ثم خرج الرجل، وبدأ هال في تناول الطعام.

وقبل أن ينتهي، عاد قائد المعسكر. جلسَ على كرسيه الدوَّار، وبدا أنه يفكِّر. كان هال ينظر إليه ويبتسم بين القضمة والأخرى.

قال: «يا كوتون، تعلم أنه لا يوجد دليلٌ على حُسن تنشئة المرء أفضل من آداب المائدة. ستلاحظ أنني لم أدُسَّ منديلي في ياقتي، كما كان في وُسع أليك ستون أن يفعل.»

أجاب قائد المعسكر: «أفهمُك.»

وضع هال سكينه وشوكته جنبًا إلى جنبٍ في طبقه. وقال: «نسي خادمُك أن يُحضر وعاءَ غسل الأصابع. ولكن، لا يهم. يمكنك استدعاؤه الآن، ودعه يأخذ الصينية.»

استدعاه قائد المعسكر باسمه، وجاء السجَّان. قال هال: «للأسف، عندما كان رجالُك يُفتِّشونني في الليلة قبل الماضية، أسقطوا مِحفَظتي، لذلك ليس لديَّ ما أدفعه بقشيشًا للنادل.»

حدَّق «النادِل» إلى هال كما لو كان يرغب في عَضه، لكن قائد المعسكر ابتسم على مضضٍ. وقال: «اخرج يا جاس، وأغلق الباب.»

ثم مدَّ هال ساقَيه، واتخذ وضعيته المريحة مرة أخرى. وقال: «يجدُر بي القول إنني أُفضِّل كوني ضيفَك أكثر من كوني سجينك!»

صمتَا قليلًا.

شرع قائد المعسكر في الحديث: «لقد كنت أتحدَّث عن هذا الأمر مع السيد كارترايت. لا أدري كيف أتحقَّق من مدى خداعِك لي، ولكنه من الواضح بما فيه الكفاية أنك لستَ عامِل منجم. قد تكون نوعًا جديدًا من المحرِّضين ومُثيري الشغب، لكن فَلْتَلعنِّي السماءُ إن قلت إنني رأيتُ قطُّ محرِّضًا يتحلَّى بآداب حفلات الشاي. أعتقد أنك قد نشأت في عائلة ثرية، ولكن إذا كان الأمر كذلك، فلا يمكنني أن أتخيَّل السببَ الذي دفعكَ إلى أن تفعل ذلك.»

قال هال: «أخبرني يا كوتون، هل سمعتَ من قبل عن الملل؟»

أجاب الآخر: «نعم، ولكن ألستَ صغيرًا على هذا الشعور؟»

«ماذا لو أنني رأيتُ آخرين يعانونه، وأردتُ أن أُجرِّب العيشَ بطريقة مختلفة عن طريقتهم؟»

«إذا كان الأمر كذلك، فلا بد أنك لا زلت تدرس في الجامعة.»

«سأعودُ لحضور سَنتي النهائية هذا الخريف.»

«في أي كلية أنت؟»

قال هال: «ما زلتَ تشكُّ فيَّ، أرى ذلك!» وابتسمَ. ثم، فجأة وبروحٍ لا يمكن أن تولِّدها إلا ساحاتُ الجامعات المقمِرة وحياة الترف، غنَّى:

«كان مَلِك الفحم رجلًا عجوزًا ومَرِحًا،
وقد كان رجلًا عجوزًا ومَرِحًا حقًّا،
أنشأ كليةً تملؤها المعرفة …
مَرحى لي ولكم!»

سأل قائد المعسكر: «أيُّ كلية تلك؟» واستأنف هال الغناءَ:

«أوه، يا ليزا-آن، اخرجي معي،
القمر يسطع ببهاءٍ في شجرة الأروكاريا!

أوه، لقد بدأت يا ليزا-آن
أُغَني لكِ أغنية هاريجان!»

علَّقَ قائد المعسكر عندما انتهت الأغنية: «حسنًا حسنًا! هل هناك الكثير مثلك في كلية هاريجان؟»

«شِرذمةٌ صغيرة ... تكفي لتحريك المياه الراكدة.»

«أهذه هي فكرتُك عن الإجازة؟»

«كلَّا، إنها ليست إجازة؛ إنها دورة صيفية في علم الاجتماع التطبيقي.»

قال قائد المعسكر: «أوه، فهمت!» وابتسمَ رغمًا عنه.

«طوال العام الماضي سمحنا لأساتذة الاقتصاد السياسي بأن ينقلوا إلينا نظريَّاتهم. لكن بدا أن النظريات لا تتطابق مع الحقائق بطريقة ما. فقلتُ لنفسي: «يجب أن أتحقَّق منها.» تعرف تلك العبارات، ربما ... الفَردانية، مبدأ عدم التدخُّل، حرية التعاقُد، حق كل إنسان أن يعمل لدى مَن يشاء. وها أنت هنا ترى مدى صحة هذه النظريات على أرض الواقع ... قائد معسكر، بابتسامة قاسية على وجهه ومسدس في جيبه، ينتهك القوانين حتى قبل أن يتسنَّى للحاكِم التصديقُ عليها.»

قرَّر قائد المعسكر فجأة أنه اكتفى من «حفل الشاي» هذا. ومن ثَم، نهضَ واقفًا لإنهائه. وقال: «إذا لم تمانع أيها الشاب، سندخل في صلب الموضوع!»

الفصل الثاني والعشرون

ذرعَ الغرفة جيئةً وذهابًا، ثم أتى ووقفَ أمام هال. وقفَ واضعًا يدَيه في جيبَيه، ببعض التبختُر الذي لم يكن يتماشى مع مهنته. لقد كان شيطانًا وسيمًا، هذا ما خطر على بال هال ... على الرغم من فمه المنذِر بالخطر، وأمارات التبذير التي كانت ظاهرة عليه.

استهلَّ الحديث، محاولًا التلطُّف مرة أخرى: «أيها الشاب، لا أعرفُ مَن أنت، لكنك تتمتَّع بوعي كبير وجرأة، وأنا معجبٌ بك. لذلك، أنا على استعدادٍ لإلغاء القضية، والسماح لك بالعودة إلى موطنك وإنهاء دراستك في الكلية.»

كان هال يتفحَّص ابتسامة كوتون الحَذِرة. وقال أخيرًا: «يا كوتون، دعني أصيغ الاقتراحَ صياغةً أوضح. لست مُجبرًا أن أقول إنني أخذت ذلك المال، أليس كذلك؟»

«بلى، سنخرجك من ذلك الأمر.»

«ولن تزج بي في السجن، أليس كذلك؟»

«بلى. لم أقصد أبدًا أن أفعل ذلك، بالطبع. كنت أحاول خداعَك فحسب. كلُّ ما أطلبه هو أن ترحل وتُعطي رجالنا فرصة لنسيان ما حدث.»

«ولكن ما الذي سأحصلُ عليه مقابل ذلك يا كوتون؟ لو كنت قد أردت الهرب، لكان في إمكاني أن أهرب في أي وقتٍ خلال الأسابيع الثمانية أو العشرة الماضية.»

«أجل، بالطبع، لكن الوضع مختلف الآن. الأمر الآن راجعٌ إلى حُكمي وتقديري.»

صاح هال: «دَعْ عنك حُكمك وتقديرك! أنت تريدُ التخلص مني، وترغب في فعل ذلك دون مشكلات. لكنك لا تستطيع ... ولذا، فَلتنسَ الأمر.»

كان الآخرُ يحدِّق في حيرة. «أتعني أنك تتطلع إلى البقاء هنا؟»

«هذا بالضبط ما أعنيه.»

«أيها الشاب، لقد سئمتُ هذا! لا وقتَ لديَّ لأُهدره. لا يُهمني مَن أنت، لا تُهمني تهديداتُك. أنا قائد هذا المعسكر، ووظيفتي هي الحفاظ على النظام داخله. وأنا أقول إنك سترحل!»

قال هال: «ولكن يا كوتون، هذه مدينة مجالس بلدية! لديَّ الحق في المشي في الشوارع ... كما يحق لك تمامًا.»

«لن أهدر الوقتَ في الجدال. سأضعك في سيارة وآخذُك إلى بيدرو!»

«وماذا إن ذهبتُ إلى المدعي العام وطالبته بمقاضاتك؟»

«سوف يَهزأ بك ويتهكَّم عليك.»

«وماذا إن ذهبتُ إلى حاكِم الولاية؟»

«سوف يتهكَّم عليك بصوتٍ أعلى.»

«حسنًا يا كوتون؛ ربما تعرف ما تفعله، لكنني أتساءل ... أتساءل عن مدى ثقتك. ألم يخطر ببالك قطُّ أن رؤساءك قد لا يوافقون على اتخاذك هذه الإجراءات المستبِدَّة؟»

«رؤسائي؟ مَن تَقصِد؟»

«هناك رجلٌ في الدولة عليك أن تحترمه ... حتى لو كنت تحتقر النائب العام والحاكِم. إنه بيتر هاريجان.»

ردَّد الآخر: «بيتر هاريجان؟» ثم انفجرَ في الضحك. «حسنًا، أنت فتًى مَرِح!»

واصل هال التحديق إليه وتفحُّصَه، دون أن يتأثَّر. وردَّ قائلًا: «أتساءل عما إذا كنت متأكدًا! أتراه سيدعم كلَّ ما تفعله.»

قال الآخر: «أجل!»

«ماذا عن الطريقة التي تُعامِل بها العمَّال؟ يعلم أنك تبخسهم أوزانَهم.»

قال الآخر: «يا للجحيم! في ظنك من أين حصلَ على المال لبناء كُلِّيتك؟»

خيَّم الصمتُ لحظة، ثم سأل قائد المعسكر أخيرًا في تحدٍّ: «هل عرفتَ ما تريد معرفته؟»

أجاب هال: «نعم. بالطبع، هذا ما فكَّرتُ فيه طوال الوقت، ولكن من الصعب إقناع الآخرين به. العجوز بيتر ليس كمعظم هؤلاء الذئاب في الغرب؛ إنه رجلٌ تقيٌّ من أتباع الكنيسة العُليا.»

ابتسم قائد المعسكر مُتَشفِّيًا. وقال: «ما دامت الأغنام موجودة، ستكون هناك ذئاب متخفية في ثياب الأغنام.»

قال هال: «أفهم ذلك. وأنت تتركهم ينهشون الحُملان!»

قال قائد المعسكر: «إذا كان الحَمَلُ من السذاجة بمكان لينخدع بهذا الجلد القديم البالي، فإنه يستحق أن يُؤكَل.»

كان هال يتفحَّص الوجه الساخر أمامه. وقال: «يا كوتون، الرعاةُ نِيام. لكنَّ كلابَ الحراسة تنبح. ألم تسمعها؟»

«لم أنتبِه.»

«إنهم ينبحون، وينبحون! وسيُوقِظون الرعاة! سيُنقذون الأغنام!»

قال الآخر وقد بدا عليه الضجر: «الدين لا يُهمني. لا دينُك ولا دين العجوز بيتر.»

وفجأة، نهض هال واقفًا. وقال: «يا كوتون، مكاني مع القطيع! سأعود إلى وظيفتي في المَقلَب!» وتقدَّم نحو الباب.

الفصل الثالث والعشرون

انطلق جيف كوتون أمامه. وصاح: «قِفْ!»

لكن هال لم يتوقَّف.

صاح قائد المعسكر: «اسمع أيها الشاب! لا تتمادى في هذه المزحة!» وهَمَّ ناحية الباب، ليصبح أمام سجينه مباشرة. تحرَّكتْ يدُه نحو مسدَّسه.

قال هال: «اسحب مسدسك يا كوتون»، وعندما سحب قائد المعسكر مسدسَه، قال هال: «الآن سأتوقَّف. ولتَعلم أنني لن أُطيعك مستقبلًا إلا تحت تهديد السلاح.»

استشاط قائد المعسكر غضبًا. وقال: «ستعرف أنه في هذا البلد عندما يُشهَر السلاح في وجه امرئ، فإنه لا يُعطَى فرصةً لأن يطيع أو لا يطيع!»

أجاب هال: «لقد شرحت موقفي. بماذا تأمرني؟»

«عُدْ واجلس على هذا الكرسي.»

جلس هال، واتجه قائد المعسكر إلى مكتبه، ورفعَ سماعة الهاتف. ثم قال: «رقم ٧»، وانتظر لحظة. ثم أردفَ: «أهذا أنتَ يا توم؟ أحضِر السيارة على الفور.»

وضعَ السماعة، وأعقبَت ذلك فترة من الصمت، ثم تساءل هال أخيرًا: «هل سأذهب إلى بيدرو؟»

لم يجد ردًّا.

قال هال: «أرى أنني أَثَرتُ أعصابَك. لكنني لا أعتقد أنه قد خطر ببالك أنك أخذتَ أموالي في الليلة الماضية. كما أن لديَّ حسابًا لدى الشركة، وأجني بعضَ المال من عملي. ما رأيك في ذلك؟»

رفع قائد المعسكر السماعة وطلبَ رقمًا آخر. وقال: «مرحبًا! سيمبسون. معك كوتون. احسب أجر جو سميث، المساعِد في المنجم رقم ٢، عن الفترة التي عمل فيها

لدينا، وأرسِل إليَّ النقود. وأحضِر حسابه في المتجر، وأسرع، نحن في انتظارك. سيغادر على الفور.» ثم وضع السماعة مرة أخرى.

قال هال: «أخبرني، هل تحمَّلت عناءَ فعل ذلك أيضًا مع مايك سيكوريا؟»

سادَ الصمتُ.

قال هال: «دعني أقترحُ عليك أن تعطيني جزءًا من أجري في صورة صكوك مالية عندما تحصل عليه. أريدُ أن أحتفظ بها كتذكارٍ.»

ما زال الصمتُ سائدًا.

أجهدَ السجينُ كوتون بإلحاحه: «أتدري، هناك قانون يحظر دفع الأجور في صورة صكوك.»

استُحِثَّ قائدُ المعسكر على الكلام. وقال: «نحن لا ندفع صكوكًا مالية.»

«لكنك تفعل ذلك يا رجل! تعلم أنك تفعل ذلك!»

«نحن نعطيها عندما يطلب العُمَّال أموالهم مُقدَّمًا.»

«يطالبك القانونُ أن تدفع لهم مرتَين في الشهر، وأنت لا تفعل ذلك. بل تدفع لهم مرة واحدة في الشهر، وفي أثناء ذلك، إذا احتاجوا إلى المال، فيمكنك أن تعطيهم هذه الأموال الزائفة!»

«حسنًا، إذا كان ذلك يُرضيهم، فأين موضع اعتراضك؟»

«وإذا لم يكن يرضيهم، هل ستضعهم في القطار وتشحنهم خارج الوادي؟»

جلسَ قائد المعسكر صامتًا، وهو ينقر بأصابعه على مكتبه وقد نفدَ صبره.

استهلَّ هال الحديث مجدَّدًا: «يا كوتون، أنا هنا لأتعلَّم، وثمة شيءٌ أودُّ منك أن تشرحه لي ... مسألة في علم النفس البشري. عندما يعقد المرءُ صفقة كهذه، ماذا يقول لنفسه عنها؟»

قال قائد المعسكر: «أيها الشاب، إذا سمحت لي، لقد بدأتَ تُشعرني بالملل.»

«أوه، ولكن لا تزال أمامنا رحلة بالسيارة! بالطبع لا يمكننا الجلوس في صمتٍ طوال الطريق!» وأضافَ بعد برهة، بنبرة مُداهنة: «أريد حقًّا أن أتعلَّم، كما تعرف. ربما يمكنُك إقناعِي.»

قال كوتون على الفور: «كلَّا! لن أخوضَ في أي شيء كهذا!»

«ولكن لِمَ لا؟»

«لأنني لا أُضاهيكَ في الاسترسال في الكلام. لقد سمعتُ أمثالك من المحرِّضين من قبل، جميعكم متشابهون؛ تعتقدون أن العالَم يُدار بالكلام ... لكنه ليس كذلك.»

أدرك هال أنه لن يصل إلى شيء في هذه المبارزة مع قائد المعسكر. لقد بذلَ كلَّ جهده للوصول إلى شيء؛ جادلَ، وهدَّد، ومارسَ الخداع، حتى إنه غنَّى أغاني للقائد! لكن ها هو القائد سيُرحِّله، هذا كلُّ ما خرج به من الأمر.

واصل هال الجدال، لا لشيء إلا لأنه كان عليه انتظار السيارة، ولأنه تحمَّل الإهانات، وكان عليه التنفيس عن غضبه وخيبة أمله. لكنه توقَّف الآن عن الجدال فجأة. لفتت انتباهه كلماتُ قائد المعسكر: «تعتقدون أن العالَم يُدار بالكلام!» كانت تلك هي الكلمات التي كان شقيقُ هال يستخدمها دائمًا! كما قال قائد المعسكر أيضًا: «أنتم المحرِّضون!» لسنواتٍ كانت هذه إحدى العبارات التهكُّمية التي كان يسمعها هال من أخيه: «ستتحوَّل إلى واحدٍ من هؤلاء المحرِّضين!» أجاب هال بعنادٍ صبياني: «لا يُهمُّني إن كنتُ كذلك بالفعل!» والآن، كان قائد المعسكر هنا يعدُّه محرِّضًا، آخِذًا الأمر على محمل الجدِّ، دون استماحة عُذر، ودون وجود قرابة دم تُجيز ذلك. كرَّر الكلمات: «هذا ما يُثير غضبي منكم أيها المحرِّضون ... تأتون إلى هنا وتحاولون إثارة هؤلاء الناس ...»

هكذا كانت نظرة «الشركة العامة للوقود» إلى هال! لقد أتى إلى هنا وهو ينوي أن يكون مُشاهدًا، أن يقف على سطح السفينة البخارية ويشاهد محيط البؤس الاجتماعي الممتد أمامه. لقد فكَّر في كل خطوة بعناية فائقة قبل أن يخطوها! وكلُّ ما حاول فعله هو أن يصبح مراقبًا للأوزان ليس إلا! لقد أخبر توم أولسون أنه لن يشارك في نظام اتحاد عُمَّالي؛ لم يكن يثق بمنظِّمي الاتحادات النقابية، بالمحرِّضين بجميع أنواعهم ... إنهم أناسٌ متهوِّرون، غير مسئولين، يثيرون مشاعر خطيرة أينما حلُّوا. لقد أُعجِبَ بتوم أولسون ... لكنْ كلُّ ما عاد عليه من ذلك هو أنه تخلَّص من تحيُّزاته بعض الشيء؛ فلم يكن أولسون إلا واحدًا من المحرِّضين، ولم يكن يمثِّلهم جميعًا!

لكن كل اعتباراته فيما يخصُّ الشركة قد ذهب سُدًى، وكذلك جميع جهوده لإقناع قائد المعسكر بأنه شخصٌ من الطبقة المترفة. فعلى الرغم من جميع «آداب حفل الشاي» التي تبعها هال، قال قائد المعسكر: «أنتم المحرِّضون!» وتساءل هال على أي أساس استندَ في حُكمه. هل أصبح، هال وارنر، أشبه بأولئك المحرِّضين المتهوِّرين غير المسئولين؟ حان الوقتُ لتقييم نفسه!

هل غيَّره شهران من «العمل المتدنِّي غير الآدمي» في أحشاء الأرض إلى هذا الحَدِّ؟ لا بد أن هذه الفكرة كانت مُقلِقة لشاب مثله طالما كان مفضَّلًا لدى النساء! هل أصبح يتحدث بطريقتهم؟ ... وهو الذي كان يمتلك القدرة على الحديث المعبِّر المقنِع كمَن

«قبَّل حجر بلارني!» قال قائد المعسكر إنه كان «يُسهب في الحديث!» حسنًا، من المؤكَّد أنه قد تحدَّث كثيرًا، ولكن ماذا عساه كان يتوقع؟ ... وقد أودَعه في السجن لمدة يوم وليلتَين دون شيء للتفكير فيه سوى مظالمه وشكاواه! هل كانت هذه هي الطريقة التي يتحوَّل بها المرء إلى محرِّض فعلي ... أن يُسجَن مع مظالمه فلا يشغَل تفكيره سواها؟

تذكَّر هال الأفكار التي راودته في السجن. كان يشعر بالمرارة، لم يكن يكترث لأمر نورث فالي وما كان يهدِّدها من هيمنة الاتحادات العُمَّالية عليها. لكن كان كل ذلك مجرد شعور، تمامًا مثل رده على أخيه؛ لقد كانت سيكولوجية السجن جزءًا من دورته الصيفية في علم الاجتماع التطبيقي. لقد تجاهلَ ذلك، ولكن من الواضح أنه تركَ فيه انطباعًا أعمق مما كان يدرك. لقد غيَّره جسديًّا! جعله يبدو مثل المحرِّضين صوتًا وصورةً! جعله «غير مسئول»، «متهوِّرًا»!

نعم، كان هذا كلَّ شيء! كل هذه القذارة، والجهل، والمرض، وهذا الخبث والقمع، هذا التشويه للرجال جسديًّا وروحيًّا في معسكرات الفحم الأمريكية ... كل هذا لم يكن موجودًا ... لقد كانت هَلوَسة دماغ «غير مسئول»! ها هو الدليل على صحة كلام شقيق هال وقائد المعسكر، ها هو الدليل على ما يقوله العالم بأسره! لا يمكن أن يكون قائدُ المعسكر وشقيقُه والعالَمُ كله «مُتَهوِّرين»! وإذا تحدَّثتَ معهم عن هذه الأحوال، فإنهم كانوا يهزُّون أكتافهم، ويصفونك بـ«الحالِم»، «المهوُوس»، ويقولون إنك «مجنون»، أو يستشيطون غضبًا، ويسخرون منك ويتهكَّمون عليك، وينبزونك بالألقاب؛ فيقولون: «أنتم المحرِّضون!»

الفصل الرابع والعشرون

كان الغضبُ قد بلغَ بقائد معسكر نورث فالي مبلغه إلى درجة أنه لم يستطع البقاء على كُرسيه. تدفَّقت كلُّ مُنَغِّصات حياته المهنية المضطربة إلى ذهنه. أخذ يَذرَع الغُرفة جيئةً وذهابًا، واسترسل في الكلام بلا توقُّف، بغض النظر عما إذا كان هال يستمع أم لا.

«معسكر مليءٌ بالأجانب الأوغاد! لا يسعُهم فَهم أي لغة مُتحضِّرة، ليس لديهم إلا تصوُّر واحد في العالَم ... يتملَّصون من أي عمل يقومون به ولو قلَّ، يملئُون عرباتهم بالأردُواز والصخور ويُلقون باللوم على غيرهم، وينطلقون لتجرُّع الخمر. إنهم لا يُخلصون في عملهم ولا في قتالهم ... إنهم يقاتلون بسكين في الظهر! ثم تأتون أيها المحرِّضون وتتعاطفون معهم ... تبًّا، لماذا يأتون إلى هذا البلد، ما لم يكونوا يُفضِّلونه على بلادهم؟»

سمعَ هال هذا السؤال من قَبل، ولكن كان عليهما أن ينتظرا السيارة ... ولأنه تأكَّد الآن من كونه في صفوف المحرِّضين، كان على استعدادٍ لإحداث جميع المشكلات التي في استطاعته أن يحدثها! قال: «السبب واضح بما فيه الكفاية. أليس صحيحًا أنَّ «الشركة العامَّة للوقود» تُوظِّف وكلاءَ في الخارج لإخبارهم بالأجر الرائع الذي يتقاضونه في أمريكا؟»

«حسنًا، لقد تقاضَوه، أليس كذلك؟ ثلاثة أمثال ما كانوا يتقاضونه في أوطانهم!»

«بلى، ولكنه لا يُفيدهم في شيء. فثمة حقيقة أخرى لا تذكرها «الشركة العامة للوقود»؛ وهي أن تكلفة المعيشة هنا أعلى بكثيرٍ من الأجور. كما أنهم يُوهِمونهم أنَّ أمريكا أرضٌ للحرية؛ فيأتون يحدُوهم الأملَ في الحصول على فرصة أفضل لأنفسهم ولأبنائهم، لكنهم يجدون قائدَ معسكر لا يعرف شيئًا عن جُغرافيا المكان الذي يمارس فيه سلطته ... يعتقد أنَّ جبال روكي موجودة في مكان ما في روسيا!»

صاحَ الآخر: «أعرفُ طريقة الحديث الخطابية هذه! لقد تعلَّمتُ التلويحَ بالعلم الوطني المرصَّع بالنجوم في طفولتي. لكن إدارة منجم للفحم ليست كإدارة احتفاليات العيد القومي للبلاد في الرابع من يوليو. بعضُ رجال الكنيسة يضعون قانونًا بعدم جواز العمل يوم الأحد ... ولكن ما نتيجة ذلك؟ يصبح لدى العُمَّال ست وثلاثون ساعة يحتسون فيها الخمر، ومن ثَمَّ لا يمكنهم العمل يوم الإثنين!»

«لا بد أن هناك حلًّا يا كوتون! ماذا لو رفضَت الشركة تأجير المباني لأصحاب الحانات؟»

«يا إلهي. هل تعتقد أننا لم نحاول فعل ذلك؟ إنهم يذهبون إلى بيدرو للتبضُّع، ويجلبون معهم كلَّ ما يمكنهم حمله ... في جيوبهم وعلى ظهورهم. وإذا منعنا ذلك ... فسيذهب عُمَّالنا إلى معسكراتٍ أخرى؛ حيث يمكنهم أن ينفقوا أموالهم كما يحلو لهم. كلَّا أيها الشاب، عندما يكون لديك مثل هذا القطيع، عليك أن تقوده! ويستوجب الأمر قبضةً قوية للقيام بذلك ... رجل مثل بيتر هاريجان. إذا أردنا الحصول على الفحم، إذا أردنا لعجلة الصناعة أن تستمر في الدوران، إذا أردنا إحراز أي تقدُّم ...»

ضحكَ هال، وقال مقاطِعًا حديثَ قائد المعسكر: «نقول ذلك في أغنيتنا!»

«إنه يُبقيها تدور، ذلك العجوزُ المَرِح ...
إنها عجلاتُ الصناعة،
تدور وتدور، من أجل غليونه ووعائه
وكُلِّيته!»

قال قائد المعسكر بصوتٍ هادر: «أجل. من السهل للغاية على شاب ذكي مثلك أن يؤلِّف الشعر بينما تعيش حياةً رغدة بفضل كرم الرجل العجوز وجُودِه. ولكن ذلك لا يحلُّ أيَّ نزاعٍ. هل أنتم أيها الجامعيون مستعدُّون لتولِّي عمله؟ أو هؤلاء السياسيون الديمقراطيون الذين يأتون إلى هنا ويتشدَّقون بتلك الخُطَب الحمقاء عن الحرية، ووضع قوانين عمل لصالح هؤلاء الأجانب ...»

قال هال: «بدأتُ أفهم. أنت تعترض على السياسيين الذين يُمرِّرون القوانين؛ تشكُّ في دوافعهم ... ومن ثَمَّ ترفض الانصياع لها. ولكن لماذا لم تخبرني في وقتٍ مبكر عن ذلك أنك من أنصار اللاسُلطَوية؟»

صاح قائد المعسكر: «اللاسُلطوية؟ أنا من أنصار اللاسُلطوية؟»

«تلك أفكار اللاسُلطويين، أليس كذلك؟»

«يا إلهي. لقد تجاوزتَ حدودك! تأتي إلى هنا، وتُثير العُمَّال ... أنت يا أحد محرِّضي الاتحادات النقابية، أو أيًّا ما تكُن ... وتعلم أن أول فكرة ستخطر على بال هؤلاء، عندما يُطلَق لهم العِنانُ هي وضعُ الديناميت في آبار المناجم وإضرام النار في المباني!»

سأله هال بنبرة تنمُّ عن المفاجأة: «هل يفعلون ذلك؟»

«ألم تقرأ عمَّا فعلوه في آخِر إضراب كبير؟ ألم يُخبرْك ذلك الواعظُ العجوز الشاحب الوجه، جون إدستروم؟ لقد كان أحد المشاركين في الإضراب.»

قال هال: «لا، أنت مخطئ. إدستروم لديه فلسفةٌ مختلفة. لكنني مُتأكِّد أن ثمة آخرين قد فعلوا ذلك. ومنذ أن وصلتُ إلى هنا، أصبح في إمكاني أن أفهم وجهة نظرهم تمامًا. عندما أشعلوا النيران في المباني، كان ذلك لأنهم اعتقدوا أنك وأليك ستون ربما كنتم بالداخل.»

لم يبتسم قائدُ المعسكر.

تابع هال قائلًا: «إنهم يريدون تدمير الممتلكات؛ لأن هذه هي الطريقة الوحيدة التي اهتدَوا إليها بتفكيرهم للرد على طغيان أصحابها وجشعهم وإنزال العقاب بهم. لكن أعتقد يا كوتون أن شخصًا قد أقنعهم بفكرة جديدة، افترِضْ أن أحدًا قال لهم: «لا تُدمِّروا الممتلكات ... بل استولوا عليها!»

حدَّق الآخر إليه، وقال: «يستولون عليها! إذن هذه هي فكرتُك عن الأخلاق!»

«سيكون ذلك أكثر أخلاقية من الطريقة التي استولى بها بيتر على تلك الممتلكات من البداية.»

سأل قائدُ المعسكر، وقد بدا عليه بعضُ السخط: «أيُّ طريقة تلك؟ اشتراها ودفعَ سعرَ السوق، أليس كذلك؟»

«لقد دفعَ سعر السوق للسياسيين لرشوتهم. كنت في ويسِترن سيتي أعرفُ سيدة تعمل وكيلةَ مَدرَسة عندما كان يشتري أراضي المدارس من الولاية ... الأراضي التي كان معروفًا عنها أنها تحتوي على الفحم. كان يدفع ثلاثة دولاراتٍ في الفدَّان الواحد، وكان الجميع يعلمون أن ثمنه ثلاثة آلاف دولار.»

قال كوتون: «حسنًا، إذا لم تشترِ السياسيين، ففي صباح أحد الأيام عندما تستيقظ ستجد أنَّ غيرَك قد اشتراهم. إذا كنت صاحبَ أملاك، فعليك أن تحميها.»

قال هال: «يا كوتون، أنت تعمل لدى العجوز بيتر بوَقتِك، ولكن من المؤكَّد أنك لا تبيعه عقلك! يكفي أن تنظر إلى راتبك الشهري لتدرك أنك أيضًا عبدٌ مأجور، ولست أفضلَ حالًا بكثيرٍ من عُمَّال المناجم الذين تحتقرهم.»

ابتسمَ الآخر. وقال: «ربما راتبي أكبر، أُقرُّ بذلك، ولكنني فكَّرتُ في الأمر، وأعتقد أنني أحظى بالراحة عنكم أيها المحرِّضون. إنني الرئيس المسئول، وأتوقَّع أن أبقى في موقع السلطة.»

«حسنًا يا كوتون، إذا كانت هذه هي نظرتك إلى الحياة، فلا غَرو على الإطلاق من احتسائك الخمر بين الحين والآخر. تكالُب، بلا إيمان أو إنسانية، أينما حللتَ! لا تحسب أنني أسخرُ منك ... إنني أتحدَّثُ إليكَ من قلبي. لست صغيرًا في السن للغاية، ولست أحمق بحيث لا يسترعي انتباهي هذا الجانبُ في الأمور الذي يدعو إلى التكالُب. لكنْ ثمة شيء في المرء يصرُّ على ألا يتمادى في تكالُبه؛ وهو أنَّ لديه فرصة على الأقل لشيء أفضل. انظر، على سبيل المثال، إلى هؤلاء المستضعَفين المساكين الذين يكدحون داخل الجبل، مخاطِرين بحياتهم في كل ساعة من النهار والليل كي يوفِّروا لي ولك الفحم الذي يُبقينا دافئَين ... لكي «تدور وتدور عجلات الصناعة ...»

الفصل الخامس والعشرون

كانت هذه آخِر كلماتٍ قالها هال. كانت كلماتٍ شديدة الوضوح، ولكن عندما فكَّر لاحقًا في تلك المصادفة، بدت له فريدةً من نوعها. فبينما كان جالسًا يتجاذب أطرافَ الحديث، كان المستضعَفون المساكين داخل الجبل في خِضَم واحدة من تلك التجارب المثيرة والمروِّعة التي يتَّسم بهما عالَم تعدين الفحم. كان أحدُ الصبية الذين يعملون تحت الأرض — في انتهاكٍ صريحٍ لقانون عمالة الأطفال — متعثِّرًا في أداء مهمته. لقد كان «عامِل تلجيم»، مهمته دَسِّ عصًا في عجلة العربة المحمَّلة لإيقافها وكبحها، وقد كان صغير السن، وكانت العربة تتحرك في أثناء محاولته القيام بمهمَّته. فدفعت به إلى الجدار … ومن ثَمَّ تدحرج بعضُ حمولة الفحم بانحدارٍ ناحيته، واتجه نحوه ستة رجال، ولكن بعد فوات الأوان. تحرَّكت العربة بسرعة، فدارت حول أحد المنحنيات واندفعت خارج مسارها، فتحطَّم خشبُها وتفكَّك. سقط مع الخشب وابلٌ من غبار الفحم، كان قد تراكم لعُقودٍ من الزمن في هذه المنشآت القديمة، وفي الوقت نفسه، كان هناك سلك مصباح أحدثَ شرارة عندما لامسَ العربة.

وهكذا بينما كان هال يتحدَّث إلى قائد المعسكر، سمع فجأة هديرًا يصمُّ الآذان، بل شعرَ به؛ فقد شعر بالهواء من حوله يتحوَّل إلى كائن حي يضربه ضربة قوية، ويطرحه أرضًا. تحطَّمت النوافذُ داخل الغرفة فأمطرته زُجاجًا، وسقط الجَصُّ من السقف على رأسه في وابلٍ آخر.

عندما نهضَ، مبغوتًا بعضَ الشيء، رأى قائدَ المعسكر وقد طُرِحَ أرضًا هو أيضًا؛ فحدَّقَ كلٌّ منهما إلى الآخر بعينَين مُرتعِبتَين. وعلى الرغم من أنهما كانا جاثِيَين، وقعَ

ارتطامٌ فوق رأسيهما، واندفعَ نحوهما نصفُ سقف الغرفة، وقد علقت به قطعةٌ كبيرة من الخشب. كان كلُّ شيءٍ حولهما مُحطَّمًا، كما لو أنها نهاية العالَم.

اجتهَدا للوقوف على أقدامهما، وأسرعا نحو الباب، وفتحاه بطرح مِصراعه بعيدًا، كما حطَّمت قطعةٌ مُسنَّنة من الخشب الرصيفَ أمامهما. قفزا إلى الخلف مرة أخرى، وصرخَ قائدُ المعسكر: «إلى القَبو!» وسلك الطريقَ إلى الدرج الخلفي.

ولكن قبل أن ينزلا الدرج، أدركا أن أصوات التحطُّم قد توقَّفتْ. قال هال لاهثًا وهما يهمَّان بالوقوف: «ما هذا؟»

قال الآخِر: «انفجار في أحد المناجم»، وبعد بضع ثوانٍ ركضَا عائدَين إلى الباب.

أول ما رَأَياه كان عمودًا ضخمًا من الغبار والدخان يرتفع في السماء فوقهما. انتشر أمام أعينهما المذهولة حتى أظلمَ كلُّ شيء حولهما. كان هناك وابلٌ من الحُطَام الأخف وزنًا لا يزال يتناثر فوق القرية بينما كانا يُحدِّقان، وتدبَّرا أمرهما سريعًا، وتذكَّرا كيف بدا المكان قبل ذلك، فأدركا أن المبنى حول بئر المنجم رقم ١ قد اختفى.

صاحَ قائدُ المعسكر: «يا إلهي، لقد انفجر!» وهرعَ الاثنان إلى الشارع، وعندما نظرا إلى الأعلى رأيَا أن جزءًا من المبنى المدمَّر سقطَ من خلال سقف السجن فوق رأسَيهما.

كان هطولُ الحُطَام قد توقَّف، ولكن كانت هناك سحبٌ من الغبار غطَّت الرجُلَين بالسواد، وازدادت السحب سوءًا؛ حتى لم يعُد في استطاعتهما أن يتبيَّنا طريقَهما على الإطلاق. ومع الظلام حَلَّ الصمت، الذي بدا، بعد دَويِّ الانفجار وتكسُّر الحُطَام، كأنه صَمْتُ الموت.

وقفَ هال في حالة ذهولٍ لبضع لحظاتٍ. ورأى سيلًا من الرجال والصبية يتدفقون من محطَّة تكسير الفحم. بينما ظهر من جميع الشوارع سيلٌ آخر من النساء، نساء مُسِّنَات وأُخَر شابات ... تركن طعامَهن على المواقد، وأطفالهن في الأَسِرَّة، وكان أطفالُهن الأكبر سنًّا يصرخون مُتشبِّثين بثِيابهن، وقد تجمَّعن في أسرابٍ حول الحفرة التي كانت مثل فُوَّهة بُركان يتصاعد منها الدخان.

ظهر المشرِف كارترايت وهو يركض نحو غرفة التهوية. انضمَّ إليه كوتون، وتبِعه هال. كانت غرفة التهوية مُحطَّمة، وكانت المروحة العملاقة مُلقاةً على الأرض على بُعد مائة قدم، وقد تهشَّمت ريشاتُها. لم تكن خبرة هال الضئيلة للغاية بأمور التعدين لتُمكِّنه من فهم حجم الخطورة فيما رآه، لكنه رأى قائدَ المعسكر والمشرفَ يُحدِّق كلٌّ منهما إلى

الآخر في ذهولٍ، وسمع الأولُ يصيح: «يا ويلنا!» لم ينبِس كارترايت بكلمة، لكنه أطبقَ شفتَيه الرفيعتَين، وسكنَ الخوفُ عينَيه.

عادَ الرجلان مُسرعَين إلى الحفرة المتصاعد منها الدخان، وتبعهما هال.

تجمَّع هناك مائةٌ أو مائتان من النساء، يصرُخن مُتسائلاتٍ كلهن في صوتٍ واحد. احتشدن حول قائد المعسكر، والمشرف، وغيرهما من الرؤساء … بل وحول هال أيضًا، يصرخن بصوتٍ هستيري بالبُولندية والبُوهيمية واليونانية. عندما هزَّ هال رأسَه، في إشارة إلى أنه لم يفهمهن، كن يَأْنِنَّ في حُرقة أو يصرخن عاليًا. واصلَ البعضُ التحديق إلى الحفرة المتصاعِد منها الدخان، وغطَّى آخرون الأبصار عن المشهد، أو نزلوا على رُكبهم، ينتحبون، ويُصلُّون رافعين أيديهم إلى السماء.

بدأ هال شيئًا فشيئًا يدرك الهول الحقيقي لحوادث المناجم. لم يكن ضجيجًا ودُخَانًا وظلامًا، ولا نساءً منتحبات محمومات؛ لم يكن أيَّ شيء مما يحدث فوق الأرض، بل كان الهول في الأسفل في تلك الحفرة المظلِمة المتصاعِد منها الدخان! كان بين الرجال! رجال عرفهم هال، وعمِل معهم ومازحَهم، وتبادل معهم الابتسامات، رجال عرف حياتهم اليومية وعاشها معهم! العشرات، وربما المئات منهم، كانوا هنا بالأسفل تحت قدمَيه … بعضُهم قتلى، وبعضُهم الآخر مصاب، أو مشوَّه. ماذا سيفعلون؟ ماذا سيفعل لهم مَن هم على السطح؟ حاول هال الوصول إلى كوتون، كي يطرح عليه الأسئلة، لكن قائد المعسكر كان محاطًا بالحشد، محاصَرًا. كان يدفع النساءَ إلى الخلف، ويصرخ: «ارحلن! اذهبن إلى منازلكن!»

صِحْن: «ماذا؟ نذهب إلى منازلنا؟ بينما رجالنا في المنجم، نذهب إلى منازلنا؟» احتشدن عن مسافة أقرب حوله، في توسُّل وصراخ.

ظلَّ يصرخ: «ارحلن! لا يوجد شيءٌ يمكنكن فعله! لا يوجد شيء يمكن أيَّ أحد أن يفعله! اذهبن إلى منازلكن! اذهبن إلى منازلكن!» كان عليه أن يُرجِعَهن بالقوة لمنعهن من التدافُع والسقوط في الحفرة.

في كل مكان نظر إليه هال كان هناك نساءٌ يقِفن في حسرة، مُتَصلِّبات ومحدِّقات أمامهن كما لو كُنَّ في غيبوبة، وجالساتٍ بأجسامٍ تهتزُّ يَمنة ويَسرة، وأُخريات يجثون على رُكبهن بوجوه مرفوعة إلى السماء يتضرَّعن بالصلاة، وأطفالهن الفَزِعُون مُتشبِّثون بثيابهن. رأى امرأة نمساوية، شابة شاحبة مثيرة للشفقة، تلف رأسها بشالٍ رماديٍّ رثٍّ، وتمدُّ يدَيها صائحة: «زوجي! زوجي!» ثم غطَّت وجهَها، وخفتَ صوتُها في نحيبها

اليائس: «ويلاه، زوجي! ويلاه، زوجي!» استدارت مغادِرةً، وهي تترنَّح مثل حيوان أُصيبَ بجُرحٍ مُميت. تبعتها عينَا هال، وقد أصبح صراخُها، الذي تردَّد مرارًا وتكرارًا، اللازمة اللَّحنية لسيمفونية الرُّعب هذه.

كان هال قد قرأ عن حوادث المناجم في جريدته الصباحية، ولكن حوادث المناجم أصبحت هنا واقعًا ملموسًا، بَشَرًا من لحم ودم. وما لم يحتمله فيها هو ذلك العجز التام من جانبه ومن جانب الجميع. ازدادَ وضوحُ هذا العجز أمامه في كل لحظة … من استفسارات كوتون التعجُّبية ومن ردود العُمَّال. لقد كان الأمر وحشيًّا ولا يُصدَّق … ولكنه هكذا كان! يجب أن يرسلوا طلبًا لإحضار مِروحة تهوية جديدة، ويجب أن ينتظروها حتى تأتي، عليهم تركيبها وتشغيلها، وعليهم أن ينتظروا ساعاتٍ بعد ذلك حتى يتلاشى الدخان والغاز من ممرات المنجم الرئيسية، وحتى يتم ذلك لم يكن ثمة شيء يمكنهم فعله … لا شيء على الإطلاق! سيظل الرجالُ عالقِين داخل المنجم. وأولئك الذين لم يموتوا على الفور سيَشقُّون طريقَهم إلى داخل الغرف البعيدة، ويُحصِّنون أنفسهم من «الغازات الخانقة» المميتة التي أعقبت الانفجار. سينتظرون، دون طعام أو شراب، يتنفَّسون هواءً مُلوَّثًا … سينتظرون وينتظرون حتى يتمكَّن طاقمُ الإنقاذ من الوصول إليهم!

الفصل السادس والعشرون

كان هال يحاول أحيانًا وسط هذه الحالة من الجلَبة والارتباك أن يتذكَّر أسماء العاملين في المنجم رقم ١ الذين عرفهم. لقد عمل هو نفسه في المنجم رقم ٢، ومن ثَمَّ كان بطبيعة الحال يعرف عددًا أكبر من العاملين في ذلك المنجم. لكنه كان يعرف بعضَهم من المنجم الآخر ... العجوز رافيرتي كمثال، ووالد ماري بيرك كمثالٍ آخر، وعرف على الأقل واحدًا من المجموعة التي اختارته مراقبًا للأوزان ... زاميروفسكي. تذكَّر هال فجأة وجه هذا الرجل الضئيل الحجم الصبور الذي ابتسمَ بلطفٍ شديدٍ بينما كان الأمريكيون يحاولون نُطقَ اسمه. والعجوز رافيرتي، بجميع أطفال عائلته، وجهوده الجديرة بالشفقة للحفاظ على رضا رؤسائه! والمسكين باتريك بيرك، الذي لم يرَه هال إلا في حالة سُكر، لا شكَّ أنه قد استفاقَ الآن، إنْ كان لا يزال على قيد الحياة!

ثم التقى هال وسط الحشد بجيري مينيتي، وعلم أن من الرجال الآخرين الذين كانوا في الحفرة هم فارِنزينا، الإيطالي الذي تلاعبت به «الحسناء»، وأبوستوليكاس الخائن، الذي أخذ معه الآن عُملاته الفضية الثلاثين إلى شرك الموت!

كان الناس يُعِدُّون القوائم، وكذلك كان يفعل هال، بسؤال الآخرين واستجوابهم. وقد خضعت هذه القوائم إلى التعديل ... في ظل ظروف درامية أحيانًا. كان المرء يرى امرأة تنتحب مجفِّفة عينَيها بمئزرها، ثم فجأة تنظر إلى أعلى، وتُطلِق صرخة مُدوِّية، وتندفع نحو أحد الرجال وتحتضنه. أما هال فقد شعر كما لو رأى شبحًا عندما وجد باتريك بيرك واقفًا أمامه فجأة وسط حشدٍ من الناس. ذهب هال إلى الرجل العجوز واستمع إلى قصته، وعرفَ كيف أن رجُلًا إيطاليًّا قد سرقَ أخشابه، فصعِدَ بيرك إلى السطح ليأتي بالمزيد؛ وهكذا نجا بحياته بينما لا يزال لصُّ الأخشاب بالأسفل ... إنه حُكم العناية الإلهية على مجرمي المناجم!

سأل هال الآن عمَّا إذا كان بيرك قد ذهبَ ليُخبر عائلته. فقال إنه ركضَ إلى المنزل، ولكنه لم يجد أحدًا هناك. ومن ثَمَّ، أخذ هال يشق طريقه وسط الحشود بحثًا عن ماري أو أختها جيني أو أخيها تومي. واستمر في هذا البحث على الرغم من تساؤله عما إذا كانت عائلة السكير اليائس ستُقدِّر تدخُّل العناية الإلهية من أجله.

التقى بأولسون الذي نجا بصعوبة في أثناء عمله على السطح بالقرب من الرافعة. كانت كلُّ هذه الأحداث بمنزلة قصة قديمة ومتكررة الحدوث بالنسبة إلى المنظِّم النقابي، الذي عمل في المناجم منذ أن كان في الثامنة من عمره، ورأى العديدَ من أنواع الحوادث. وشرعَ في شرح الأمور إلى هال كأمرٍ واقعٍ لا جدال فيه. يتطلَّب القانون عددًا معينًا من الفتحات لكل منجم، وأيضًا مخرجَ طوارئ ذا سُلَّم يمكن للرجال الخروج منه، غير أن تكلفة الحفر مرتفعة.

لم يكن السببُ المباشر للانفجار معروفًا في هذا الوقت، غير أنه كان في إمكانهم القول إنه كان «انفجارًا غباريًّا» بسبب سُحب من غبار فحم الكُوك، ولم يكن أحد مِمَّن كان داخل المنجم ورأى ظروفه الجافة ليشكَّ فيما كانوا سيجدونه عندما ينزلون ويتتبَّعون «مصدر الانفجار» وآثاره. كان من المفترض أن يرُشُّوا المناجم بانتظامٍ، ولكن في مثل هذه الأمور كان الرؤساء يركنون إلى حُكمهم الخاص.

استمعَ هال بنصف أذن إلى هذه التفسيرات. كان وَقْعُ الأمرُ قاسيًا جدًّا وفظيعًا جدًّا عليه. ما الفائدة من معرفة المسئول عن هذا الخطأ؟ لقد وقعَ الحادث، وكان السؤال حينئذٍ عن كيفية التعامل مع هذا الظرف الطارئ! في أثناء حديث أولسون، سمعَ صرخات الرجال والفِتيان وهم يختنقون في الزنازين المظلمة ... سمعَ نحيبَ النساء، كأمواجٍ تضرب شاطئًا بعيدًا، أو همهمة خافتة دءوبة لآلة وَتَرية مكتومة: «ويلاه، زوجي! ويلاه، زوجي!»

عادا إلى جيف كوتون مُجدَّدًا. ووجداه قد استعان هذه المرة بستة رجال آخرين لإبعاد حشود النساء عن الحفرة، ومَدِّ سلك شائك لإبعادهن. قال هال في نفسه إن كوتون لم يكن شخصًا لطيفًا بأي حالٍ من الأحوال، لكن مما لا شك فيه أنَّ النساء يُصبحن مزعجاتٍ عندما يجنُّ جنونُهن. كان يجيب عن أسئلتهن المُلحَّة: «نعم، نعم! سنُحضِر مروحة جديدة. نحن نفعل كلَّ ما في وسعنا، صدقوني. سوف نخرجهم. اذهبن إلى منازلكن وانتظرن.»

ولكن بالطبع لم يكن أحدٌ ليعود إلى منزله. كيف يمكن لامرأة أن تجلس في بيتها، أو تباشر مهامها العادية من طبخ أو غسل وزوجها ربما كان يعاني الاختناقَ تحت الأرض؟ أقل ما يمكنها فعله هو أن تقف عند فتحة الحفرة ... في أقرب مكان منه قدر

استطاعتها! وقفَ بعضُهن بلا حراكٍ، ساعة بعد أخرى، بينما كان بعضُهن الآخر يجوب شوارع القرية، سائلًا الأشخاص نفسها، مرارًا وتكرارًا، عما إذا كانوا قد رأَوا أزواجهن. ظهر بعضُهم، مثل باتريك بيرك، وبدا دائمًا أن هناك فرصة لظهور آخر.

الفصل السابع والعشرون

في فترة ما بعد الظهيرة، صادف هال ماري بيرك في الشارع. كانت قد عثرت على والدها منذ فترة طويلة، ورافقته إلى حانة أوكالاهان كي يحتفل بِنِعَم العناية الإلهية عليه. كانت ماري حينها مهتمة بمسألة أكثر خطورة. كان المنجم رقم ٢ في خطر! فقد كان الانفجار في المنجم رقم ١ عنيفًا جدًّا إلى درجة أنه عطَّل تروس مروحة المنجم الآخر، التي تمتد إلى ما يقرُب من ميلٍ على طول الوادي. ومن ثَمَّ توقَّفت المروحة، وعندما ذهبَ أحدُهم إلى أليك ستون يطلب منه إخراج الرجال، رفضَ. صاحت ماري: «أتدري ما قال؟ أتدري؟ «اللعنة على العمَّال! أَنقِذوا البِغال!»»

كان هال قد نسي حقيقة وجود منجمٍ ثانٍ في القرية؛ حيث لا يزال مئاتُ الرجال والفتيان يباشرون أعمالهم. وسأل: «ألا يعلمون بأمر الانفجار؟»

قالت ماري: «ربما سمعوا الضجيج. لكنهم لا يعرفون ما حدث، ولن يخبرهم الرؤساءُ إلا بعد أن يُخرِجوا البِغال.»

على الرغم من كل ما رآه هال في نورث فالي، لم يستطِع تصديق ذلك الخبر. ومن ثَمَّ، سألَ مُستفسِرًا: «كيف لكِ أن تعرفي ذلك يا ماري؟»

فأجابته ماري: «لقد أخبرني الشابُّ روفيتا للتوِّ. لقد كان هناك، وسمعَ ذلك بأُذنَيه.»

أخذَ يُحدِّق إليها. وقال: «دعينا نذهب ونتأكد»، شرعَا في السير في الشارع الرئيسي للقرية. وفي الطريق انضمَّ إليهما آخرون؛ لأن أخبار هذه المصيبة الجديدة كانت قد بدأت بالفعل في الانتشار. مرَّ بهم جيف كوتون في سيارة، وصرخت ماري: «لقد قلتُ لكم ذلك! عندما ترونه ذاهبًا إلى مكان، فاعلموا أن هناك عملًا قذرًا يُخطِّطون له!»

وصلوا إلى المبنى حول بئر المنجم رقم ٢، ووجدوا حشدًا من الناس، فيما يشبه الإضراب. وكان النساءُ والأطفال يصرخون ويُلَوحون، مُهدِّدين باقتحام المكتب واستخدام

هاتف المنجم لتحذير الرجال بأنفسهم. وها هو قائد المعسكر يستحثُّهم على التراجع. وصلَ هال وماري في الوقت المناسب ليرَيَا السيدة ديفيد، التي كان زوجها يعمل في المنجم رقم ٢، وكانت تُلوِّح بقبضتها في وجه قائد المعسكر وتصرخ فيه مثل قطٍّ بري. وجَّه قائد المعسكر مسدسَه إليها، وعندها تقدَّم هال إلى الأمام. تملَّكه غضبٌ أعمى ... كان على استعدادٍ أن يُلقي بنفسه فوق القائد.

لكن ماري بيرك أوقفته، دفعت ذراعَيها حوله، وثبَّتته بالقوة. صاحت: «لا، لا! تراجع يا رجل! أتريد أن تُقتَل؟»

أدهشته قوتُها. وأدهشته أيضًا شدة عاطفتها. راحت تناديه بالأحمق المجنون، وبألفاظ أقذع من ذلك. وقالت: «أناقصُ عقلٍ أنت مثل النساء؟ تركض هكذا نحو فُوَّهة مُسدَّس!»

مرَّت الأزمة في لحظة، حيث تراجعت السيدة ديفيد، فرفعَ قائد المعسكر سلاحَه عنها. لكن ماري استمرت في توبيخ هال، محاولةً صرفَه بعيدًا. وقالت: «هيا الآن! ارحل من هنا!»

«لكن يا ماري! يجب أن نفعل شيئًا!»

«لا يمكنك أن تفعل شيئًا، صَدِّقني! لا بد أن لديك من العقل ما يكفي لمعرفة ذلك. لن أدعكَ تُعرِّض نفسك للقتل! ابتعِد الآن!» سحبته بعيدًا إلى الشارع، بالقوَّة تارةً وباللين تارة.

كان يحاول التفكير في الموقف. هل كان الرجال في المنجم رقم ٢ في خطر حقًّا؟ هل كان من الممكن أن يكون الرؤساءُ قد تعاملوا مع هذا الاحتمال بكل هذا البرود وعدم الاكتراث؟ وخصوصًا في ظل حادث المنجم الآخر الذي وقع في اللحظة نفسها أمام أعينهم! لم يستطع أن يصدق، وفي الوقت نفسه أوضحت ماري، التي كانت تسير بجانبه، أنَّ الرجال ليسوا في خطرٍ كبيرٍ ... كانت كلمات أليك ستون الوحشية هي ما أصابها بالجنون فحسب.

«ألا تذكر عندما انسدَّ مجرى الهواء من قبل، وساعدتَ بنفسك في إخراج البِغال؟ لم تعُدَّه أمرًا خطيرًا حينها، وهكذا هو الوضعُ الآن. سوف يُخرِجون الجميعَ في الوقت المناسب!»

وكانت تُخفي مشاعرها الحقيقية حفاظًا على سلامته، تركها تقوده، بينما كان يحاول التفكير في شيء آخر ليفعله. كان يفكِّر في الرجال في المنجم رقم ٢، لقد كانوا

أعزَّ أصدقائه، جاك ديفيد، وتيم رافيرتي، وفريسماك، وأندروكولوس، وكووفوسكي. كان يفكِّر فيهم، في زنزاناتهم النائية ... يتنفَّسون هواءً مُلوَّثًا، ويَمرضون ويفقدون الوعي ... حتى تُنقَذَ البِغال! كان يتوقَّف في الطريق من حين إلى آخر، وكانت ماري تسحبه، مُردِّدة مرارًا وتكرارًا: «لا يمكنك أن تفعل شيئًا!» ثم فكَّر: ما الذي كان يمكنه فعله؟ لقد بذلَ قصارى جهده في خداع جيف كوتون قبل ساعاتٍ قليلة، وكانت النتيجة أنْ أشهرَ قائدُ المعسكر فوهةَ مسدسِه في وجهه. كلُّ ما كان في استطاعته فعله الآن هو أن يَلفت انتباه كوتون إليه، وأن يجعله يطرده من المعسكر في الحال.

الفصل الثامن والعشرون

وصلَا إلى منزل ماري، وكان المنزل المجاور منزل المرأة السلافية، السيدة زامبوني، التي أخبرته عنها ماري من قبل الكثيرَ من الحكايات المرحة. كانت السيدة زامبوني تَلِدُ طفلًا جديدًا كلَّ عام على مدار ستة عشر عامًا، وكان لا يزال أحد عشر طفلًا من هؤلاء الأطفال على قيد الحياة. والآن زوجُها محاصَر في المنجم رقم ١، وكانت حائرة تجوب الشوارع ومعظم أطفالها في عِقِبيها. وكانت بين الحين والآخر تُصدِر عواءً كأنها حيوانٌ مُعذَّب، وكان أطفالها يشاركونها العواءَ بمختلف النبرات. توقَّف هال ليستمع إلى أصواتهم، لكن ماري وضعت أصابعها في أُذنَيها وأسرعت إلى المنزل، تبعَها هال ورآها تُلقي بنفسها على الكرسي وتنفجر في بكاء هستيري. وفجأة، أدرك هال مدى التوتر الذي تسبَّب فيه هذا الحادث المروِّع لماري. لقد كان وَقْعُ الأمر سيئًا للغاية عليه ... لكنه رجل، وأكثر قدرة على تحمُّل المشاهد المُفزِعة. فقد كان الرجال يَلقَون حتفَهم في الأعمال والحروب، وكان الآخرون يرونهم وهم يموتون وقد اعتادوا المشهد. لكن النساءَ كُنَّ أمهاتٍ لهؤلاء الرجال؛ فالنساءُ هن مَن حملنهم وهنًا على وهن، وأرضعنهم، وربَّينهم بصبرٍ لا ينفد ... لم تستطع النساء اعتياد المشهد! ولهذا السبب، كان مصيرُ النساء هو الأسوأ. إذا لقي الرجالُ حتفَهم، فتلك نهايتهم؛ ولكن على النساء في هذه الحالة مواجهة المستقبل، بذكرياته المريرة، والوحدة والكرب في الصراع من أجل البقاء. ويصبح عليهن أن يرَين الأطفالَ وهم يُعانون ويموتون ببطءٍ من الحرمان.

انصبَّت شفقةُ هال على جميع النساء اللاتي يُعانين على الفتاةِ الجالسة إلى جواره. كان يعرف كم هي حنونة. لم يكن لديها زوجٌ في المنجم، لكنها سيكون لديها في يومٍ من الأيام، وقد كانت تعاني آلامَ ذلك المستقبل الذي لا يرحم. نظرَ إليها وهي تجلسُ منكمشة على نفسها في كرسيها، تمسحُ دموعها بطرف فستانها القطني الأزرق البالي. بدت مثيرة

للشفقة على نحوٍ لا يُوصَف … مثل طفل أُصِيبَ بالأذى. كانت تُجهِش في بكاءٍ يتخلَّله بعضُ الجُمَل بين الحين والآخر، كما لو كانت تتحدَّث إلى نفسها: «آه، يا لَلنساء المكلومات، يا لَلنساء المكلومات! هل رأيتَ وجه السيدة جونوتش؟ كادت تقفز في الحفرة المتصاعِد منها الدخان لولا أنهم منعوها!»

قال لها هال متوسِّلًا: «هوِّني على نفسك يا ماري!» … كما لو كان يظن أن في إمكانها أن تتوقَّف.

صاحت: «دعني وشأني!» «دعني أُنفِّسُ عن ألمي!» ووقفَ هال، الذي لم يكن قد تعرَّض لحالة هستيرية من قبل، بجوارها عاجزًا.

تابعت قائلةً: «هناك بؤسٌ يفوق ما كنتُ أعلمه! إنه في كل مكان تلتفت إليه؛ فهذه امرأة تحترق عيناها ألَمًا، تتساءل عما إذا كانت سترى زوجها مرة أخرى! وتلك أمٌّ ربما يحتضر ولدُها ولا يمكنها أن تفعل له شيئًا!»

قال هال مُتوسِّلًا إليها مجدَّدًا: «ولا أنتِ أيضًا يمكنكِ أن تفعلي شيئًا يا ماري. كلُّ ما تفعلينه هو أنكِ تتركين الحزن يستبِد بكِ حتى الموت.»

صاحت: «أنت مَن تقول لي ذلك؟ وقد كنت على استعدادٍ لأن تدع جيف كوتون يطلق النار عليك؛ لأنك شعرت بالأسف الشديد على السيدة ديفيدا! كلَّا، لا أحدَ يمكنه تحمُّل المشهد هنا.»

لم يستطع أن يفكِّر في شيء يقوله. سحبَ كُرسيًّا وجلسَ بجانبها في صمتٍ، وبعد فترة بدأت تهدأ ومسحت دموعَها، وجلست تُحدِّق في شرودٍ عبر الباب إلى الشارع الصغير القذِر.

تبِعتْ عينا هال عينَيها. كانت هناك أكوامٌ من الرماد ومعلَّبات الطماطم الفارغة، وكان هناك اثنان من أطفال زامبوني رثَّا الثياب، ينخزان بالعِصِي كومة النفايات … ربما بحثًا عن شيء يأكُلانه، أو شيء يلعبان به. كان هناك عشب جاف بالٍ على جانب الطريق، مُلطخ بغبار الفحم، على غرار كلِّ شيء آخر في القرية. يا له من مشهد! … ولم تكن عينا الفتاة قد وقعت على شيء قطُّ أكثر إلهامًا من هذا. طوال حياتها وهي تنظر إلى هذا المشهد يومًا بعد يوم! كيف له أن يلومها ولو لحظة على «مزاجها السوداوي»؟ هل يمكن أن يبتهج الرجالُ أو النساءُ في بيئة كهذه … هل يمكنهم أن يحلموا بالجَمَال، أو يطمحوا إلى مراتب النُّبل والشجاعة، أو إلى خدمة إخوانهم من البشر بسعادة؟ لقد كان هذا المكان مُحاطًا بجوٍّ موبوء من اليأس؛ لم يكن مكانًا حقيقيًّا … كان مكانًا من نسج المنام …

كابوسًا مُشوَّهًا مفزِعًا! كان مثل الثقب الأسود في الأرض الذي طاردَ خيال هال، ثقب يقبع في أعماقه رجال وفتيان يموتون اختناقًا!

خطر ببال هال فجأة … أنه يريد الرحيل عن نورث فالي! يريد أن يبتعد بأي ثمن! لقد استنفدَ المكانُ شجاعتَه؛ ببطءٍ، يومًا بعد يوم، مشاهدُ البؤس والعَوز، والقذارة والمرض، والجوع، والقمع، واليأس قد نخرت في روحه، وقوَّضت أُسسَ نظرياته الرائعة في الإيثار. نعم، يريد الهرب … إلى مكان تشرق فيه الشمس؛ حيث ينمو العشب الأخضر، وحيث يقف البَشَر مُنتصبي القامة، يضحكون ويتمتعون بالحرية. يريد أن يصرف عن ناظريه غبار هذه القرية الصغيرة الكريهة ودُخانها، وأن يصمَّ أُذنَيه عن سماع نحيب النساء المُعذَّب: «ويلاه، زوجي! ويلاه، زوجي!»

نظر إلى الفتاة التي كانت تجلس مُحدِّقةً أمامها، منحنية إلى الأمام، وذراعاها تتدليان في وهنٍ على ركبتَيها.

وقال: «يا ماري، يجب أن ترحلي من هنا! إنه ليس بالمكان المناسب لفتاة رقيقة القلب مثلك. إنه ليس بالمكان المناسب لأي أحدٍ!»

نظرت إليه بحزن للحظة. ثم قالت أخيرًا: «لقد كنت أنا مَن يقول لك أن ترحل. منذ أن أتيتَ إلى هنا وأنا أقول لك ذلك! الآن أعتقدُ أنك بِتَّ تعرف ما أعنيه.»

قال: «نعم، عرفتُ، وأريدُ أن أرحل. لكني أريدكِ أن ترحلي أيضًا.»

سألت: «هل تعتقد أن هذا سيفيدني في شيء يا جو؟ هل تعتقد أن الرحيل سيفيدني في شيء؟ هل سأتمكَّن في يومٍ من الأيام من أن أنسى ما رأيته في هذا اليوم؟ هل يمكنني أن أحظى بأي سعادة حقيقية وصادقة في أي مكان بعد هذا؟»

حاول أن يُطمئِنها، لكن فاقد الشيء لا يعطيه؛ إذ لم يكن قادرًا على طمأنة نفسه. كيف سيكون الأمر معه؟ هل سيشعر يومًا أن له الحق في الشعور بالسعادة بعد هذا؟ هل سيتمكَّن من الشعور بأي ارتياحٍ في عالَم بهيج ومريح، مع عِلمه أن هذه الراحة قد قامت على مثل هذا البؤس الشائن؟ ذهبَ تفكيره إلى ذلك العالم، حيث يسعى المتحرِّرون من الهموم، المحبُّون للمتعة؛ إلى إشباع رغباتهم. خطرَ بباله فجأة أن ما يريده أكثر من الهروب هو أن يجلب أولئك الناس إلى هنا، ولو يومًا واحدًا، أو ساعة واحدة، كي يسمعوا نحيبَ هؤلاء النساء!

الفصل التاسع والعشرون

أخذت ماري على هال عَهدًا بألا يتشاجر مع كوتون. ذهبَا إلى المنجم رقم ٢. ووجدا البِغال قادمة، والرؤساء يَعِدُون بأن الرجال سيخرجون في غضون فترة قصيرة. كان كلُّ شيء على ما يرام ... لم يكن ثمة خطر يُذكَر! لكن ماري كانت تخشى أن تثق بهال، على الرغم من وعده لها، ومن ثَمَّ استدرجته إلى المنجم رقم ١.

وجدا أنَّ هناك سيارة إنقاذ قد وصلت للتوِّ قادمة من بيدرو، وكانت تُقِلُّ أطباء وممرضين، وكذلك عددًا من «الخوذات». كانت هذه «الخوذات» أدواتٍ غريبة الشكل، تُثبَّت فوق الرأس والكتفَين، مُحكَمة الغلق، ومزوَّدة بأكسجين يكفي لساعة أو أكثر. جلس الرجال الذين كانوا يلبسونها في صندوقٍ كبير أُنزِل في البئر بواسطة رافعة، وكانوا بين الحين والآخر يسحبون سلكَ الإشارة لإعلام مَن على السطح بأنهم على قيد الحياة. عندما عادَ أولُهم، أفادَ بوجود أجساد بالقرب من قاع البئر، ولكنها كانت جميعها جُثثًا على ما يبدو. وكان هناك دخانٌ أسود كثيف، ما أشار إلى اشتعال حريقٍ في مكان ما بالمنجم، ومن ثَمَّ لم يكن ثمة ما يمكن فعله إلى حين الانتهاء من تركيب المروحة. وعند تشغيل المروحة، سيتمكَّنون من سحب الدخان والغازات وإخلاء البئر.

أُخطِر مفتش المناجم بالولاية بالأمر، لكنه كان مريضًا في منزله، وأرسلَ أحدَ نوابه. كان هذا الشخص هو المسئول بموجب القانون عن جميع أعمال الإنقاذ، لكن هال وجد أن عمَّال المناجم لم يهتموا بحضوره. كان واجبه هو منْع وقوع الحادث، ولم يكن يفعل ذلك. وعندما يأتي، فإنه يفعل ما تريده الشركة.

في وقتٍ ما بعد حلول الظلام، بدأ العمَّال في الخروج من المنجم رقم ٢، واحتضنتهم نساؤهم، اللاتي كن ينتظرن عند حافة الحفرة، بصيحاتٍ من الشكر والامتنان لسلامتهم. لاحظ هال نساءً أخريات، كان رجالهن في المنجم رقم ١، وربما لا يخرجون أبدًا مرة

أخرى، واقفاتٍ يُشاهدن هذه الترحيبات بعيونهن الحزينة الممتلئة بالدموع. كان من هؤلاء الذين خرجوا جاك ديفيد، وقد سار هال معه هو وزوجته إلى المنزل، مستمِعًا إلى السباب الذي صَبَّته الزوجة على كوتون وأليك ستون، وكان بمنزلة درس في مفردات الوعي الطَّبَقي. كرَّرت المرأة الويلزية الضئيلة الحجم عبارة رئيس العمَّال: «اللعنة على العمَّال، أنقِذوا البِغال!» قالتها مرارًا وتكرارًا ... بدا الأمر كأنه يُبهِجها كما لو كان عملًا فنيًّا، وقد لخَّص ذلك بكفاءة تامة موقف الرؤساء تجاه رجالهم! لاحظ هال أنه كان هناك العديد من الآخرين الذين ردَّدوا تلك العبارة؛ فقد انتشرت في جميع أنحاء القرية، وجابت جميع أنحاء المنطقة في غضون أيام قليلة. لقد لخَّصت رأي أبناء المنطقة في موقف أصحاب المناجم تجاه عُمَّالهم!

بعد أن تغلَّب هال على صدمته الأولى الناجمة عن الحادث، أراد الحصول على معلومات، وسأل «جاك الكبير»، الذي كان رجلًا موثوقًا به وواسعَ الاطلاع وعلى دراية جيدة بكل جوانب الصناعة. أوضحَ لهال — بطريقته الهادئة البطيئة — أن وتيرة الحوادث في هذه المنطقة لم تكن بسبب أي مشكلة بعينها في تشغيل هذه المناجم، أو بسبب الانفجارات الناجمة عن الغازات، أو جفاف الجو. بل كانت لمجرد إهمالٍ من المسئولين وتجاهُل من جانبهم للقوانين الموضوعة لحماية العمَّال. لا بد من وجود قانون صارم ذي «أنياب» ... قانون ينصُّ، على سبيل المثال، على أن يحصل ورثةُ كل عامل يلقى حتفه في منجم للفحم على ألف دولار، بغض النظر عمَّن تسبَّب في الحادث. وهكذا سنلاحظ كيف سيهتم أصحابُ المناجم ويبحثون عن حلول للمخاطر «غير المعتادة»!

لقد عرفوا، في ظل الوضع الحالي، وبغض النظر عن حجم الذنب الواقع على عاتقهم، أنَّ في إمكانهم الإفلات من الأمر وتكبُّد خسائر طفيفة. ولا شكَّ أن محاميهم كانوا في موقع الحادث بالفعل، وبحلول الوقت الذي أُخرجَت فيه أُولى الجثث، كانوا يُسَوُّون أمورهم مع عائلات الضحايا. يعرضون على الأرامل العودة إلى أوطانهن، ويعطون عائلة كاملة من الأطفال الأيتام بعض المال، ربما خمسين دولارًا، وربما مائة دولار ... ولا خيارَ أمامهم سوى أخذِها أو تركها. لا يمكنك الحصول على شيء من المحاكم؛ فقد كانت القضية ميئوسًا منها إلى درجة أنه لم يكن في إمكانك أن تجد محاميًا لمحاولة تولي قضيتك. وقال «جاك الكبير» ساخِرًا إنَّ ذلك هو أحد الإصلاحات التي تُؤمن بها الشركات؛ إذ أرادوا إبعاد «المحامين المخادعين» عن العمل!

الفصل الثلاثون

أعقبَ ذلك ليلةٌ ثم يومٌ آخر من الترقُّب والانتظار المُعذِّب. أُحضِرَت المروحة، ولكن كان لا بد من تركيبها قبل فعل أي شيء. ونظرًا إلى استمرار تدفُّق الدخان الأسود الكثيف من البئر، غطَّوا فتحة الحفرة بإحكامٍ بالخشب والقماش؛ كان ذلك ضروريًّا كما قال الرؤساء، ولكنه بدا لهال ذروة الرعب. أن يُحبَس الرجال والفتيان هكذا في مكان مليء بالغازات القاتلة!

كان ثمة عذابٌ استثنائي يشعر به المرء عندما يتذكَّر وجود رجال محبوسين في المنجم؛ فقد كانوا تحت قدمَيه مباشرة، ولكنه من المستحيل الوصول إليهم، أو التواصُل معهم بأي شكلٍ من الأشكال! كان الناس في الأعلى يتوقون إليهم، وكانوا في الأسفل يتوقون إليهم أيضًا. لم يكن من السهل نسيانُهم ولو لبضع دقائق. أصبح الناس شاردي الذهن في أثناء حديثهم، ووقفوا يحدِّقون إلى الفراغ، وفجأة، في وسط الحشد، راحت امرأةٌ تدفن وجهَها بين يديها وأجهشت بالبكاء، ثم حذت الأخرياتُ جميعهن حذوَها.

قليلون هم مَن ذاقوا النومَ في نورث فالي في هاتَين الليلتَين. أقام الأهالي مراسم التعازي في منازلهم أو في الشوارع. وكان عليهم بالطبع القيام ببعض الأعمال المنزلية، لكن لم يترك أحدٌ شيئًا كان في إمكانه فِعله إلا وفَعَله. لم يكن الأطفال يلعبون، بل وقفوا صامتين شاحبين، كأنهم كبارٌ هرِمون، وقد أنضجتهم معرفة المتاعب قبل أوانهم. كانت أعصاب الجميع متوترة، وكانوا على شفا حفرة من فقدانهم لرباطة جأشهم.

كان الموقف بطبيعة الحال باعثًا على الكثير من الشائعات والقصص المُتخيَّلة، ووجدَ فيه أولئك الذين يميلون إلى قراءة العلامات والنُّذُر بُغيتَهم ... مثل عرَّافي الأشباح، أو مُحضِّري الأرواح، أو قارئي الطالِع، أو غيرها من الهبات الغامضة. كان هناك بعض مِمَّن

يعيشون في منطقة نائية في القرية قد أعلنوا أنهم سمعوا انفجاراتٍ تحت الأرض، عدة انفجارات في تتابُعٍ سريعٍ. كان الرجال تحت الأرض يفجِّرون الديناميتَ للإشارة إلى مكان وجودهم!

خلال اليوم الثاني، جلس هال مع ماري بيرك على دَرَج منزلها. كان العجوز باتريك يرقد في الداخل، بعدما عاد من حانة أوكالاهان وقد غيَّب الكحول ذهنه وأنساه واقع حاله. وكانا بين الحين والآخر يسمعان أنينَ السيدة زامبوني، التي كانت في كوخها مع أطفالها الصغار. وقد ذهبت ماري لإطعامهم؛ لأن الأم المشتَّتة تركتهم يتضوَّرون جوعًا ويبكون. كانت ماري منهَكة هي الأخرى؛ وقد شحبت بشرتُها الأيرلندية الجميلة، وذبلت شفتاها اللتان كانتا مُفعمَتين بالحيوية. كانا يجلسان في صمتٍ؛ لأنه لم يكن ثمة شيء يمكن الحديث عنه سوى الحادث ... وقد قالا كلَّ ما كان في الإمكان قوله. لكن هال كان يفكِّر بينما كان يشاهد ماري.

قال أخيرًا: «اسمعي يا ماري، عندما ينتهي هذا الأمر، يجب حقًّا أن ترحلي من هنا. لقد فكَّرتُ في كل شيءٍ ... لديَّ أصدقاء في ويسترن سيتي سيمنحونكِ عملًا، وبذلك يمكنك الاعتناء بنفسك، وبأخيك وأختك أيضًا. هل سترحلين؟»

لكنها لم تُجِبْ. وواصلت التحديقَ بلا مبالاة إلى الشارع الصغير المتسِخ.

تابع قائلًا: «صدِّقيني يا ماري. الحياة ليست فظيعة في كل مكان كما هي هنا. ارحلي بعيدًا! من الصعب أن تصدقي أنكِ ستنسَين كلَّ هذا. الناسُ يعانون، ولكن معاناتهم تنتهي بعد ذلك، هذا هو دأب الحياة ... أن تنسيهم.»

قالت: «لطالما كان دأبُ الحياة معي هو أنها تعذِّبني حتى الموت.»

«أجل يا ماري. قد يصبح اليأس مرضًا، لكن ذلك لم يحدث معكِ. أنتِ فقط متعَبة. إذا حاولتِ أن تنهضي ...» واقتربَ منها وأمسكَ بيدها محاوِلًا التصرُّف بطريقة مرحة. وقال: «ابتهجي يا ماري! ستُغادرين نورث فالي.»

التفتَت ونظرت إليه. وسألت بلا مبالاة: «هل سأُغادر حقًّا؟» وراحت تتفحَّص وجهَه. ثم سألته: «مَن أنت يا جو سميث؟ ماذا تفعل هنا؟»

ضحكَ، وهو لا يزال يحاول صرفَ انتباهِها، وقال: «أعمل في أحد مناجم الفحم.»

لكنها واصلتْ بجدية كما كانت من قبل. وقالت: «أنت لست عامِلًا، أعلم ذلك. ودائمًا ما تعرض عليَّ المساعدة! دائمًا ما تقول ما يمكنك فعله من أجلي!» توقَّفت برهة وظهر على وجهها بعضُ تحدِّيها القديم. ثم أردفت: «لا يمكن يا جو أن تتصوَّر المشاعر التي

تملَّكتني الآن. أنا على أُهْبة الاستعداد لفعل شيءٍ مُتهوِّر؛ من الأفضل أن تتركني وحدي يا جو!»

«أعتقد أنني أفهمُكِ يا ماري. لن ألومكِ على أي شيء فعلتِه.»

كانت تنتظر كلماته بفارغ الصبر. ومن ثَمَّ، قالت: «أحقًّا يا جو؟ هل أنت متأكِّد؟ إذن ما أريده هو أن أعرف الحقيقة منك. أريدك أن تتحدَّث عن الأمر بصدقٍ!»

«حسنًا يا ماري. أيُّ أمر؟»

لكن تحدِّيها اختفى فجأة. غضَّت عينَيها، ورآها تنقر بأصابعها بتوتر على ثنية فستانها. قالت: «أنا وأنت يا جو. تراءى لي أحيانًا أنك تهتم بي. تراءى لي أنك أحببتَ أن تكون معي ... ليس فقط لأنك تُشفِق عليَّ، بل لأجلي. لم أكن متأكدة، ولكني لا أستطيع منع نفسي من التفكير في الأمر على هذا النحو. أليس الأمر كذلك؟»

قال بشيءٍ من عدم اليقين: «بلى، إنه كذلك. أنا مهتم بكِ.»

«إذن ألا تهتم بتلك الفتاة الأخرى طوال الوقت؟»

قال: «لا، ليس الأمر كذلك.»

«أيمكنك أن تهتم بفتاتَين معًا في آنٍ واحد؟»

لم يكن يعرف ماذا يقول. لكنه أجابها: «يبدو أنه يمكنني ذلك يا ماري.»

رفعتْ عينَيها مرة أخرى، وتفحَّصت وجهَه. وقالت: «لقد أخبرتَني عن تلك الفتاة الأخرى، وكنت أتساءل عما إذا كنت قد قلتَ ذلك كي تُبْعِدَني عنك؟ ربما كان خطئي، لكني لم أكن أستطيع تصديق أمر تلك الفتاة الأخرى يا جو!»

أجاب بسرعة: «أنتِ مخطئة يا ماري. ما قلتُه لكِ حقيقي.»

قالت رغم غياب الاقتناع عن نبرة صوتها: «حسنًا، ربما هو كذلك، تبتعد عنها، ولا تذهب أبدًا إلى مكانها أو تراها ... من الصعب أن أصدِّق أنك كنت ستفعل ذلك لو كنت قريبًا جدًّا منها. لا أعتقد أنك تحبها بالقدر الكافي. كما أنك تقول إنك تهتم بي بعض الشيء. لذلك، فكَّرتُ ... تساءلتُ ...»

توقَّفت وأجبرتْ نفسها على النظر في مواجهته: «لقد حاولتُ فهمَ الأمر! أعلم أنك أفضل مني بكثيرٍ، يا جو. لقد أتيتَ من مكان أفضل في الحياة، ومن حقك أن تأمل في امرأة أفضل مني ...»

«الأمر ليس كذلك يا ماري!»

لكنها قاطعته. وقالت: «أعلم أن هذا صحيح! أنت فقط تحاول أن تحافظ على مشاعري. أعلم أنك أفضل مني! لقد حاولتُ جاهدة أن أُبقِي رأسي مرفوعًا كي لا أسمحَ لنفسي بالانهيار. حتى إنني حاولتُ أن أَبقى مبتهجة، وأخبرتُ نفسي أنني لا أريد أن أكون مثل السيدة زامبوني، الدائمة الشكوى. ولكن لا طائل من إخبار نفسك بالأكاذيب! لقد ذهبتُ إلى الكنيسة وسمعتُ القَسَّ سبراج يخبر الناس أنَّ الغني والفقير سواءٌ في عينَي الرب. وربما هذا صحيح، لكنني لست الرب، ولن أتظاهر أبدًا بأنني لا أخجلُ من العيش في مكان كهذا.»

شرع في الحديث قائلًا: «أنا متأكد من أن الرب لا يريدكِ أن تبقي هنا ...»

لكنها قاطعته قائلة: «ما يجعل تحمُّل الأمر صعبًا للغاية هو المعرفة بوجود العديد من الأشياء الرائعة في العالَم، ولا يمكنك الحصول عليها أبدًا! إنها كما لو أنَّ عليك رؤيتها من خلال لوحٍ زجاجي، كما هو الحال في واجهات المتاجر. فكِّر فقط، يا جو سميث ... ذات مرة، في كنيسة في شيريدان، سمعتُ سيدة تغني لحنًا جميلًا، مرة واحدة في حياتي كلها! هل تستطيع أن تتخيَّل ماذا يعنيه ذلك لي؟»

«نعم يا ماري، أستطيع.»

«لقد اكتشفتُ كلَّ ذلك بنفسي ... منذ سنوات. عرفتُ الثمن الذي يجب أن تدفعه الفتاة العاملة مقابل مثل هذه الأشياء، وقلتُ لنفسي إنني لن أسمحَ لنفسي بالتفكير فيها. لقد كرهتُ هذا المكان، وأردتُ الابتعادَ عنه ... ولكن ثمة طريقة واحدة فقط للرحيل، أن أدع رجلًا يصطحبني بعيدًا! ولذلك بقيتُ، والتزمتُ الطريقَ القويم، يا جو. أريدك أن تصدق ذلك.»

«بالطبع يا ماري!»

«لا! ليس ما أقصده أن تقول «بالطبع». ما أعنيه أنَّ عليك مكافحة الإغراءات. لقد نظرتُ كثيرًا إلى جيف كوتون، وفكَّرتُ في الأشياء التي أحتاج إليها! ولكني واصلتُ طريقي دونها! لكن ها هو الآن الشيء الذي تريده المرأة أكثر من كل الأشياء الأخرى في العالَم!»

توقفتْ، ولكن لحظة. ثم قالت: «يقولون إنَّ المرء حين يحبُّ، فعليه أن يحبَّ مَنْ ينتمي إلى طبقته الاجتماعية. لقد قالت لي والدتي العجوز ذلك قبل أن تموت. لكن ماذا إن لم يحدث ذلك؟ ماذا لو أنك توقَّفت قليلًا وفكَّرت فيما يعنيه ذلك، أن تنجب طفلًا تِلوَ الآخر، حتى تُنهَك وتموت ... مثل أمي العجوز؟ ماذا لو كنت تستطيع تمييز الأخلاق الحميدة عندما تراها ... تعرف الحديث الشيق عندما تسمعه!» شبَّكت يديها أمامها

فجأة، وهي تصرخ: «آه، أنت مختلفٌ يا جو ... مختلفٌ تمامًا عن أي شيء هنا! الطريقة التي تتحدَّث بها، الطريقة التي تتحرك بها، النظرة المرِحَة في عينَيك! لم يكن لدى أي عامِل منجم مثل هذه النظرة السعيدة يا جو؛ يكادُ قلبي يتوقَّف عندما تنظر إليَّ!» توقَّفتْ ملتقطة أنفاسها بحِدَّة، ورأى أنها كانت تحاول جاهدةً أن تكبح جماحَ نفسها. ثم صاحت بعد لحظة بتحدٍّ: «لكنهم سيقولون لي، كُوني حَذِرة، إياكِ أن تقعي في غرام هذا النوع من الرجال؛ لن تجني من وراء ذلك سوى انفطار فؤادك!»

سادَ الصمتُ. لم يكن لدى عالِم الاجتماع الهاوي حلٌّ لهذه المشكلة ... سواء للسؤال النظري، أو لتطبيقه العملي!

الفصل الحادي والثلاثون

أجبرتْ ماري نفسَها على المُضي قُدمًا. وقالت: «هكذا تدبَّرتُ الأمرَ يا جو! قلتُ لنفسي: «أنتِ تحبِّين هذا الرجل، ولا تريدين إلا حُبَّه! إذا كانت لديه مكانة في العالَم، فلن تكوني إلا عائقًا أمامه ... وأنتِ لا تريدين ذلك. لا تريدين اسمه، أو أصدقاءَه، أو أيًّا من تلك الأشياء ... أنتِ تريدينه هو!» هل سمعتَ من قبل عن شيء كهذا؟»

اشتعلتْ وجنتاها تورُّدًا، لكنها ظلَّت تنظرُ في عينَيه. وأجابَ بصوتٍ منخفض: «نعم، سمعت.»

«ما رأيك فيه إذن؟ أهو صادق؟ سيقول القَسُّ سبراج بلا شكٍّ إنه الشر بعينه، وسيُسميه الأبُ أوجورمان في بيدرو خطيئةً مُهلِكة، وربما يعرفون ... لكنني لا أعرف! كلُّ ما أعرفه هو أنني لم أَعُدْ أستطيعَ تحمُّل الأمر!»

ترقرقتِ الدموعُ في عينَيها، وصرختْ فجأة: «أوه، خُذني بعيدًا عن هنا! خُذني بعيدًا وأَعطني فرصة يا جو! لن أطلبَ شيئًا، لن أقفَ في طريقك أبدًا؛ سأخدمُك، سأطبخ وأغسل وأفعل كلَّ شيء من أجلك، سأبذل كلَّ طاقتي من أجلك! أو سأخرج وأعمل في وظيفة ما، وأشارك في المصاريف. وأَعِدُك ... إذا سئمتَ مني وأردتَ أن تتركني، فلن تسمع مني كلمة شكوى واحدة.»

لم تتعمَّد التأثير فيه حسيًّا؛ بل جلست تحدِّق إليه بنِيةٍ صافية وعينَين دامعَتين، وهذا ما صعَّبَ الرد عليه أكثر.

ماذا كان عساه أن يقول؟ شَعرَ بدافعٍ خطير قديم ... أن يأخذ الفتاة بين ذراعَيه ويطمِئنها. وعندما تحدَّث أخيرًا بذلَ جهدًا ليحافظ على هدوءِ صوته. وقال: «سأوافق يا ماري، إذا اعتقدتُ أنَّ الأمر سينجح.»

«سينجح! سينجح يا جو! يمكنك الانسحاب متى أردت. أعني ذلك جديًّا!»

«لا توجد امرأةٌ في هذا العالَم يمكنها أن تكون سعيدة بهذه الشروط يا ماري. فأيُّ امرأة تريد زوجها، تريده لنفسها، وتريده دائمًا؛ إنها لا تخدع إلا نفسها إذا صدَّقت في أي شيء آخر. أنتِ مُثقَلة بالأعباء الآن، ما رأيتِه في الأيام القليلة الماضية قد جعلكِ شديدة الانفعال والتوتر ...»

صاحت: «لا! ليس ذلك فحسب! بل كنتُ أفكِّر في الأمر لأسابيع.»

«أعرفُ. كنتِ تفكِّرين، لكنكِ ما كنتِ لتتحدَّثي لولا هذا الحادث المروِّع.» توقَّف لحظة، لاستعادة ثباته. ثم قال: «لن ينجح الأمرُ يا ماري. لقد رأيتُ آخرين يحاولون أكثر من مرة، على الرغم من أنني لست كبيرًا في السن. حاولَ أخي ذات مرة، ودمَّر نفسه.»

«آه، أنتَ خائفٌ من أن تثق بي يا جو!»

«لا، ليس الأمر كذلك؛ ما أَعنيه هو ... أنه دمَّر قلبَه، فقد كان أنانيًّا. أخذَ كلَّ شيء، ولم يُعطِ شيئًا. إنه أكبر مني بكثير، ومن ثَمَّ كان في إمكاني أن أرى تأثير ذلك فيه. إنه مُتبلِّد المشاعر، ولا يؤمن بشيء، ولا حتى بنفسه، عندما تتحدَّثين إليه حول إصلاح العالَم يَنعتُكِ بالحمقاء.»

قالت مُصِرَّة: «إنها طريقة أخرى للتعبير عن خوفك مني. أنت خائفٌ من أن تضطر إلى الزواج بي!»

«لكن يا ماري ... هناك الفتاة الأخرى. أنا حقًّا أُحبُّها، وقد قطعتُ لها وعدًا. ماذا يمكنني أن أفعل؟»

قالت بصوتٍ هامِس: «لم أصدق قطُّ أنك أحببتَها.» غضَّت بصرَها واستأنفت بتوتُّرٍ الإمساك بأطراف فستانها الأزرق الباهت، الذي كان مُلطَّخًا ببُقع الشحم، ربما من أثر مجهودِها مع أطفال زامبوني. اعتقدَ هال عدة مرات أنها ستتحدَّث، لكنها كانت تطبق شفتَيها مرة أخرى؛ كان يشاهدها بقلبٍ يعتصرُ ألَمًا.

عندما تحدَّثتْ أخيرًا، كان حديثُها لا يزال هَمْسًا، واعترت صوتَها مسحةُ ذُلٍّ لم يعهدها فيها من قبل. فقالت: «أظنك لن ترغب في التحدُّث إليَّ يا جو بعد ما قلتُه.»

صاحَ وأمسكَ بيدها: «أوه يا ماري! لا تقولي إنني زِدتُكِ تعاسة وشقاءً! أنا أريد مساعدتكِ! ألن تسمحي لي أن أكون صديقكِ ... صديقكِ الحقيقي المخلص؟ دعيني

أساعدكِ على الخروج من هذه المَهلَكَة؛ ستكون لديكِ الفرصة للنظر حولك واستكشاف العالَم، وستجدين سبيلكِ إلى السعادة ... العالَم كله سوف يبدو مختلفًا لكِ حينها، وسوف تضحكين على فكرة أنكِ أردتِ أن تكوني معي في يوم من الأيام!»

الفصل الثاني والثلاثون

عادَ الاثنان إلى حفرة المنجم. لقد مضى يومان على الحادث، ولم تكن المروحة قد بدأ تشغيلُها بعد، ولم تكن هناك إشارة على بدء تشغيلها. كان هلعُ النساء يزداد أكثر فأكثر، وانتشر التوتر بين الحشود. أحضرَ جيف كوتون قوةً من الرجال لمساعدته في حفظ النظام. وقد بَنوا سياجًا من السلك الشائك حول الحفرة ومداخلها، وخلف هذا السلك مشى مَدنيون صارمو المظهر ومعهم «هراوات» رجال الشرطة، وانتفاخ هياكل مسدساتهم ظاهرٌ بوضوحٍ أعلى سيقانهم.

خلال هذه الفترة الطويلة من الانتظار، أجرى هال محادثاتٍ مع أعضاء مجموعة مراقِب الأوزان الداعمة له. حكوا له ما حدث في أثناء حبسه، وذكَّره هذا بشيء كان قد نسيه في غمرة الانفجار. كان المسكينُ جون إدستروم في بيدرو، ربما في عَوز شديد. ذهبَ هال إلى كوخ السويدي العجوز في تلك الليلة، ودخله متسلِّقًا إحدى نوافذه، وأخرجَ الأموالَ المدفونة. كانت خمس ورقات نقدية من فئة الخمسة دولارات، وضعَها في مظروفٍ، وكتبَ العنوانَ على مكتب بريد بيدرو، وجعلَ ماري بيرك تأخذه إلى مكتب البريد لإرساله.

مرَّت الساعات بطيئةً، ولم تظهر أي إشارة بعد على فتح حفرة المنجم. بدأت تُعقَد تجمُّعاتٌ سِرية لعمَّال المناجم وزوجاتِهم للشكوى من تصرُّف الشركة وأسلوب إدارتها؛ وكان من الطبيعي أن تكون الصدارة في ذلك لأصدقاء هال الذين بدءوا حركة المطالبة بمراقِب الأوزان. كانوا من أكثر العُمَّال ذكاءً، ومن أحصفهم وأبعدهم نظرًا في مُجريات الأحداث. لم يفكِّروا فقط في الرجال المحاصَرين تحت الأرض، ولكن أيضًا في الآلاف غيرهم مِمنْ سيظلون محاصَرين لسنواتٍ قادمة. كان هال، على وجه الخصوص، يفكِّر في كيفية إنجاز شيء بعينه قبل مغادرته المعسكر؛ لأنه بالطبع سيضطر إلى المغادرة قريبًا … سيذكره جيف كوتون، ويُنفِذ تهديده للتخلص منه.

نشرت الصحفُ أخبار الحادث، وقرأها هال وأصدقاؤه. كان من الواضح أن الشركة كانت شديدة الحرص على كتابة الأخبار من وجهة نظرها الخاصة. كان موضوعُ حوادث المناجم في هذه الولاية يشغل اهتمامَ الرأي العام ويحظى بحساسية كبيرة. فقد لُوحِظَ ارتفاع معدَّل الوفيات الناجمة عن هذه الحوادث على نحوٍ مُطَّرِد؛ إذ أظهرت تقاريرُ مفتش المناجم التابِع للولاية أنَّ ستةً من بين كل ألف قد ماتوا في عامٍ واحدٍ، وما بين ثمانية وتسعة أشخاص في العام الذي يليه، وما بين واحد وعشرين شخصًا واثنين وعشرين شخصًا في العام الذي يليه. وعندما يلقَى خمسون رجلًا أو مائة رجل حتفهم في حادثٍ واحدٍ، وتستمر هذه الحوادث، حادثًا تلو الآخر، فهو أمرٌ لا يسعُ حتى الجمهور الأكثر فظاظة وقسوة إلا أن يتساءل أمامه. ومن ثَمَّ، كان حرص «الشركة العامة للوقود» الدائم على تقليل الخسائر في الأرواح، واختلاق الأعذار. ولم يُعزَ الحادثُ إلى إهمالٍ من جانب الشركة؛ فالمنجم يُرَشُّ بانتظامٍ، بالماء وغبار الطوب اللَّبِن، ومن ثَمَّ فلا بد أن سببَ الانفجار نابعٌ من إهمال الرجال وعدم توخِّيهم الحذر عند استخدام البارود.

دارَ نقاشٌ في كوخ جاك ديفيد ذات ليلة حول عدد الرجال المدفونين في المنجم. قدَّرت الشركةُ العددَ بأربعين، لكن مينيتي وأولسون وديفيد اتفقوا على أن هذا العدد غير منطقي. كان في إمكان أي شخصٍ تجوَّل بين الحشود أن يتأكَّد من وجود ضِعف هذا العدد أو ثلاثة أمثاله من المفقودين الذين لم يُذكَروا. وهذا التزوير كان مُتعمَّدًا؛ لأن الشركة كان لديها نظامُ فحصٍ، يمكنها من خلاله معرفة اسم كل عامِل في المنجم. غير أن معظم هذه الأسماء كانت أسماءً سلافية يتعذَّر نطقها، ولم يكن لأصحابها أصدقاءٌ يذكرونهم ... على الأقل ليس بأي لغة يفهمها مُحرِّرو الصحف الأمريكية.

كان ذلك كلُّه جزءًا من النظام، كما أعلنَ جاك ديفيد، الذي كان غرضُه ونتيجتُه هما تمكين الشركة من الاستمرار في قتل الرجال دون تعويض، سواء ماديًّا أو أدبيًّا. خطرَ ببال هال أنه سيكون من المفيد الاعتراض على هذه التصريحات الكاذبة ... بقدر ما هو مفيد إنقاذ الرجال الذين كانوا مدفونين في هذه اللحظة. كان كلُّ مَنْ يتقدَّم بالاعتراض على هذه التصريحات يُعرِّض نفسه بالطبع لإدراج اسمه في القائمة السوداء، ولكن هال اعتبر نفسه رجلًا محكومًا عليه بالفعل بتلك العقوبة.

تحدَّث توم أولسون. «ماذا ستفعل باعتراضك؟»

أجاب هال: «سأُدلي به إلى الصحافة.»

«ولكن ما الصحيفة التي ستنشر ذلك؟»

«هناك صحيفتان متنافستان في بيدرو، أليس كذلك؟»

«إحداهما يملكها ألف ريموند، زعيم الإمبراطورية، والأخرى يملكها فاجلمان، مستشار «الشركة العامة للوقود»، أيهما ستُجرِّب؟»

«حسنًا، هناك الصحف الخارجية … تلك الموجودة في ويسترن سيتي. يوجد صحفيون هنا الآن، ومن المؤكَّد أن أحدهم سيتولَّى القضية.» أجابَ أولسون، مُعلنًا أنهم لن يكون أمامهم سوى الصحف العُمَّالية والاشتراكية لنشر مثل هذه الأخبار. لكن، حتى في هذه الحالة، كان الأمر يستحق المحاولة. وقال جاك ديفيد، الذي كان ضليعًا في أمور الاتحادات النقابية وجميع أنشطتها: «ما يجب فعله الآن هو إجراء إحصاءٍ منتظم، كي نعرف تحديدًا عدد العُمَّال المحتجَزين داخل المنجم.»

أثارَ الاقتراحُ حماسَهم، واتفقوا على الشروع في تنفيذه في مساءِ ذلك اليوم. كان من الباعث على الارتياح أن يفعل المرء شيئًا، أن يشغل عقله بشيء خلاف اليأس. أبلغوا عزمهم إلى ماري بيرك، وإلى روفيتا، وكووفوسكي، وآخرين، وفي تمام الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي التقوا مجدَّدًا، وجمعوا قوائمهم معًا، وتبيَّن أن ما لا يقل عن مائة وسبعة من الرجال والفتيان قد باتَ معروفًا بما لا يدع مجالًا للشك أنهم محاصَرون في المنجم رقم ١.

الفصل الثالث والثلاثون

لكن تصادفَ أنَّ النقاشَ بشأن القائمة والسبيل إلى إعلانها للجميع قد قطعه أمرٌ أكثر إلحاحًا. جاءَ جاك ديفيد بأخبارٍ عن مشكلة جديدة في المنجم. كانت المروحة الجديدة يجري وضعها في مكانها، لكن العمل على ذلك كان بطيئًا، بطيئًا جدًّا إلى درجة أن بعض الناس قد اقتنعوا أن الشركة لم تكن تنوي تشغيل المروحة من الأساس، وإنما كانت تُبقِي المنجم مغلقًا للحيلولة دون انتشار الحريق. اتجهت مجموعة من هؤلاء الساخطين إلى السيد كارمايكل، نائب مفتش المناجم بالولاية، لحثِّه على أن يتخذ إجراءً حيال الأمر، وقد احتُجِز متزعِّم هؤلاء المحتجِّين، هوسار، النمساوي الذي كان أحد أفراد مجموعة هال التي تشكَّلت للمطالبة بمراقِب للأوزان، وقادوه مُسرِعين إلى بوابة الحظيرة!

قال جاك ديفيد أيضًا إنه يعرف نجَّارًا كان يعمل في غرفة التهوية، وقد قال إنه لم يكن هناك أي نوعٍ من العجلة في الأمر. وقد كان هذا رأي جميع العاملين في غرفة التهوية كذلك؛ لقد أُغلِقَ المنجم، وكان سيبقى مغلقًا حتى تتأكد الشركة من إخماد الحريق.

قال هال: «لكن، إذا فتحوه، فسوف تنتشر النيران، وعندئذٍ ألن يحُول ذلك دون مباشرة أعمال الإنقاذ؟»

قال «جاك الكبير»: «لا على الإطلاق.» وأوضحَ أنه كان في إمكانهم عند تشغيل المروحة سحب الدخان إلى أعلى عبر مجرى الهواء، الأمر الذي كان من شأنه تصفية الممرات الرئيسية وتفريغها لبعض الوقت. «ولكن، كما تعلم، قد تضطرم النيران في بعض قطع الفحم والأخشاب، وقد يحدث انهيار صخري، ومن ثَمَّ لن يتمكَّنوا من الوصول إلى بعض الغرف مرة أخرى.»

صاح هال في ذُعرٍ: «إلى متى سيُبقون المنجمَ مغلقًا؟»

«لا أحدَ يعلم. في منجم كبير كهذا، قد تظل النيران مشتعلة لمدة أسبوع.»

صاحت روزا مينيتي، وهي تعتصر يدَيها وقد باغتها الحزن فجأة: «سيموتون جميعًا!»

التفتَ هال إلى أولسون. وقال: «هل من الممكن أن يفعلوا شيئًا كهذا؟»

كان رَدُّ المنظِّم النقابي: «لقد فعلوه بالفعل ... أكثر من مرة.»

سألَ ديفيد: «ألم تسمع أبدًا عما حدث في قرية تشيري بولاية إلينوي؟ لقد فعلوا ذلك هناك، ولقي ما يزيد على ثلاثمائة شخص حتفَهم.» وواصلَ حديثَه راويًا تلك القصة المروِّعة، التي يعرفها كلُّ عامل في مناجم الفحم. فقد أغلقوا المنجم، وفقدت النساءُ وعيهن، ومزَّق الرجالُ ملابسهم في ذُعر ... وفقدَ بعضُهم عقلَه. وأبقوا المنجم مغلقًا لمدة أسبوعَين، وعندما فتحوه كان واحدٌ وعشرون رجلًا لا يزالون على قيد الحياة!

أضاف أولسون: «لقد فعلوا الشيء نفسه في بلدة دياموندفيل بولاية وايومنج. فقد بَنوا حاجزًا، وعندما أزالوا الحاجز، وجدوا كومة من جثث الرجال المتوفين، الذين زحفوا نحو الحاجز، وقطَّعوا أصابعَهم حتى العظام وهم يحاولون اختراقَه.»

صاح هال، وهبَّ واقفًا على قدمَيه: «يا إلهي! وهذا الرجل كارمايكل ... هل كان سيَسكت عن ذلك؟»

قال «جاك الكبير»: «سيخبرك أنهم يبذلون قصارى جهدهم. وربما يحسبهم كذلك بالفعل. لكنك سترى ... سيظل الأمر هكذا؛ سيؤجِّلون من يومٍ إلى آخر، ولن تعمل المروحة إلا بعد أن يصبحوا مستعدين.»

صاح هال: «يا إلهي، إنها جريمة قتل!»

قال توم أولسون بهدوء: «إنها تجارة.»

جالَ هال بناظرَيه بين وجوه العُمال، وتفقَّدهم من وجه إلى آخر. لم يكن من أحدٍ بينهم إلا ولديه أصدقاء في هذا الحصار، ولم يكن من أحدٍ بينهم إلا ومن المحتمل أن يقع في الحصار نفسه غدًا!

صاحَ، مخاطِبًا نفسه في جزءٍ من كلامه: «يجب أن تصمدوا!»

ردَّ ديفيد: «ألا ترى الحرَّاس عند فتحة المنجم؟ ألا ترى الأسلحة تُطِلُّ من جيوبهم؟»

قال جيري مينيتي: «لقد جلبوا المزيدَ من الحرَّاس هذا الصباح. رأتهم روزا وهم يترجَّلون من العربات.»

قالت روزا: «إنهم يعرفون ماذا يفعلون! كلُّ ما هنالك أنهم يخشون أن نكتشفَ الأمر! لقد أخبروا السيدة زامبوني أن تبتعدَ وإلا أخرجوها من المعسكر. والسيدة جونوتش العجوز ... زوجها وأبناؤها الثلاثة بالداخل!»

قالت السيدة ديفيد: «إنهم يتوحَّشون يومًا بعد يوم. ذلك الرجلُ الضخم الذي يَدعونه بيت، الذي أتى من بيدرو يعامل النساء بطريقة مُخزية!»

قال أولسون: «أنا أعرفُه، بيت هانون. لقد أرسلوه إلى شيريدان عندما افتتح الاتحادُ النقابي أول مقرٍّ له هناك. لقد هشَّم فَم أحد مُنظِّمينا النقابيين وكسرَ له أربع أسنان. يقولون إنه من أرباب السجون.»

كان هال طوال العام السابق يستمع في الكلية إلى محاضراتٍ في الاقتصاد السياسي مليئة بالثناء على «المِلكية الخاصة». حفَّزت هذه الملكية الخاصة روح المبادرة وطوَّرت الاقتصاد؛ فقد أبقت على دوران عجلات الصناعة، وحافظت على الرواتب الكبيرة لهيئات التدريس بالكليات الجامعية، وتكيَّفت مع قوانين العَرض والطلب المقدَّسة، فكانت أساسَ التقدُّم والازدهار اللذَين حُبِيَت بهما أمريكا. وهنا وجدَ هال نفسه فجأة وجهًا لوجه مع حقيقة الملكية الخاصة؛ رأى عينَيها المستَذئبتَين تُحدِّقان إلى عينَيه، وشعرَ بأنفاسها الساخنة في وجهه، ورأى أنيابَها اللامعة وأصابعَها المخلبية تقطر بدماء الرجال والنساء والأطفال. الملكية الخاصة لمناجم الفحم! الملكية الخاصة للمداخل المغلقة ومخارج الطوارئ المعدومة! الملكية الخاصة لمراوح التهوية التي لا تعمل، للرشَّاشات التي لا تُستخدَم. الملكية الخاصة للهراوات والمسدسات، والملكية الخاصة التي تُخوِّل لهم الاستعانة بالبلطجية وأرباب السجون، وطرد رجال الإنقاذ وحبس الأرامل المكلومات والأيتام البائسين في منازلهم! كم يصدح كهنة الملكية الخاصة الهانئون الممتلئو البطون في القاعات الأكاديمية بمديح ذلك الشيطان الدموي!

تسمَّر هال فجأة في مكانه. استيقظ فيه شيء ما، شيء لم يكن لديه أدنى فكرة عن وجوده. ظهرت على وجهه نظرة جديدة، واكتسبَ صوتُه عُمقًا مثل صوت رجلٍ قوي عندما قال: «سأجعلهم يفتحون ذلك المنجم!»

نظروا إليه. وكانوا جميعًا على حافة الجنون، لكنهم لاحظوا النبرة الغريبة في كلامه. «سأجعلهم يفتحون ذلك المنجم!»

سألَ أولسون: «كيف؟»

«لا يعرف عامَّة الناس شيئًا عن الحادث. إذا أُذِيعَ الخبر، فستحدث ضجة كبيرة، ولا يمكن للوضع أن يستمر!»

«ولكن كيف ستُذيعُ الخبر؟»

«سأُدلي به إلى الصحف! لا يمكنهم التكتُّم على شيء كهذا ... لا يُهمُّني مدى تحيُّزهم!»

سألت السيدة ديفيد: «ولكن هل تعتقد أنهم سيُصدِّقون ما يقوله لهم مُساعِد عامِل منجم؟»

قال هال: «سأجد طريقة لأجعلهم يُصدِّقونني. سأجعلهم يفتحون ذلك المنجم!»

الفصل الرابع والثلاثون

في أثناء تجوُّل هال في أرجاء المعسكر، رأى العديدَ من الشُّبَّان الذين تبدو عليهم الاستنارة يحملون دفاتر ملاحظاتٍ في أيديهم. وقد لاحظَ أن الشركة كانت تستضيف هؤلاء الشُّبَّان، الذين كانوا يتبادلون أطرافَ الحديث مع الرؤساء على نحوٍ وديٍّ، ولكنه اعتقد أنه قد يجد بينهم مَن لديه وازعٌ أو ضمير ... أو مَن لا يستسلم بأي ثمنٍ لإغراء «السَّبْق الصحفي». لذلك، تركَ الاجتماع في منزل ديفيد وزوجته، واتجه إلى فتحة المنجم، باحثًا عن أحد هؤلاء الصحفيين، وعندما وجدَه تبعَه بعض الوقت على أمل الوصول إلى مكان لا يزعجهما فيه أيٌّ من «جواسيس» الشركة. وفي أولِ فرصة، تقدَّم وطلبَ من الصحفي بأدبٍ أن يرافقه إلى شارع جانبي، حيث يمكنهما التحدُّث دون أن يزعجهما أحد.

استجابَ الصحفيُّ لطلبه، وكبح هال مشاعره حتى لا ينفر منه، وأعلمَه أنه يعمل في نورث فالي منذ عدة أشهر، وأنه في إمكانه أن يخبره الكثيرَ عن الأحوال في المعسكر. فهناك، على سبيل المثال، مسألة غبار الطوب اللَّبِن. فقد كان في الإمكان الحيلولة دون وقوع الانفجارات في المناجم الجافة عن طريق رشِّ الجدران بهذه المادة. هل سمعَ الصحفيُّ من قبل أن ادعاءَ الشركة باستخدامها لها كان محضَ كَذِب؟

كانت إجابة الصحفي بالنفي، فلم يكن قد سمعَ بهذا. وقد بدا مهتمًّا بالأمر، وسألَ عن اسم هال ووظيفته. فأخبره هال أن اسمه هو «جو سميث»، وأنه «مساعِد» اختاره العُمَّال مؤخرًا ليكون مراقِبًا للأوزان. طرحَ عليه الصحفي، الذي كان شابًّا نحيلًا حادَّ الملامح، الكثيرَ من الأسئلة ... أسئلة ذكية، وذكر على نحوٍ عابر أنه كان المراسِل المحلي لدى وكالة الأنباء الغربية الكبرى التي كانت أخبارها عن الحادث تجوبُ كلَّ ركن من أركان البلاد. بدا هذا لهال حظًّا فريدًا، وشرعَ في إخبار السيد جراهام بالإحصاء الذي أجراه

بعضُ العُمَّال؛ فقد استطاعوا حصر أسماءِ مائةٍ وسبعة من الرجال والفتيان المحاصَرين داخل المنجم. وأبلغه هال أن القائمة ستكون تحت تصرُّفه في حال كان مهتمًّا بالاطلاع عليها. بدا السيدُ جراهام أكثر اهتمامًا من أي لحظة مضت، ودوَّن الملاحظات في دفتره.

تابع هال قائلًا إنَّ هناك شيئًا آخر، أكثر أهمية، وهو مسألة التأخير في تشغيل المروحة. فقد مرَّت ثلاثة أيام منذ وقوع الانفجار، غير أنه لم تكن هناك أي محاولة لدخول المنجم. هل رأى السيدُ جراهام الضجَّة التي كانت حول فتحة المنجم في ذلك الصباح؟ هناك رجلٌ طُرِدَ من المعسكر لمجرد أنه قدَّم التماسًا إلى نائب مفتش المناجم بالولاية؟ أخبره هال بما صار اعتقادًا راسخًا لدى الكثيرين ... بأن الشركة كانت تحمي الممتلكات على حساب العُمَّال وأرواحهم. وواصلَ حديثَه مُشيرًا إلى الجانب الإنساني في الحادث ... تحدَّث عن السيدة رافيرتي العجوز، عن تدهور صحتها وأطفالها الثمانية، وعن السيدة زامبوني، التي لديها أحد عشر طفلًا، وعن السيدة جونوتش، التي حُوصِر زوجُها وأبناؤها الثلاثة في المنجم. بدأ هال بدافعٍ من اهتمام الصحفي يُظهِر بعضًا من مشاعره. إنهم بشرٌ، وليسوا حيوانات؛ يُحبُّون ويعانون، رغم أنهم فقراء ومتواضعو الحال!

قال السيد جراهام: «بكل تأكيدٍ!» أنت على حقٍّ، كن مطمئنًا وأؤكد لك أنني سأنظر في الأمر.»

قال هال: «هناك شيء آخر. إذا ذُكِرَ اسمي، فسوف يطردونني، كما تعلم.»

قال الآخر: «لن أذكره.»

«بالطبع، إذا لم يكن في استطاعتك نشر الخبر دون ذكر مصدره ...»

قال الصحفيُّ مُبتسِمًا: «أنا المصدر. لن يضيف ذكر اسمك شيئًا.»

تحدَّث بثقة وهدوء؛ وقد بدا أنه يدرك تمامًا حجمَ الموقف وواجبَه تجاهه، وهو ما أشعرَ هال بنشوة الانتصار. كان الأمرُ كما لو أن ريحًا قوية قد هَبَّت من العالَم الخارجي، مُبدِّدةً الضبابَ الذي خيَّم على أرجاء معسكر الفحم. أجل، كان هذا الصحفيُّ هو العالَم الخارجي! إنه يمثِّل قوةَ الرأي العام، التي أظهرت نفسها في معقل الخُبث والخوف هذا! إنه صوتُ الحقيقة، والشجاعة، والاستقامة لدى مؤسسة صحفية عظيمة، تمارس رسالتها باستقلالية بمنأًى عن التأثيرات السرية، مُترفِّعةً عن الفساد!

قال السيد جراهام في النهاية: «أنا مَدينٌ لك»، وهكذا اكتملَ شعورُ هال بالنصر. يا لها من فرصة استثنائية ... أن صادفَ مُمثِّلًا عن وكالة الأنباء الغربية الكبرى! سوف

تجوب الأخبار عالَم الصناعة الضخم، الذي كان اعتمادُه على الفحم كاعتمادِ الجسد على الدماء. حان الأوان أخيرًا للرجال في المصانع التي تدور آلاتها بالفحم ... للمسافرين على متن القطارات التي كانت تُسيَّر بالفحم ... حان الأوان لهم جميعًا أن يسمعوا أخيرًا عن معاناة الذين كدحوا في أحشاء الأرض من أجلهم! حتى السيدات، المتَّكئات على متن السفن البخارية الفاخرة في البحار الاستوائية التي تتلألأ مياهُها تحت أشعة الشمس ... لقد كانت قوة تأثير وكالات الأخبار الحديثة هائلة للغاية، حتى إنَّ هؤلاء السيدات ربما يسمعن أيضًا صرخات استغاثة هؤلاء الكادحين وزوجاتهم وأطفالهم! ومن هذا العالَم العظيم ستأتي الاستجابة، صرخة عامة من الرعب، من اللعنة، التي من شأنها أن تجبر الجميعَ، بمَن فيهم العجوز بيتر هاريجان، على الرضوخ! هكذا اعتقد هال ... لصِغر سنِّه، وحَداثة عهده في الكفاح.

لقد كان سعيدًا جدًّا إلى درجة أنه استعادَ قدرته على التفكير في أموره الخاصة، وعلى الانتباه إلى أنه لم يأكل شيئًا في ذلك اليوم. كان وقتُ الظهيرة قد حَلَّ، فاتَّجه إلى نُزُل «ريمينيتسكي»، وكاد ينتهي من نصف الطبق الأول من وليمة ريمينيتسكي المكوَّنة من طبقَين عندما باغتته الحقيقة المؤلِمة التي جعلته يستفيق من وهمه!

نظرَ إلى أعلى ورأى جيف كوتون يدخل غرفة الطعام، مُتوجِّهًا إليه مباشرة. امتلأت عينا قائد المعسكر بالشرر، ورأى هال ذلك، فنهضَ عَفويًّا.

قال كوتون: «تعالَ!» وأمسكَه من كُمِّ معطفه، وسار به خارجًا، قبل أن يتمكَّن بقية الحضور من التقاط أنفاسهم.

لم تكن الفرصة متاحة لهال الآن للتحلِّي بأيٍّ من «آداب حفلات الشاي» مع قائد المعسكر. في أثناء سيرهما، أعرب كوتون عن رأيه فيه؛ إذ وصفه بالظربان، والجرو، شخص مبغوض الأصل، وعندما حاول هال أن يطرح سؤالًا ... وهو ما فعله بحُسن نية تمامًا، غير مُدرِك لمعنى ما يحدث له أو للسبب وراءه ... أمره القائد بأن «يخرس» وشدَّد على الأمر بليِّه ياقة معطفه. في الوقت نفسه، أخذه اثنان من أعتى حُرَّاس المنجم كانا ينتظران عند باب غرفة الطعام، حيث أمسكَ كلٌّ منهما بذراعٍ من ذراعَي هال، واستحثَّاه على المضي قُدمًا.

ساروا في الشارع ومرُّوا بمكتب جيف كوتون، دون أن يتوقَّفوا عنده هذه المرة. كانت وجهتُهم هي محطة السكة الحديدية، وعندما وصل هال هناك رأى قطارًا واقفًا. سارَ به الرجالُ الثلاثة نحو القطار، ولم يطلقوا سراحه حتى ألقوا به في أحد المقاعد.

قال كوتون: «الآن أيها الشاب، سنرى مَنْ يُدير هذا المعسكر!»

بحلول هذا الوقت كان هال قد استعادَ جزءًا من رباطة جأشه. وسألَ: «هل أحتاجُ إلى تذكرة؟»

قال القائد: «سأتولَّى بالأمر.»

«وهل يمكنني الحصول على أغراضي؟»

أسكته القائد قائلًا: «احتفِظ ببعض الأسئلة لأساتذة كليتك.»

انتظر هال، وبعد دقيقة أو دقيقتَين وصلَ رجلٌ مُسرِعًا ومعه متعلقاته القليلة ملفوفة في حزمة ومربوطة بحبلٍ. لاحظ هال أن هذا الرجل كان ضخم البِنية قبيحًا، وكان قائد المعسكر يناديه باسم «بيت».

صاح سائق القطار: «ليركب الجميع!» وفي الوقت نفسه انحنى جيف كوتون نحو هال وهمَس إليه مُهدِّدًا: «اسمع نصيحتي أيها الشاب، لا تتوقَّف في بيدرو، وتابِع سيرَك على عجلٍ، وإلا فترقَّب ما سيحدث لك في إحدى الليالي المظلمة.»

وبعد ذلك، سار في الممر، وقفز من القطار في أثناء تحرُّكه. لكن هال لاحظَ أن بيت هانون، مُهشِّم الأسنان، بقيَ في العربة على بُعد بضعة مقاعد خلفَه.

الجزء الثالث

أتباع مملكة الفحم

الفصل الأول

كان هال يعتزم الذهابَ إلى ويسترن سيتي في أسرع وقتٍ ممكن لمقابلة محرِّري الصحف. ولكن كان عليه تدبير المال أولًا كي يتمكَّن من السفر، وكانت أفضل طريقة اهتدى إليها للحصول على ذلك المال هي العثور على جون إدستروم. غادر القطار وتبعه بيت هانون. وبعد بعض التقصي والاستفسار، التقَى بمتعهِّد دفن الموتى الذي دفنَ السيدة إدستروم، والذي أخبره بمكان إقامة السويدي العجوز، في منزل عامِلٍ قريب.

استقبلَه إدستروم بأسئلة مدفوعة بالحماس: مَن الذين لقوا حتفَهم؟ ماذا كان الوضع؟ روى هال في جملٍ مختصرة ما حدث. وعندما ذكر حاجته إلى المال، أجابه إدستروم بأن لديه القليل، وأنه سيُقرِضه إياه، لكنه لم يكن كافيًا لشراء تذكرة إلى ويسترن سيتي. سأل هال عن الخمسة والعشرين دولارًا التي أرسلتها ماري بيرك عبر البريد المسجَّل، غير أنَّ الرجل العجوز لم يكن قد سمعَ عنها شيئًا، فلم يكن قد ذهبَ إلى مكتب البريد. قال هال على الفور: «دعنا نذهب الآن!» ولكن في أثناء نزولهما إلى الطابق السفلي، خطرت بباله مشكلة أخرى. كان بيت هانون في الشارع بالخارج، ومن المرجَّح أنه قد سمعَ عن تلك الأموال من جيف كوتون؛ ومن ثَم فقد يقبض على إدستروم ويأخذ المال.

قال الرجل العجوز: «دعني أقترحُ شيئًا. تعالَ والتقِ بصديقي إد ماكيلار. ربما يمكنه أن يُسدي إلينا بعضَ النصائح … أو حتى يفكِّر معنا في طريقة لفتح المنجم.» أوضحَ إدستروم أنَّ ماكيلار، عجوز اسكتلندي، كان عامِل منجم في السابق، لكنه أصبح الآن مُقعَدًا ولديه بعضُ الأعمال الصغيرة التي يُباشرها في بيدرو. لقد كان معارِضًا عنيدًا لمنظومة «ألف» ريموند، وكادوا يقتلونه في إحدى المرات. لم يكن منزله بعيدًا، ولم تكن استشارته لتستغرق وقتًا طويلًا.

قال هال: «حسنًا»، وانطلقَا في الحال. تبعَهما بيت هانون، ولم يكن يبعد عنهما إلا اثنتَي عشرة ياردة، لكنه لم يعترضهما، ووصلَا إلى بوابة كوخٍ صغير. فتحت امرأةٌ البابَ، وطلبتْ منهم الدخول إلى غرفة الطعام؛ حيث كان يجلس ماكيلار ... رجلٌ عجوز ذو شعرٍ أشيب، مصاب بالروماتيزم، ومضطر إلى استخدام العكازات.

روى هال قصَّته. ولأنَّ الرجل الاسكتلندي نشأَ في المناجم، لم يستوجب الأمرُ الخوضَ في تفاصيل الوضع. عندما أخبره هال أنه يفكِّر في التوجُّه إلى الصحف، ردَّ الآخرُ على الفور، قائلًا: «لن تضطر إلى الذهاب إلى ويسترن سيتي. هناك رجلٌ سيؤدي تلك المهمة نيابة عنك، اسمه كِيتينج من صحيفة «جازيت».

صاح هال: «صحيفة «جازيت» في ويسترن سيتي؟» كان يعرف هذه الصحيفة؛ فقد كانت جريدة مسائية تُباع مقابل سِنت واحد، ويقرؤها العُمَّال. كان المثقفون يصفونها بأنها صحيفة «صفراء».

قال ماكيلار، مُعلِّقًا على نبرة هال: «أعرفُ. لكنها الصحيفة الوحيدة التي ستنشر قصتَك على أي حالٍ.»

«أين هذا المدعو كيتينج؟»

«إنه هناك في المنجم. من المؤسِف أنك لم تقابله.»

«هل يمكننا أن نجده الآن؟»

«ربما يكون في بيدرو. جرِّب أن تسألَ عنه في الفندق الأمريكي.»

توجَّه هال إلى الهاتف، وفي غضون دقيقة كان يستمع للمرة الأولى إلى الصوت المبتهِج لصديقه ونائبه المستقبلي «بيلي» كيتينج. وخلال بضع دقائق أخرى كان صاحبُ الصوت عند باب ماكيلار، يمسح العرقَ المتصبِّب على جبهته ورأسِه نصف الصلعاء. كان وجهُه مستديرًا كالبدر، ومبهجًا مثل شخصية فالستاف الهزلية، عندما تعرفه جيدًا تكتشف أنه مخلصٌ مثل كلب نيوفاوندلاند. على الرغم من بِنيته الضخمة، كان كيتينج صحفيًّا صبَّ كلَّ جهده «في العمل».

بدأ في استجواب عامِل المنجم الشاب بمجرد تقديمه إليه، وسرعان ما أصبح واضحًا لهال أنه كان الرجل الذي كان يبحث عنه. كان كيتينج يعرف بالضبط الأسئلة التي عليه أن يطرحها، وعرف القصة بأكملها في بضع دقائق. صاحَ: «يا إلهي! طبعتي الأخيرة!» وأخرج ساعة جيبه، وقفز إلى الهاتف. نادى قائلًا: «مكالمة خارجية، أريدُ محرِّر الأنباء المحلية لدى صحيفة «جازيت» في ويسترن سيتي. ومن فضلك، يُرجى إعلامي إذا لم يكن

في استطاعتك إيصالي به بسرعة. الأمرُ عاجل للغاية، اضطررتُ آخِر مرة إلى الانتظار لمدة نصف ساعة تقريبًا.»

عاد إلى هال، وشرعَ في طرح المزيد من الأسئلة، وفي الوقت نفسه سحبَ مجموعة من أوراق النَّسخ من جيبه، ودوَّن بعضَ الملاحظات. حصلَ على جميع تصريحات هال حول عدم رشِّ المناجم، وعدم وجود مخارج للطوارئ، والتأخُّر في تشغيل المروحة، والتقاعُس عن إخراج عدد من الرجال احتُجِزوا في المنجم. صاحَ: «كنت أعلم أن الأمور كان يشوبها الفسادُ هناك! لكنني لم أتمكَّن من الحصول على دليل! لقد أبقوا رجلًا معي يُلازمني كلَّ دقيقة. هل تعرف شخصًا يُدعَى بريدوفيتش؟»

قال هال: «أعرفُه. موظف متجر الشركة؛ لقد فتَّش جيوبي ذات مرة.»

ظهر الامتعاضُ على وجه كيتينج. وقال: «حسنًا، لقد كان المرافِق الذي لازمني هناك. تخيَّل أن تحاول استنطاقَ عُمَّال المناجم للبوح بما يحدث وذلك الجبان في عَقبيك! قلتُ للمشرِف: «لا أحتاجُ إلى أحدٍ لمرافقتي في المكان.» فنظر إليَّ بابتسامة صغيرة بغيضة. وقال: «نحن لا نريد أن يحدث لك أيُّ شيء في أثناء وجودك في المعسكر يا سيد كيتينج.» فقلتُ: «لكنك لا تهتم بضرورة حماية أرواح الصحفيين الآخرين.» قال: «لا، ولكن صحيفة «جازيت» لها أعداءٌ كثيرون، كما تعلم.» فقلتُ: «كفاكَ خداعًا يا سيد كارترايت. هل تريد أن تضعني تحت المراقبة بينما أباشرُ عملي الصحفي في هذه المهمة؟» أجابَ: «لتفهم الأمر هكذا، إذا كنت ترى أن هذا سيرضي قُرَّاء صحيفة «جازيت».»»

قال هال: «من المؤسف أننا لم نلتقِ! أو ليتَك حتى قد التقيتَ بأحد أعضاء مجموعتنا للمطالبة بمراقِب للأوزان!»

صاحَ الصحفيُّ: «أوه! هل تعرف أمرَ مراقِب الأوزان! لقد سمعتُ تلميحًا عنه ... ولذلك جئتُ إلى هنا اليوم. سمعتُ أن هناك رجلًا يُدعى إدستروم، طردوه لأنه يختلقُ المشكلات، وتصوَّرتُ أنني إذا تمكَّنتُ من العثور عليه، فقد أحصلُ على دليل.»

نظر هال وماكيلار إلى السويدي العجوز، وأخذَ الثلاثة يضحكون. قال ماكيلار: «ها هو الرجل الذي تبحث عنه!»

أضافَ إدستروم، مشيرًا إلى هال: «وها هو مراقِبُ الأوزان!»

عاد الصحفيُّ على الفور إلى عمله؛ وبدأ سلسلة أخرى من الأسئلة. كان يعتزم استخدامَ قصة مراقِب الأوزان هذه باعتبارها «متابعة تحقيقية» لليوم التالي لإبقاء موضوع نورث فالي حيًّا. كان للقصة علاقة مباشرة بالحادث؛ لأنها أظهرت ما كان رؤساءُ العمل في نورث

فالي يفعلونه في الوقت الذي كان يتعيَّن عليهم فيه الاهتمام بمعايير السلامة في منجمهم. قال كيتينج: «سأكتبُ عن الأمر بعد ظهر هذا اليوم وأرسل تحقيقي الصحفي بالبريد» وأضافَ مبتسِمًا: «تلك إحدى مزايا التعامُل مع الأخبار التي لا تتطرَّق إليها الصحفُ الأخرى ... ليس هناك ما يدعو إلى القلق بشأن فقدانِك «لسبقك الصحفي»».

الفصل الثاني

اتجه كيتينج إلى الهاتف مرة أخرى لإجراء «مكالمة خارجية»، تمتم بشيء عن طبعته الأخيرة، وعادَ ليطرح المزيد من الأسئلة حول تجربة هال وما تجشَّمه خلالها. وسرعان ما سمعَ قصة أول محاولة لخوض هذا الشاب للعبة الدعاية؛ فرجعَ بظهره إلى الوراء وغاصَ في كرسيه، وضحكَ حتى اهتز جسدُه كله، «مثل وعاءٍ من حلوى الهلام» كما تصفُ أنشودة الروضة.

صاحَ: «جراهام! تخيَّل يا ماكيلار، لقد روى هذه القصة لجراهام!»

بدا أن الاسكتلندي قد وجدَ الأمرَ مضحِكًا بالقدر نفسه؛ وأوضحَا معًا أن جراهام كان الصحفي السياسي لدى صحيفة «إيجيل»، وهي صحيفة في بيدرو مملوكة لزعيم الإمبراطورية. البعضُ يسمُّونه وضيعَ صحافة ألف ريموند؛ إذ لم يكن يترفَّع عن القيام بأي عمل مهما كان وضيعًا.

صاح هال، «ولكنه أخبرني أنه مراسِلٌ لدى وكالة الأنباء الغربية!»

أجابَ بيلي: «إنه كذلك أيضًا.»

«ولكن هل تُوظِّف وكالةُ الأنباء جواسيسَ لصالح «الشركة العامة للوقود»؟»

أجابَ الصحفيُّ بطريقة جافة: «عندما تفهم لعبة الصحافة على نحوٍ أفضل، ستدرك أنَّ كلَّ ما تكترث به وكالةُ الأنباء في المراسِل هو ضرورة احترامه للملكية. إذا كان احترامُ الملكية هو الأساس عنده، فسوف يتمكَّن من معرفة ماهية الأخبار، والطريقة الصحيحة للتعامُل معها.»

حوَّل كيتينج حديثَه إلى الاسكتلندي. فسألَه: «ألديكَ آلةٌ كاتِبة في المنزل يا سيد ماكيلار؟»

قال الآخر: «لديَّ واحدة قديمة ... عرجاء مثلي.»

«سأتدبَّرُ أمري بها. أودُّ أن أدعو هذا الشاب إلى الفندق الذي أقيم فيه، لكني أعتقد أنَّ من الأفضل أن يبقى بعيدًا عن الشارع قدر الإمكان.»

«أنت مُحق. إذا أردتَ نصيحتي، فلتأخذ الآلة الكاتبة في الطابق العلوي، حيث لا توجد فرصة لتلقي رصاصة عبر النافذة.»

صاح هال: «يا إلهي! أهذه أمريكا، أم إيطاليا في العصور الوسطى؟»

أجابَ ماكيلار: «إنها إمبراطورية ريموند. لقد أطلقوا النار على صديقي توم بيرتون بينما كان واقفًا على دَرج منزله. كان يعارِض النظام، وكان لديه أدلة كان سيقدِّمها إلى هيئة المحلَّفين الكبرى حول عمليات تزوير الاقتراع.»

بينما كان كيتينج منشغلًا بأمر «المكالمة الخارجية»، واصلَ الاسكتلندي العجوز محاولته لإقناع هال بخطورة موقفه. فقد تعرَّض مؤخرًا أحد المنظِّمين النقابيين لدى اتحاد عُمَّال المناجم للضرب في وَضح النهار، وتُرِكَ فاقدًا للوعي على الرصيف، وقد شاهدَ ماكيلار المحاكمة وتبرئة المعتدِيين اللذَين ارتكبا هذه الجريمة ... ذلك لكون رئيس هيئة المحلَّفين صاحِب إحدى الحانات، وأحد أتباع ريموند، ولكون أعضاء هيئة المحلَّفين الآخرين مكسيكيين، لا يمكنهم أن يفهموا كلمة من إجراءات المحكمة.

علَّق هال، وهو يحاول الابتسام في محاولة واهنة: «إنها تمامًا هيئة المحلَّفين التي توعَّدني بها جيف كوتون!»

أجابَ الآخر: «نعم، ولا يُخطِئون مطلقًا في ذلك؛ إذا أرادوا إبعادَك، ففي إمكانهم فعل ذلك. إنهم يتحكَّمون في زمام الأمور بأكملها هنا. أعرفُ كيف تُدار الأمور؛ لأنني كنت أنا نفسي أشغل منصبًا سياسيًّا، حتى اكتشفوا أنهم لا سبيل أمامهم إلى استمالتي واستغلالي لصالحهم.»

تابع العجوز الاسكتلندي موضِّحًا أنه قد انتُخِبَ قاضي صُلح، وحاولَ أن يضع حدًّا للإتاوات التي كان رجال الشرطة يأخذونها من نساء البلدة؛ وقد أُجبِرَ على الاستقالة، وأحالَ أعداؤه حياتَه جحيمًا. وقد كان مرشَّحًا في الآونة الأخيرة لمنصب قاضي المقاطعة عن القائمة التقدُّمية، وتحدَّثَ عن جهوده ومَساعيه في إجراء حملة انتخابية في معسكرات الفحم ... كيف صادروا منشوراته، ومزَّقوا ملصقاته الدعائية، وكيف مَثل أنصارُه أمام المحاكمات «الصُّورية». كان الأمرُ تمامًا مثلما أوضحَه أليك ستون، رئيس العُمَّال، إلى هال. ذلك أنَّ قاعات الاجتماعات في بعض المعسكرات تكون مملوكة للشركة، وفي معسكرات أخرى تكون مملوكة لأصحاب الحانات الذين لهم الحظوة بفضل علاقتهم بألف ريموند.

وفي الأماكن القليلة التي توجد فيها قاعاتٌ يمكن استئجارُها، كان النظام يُغالي في تقديم وسائل ترفيه منافِسة للتعتيم على أنشطة الاجتماعات والحملات، فكان يقيم حفلاتٍ موسيقية مجانية ويقدِّم الجِعة مجانًا لإبعاد الحشودِ عن ماكيلار.

طوال هذا الوقت كان بيلي كيتينج يواصل عبارات الغضب والتوبيخ عبر الهاتف انتظارًا «للمكالمة الخارجية». وتمكَّن أخيرًا من تلقي مكالمته، وسادَ الصمتُ في الغرفة. قال: «مرحبًا يا برينجل، أهذا أنت؟ معك كيتينج. حصلتُ على سَبْقٍ صحفي كبير عن حادث نورث فالي. هل صدرت الطبعة الأخيرة بعد؟ أوصِلني بجيم. مرحبًا جيم! هل دفترُك معك؟» ثم شرعَ بيلي، الذي كان من الواضح أنه يتحدَّث إلى كاتب مختزِل، في سرد القصة التي حصلَ عليها من هال. وكان يتوقَّف بين الحين والآخر لتكرار كلمةٍ أو تهجِّي أخرى، وقد صحَّح له هال بعضَ التفاصيل مرة أو مرتَين. هكذا، وفي غضون ربع ساعة، كانوا قد أنهوا المهمة، وتوجَّه كيتينج بالحديث إلى هال.

قال: «ها أنت ذا يا بُني. ستَجوبُ قصتُك شوارعَ ويسترن سيتي في غضون ساعة أو أكثر قليلًا، وستصلنا الأخبار في أقرب وقتٍ عندما يتمكَّنون من الاتصال بنا. واسمع نصيحتي، إذا أردتَ أن تنجو بنفسك، فلتحرص على الخروج من بيدرو وقتما يحدثُ ذلك!»

الفصل الثالث

عندما تحدَّث هال، لم يرد على ملاحظة بيلي كيتينج الأخيرة. لقد كان يستمع إلى إعادة رواية حادث نورث فالي عبر الهاتف؛ ومن ثَم لم يكن يفكِّر في سلامته، بل فيما يقارب مائة وسبعة من الرجال والفتيان المحاصَرين داخل المنجم.

قال: «سيد كيتينج، هل أنت واثقٌ بأن صحيفة «جازيت» ستنشر هذا الخبر؟»

صاحَ الآخرُ: «يا إلهي! ولمَ أنا هنا؟»

«حسنًا، لقد خابَ أملي من قبل، كما تعلم.»

«أجل، ولكنك دخلتَ المعسكرَ الخطأ. صحيفتُنا هي صحيفةٌ للفقراء، وهذا ما نتكسَّب منه قوتَ يومنا.»

«أليس ثمة احتمال أن يجري «التخفيف من حِدَّة الأمر»؟»

«ولا قيد أنملة، أؤكد لك.»

«أليس هناك احتمال أن يَحظُر بيتر هاريجان نشر الخبر؟»

«لقد استنفدَ بيتر هاريجان محاولاته للسيطرة على الصحيفة منذ فترة طويلة يا بُني.»

قال هال: «حسنًا، أخبرني الآن ... هل سينجح الأمر؟»

«ماذا تعني؟»

«أعني ... أن يجعلهم يفتحون المنجم.»

فكَّر كيتينج للحظة. وقال: «أخشى أنه لن يُحدِث فَرقًا كبيرًا.»

نظر إليه هال في ذهول. فقد اعتبر أنه من المفروغ منه أن النشر سيُجبِر الشركة على التحرك. لكن كيتينج أوضحَ أنَّ مَن يقرءون صحيفته في الأساس هم العُمَّال، ومن ثَمَّ فلم

يكن لها إلا تأثير ضئيل نسبيًّا. قال: «نحن صحيفة مسائية، وعندما يقرأ الناسُ الأكاذيبَ طوال الصباح، فليس من السهل أن تجعلهم يصدِّقون الحقيقة بعد الظهيرة.»

«ولكن ألن ينتقل الخبرُ إلى صحفٍ أخرى ... أعني في أنحاء البلاد؟»

«نعم، لدينا خدمة صحفية؛ ولكن الصحف كلها مثل صحيفة «جازيت» ... صحف للفقراء. عندما يحدث أمرٌ جللٌ، ونُثير ضجةً حوله فترة طويلة، فإننا نجذب الانتباه، ونستطيع على الأقل أن نقلِّل من عدد الأخبار التي يمكن لوكالة الأنباء الغربية قمعَها. ولكن عندما يتعلق الأمر بمسألة صغيرة مثل بعض العمَّال المحاصَرين في المنجم، فكلُّ ما يمكننا فعله هو إثارة قلق «الشركة العامَّة للوقود» بعضَ الشيء.»

هكذا عاد هال من حيث بدأ. وصاح: «يجب أن أجد خطة أخرى.»

أجاب الآخر: «لا أرى حلًّا بديلًا يمكنك فعله.»

صمتا قليلًا فيما كان عامل المنجم الشاب يفكِّر. وقال بشيء من عدم اليقين: «لقد فكَّرتُ في السفر إلى ويسترن سيتي ومناشدة المحرِّرين الصحفيين.»

«حسنًا، فلتسمع مني ... من الأفضل أن توفِّر أجرة سفرك. لن يقرَبوا روايتك.»

«وماذا إذا ذهبتُ إلى الحاكِم؟»

«أولًا، ربما لا يسمح لك بمقابلته. وإنْ سمحَ، فلن يفعل شيئًا. إنه ليس الحاكِم الفعلي، كما تعلم؛ إنه مجرد دُمية وُضِعَتْ في ذلك المنصب لخداعك. إنه لا يتحرك إلا عندما يسحب هاريجان خيوطه.»

قال هال: «بالطبع كنت أعلم أنه أحدُ رجال ذلك العجوز. ولكن إذن ...» واختتم كلامه بصوتٍ واهن بعضَ الشيء: «ماذا عساني أن أفعل؟»

ظهرت ابتسامةُ شفقةٍ على وجه الصحفي. وقال: «ألاحظتَ أن هذه هي المرة الأولى التي تتصدَّى فيها لـ «أصحاب الشركات الكبرى». ثم أضافَ: «أنت صغيرُ السن! عندما تكتسب مزيدًا من الخبرة، سوف تترك هذه المشكلات لأصحاب العقول الأكبر سِنًّا!» لكن هال لم يفهم مَقصِد الصحفي. لقد سمَع هذه الكلمات نفسها بمثل هذه الجدية الشديدة من أخيه! وعلاوة على ذلك، فقد شاهدَ لتوِّه الفظائع على أرض الواقع.

صاحَ: «ولكن ألا ترى يا سيد كيتينج؟ يستحيلُ أن أجلسَ مكتوفَ اليدَين بينما يموت هؤلاءِ الرجال؟»

قال الآخر: «لا أعرفُ ما تعنيه بجلوسك مكتوفَ اليدَين. كلُّ ما أعرفه هو أن كلَّ تحركاتك لن تفيدهم في شيء.»

التفتَ هال إلى إدستروم وماكيلار. وقال: «أيها السادة، استمعوا إليَّ دقيقة.» وكانت ثمة نغمة توسُّل في صوته ... كما لو كان يحسبهم يرفضون مساعدته عمدًا! «علينا أن نفعل شيئًا حيال هذا. علينا أن نفعل شيئًا! أنا حديثُ عهدٍ بالأمر، كما يقول السيدُ كيتينج، لكنكم لستم كذلك. فكِّروا في الأمر أيها السادة، وساعدوني في وضع خطة!»

ساد بعد ذلك صمتٌ طويل. ثم قال إدستروم أخيرًا: «الله وحده يعلم. لو كان في إمكاني أن أقترح شيئًا لفعلت.»

قال ماكيلار: «وأنا أيضًا. أنت تقف في طريقٍ مسدودٍ يا بُني. الحكومة هنا مجرد إدارة تابعة لـ «الشركة العامَّة للوقود»، والمسئولون محتالون ... خَدَمٌ وأتباع للشركة، جميعُهم كذلك.»

قال هال: «لحظة واحدة إذن. دعونا نفكِّر. ماذا لو كانت لدينا حكومة حقيقية ... ما الخطوات التي سنتخذُها؟ كنا سنقدم قضية كهذه إلى المدعي العام في المقاطعة، أليس كذلك؟»

قال ماكيلار: «بلى، لا شكَّ في ذلك.»

قال هال: «لقد ذكرتموه من قبل. قلتُم إنه هدَّد بمحاكمة بعض مشرفي المناجم بتهمة تزوير الاقتراع.»

قال ماكيلار: «كان ذلك في أثناء ترشُّحه للانتخابات.»

«أوه! أتذكَّرُ ما قاله جيف كوتون ... إنه كان يخطب ودَّ عُمَّال المناجم في خطاباته، ويخطب ودَّ الشركات في أفعاله.»

قال الآخر بفُتور: «هكذا هو بالفعل.»

قال هال: «حسنًا، ألا يجدُر بي الذهاب إليه، ولو على سبيل المحاولة على الأقل؟ مَن يدري، فلربما يتعاطف مع الأمر.»

ردَّ ماكيلار: «الأمرُ لا يحتاج إلى تعاطُف، بل إلى جرأة ودعم.»

«ولكن يجب بالتأكيد أن أطرح الأمر عليه! على الأقل إذا لم يفعل شيئًا، فسأُسجِّل ردَّ فعله، وسيكون هذا خبرًا آخر بين يديك، أليس كذلك يا سيد كيتينج؟»

أقرَّ الصحفيُّ قائلًا: «بلى، هذا صحيح. ماذا ستطلب منه؟»

«عجبًا، سأطلب منه أن يعرض الأمر على هيئة المحلَّفين الكبرى؛ أن يوجِّه الاتهامات إلى رؤساء العمل في نورث فالي.»

«لكن سيستغرق الأمرُ وقتًا طويلًا؛ ومن ثَمَّ لن يُنقذ ذلك الرجال المحاصَرين في المنجم.»

قال ماكيلار: «ما قد ينقذهم هو التهديد بفعل ذلك. لا أعتقد أن أيَّ تهديد توجِّهُه إلى ديك باركر سيكون ذا أهمية كبيرة. فالرؤساء يعلمون أنَّ في إمكانهم منعه من أن يفعل شيئًا.»

«حسنًا، ألا من جهة أخرى أقصدُها؟ ألا أجرِّب الذهابَ إلى المحاكم؟»

«أي محاكم؟»

«لا أعرف. أخبروني أنتم.»

قال الاسكتلندي: «حسنًا، لنبدأ بالأقل شأنًا، هناك قاضي الصلح.»

«مَن هو؟»

«جيم أندرسون، طبيب خيول. إنه مثل أي قاضي صلح آخر عرفتَه على الإطلاق … إنه يعيش على الرِّشا الصغيرة.»

«هل توجد محكمة عُليا؟»

«نعم، محكمة المقاطعة، ويرأسها القاضي دينتون. إنه الشريك القانوني لفاجلمان، مستشار «الشركة العامة للوقود»، فإلى أي مدى تتوقَّع أن يتفق معك؟»

قال هال: «أفترضُ أنني أتمسَّكُ بآخِر خيط للأمل. لكنهم يقولون إنَّ هذا هو حال الغريق، أن يتمسَّك بقَشة. على أي حال، سأذهبُ لمقابلة هؤلاء الأشخاص، وربما أجد بينهم مَن يفعل شيئًا. لن يضرَّ ذلك في شيء!»

فكَّر الرجالُ الثلاثة في بعض الضرر الذي قد يُحدثه ذلك؛ وحاولوا حَثَّ هال على التفكير في خطر التعرُّض للضرب أو إطلاق النار. صاحَ ماكيلار: «سينالون منك! وليس لديهم مشكلة في ذلك … سيُثبِتون أنك تعرَّضت للطعن على يد أحد الإيطاليين السُّكارى، في شجارٍ على امرأة.»

لكن هال كان قد عقد عزمَه، ورأى أنه يستطيع إنجاز هذه المهمة قبل أن يتَّسع لأعدائه الوقت لوضع أي خططٍ. كما لم يكن ليسمح لأي من أصدقائه بمرافقته؛ فقد كان لديه شيءٌ أهم لكلٍّ من إدستروم وكيتينج ليفعلاه … وأما عن ماكيلار، فلا يمكنه التحرك بسرعة كافية. طلبَ هال من إدستروم الذهابَ إلى مكتب البريد والحصول على الخطاب المسجَّل، ثم الشروع فورًا في تغيير الأوراق النقدية. كانت خطتُه هي استصدار إفاداتٍ خَطيَّة، وفي حال لم يتصرَّف المسئولون هنا، سيأخذ هذه الإفادات إلى الحاكم. وكان في حاجة إلى المال للقيام بذلك. واقترحَ أنَّه في هذه الأثناء سيكون بيلي كيتينج بصدد كتابة تقريره الصحفي عن مراقِب الأوزان، على أن يقابله في غضون ساعتَين في الفندق الأمريكي للحصول على نسخٍ من الإفادات لصحيفة «جازيت».

كان هال لا يزال يرتدي ملابس عامِل المنجم التي كان يرتديها ليلة القبض عليه في كوخ إدستروم. لكنه رفضَ عرضَ ماكيلار لإعارته بذلة من عنده؛ إذ كان يعلم أن ملابس الاسكتلندي العجوز لم تكن لتُناسبه، ومن ثَم ربما يكون من الأفضل أن يتقدَّم بمطالبه في هيئة عامِل منجم حقيقي، وليس في هيئة رجل نبيل في غير محلِّها.

بعد تسوية هذه الأمور، خرج هال إلى الشارع، حيث كان بيت هانون، مُهشِّم الأسنان، يلاحقه. انطلقَ عامِلُ المنجم الشاب راكضًا في الحال، وحذا الآخر حذوَه، وهكذا انطلقَ الاثنان مسرعَين في الشارع، ما أثار دهشة الناس في الطريق. ولأنَّ هال كان يمارس رياضة العَدو، فلا شكَّ أن بيت كان سعيدًا أن مكتب المدعي العام للمقاطعة ليس بعيدًا!

الفصل الرابع

قال الموظف في المكتب الخارجي إنَّ السيد ريتشارد باركر مشغول، الأمر الذي لم ينزعج له هال؛ فقد منحه ذلك فرصة لالتقاط أنفاسه. وعندما رأى الموظفُ شابًّا يلهث بشدة وقد احتقن وجهُه بالدم، حدَّق إليه بفضولٍ، لكن هال لم يُطلِعه على السبب، ووقفَ مُهشِّمُ الأسنان ينتظره بالخارج في الشارع.

استقبل السيد باركر ضيفَه بعد دقيقتَين. كان رجلًا بدينًا ذا عنق مكتنز وذقن ضخم، كان قد حلقَه لتوِّه وفركه ببودرة التلك. كانت ثيابُه أنيقة، وكان قميصه نظيفًا، مما يعطي انطباعًا للمرء بأنه شخص «يعتني بنفسه جيدًا». وكانت هناك أوراق على مكتبه، وبدا مشغولًا.

قال وهو يُلقي نظرة سريعة على عامِل المنجم الشاب: «حسنًا، ما الأمر؟»

«على حَدِّ علمي، فأنا أتحدَّث إلى المدعي العام لمقاطعة بيدرو، أليس كذلك؟»

«هذا صحيح.»

«هل لديك أي فكرة يا سيد باركر عن مُلابَسات الحادث الذي وقعَ في نورث فالي؟»

قال السيدُ باركر: «كلَّا. لماذا؟»

«لقد أتيتُ للتوِّ من نورث فالي، ويمكنني أن أُمِدَّك بمعلوماتٍ ربما تُهمُّك معرفتُها. هناك مائة وسبعة من الرجال والفتيان مدفونون داخل المنجم، وقد أغلقَ مسئولو الشركة المنجم عليهم، مُضَحِّين بذلك بتلك الأرواح.»

وضعَ الآخرُ المراسلاتَ التي كان مشغولًا بها جانبًا، وتفحَّص ضيفَه ناظِرًا إليه من أسفل جفنَين ثقيلَين. وسأله قائلًا: «كيف عرفتَ ذلك؟»

«لقد غادرتُ المكان لتوِّي قبل ساعاتٍ قليلة. جميع العُمَّال في المعسكر يعرفون تلك المعلومات.»

«هل تتحدَّث عما سمعتَه؟»

«بل أتحدَّثُ عما رأيتُه بنفسي. لقد شهِدتُ الحادثَ، رأيتُ فتحة المنجم تُغلَق وتُغطَّى بالقماش. أعرفُ رجلًا طُرِدَ من المعسكر هذا الصباح لأنه اشتكى من التأخير في بدء تشغيل مروحة التهوية. لقد مرَّت ثلاثةُ أيام على الانفجار، ولم يُتخَذ أيُّ إجراءٍ حتى الآن.»

شرعَ السيد باركر في طرح مجموعة من الأسئلة، بالطريقة الحادة المتشكِّكة المعتادة لمسئولي النيابة. لكن هال لم يمانع تلك الطريقة، فقد كان من حق الرجل أن يتأكَّد من الأمر.

ثم سأله على الفور كيف يمكنه إثبات تصريحاته.

كان الردُّ: «سيستلزم الأمرُ أن تذهبَ إلى هناك.»

«تقول إن العُمَّال هناك على علمٍ بهذه الحقائق. أعطني أسماءَ بعضهم.»

«ليست لديَّ السلطة للإدلاء بأسمائهم يا سيد باركر.»

«أيُّ سلطة تحتاج إليها؟ سيُخبرونني بأسمائهم، أليس كذلك؟»

«قد يخبرونك، وقد لا يخبرونك. لقد فقدَ رجلٌ وظيفته بالفعل، ليس جميع الرجال على استعدادٍ لخسارة وظائفهم.»

«أتتوقَّع مني أن أذهبَ إلى هناك لمجرد شائعاتٍ من القيل والقال تُخبرني بها؟»

«أنا أُقدِّم لك أكثر من مجرد شائعاتٍ وأقاويل. أقدِّم لك إفادة وشهادة.»

«ولكن ما الذي أعرفُه عنك؟»

«تعرفُ أنني أعملُ في نورث فالي ... أو يمكنك التأكُّد من ذلك عبر الهاتف. اسمي جو سميث، وأعمل مُساعِدًا في المنجم رقم ٢.»

لكن السيد باركر قال إن ذلك ليس كافيًا، وإن وقته ثمينٌ، وإنه يتعيَّن قبل ذهابه إلى نورث فالي أن يحصل على أسماء شهود الإثبات فيما أدلى به من أقوالٍ.

صاح هال: «أقدِّم لك إفادة! وأقولُ إنني على علمٍ بأن هناك جريمة تُرتكَب ... إن حياة مائة وسبعة من الرجال يُضحَّى بها. ألا تعتبر ذلك سببًا كافيًا حتى لإجراء تحقيق؟»

أجابَ المدعي العام مرة أخرى بأنه يرغب في القيام بواجبه، ويرغب في حماية حقوق العُمَّال، لكن ليس في وُسعه أن يقوم بـ «مطاردة عقيمة» لا طائل منها، يجب أن يعرف أسماءَ الشهود. ووجد هال نفسه يتساءل. هل يبحث الرجلُ فقط عن ذريعة كي لا يفعل شيئًا؟ أم إنه من الممكن أن يَبلُغ الأمرُ بمسئول حكومي أن يساعد الشركة في معرفة أسماءِ «مثيري الشغب»؟

على الرغم من عدم ثقته، صمَّم هال أن يمنح الرجلَ كلَّ فرصة في وُسعه أن يمنحها له. استعرضَ قصة الحادث بأكملها. أطلعَ السيدَ باركر على أحوال المعسكر، وجعله يرى النساء المكلومات والأطفال الفزِعين المحتشدين حول فتحة المنجم، وكيف كان الحُرَّاس يُبعِدونهم بالهراوات والمسدسات. ذكرَ عائلةً تِلوَ الأخرى، أرامل وأمهات وأيتامًا. تحدَّثَ عن عُمَّال المناجم الذين طالبوا بفرصة للمخاطرة بحياتهم من أجل إنقاذ زملائهم. تركَ مشاعره تجتاحه بقوة، وتوسَّل بشدة من أجل أصدقائه المُعذَّبين.

قاطعَ الآخرُ حديثَه البليغ، قائلًا: «أيها الشاب، منذ متى وأنت تعمل في نورث فالي؟»

«منذ نحو عشرة أسابيع.»

«ومنذ متى وأنت تعمل في مناجم الفحم؟»

«كانت تلك تجربتي الأولى.»

«وهل تعتقد أنك تعلَّمتَ في عشرة أسابيع ما يكفي ليُخوِّل لك الحقَّ في توجيه تهمة «القتل العمد» ضد رجال قضَوا حياتهم في تعلُّم صناعة التعدين؟»

صاح هال: «كما أخبرتُكَ، هذا ليس رأيي فحسب؛ إنه رأي أقدم عمَّال المناجم وأكثرهم خبرة. أقول لك إنه لم يُتخَذ أيُّ إجراء لإنقاذ هؤلاء الرجال! الرؤساء لا يهتمون بتاتًا برجالهم! سمعَ حشدٌ من الناس أحدَهم، وهو أليك ستون، يقول: «اللَّعنة على العُمَّال! أَنقِذوا البِغال!»»

قال الآخر: «الجميع هنا ممتعضون وثائرون. لا يستطيع أيٌّ منهم أن يفكِّر بشكلٍ صحيحٍ في الوقت الحاضر ... أنتَ نفسك لا يمكنك التفكير بشكلٍ صحيحٍ. إذا اشتعلَ المنجم، وإذا امتدت النيرانُ إلى الحَدِّ الذي يتعذَّر معه إخمادُها ...»

«ولكن يا سيد باركر، كيف لك الجزم بأنها سوف تمتد إلى مثل هذا الحَدِّ؟»

«حسنًا، كيف لك الجزم بأنها لن تمتد إلى مثل هذا الحَدِّ؟»

صمتَا برهة. قال المدعي العام فجأة: «على حَدِّ علمي، هناك نائب لمفتش المناجم. ما اسمه؟»

قال هال: «كارمايكل.»

«حسنًا، وماذا يقول عن الواقعة؟»

«لقد طُرِدَ عامل المنجم هوسار من المعسكر عندما حاول أن يُقدِّم إليه التماسًا.»

قال السيد باركر: «حسنًا»، وظهرت نبرة في صوته عرف هال من خلالها أنه وجدَ العُذر الذي كان يبحث عنه ... «حسنًا، إنها مهمة كارمايكل، ولا يحقُّ لي التدخل في شئونه.

إذا جاءني وطلبَ توجيه الاتهامات، فسأتصرَّف، ولكني لن أفعل شيئًا ما لم يُطلَب مني ذلك. هذا كلُّ ما لديَّ لأقوله في هذا الشأن.»

نهض هال. وقال: «حسنًا يا سيد باركر. لقد عرضتُ عليك الحقائق. قيلَ لي إنك لن تفعل شيئًا، ولكنني أردتُ أن أمنحكَ فرصة. والآن، سأطلبُ من الحاكِم إقالتَك!» وبهذه الكلمات خرجَ عامِلُ المنجم الشاب من المكتب.

الفصل الخامس

خرج هال إلى الشارع في طريقه إلى الفندق الأمريكي، حيث كانت تقيم واحدة من الكُتَّاب المختزِلين الحكوميين. عندما اكتشفت هذه المرأة الشابة طبيعة المواد التي اقترحَ أن يمليها عليها، ارتعشت أصابعها بشدة، لكنها لم ترفض المهمة، وشرع هال في استعراض ملابسات إغلاق حفرة المنجم رقم ١ في نورث فالي، والمطالبة بإصدار أوامر بالقبض على إينوس كارترايت وأليك ستون. ثم روى كيف اختاره العُمَّال لوظيفة مراقِب الأوزان، وكيف رفض المسئولون إيصاله إلى الموازين، وبجميع العبارات القانونية التي استطاع أن يستدعيها طالبَ بالقبض على إينوس كارترايت وجيمس بيترز، المشرف ورئيس المَقلَب في نورث فالي، لارتكابهما هذه الجرائم. وفي إفادة أخرى روى كيف احتجزه جيف كوتون، قائدُ المعسكر، ليلًا وأساءَ معاملته، وألقَى به في الحبس لمدة ستة وثلاثين ساعة دون وجود أمرٍ قضائي أو مُذكرة اتِّهام، وأيضًا كيف أخرجه كوتون وبيت هانون واثنان آخران مجهولا الهوية، من مدينة نورث فالي على نحوٍ غير قانوني وهدَّدوه بالتصرُّف معه بعنفٍ، وهي التهمة التي يُطالب بإلقاء القبض على جيف كوتون وبيت هانون والاثنين المجهولين لأجلها.

قبل انتهاء هذه المهمة، جاء بيلي كيتينج ومعه الخمسة والعشرون دولارًا التي حصل عليها إدستروم من مكتب البريد. وقد وجدا كاتبَ عدلٍ، أدَّى هال اليمينَ أمامه على كل وثيقة، وعندما سُجِّلت جميع الوثائق وختمَها كما يجب بختم الدولة المعتمَد، وأعطى منها نسخًا كربونية إلى كيتينج، الذي أسرعَ للحاق بقطار البريد الذي كان وصوله وشيكًا. لم يكن بيلي ليأتمن مكتبَ البريد المحلي على وثائق كهذه؛ لأن بيدرو كانت، كما قال، مدينةً ملعونة. عندما خرجا إلى الشارع مرة أخرى لاحظا أن حارسَهما الشخصي قد انضمَّ إليه شخصٌ آخر ضخم البِنية لم يقم بأي محاولة لإخفاء ما كان يفعله.

انعطفَ هال عند رأس الطريق، واتجه إلى مكتب عليه لافتةٌ مكتوبٌ فيها: «جي دبليو أندرسون، قاضي الصُّلح».

كان جيم أندرسون، طبيب الخيول، يجلس إلى مكتبه بالداخل. من الواضح أنه كان يمضغ التَّبغ قبل أن يرتدي رداءه المصنوع من فرو القاقُم الأبيض، وكان شاربُه الضارب إلى الحُمْرة لا تزال تظهر عليه آثارُ التبغ. لاحظ هال هذه التفاصيل محاوِلًا تقدير فُرَص نجاحه. قدَّم الإفادة التي تصف كيف عاملوه في نورث فالي، وجلَس ينتظر بينما كان سيادته يقرؤها ببطءٍ شديد.

قال الرجلُ أخيرًا: «حسنًا، ماذا تريد؟»

«أريدُ استصدار أمر قضائي بإلقاء القبض على جيف كوتون.»

تفحَّصه الآخر لمدة دقيقة. وقال: «لا، أيها الشاب. لا يمكنك الحصول على أمر قضائي كهذا هنا.»

«ولِمَ لا؟»

«لأنَّ كوتون هو نائب رئيس الشرطة؛ ويحقُّ له إلقاءُ القبض عليك.»

«أيعتقلني دون أمرٍ قضائي؟»

«كيف لك أن تعرف أنه لم يكن لديه أمر قضائي؟»

«لقد اعترفَ لي بأنه لم يكن لديه أمر قضائي.»

«حسنًا، سواء أكان لديه أمرٌ قضائي أم لا، فقد كان من واجبه حفظ النظام داخل المعسكر.»

«هل تعني أنه يستطيع أن يفعلَ ما يحلو له في المعسكر؟»

«ما أعنيه هو أنه ليس من شأني أن أتدخَّل. لماذا لم تذهب إلى سي آدامز، هناك في المعسكر؟»

«لم يُعطوني أي فرصة لرؤيته.»

أجابَ الآخرُ: «حسنًا، ليس هناك ما يمكنني فعله من أجلك. يمكنك أن ترى ذلك بنفسك. أي نوعٍ من الانضباط يمكنهم أن يحافظوا عليه في هذه المعسكرات إذا كان في إمكان أي شخص طُرِدَ منها أن يأتي إلى هنا ويطالب بإلقاء القبض على قائد المعسكر؟»

«إذن، هل يجوز لقائد المعسكر أن يتصرف دون مراعاة للقانون؟»

«لم أقل ذلك.»

«لنفترض أنه ارتكبَ جريمة قتل ... هل ستُصدِر أمرًا قضائيًّا جراء ذلك؟»

«نعم، بالطبع، إذا كانت جريمة قتل.»

«وإذا علمتَ أنه بصدد ارتكاب جريمة قتلٍ في معسكر للفحم ... هل تحاول إيقافه؟»

«نعم بالطبع.»

قال هال: «إذن، هذه إفادة أخرى»، وقدَّم الإفادة الخاصة بإغلاق المنجم. سادَ الصمتُ بينما كان القاضي أندرسون يقرؤها في عجالة.

ولكنه هزَّ رأسه مرةً أخرى. وقال: «لا، لا يمكنك الحصول على مثل هذه الأوامر القضائية هنا.»

«لِمَ لا؟»

«لأنه ليس من شأني أن أدير منجمًا للفحم. أنا لا أفهم في ذلك، وسأجعل من نفسي أضحوكة لو حاولتُ أن أُخبر هؤلاء الناس كيف يديرون أعمالهم.»

جادله هال. وهل يجوز لمسئولي الشركة المخوَّلين بأمر مناجم الفحم أن يرتكبوا أيَّ شكلٍ من أشكال الاعتداء على موظفيهم، ثم يقولون إنهم بذلك يديرون أعمالهم؟ إنَّ سيطرتهم على المنجم في مثل هذه الحالة الطارئة تعني قدرتهم على تقرير مصير مائة وسبعة من الرجال والفتيان، هل يُعقَل ألا يكون للقانون رأيٌ في ذلك؟ لكن، لم يكن من السيد أندرسون إلا أن هزَّ رأسه؛ فلم يكن من اختصاصه التدخُّل. ربما يتوجَّه هال إلى قاعة المحكمة ويطلب مقابلة القاضي دينتون بهذا الخصوص. ومن ثَمَّ، جمع هال إفاداته، وخرجَ إلى الشارع مرة أخرى ... حيث وجدَ ثلاثة أشخاص ضخام البِنية ينتظرون مرافقته.

الفصل السادس

كانت محكمة المقاطعة منعقدة، وجلس هال قليلًا في قاعة المحكمة، يشاهِد القاضي دينتون. ها هو رجلٌ نبيل آخر مُترَف وبَدين، ذو وجه متورِّد يُشِع تألُّقًا في ردائه الحريري الأسود. وجد عامل المنجم الشاب نفسَه ينظر إلى كلٍّ من الرداء والوجه بريبة. هل أصبح هال صاحب حسٍّ ناقِد وبدأ يفقد الثقة بالبشر؟ ما كان يفكِّر فيه، فيما يتعلق بمظهر القاضي، هو أن هناك من كان يكسب عيشَه من اعتلاءِ مِنَصَّة المحكمة، بينما كان شريكُه يَمثُل أمام المنصة بصفته مستشارًا لشركة الفحم!

في الاستراحة، تحدَّث هال إلى كاتِب الجلسة، وأخبره الكاتب أنه يمكنه مقابلة القاضي في الساعة الرابعة والنصف، غير أنه لم يمضِ بضعُ دقائق حتى دخلَ بيت هانون وتحدَّثَ هامِسًا إلى هذا الكاتب. نظر الكاتِبُ إلى هال، ثم ذهبَ وهمسَ إلى القاضي. في الساعة الرابعة والنصف، عندما أُعْلِنَ رفع الجلسة، نهضَ القاضي واختفى في مكتبه الخاص، وعندما ذهب هال إلى الكاتب، أخبره الأخير بأن القاضي دينتون مشغول للغاية ولن يتمكَّن من رؤيته.

غير أنه لم يكن من الممكن التخلُّص من هال بهذه السهولة. كان هناك بابٌ جانبي لقاعة المحكمة، بممرٍّ خلفه، وبينما كان هال يقف مجادِلًا الكاتِب لمَحَ وجهَ القاضي المتورِّد يمرُّ مُسرِعًا.

اندفعَ يتبعُه. لم يصرخ أو يُحدِث أي جَلَبة، لكن عندما أصبح قريبًا من ضحيته، قال بهدوء: «أيها القاضي دينتون، أُناشدُكَ العدالة!»

التفتَ القاضي، ونظر إليه وقد بدا على وجهه الانزعاج. وسأله: «ماذا تريد؟»

كانت لحظة حَرِجة؛ لأن بيت هانون كان في أعقاب هال، وكان يكفي أن يُومِئ القاضي برأسه ليلقي بيت القبض على هال. غير أن القاضي أُخِذَ على حين غرة، فلم يجد مفرًّا أمامه من التحدُّث مع عامل المنجم الشاب؛ وتردَّد المحقِّق، ثم تراجعَ أخيرًا خطوة أو خطوتَين.

كرَّر هال التماسَه. وقال: «يا سيادة القاضي، هناك مائة وسبعة من الرجال والفتيان يحتضِرون الآن في منجم نورث فالي. إنهم يُقتَلون عَمدًا، وأنا أحاول إنقاذَ حياتهم!»

قال القاضي: «أيها الشاب، لديَّ أمرٌ عاجل يستوجب مني الرحيل.»

أجاب هال: «حسنًا سأسيرُ معك وأخبرك في أثناء ذلك.» ولم يمنح «سيادته» الفرصة للتعبير عما إذا كان هذا القرار يُرضيه أم لا؛ إذ انطلقَ بجانبه، بينما كان بيت هانون والرجلان الآخران على مسافة نحو عشر ياردات خلفهما.

روى هال القصة كما رواها للسيد ريتشارد باركر، وتلقَّى الرد نفسه. لم يكن من السهل اتخاذ قرارٍ بشأن مثل هذه الأمور؛ فلم يكن ذلك من شأن القاضي. كان هناك مسئولٌ حكومي في المنجم، وكان له أن يقرِّر وجود انتهاك للقانون من عدمه.

كرَّر هال إفادته بأن الرجل الذي تقدَّم بشكوى إلى هذا المسئول قد طُرِد من المعسكر. وأضافَ: «وقد طردوني أنا أيضًا، يا سيادة القاضي.»

«لماذا؟»

«لم يُخبرني أحدٌ بالسبب.»

«كلام فارغ أيها الشاب! إنهم لا يطردون العُمَّال دون إخبارهم بالسبب!»

«لكنهم يفعلون خلاف ذلك يا حضرة القاضي! وقبل ذلك بقليلٍ حبسوني، واحتجزوني لمدة ست وثلاثين ساعة دون أي مبرِّر مُعلَن.»

«لا بد أنك كنت تفعل شيئًا ما!»

«ما فعلتُه هو أن لجنة من عمَّال المناجم قد اختاروني لأكونَ مراقِبًا لأوزانهم.»

«مراقِبًا لأوزانهم؟»

«نعم يا سيادة القاضي. لقد علمتُ أن هناك قانونًا ينصُّ على أنه عندما يطالب العُمَّال بتعيين مراقِب للأوزان، ويَعرضون دفع أُجرته من حسابهم، فلا بد أن تسمح له الشركة بالتحقُّق من الأوزان. هل ذلك صحيح؟»

«إنه كذلك، على ما أعتقد.»

«وهل من عقوبة لِمَن يخالِف ذلك؟»

«القانون دائمًا يفرض عقوبة أيها الشاب.»

«أخبَروني أنَّ القانونَ موجود في كتب التشريع منذ خمسة عشر أو ستة عشر عامًا، وأنَّ العقوبة هي غرامة تتراوح ما بين خمس وعشرين دولارًا وخمسمائة دولار. إنه أمرٌ لا جدال فيه يا حضرة القاضي … أبلغَ عُمَّالُ المناجم المشرفَ برغبتهم في أن أكون مراقبًا للأوزان، وعندما حضرتُ في المَقلَب، رفضوا تمكيني من الوصول إلى الموازين؛ ثم ألقوا القبض عليَّ وزجُّوا بي في السجن، وفي نهاية المطاف طردوني من المعسكر. لقد قدَّمتُ إفادة بهذه الحقائق، وأعتقد أن لديَّ الحق في المطالبة بإصدار أمرٍ قضائي بحق المذنِبين.»

«هل يمكنك أن تأتي بشهودٍ لإثباتِ أقوالك؟»

«يمكنني يا سيادة القاضي. أحدُ أعضاء لجنة عُمَّال المناجم، جون إدستروم، وهو الآن في بيدرو، طُرِدَ من منزله الذي كان قد استأجره ودفعَ إيجاره. والآخر، مايك سيكوريا، طُرِدَ أيضًا من المعسكر. وهناك الكثير غيرهم في نورث فالي ممن يعرفون كلَّ شيء عن الأمر.»

سادَ الصمتُ مؤقتًا. تطلَّع القاضي دينتون جيدًا لأول مرة في عامِل المنجم الشاب الواقف بجواره، ثم عقدَ حاجبَيه مستغرقًا في التفكير، وأصبح صوتُه عميقًا ومؤثِّرًا. ثم قال: «سآخذُ الأمرَ بعين الاعتبار. ما اسمك، وأين تقيم؟»

«جو سميث، يا حضرة القاضي. وأقيم في منزل إدوارد ماكيلار، لكنني لا أعرف إلى متى سأتمكَّن من البقاء هناك. فهناك بلطجية للشركة يراقبون المكان طوال الوقت.»

قال القاضي بنفاد صبرٍ: «هذا تجاوز وافتراء!»

قال هال: «في الواقع، يتبعنا ثلاثة منهم في هذه اللحظة … أحدُهم هو بيت هانون نفسه الذي ساعد في طردي من نورث فالي. إذا استدرتَ برأسك، فسوف تراهم خلفنا.»

لكن القاضي البدين لم يُدِر رأسَه.

تابع هال: «لقد قِيل لي إنني أخاطرُ بحياتي إذا مضيتُ في طريقي الحالي. أعتقد أنه يحقُّ لي أن أطلبَ الحماية.»

«ماذا تريدني أن أفعل؟»

«بدايةً، أودُّ منك أن تأمر بإلقاء القبض على الرجال الذين يتتبَّعونني.»

«ليس من شأني أن أصدر أوامر اعتقال من هذا القبيل. عليك التقدُّم بطلبك إلى الشرطة.»

«لا أرى أيَّ رجال شرطة. هلَّا أخبرتني أين أجد أيًّا منهم؟»

ازدادَ ضجرُ سيادته من هذا الإصرار. وقال: «أيها الشاب، مشكلتُك هي أنك تقرأ الروايات الرخيصة، وقد أثَّرت فيك!»

«لكن الرجال ورائي مباشرة يا حضرة القاضي! انظر بنفسك!»

«لقد أخبرتُك أن هذا ليس من شأني أيها الشاب!»

«لكن يا حضرة القاضي، قبل أن أتمكَّن من العثور على شرطي لأبلغه بالأمر، سأكون قد لقيتُ حتفي!»

لم يبدُ على الآخر الانزعاج من هذا الاحتمال.

«وفي أثناء دراستك للأمور وتفحُّصها يا سيادة القاضي، سيكون الرجال في المنجم قد ماتوا!»

مرة أخرى لم يجد ردًّا.

قال هال: «لديَّ بعضُ الإفادات هنا. هل ترغب في الاطلاع عليها؟»

قال الآخر: «يمكنك أن تعطيني إياها إذا أردت.»

«ألن تستفسر مني عنها؟»

«ليس بعد.»

«إذن هل لي بسؤالٍ أخير ... إذا سمحت لي، يا حضرة القاضي. هل يمكنك أن تخبرني أين أستطيع أن أجد محاميًا نزيهًا في هذه المدينة ... رجلًا يكون على استعدادٍ لرفع قضية ضد الشركة العامة للوقود؟»

خيَّم الصمتُ ... طويلًا. سار القاضي دينتون، من شركة دينتون وفاجلمان، وهو يحدِّق أمامه مباشرة في أثناء سيره. على الرغم مما كان يجُول في ذهنه من عمليات تفكير معقَّدة، فلم يكشف عنها وجهُه الذي احتفظَ بملامح القُضاة الجادَّة. وقال أخيرًا: «لا أيها الشاب، ليس من شأني أن أقدِّم لك معلوماتٍ عن المحامين.» وبهذا انصرفَ القاضي سريعًا ودلفَ إلى نادي إيلك.

الفصل السابع

وقف هال يُشاهِد ذلك الجسد البدين حتى اختفى عن الأنظار، ثم استدار ومرَّ بالمخبِرين الثلاثة الذين توقَّفوا. فحدَّق إليهم ولكن دون إيماءة منه أو منهم. وعلى بُعد قرابة عشرين قدمًا خلفه، اصطفُّوا وتبِعوه كما فعلوا من قبل.

كان القاضي دينتون قد اقترحَ استشارة أحد رجال الشرطة، وفجأة لاحظ هال أنه كان يمرُّ أمام دار البلدية، وخطر بباله أنه ربما من الجيد أن يلفت انتباه عُمدة بيدرو إلى مسألة ملاحقته وتعقُّبه. وتساءل عما قد يبدو عليه كبير مسئولي «مدينة ملعونة» كهذه، وبعد التحقُّق جيدًا، وجدَ نفسه في مكتب السيد إيزرا بركينز، الذي كان رجلًا ضئيلَ الحجم متواضِعًا، وعمل في مجال أعمال الدفن والجنائز قبل أن يصبح أحدَ رموز ما يُسمونه بالآلة «الديمقراطية».

جلسَ متوترًا يجذب لحيته البُنية المشذَّبة بعناية، محاوِلًا التهرُّب من المعضلة التي وضعَه فيها هال. فمُلاحقة عامل منجم شاب في شوارع المدينة أمرٌ وارد حقًّا، ولكن كون هذا مخالِفًا للقانون من عدمه هو أمرٌ متوقف على الظروف. إذا كان قد أحدثَ جلبة في نورث فالي، وكان هناك سبب للاعتقاد بأنه ربما كان ينوي إثارة المتاعب، فستتبعه الشركة بالطبع. لكن بيدرو كانت مكانًا يحترم القانون، وستُصان حقوقه ما دامَ يُحسن التصرُّف.

ردَّ هال مُستشهِدًا بما قاله له ماكيلار عن ضرب الرجال في الشوارع في وضح النهار. أجاب السيد بركينز عن هذا بأن ملابسات هذه الحوادث تحيط بها الشكوك، وأنها قد حدثت على أي حالٍ قبل أن يُصبح عمدة المدينة. كما أن إدارته كانت تهدف إلى الإصلاح،

وقد أصدر أوامر صارمة إلى رئيس الشرطة بالحرص على عدم وقوع المزيد من الحوادث من هذا النوع.

سأل هال: «هل ستذهب معي إلى رئيس الشرطة وتُعطيه الأوامر الآن؟»

قال السيد بركينز: «لا أرى ضرورة لذلك.»

بدا أنه كان يوشك أن يعود إلى منزله. كان مثلَ حيوانٍ قارض صغير مُرتعِب ومثير للشفقة، وكان من العار أن يُضيِّق عليه الخناق أكثر من ذلك، لكن هال لازمه عشر دقائق أو عشرين دقيقة أخرى في جدالٍ وإصرار ... حتى اندفعَ القارضُ الصغير في نهاية المطاف نحو الباب ولاذ بالفرار في سيارة. وكانت كلماتُه الأخيرة بينما كان يُدير محرك السيارة: «يمكنك الذهاب إلى رئيس الشرطة بنفسك»، وقرَّر هال الأخذ بهذا الاقتراح. لم يتبقَّ لديه أمل، غير أنه قد تملَّكه شكلٌ من أشكال الغضب العنيد. ولن يستسلم!

بعد الاستفسار من أحد المارَّة، عَلِمَ بأنَّ مقرَّ الشرطة موجود في هذا المبنى نفسه، وأن مدخله كان عند الزاوية تمامًا. دخلَ، ووجدَ رجلًا يرتدي الزيَّ الرسمي، جالسًا إلى مكتبه يكتبُ شيئًا، وأخبره هذا الرجل أن رئيسَ الشرطة قد «خرج إلى الشارع». جلس هال منتظِرًا بجوار إحدى النوافذ، حيث تسنَّى له النظر من خلالها إلى المسلَّحِين الثلاثة الذين كانوا يتسكَّعون في الطريق.

استمر الرجلُ الجالس إلى المكتب في الكتابة، لكنه كان بين الحين والآخر يرمق عامِلَ المنجم الشاب بتلك النظرة العَدائية التي ينظر بها رجال الشرطة الأمريكيون إلى الطبقات الدنيا. كانت هذه ظاهرة جديدة بالنسبة إلى هال، ووجد نفسه فجأة يتمنَّى لو كان قد ارتدى ملابسَ ماكيلار. ربما لم يكن الشرطيُّ سيلاحظ أنها ليست ملابسه.

دخل رئيس الشرطة. وكان زيُّه الأزرق يُخفِي بِنيتَه القوية، وقد كشفَ شاربُه عن أن ما خرجَ إلى الشارع لأجله كان احتساءَ الجِعَة. قال مُثبِّتًا نظره على هال: «حسنًا، ما الأمر أيها الشاب؟»

أوضح هال مطلبَه.

سأل رئيس الشرطة بنبرة عدائية بكل تأكيدٍ: «ماذا تريدني أن أفعل؟»

«أريدك أن تجعل هؤلاء الرجال يكفُّون عن ملاحقتي.»

«وكيف يمكنني ذلك؟»

«يمكنك حبسهم، إذا لزم الأمر. يمكنني أن أُشير لك إليهم، إذا تقدَّمتَ إلى النافذة.»

لكنَّ الآخرَ لم يتحرك. وقال: «أعتقد أنهم إن كانوا يلاحقونك، فلا بد أنَّ لديهم سببًا لذلك. هل كنت من مُثيري الشغب في المعسكرات؟» طرح هذا السؤال بقوة مفاجئة، كما لو كان قد خطر بباله أنه ربما يكون من واجبه أن يُلقي القبض على هال.

قال هال مستجمِعًا ما استطاع من الشجاعة: «كلَّا ... كلَّا بالطبع، لم أكن من مثيري الشغب. كنت فقط أطالبُ بحقوقي.»

«كيف لي أن أعرف ما كنت تفعله؟»

كان عامل المنجم الشاب على استعدادٍ للشرح، لكنَّ الآخرَ قاطعَه. وقال: «فلتُحسِن التصرُّف ما دمت في هذه المدينة، أيها الشاب، هل تفهم؟ إذا فعلت ذلك، فلن يُزعجك أحد.»

قال هال: «لكنهم هدَّدوا بالفعل بإزعاجي.»

«ماذا قالوا؟»

«قالوا لي أن أترقَّب ما سيحدُث لي في ظلمة الليل.»

«حسنًا، ربما ... ربما يقصدون أن تسقط ويرتطم أنفك بالأرض.»

أطرَبت رئيسَ الشرطة مزحتُه، ولكن لحظيًّا فقط. ثم سأل هال: «هل تفهم، أيها الشاب، سنُعطيك حقوقَك في هذه المدينة، ولكننا لا نحبُّ المحرِّضين، ولا نتظاهر بذلك. هل تفهم؟»

«هل تَعُدُّون المرءَ مُحرِّضًا عندما يطالِب بحقوقه القانونية؟»

«ليس لديَّ وقت للجدال معك أيها الشاب. حفظ النظام في معسكرات الفحم ليس بالمهمة السهلة، ولن أتدخَّل في شئون العمل. أعتقد أن مُحقِّقي الشركة لديهم حقوق في هذه المدينة مثلك.»

سادَ الصمت فترة وجيزة. رأى هال أنه لم يكن ثمة ما يَجنيه من استمرار المناقشة مع رئيس الشرطة. ها هو الآن يرى لأول مرة كيف يبدو الشرطيُّ الأمريكي في نظر العامِل المتمرد، وبدت له هذه التجربة مُفيدة للغاية. خرجَ هال إلى الشارع وقلبه يتأجَّج غضبًا كأنه معبأٌ بالديناميت؛ وزادت من غضبه المتأجِّج تلك الابتسامات الساخرة التي لاحظها على وجه بيت هانون ووجهَي الشخصَين الآخرَين الضخمَي البِنية.

الفصل الثامن

رأى هال أنه قد استنفدَ الآن موارده القانونية في قضية بيدرو؛ فلم يقترح رئيسُ الشرطة أيَّ شخص آخر يمكنه التوجُّه إليه، ومن ثَمَّ بدا أنه لا يستطيع فعل أي شيء سوى العودة إلى منزل ماكيلار وانتظار موعد القطار المسائي المتجه إلى ويسترن سيتي. لقد أوشك أن يجعل مطارديه يركضون مرة أخرى للتنفيس عن بعض غضبه على الأقل، لكنه وجد أنهم قد خمَّنوا ما كان يخطِّط له. جاءت سيارة وركبَ فيها الثلاثة. وحتى لا يكونوا قد تفوقوا عليه، استقلَّ هو الآخر سيارة، وهكذا عادت البعثة بأكملها إلى منزل ماكيلار.

وجد هال العجوزَ المُقعَد في حالة اضطرابٍ وتوتر. لقد ظلَّ هاتفُه يرن طوال فترة ما بعد الظهيرة في ذلك اليوم؛ إذ كان يتلقَّى تحذيرًا من شخصٍ تِلوَ الآخر ... كان البعضُ يتوسَّلون إليه، والبعض يُسيئون إليه. من الواضح أنه كان من بينهم أشخاصٌ لديهم سيطرة على الرجل العجوز، لكنه لم يَهَبْهم، لم يُرِد أن يسمع أيَّ حديث عن ذهاب هال إلى الفندق حتى يحين موعد القطار.

ثم عاد كيتينج بقصة مثيرة ليرويها. كان شولمان، المدير العام «للشركة العامة للوقود»، يُرسل رجالًا للبحث عنه، وتمكَّن أخيرًا من إحضاره إلى مكتبه، وراح يجادله ويناشده، مُتبِعًا معه التملُّق تارةً والشجب تارةً. كما اتصل به كارترايت هاتفيًّا، وقد حاول مشرف نورث فالي جاهدًا إقناعه بأنه أخطأ في حق الشركة. وأخبره كارترايت عن جهود هال في ابتزاز الشركة من أجل المال. قال كيتينج: «بالمناسبة، أضافَ تهمةَ أنكَ أغويتَ فتاة في معسكره.»

حدَّق هال إلى صديقه. وصاح: «أغويتُ فتاة!»

«هذا ما قاله، فتاة أيرلندية صهباء.»

«حسنًا، عليه اللعنة!»

تبعَ ذلك صمتٌ قطعته ضحكةٌ من بيلي. وقال: «لا تحدِّق إليَّ هكذا. لست أنا مَن قال ذلك!»

لكن هال استمرَّ في التحديق رغم ذلك. وقال: «ذاك الظربان الصغير القَذِر!»

قال الرجل البدين بهدوءٍ: «هَدِّئ من روعك يا بُني. هذا هو المعتاد دائمًا، أن يزجُّوا بامرأة في الموضوع. إنه أمرٌ سهل للغاية ... لأنه دائمًا ما تكون هناك امرأة بالطبع. وأعتقدُ أن هناك امرأة بالفعل في هذه الحالة، أليس كذلك؟»

«إنها فتاة في غاية الاحترام.»

«لكن هل كنت ودودًا معها؟ هل كنتما تتجوَّلان معًا على مرأًى من الناس؟»

«أجل.»

«إذن كما ترى، فقد أمسكوا عليك أمرًا. ما من شيء يمكنك فِعله حيال ذلك.»

اندفع هال قائلًا: «انتظر وسترى!»

نظر الآخر بفضولٍ إلى عامِل المنجم الشاب الغاضب. وقال: «ماذا ستفعل؟ هل ستُوسِعه ضربًا ذات ليلة؟»

لكن عامل المنجم الشاب لم يرد. وسأل: «أتقول إنه أدلى بأوصاف الفتاة؟»

«كان لطيفًا بما يكفي ليقول إنها فتاة صهباء جميلة، وليس لديها مَنْ يحميها سوى أب مخمور. أتفهَّم أن ذلك بالطبع قد زاد الأمرَ صعوبة عليها، في ظروفٍ كالتي تعيشها في معسكرات الفحم هذه.» صمتوا قليلًا. ثم قال الصحفي: «ولكن انتبِه، ستؤذي الفتاة إذا أثرت ضجة حول الأمر. لا أحدَ يُصدِّق أن النساءَ في معسكرات الفحم يتمتَّعن بأي قدرٍ من الفضيلة. الرب وحده يعلم، لا أدري كيف يمكنهن التمتُّع بأي قدرٍ من الفضيلة بالنظر إلى نوعية الرجال الذين يُديرون المعسكرات، والسلطة التي يتمتعون بها.»

قال هال: «يا سيد كيتينج، هل صدَّقت ما قاله لك كارترايت؟»

شرع كيتينج في إشعال سيجار. لكنه توقَّف في أثناء ذلك، والتقت عيناه بعينَي هال. قال: «يا ولدي العزيز، لا أرى أنَّ من شأني أن يكون لي رأيٌ في الأمر.»

«ولكن ماذا قلتَ لكارترايت؟»

«آه! تلك مسألةٌ أخرى. قلتُ إنني أمارسُ العمل الصحفي منذ سنواتٍ عديدة، وأعرفُ حِيَله جيدًا.»

قال هال: «شكرًا لك على ذلك. ربما تكون مهتمًّا بمعرفة أنها قصة لا تمتُّ للحقيقة بِصِلة.»

قال الآخر: «يُسعِدُني سماعُ ذلك. وأنا أصدِّقُك.»

«وربما تكون مُهتمًّا أيضًا بمعرفة أنني لن أدَع الأمر يمرُّ حتى أجعل كارترايت يتراجع فيما قال.»

ضحك الصحفي: «حسنًا، أنت شخص مغامِر! ألا يكفيك كلُّ ما تفعله بشأن كل هؤلاء الرجال الذين ترغب في إخراجهم من المنجم؟»

الفصل التاسع

خرج بيلي كيتينج مرة أخرى بعدما أخبرهم أنه يعرف رجلًا قد يكون على استعدادٍ للتحدُّث إليه بهدوء، وإعطائه فكرة عما كان سيحدث لهال. في تلك الأثناء، جلس هال وإدستروم لتناول العشاء مع ماكيلار. كانت العائلة تخشى استخدام غرفة الطعام في منزلها، لكنهم وضعوا طاولة صغيرة في ردهة الطابق العلوي. كان القلق باديًا على زوجة ماكيلار وابنته، وهو ما كشف لهال عن الحياة المرعبة في هذا البلد الذي تسيطر عليه صناعة الفحم. ها هُنَّ نساء أمريكيات، في منزل أمريكي، منزل يحمل أمارات الرقي والثقافة، إلا أنهن يشعرن ويتصرَّفن كما لو كُنَّ مُتآمِراتٍ روسيات، يتملَّكهن الرعبُ من سيبيريا والسوط الروسي!

غابَ الصحفي بضع ساعات، ثم عاد وفي جُعبته أخبار. قال: «استعِد للمتاعب أيها الشاب.»

«لماذا؟»

«جيف كوتون في المدينة.»

«كيف عرفت؟»

«رأيتُه في سيارة. إذا كان قد غادر نورث فالي في هذا الوقت، فذلك لأمرٍ خطير، يمكنك أن تكون متأكدًا من ذلك.»

«ماذا عساه أن يفعل؟»

«إنه أمرٌ لا يمكن التنبؤ به. ربما يبرحك ضربًا، وربما يطردك من المدينة ويُلقي بك في الصحراء، وربما يكتفي بإلقاء القبض عليك.»

فكَّر هال للحظة. ثم سأله: «أبتُهمة التشهير؟»

«أو بتهمة التشرُّد، أو للاشتباه بك في سرقة أحد بنوك تكساس، أو بتهمة قتل جدتك الكبرى في تَسمانيا. المهم أنه سيُبقيك في الحبس حتى تنتهي هذه المشكلة.»

قال هال: «حسنًا، لا أريد أن أُسجَن. أريدُ الذهابَ إلى ويسترن سيتي. أنا في انتظار القطار.»

أجاب كيتينج: «قد تضطر إلى الانتظار حتى الصباح. حدثت مشكلة في خط السكة الحديدية … تعطَّلت عربة شحن وتبعثَرت أجزاؤها على القضبان؛ سوف يستغرق الأمرُ بعضَ الوقت لإخلاء الطريق.»

ناقشوا هذه المشكلة الجديدة ما بين أخذٍ وردٍّ. أعربَ ماكيلار عن رغبته في أن يجلب ستة من أصدقائه ليحرسوا هال في أثناء الليل، وكان هال على وشك الموافقة على هذه الفكرة عندما فتحت ملاحظةٌ عَرَضية من كيتينج مَنحًى جديدًا للنقاش. إذ قال: «هناك شخصٌ آخر عطَّله حادث السكة الحديدية. إنَّه ابن ملِك الفحم!»

ردَّد هال: «ابن ملِك الفحم؟»

«الشابُّ بيرسي هاريجان. لديه عربة خاصة هنا … أو بالأحرى قطار بأكمله. فكِّر في الأمر … عربة طعام، وعربة استقبال، وعربتان كاملتان بكبائن للنوم! ألا تريد أن تكون ابنًا لمِلك الفحم؟»

«هل جاء بسبب حادث المنجم؟»

ردَّد كيتينج: «حادث المنجم؟ أشكُّ في أنه قد سمعَ بالأمر. لقد قيل لي إنهم كانوا في رحلة إلى جراند كانيون، وبالقطار عربةٌ لنقل الأمتعة تحمل على متنها أربعَ سيارات.»

«هل العجوز بيتر معهم؟»

«لا، إنه في نيويورك. بيرسي هو المضيف. وقد أخرجَ إحدى سياراته من القطار واستقلَّها، وراحَ يجوبُ المدينة مع اثنين من أصدقائه وبعض الفتيات.»

«مَن الذين يرافقونه؟»

«لم أستطع معرفة ذلك. كما ترى، يصلح هذا خبرًا لصحيفة «جازيت» … ابن ملِك الفحم، يأتي بالمصادفة في اللحظة التي يُواجه فيها مائةٌ وسبعة من عبيده مصيرهم المشئوم في المنجم! ليتني استطعتُ أن أستحثَّه على الإدلاء برأيه في الحادث! ليتني حتى استطعتُ أن أستنطِقَه ليقول إنه لا يعرف شيئًا عنه!»

«هل حاولتَ؟»

«ولماذا أنا صحفي إذن؟»

«وماذا حدث؟»

«لا شيءَ سوى أنه جعلني عاجِزًا عن فعل شيء أمامه.»

«أين كان هذا؟»

«في الشارع. فقد توقَّفوا بسيارتهم عند صيدلية، ومن ثَمَّ تقدَّمتُ نحوهم. وسألته: «هل أنتَ السيد بيرسي هاريجان؟» كان ينظر إلى الصيدلية ورائي. فقلتُ: «أنا صحفي، وأودُّ أن أسألك عن الحادث الذي وقعَ في نورث فالي.» قال بنبرةٍ مستغرَبة يتجمَّد لها الدمُ في العروق: «معذرة!» ناشدتُه: «كلمة واحدة.» أجابَ: «لا أُدلي بأحاديث صحفية»، وكان هذا كلُّ شيء ... وواصلَ النظر خلفي، وكان الجميعُ ينظرون أمامهم. لقد تحوَّلوا إلى جليدٍ بارد منذ أن لفظتُ كلمتي الأولى. وشعرتُ بالدم يتجمَّد في أوصالي كأنني دودة مُتجمِّدة!»

سادَ بعضُ الصمت.

علَّق بيلي: «أليس من العجيب أن تنبثق أسرة أرستقراطية إلى الوجود بهذه السرعة! إنك عندما تنظر إلى تلك السيارة، ومَن بها من حشدٍ وتفاخرهم، تظن أنهم يسودون العالَم منذ عهد ويليام الفاتِح. وكان العجوزُ بيتر قد جاءَ إلى هذا البلد بائعًا مُتجوِّلًا!»

قال ماكيلار: «بينما نحن هنا لا نكفُّ عن الكَدِّ.»

قال الصحفي: «وسنواصل كَدَّنا حتى نصلَ إلى هاوية الانحدار الاجتماعي في غُضون جيل قادم.» ثم، بعد دقيقة، أضافَ: «ولكن هناك فتاة فريدة من نوعها في تلك المجموعة! لقد أسرتني بالتأكيد! أتدري كلَّ ذلك الزغبَ الذي يرتدونه ... تلك الملابس الناعمة الوَبرية، التي تجعلك تتذكَّر البساتين في فصل الربيع. بدت هذه الفتاة مثل زهرة التفاح.»

تساءل هال بلطفٍ: «هل يستميلك سحرُ النساء وجمالهن الآسِر؟»

قال الآخر: «أجل. أعلم أنَّ كل هذا زائف، ولكنه يجعل قلبي الصغير يخفق على أي حال. لطالما أردتُ دائمًا أن أصدِّق أنهن جميلاتٌ حقًّا كما يَبدون.»

اكتستِ ابتسامةُ هال بمسحة من الحنين، وردَّد:

«أوه، يا ليزا-آن، اخرجي معي،

القمرُ يسطع ببهاء في شجرة الأروكاريا!»

ثم توقَّف ضاحكًا. وقال: «لا تُبدِ مشاعرَك يا سيد كيتينج. فقد تتلاعب بك المرأةُ إن أبديتَها.»

«أتتلاعب بي أنا؟ أتتلاعب بصحفي وضيع الحال؟»

ضحك هال: «بل تتلاعب بك كرجلٍ! لا أريدُ أن أتهم المرأة بشيء، ولكن للنساء دورهن في هذه الحياة، وعليهن أن يُمارسنه دائمًا.»

سادَ بعضُ الصمت. أخذَ الصحفي ينظر إلى عامل المنجم الشاب بفضولٍ مفاجئ. وقال: «اسمع، لطالما حيَّرني أمرُك. كيف لك أن تعرف هذا القدر عن سيكولوجية الطبقة المترَفة؟»

قال هال: «كنت أمتلك المال في يومٍ من الأيام. وتدهور الحالُ بعائلتي بالسرعة نفسها التي لمعَ بها نجمُ عائلة هاريجان.»

الفصل العاشر

شرع هال في سؤال كيتينج عن الفتاة التي تُشبه زهرة التفاح. وقال: «ربما يمكنني أن أُخمِّن مَن تكون. وماذا عن لون شعرها؟»

قال بيلي: «لون حلوى تُوفي دبس السكر عندما تسحبه. ولكنه هفهافٌ ورائع، مع مسحة كمسحة غبار النجوم. عيناها بُنِّيَّتان، ووجنتاها بلون الفراولة بالحليب.»

«أكان لديها صفَّان من الأسنان اللؤلؤية البيضاء، التي تُومِض في وجهك عندما تبتسم؟»

«لم تبتسم للأسف.»

«إذن هل حدَّقَتْ إليك بعينَيها البُنيتَين، الواسعتَين، والمليئتَين بالعجائب؟»

«نعم، كانت تُحدِّق ... ولكن إلى واجهة الصيدلية.»

«هل كانت ترتدي قُبَّعة بيضاء من القش الناعم، تعلوها باقة من الزهور الخضراء والبيضاء، وترتدي فستانًا باللون الأخضر الزيتوني، وربما تضع على كتفَيها وشاحًا باللون الأبيض الكريمي؟»

صاحَ الصحفي: «يا إلهي، أعتقدُ أنك رأيتها!»

قال هال: «ربما. أو لعلِّي أصفُ الفتاة التي تظهر على غلاف إحدى مجلات هذه الأيام!» ابتسم، ولكنه قال عندما رأى فضول الآخر: «حقًّا، أعتقدُ أنني أعرف تلك الفتاة الشابَّة. إذا صرَّحتَ أن الآنسة جيسي آرثر كانت ضمن مجموعة ضيوف هاريجان، فلن تكون قد جازفتَ كثيرًا.»

قال الصحفي: «لا أستطيع المجازفة على الإطلاق. هل تعني ابنة روبرت آرثر؟»

قال هال: «الوريثة الشرعية للأعمال المصرفية لشركة آرثر وأولاده.»

«أعرفُ شكلها.»

«كيف ذلك؟»

«كنتُ أعمل في محل بقالة اعتادت أن تأتي إليه.»

«أين؟»

«بيترسون وشركاه، في ويسترن سيتي.»

«أوه! وكنتَ تبيع لها الحلوى.»

«التمر المَحشُو.»

«وهل كان قلبك الصغير دائمًا ما ينبض بقوة حتى إنك كنت لا تستطيع عَدَّ النقود؟»

«أعطيتُها باقيًا أكثر من المُستحَق عدة مرات!»

«ولعلك تساءلتَ عما إذا كانت فاضِلة بقدر ما هي جميلة! ويومًا كان يغمرك الأمل، وفي اليوم الذي يليه يملؤك التشاؤم والمرارة … حتى استسلمت لليأس في النهاية، وهربت للعمل في منجم للفحم!»

ضحكًا، وانضمَّ إليهما ماكيلار وإدستروم. ولكن نبرة كيتينج اتَّسمت بالجدية مرة أخرى. وصاحَ: «يجب أن أُغَطي ذلك الحدث! يجب أن أحصل على شيء حول الحادث من هذه المجموعة. فكِّر في الصدى الذي قد يُحدِثه خبرٌ كهذا!»

«ولكن كيف يتسنَّى لك ذلك؟»

«لا أعرف، كلُّ ما أعرفه هو أنني يجب أن أحاول. سأحوم حول القطار، وربما أستطيع أن آخذ حديثًا من أحد الحمَّالين.»

ضحك هال قائلًا: «حديثٌ صحفي مع حامل أمتعة مِلك الفحم! كيف تصِف شعورك إزاء تجهيزك لسرير المليونير الكبير!»

ردَّ الآخر: «كيف تصِف شعورك إزاء بيع التمر المحشو إلى ابنة مَصرفي!»

ولكن فجأة جاء دور هال ليصبح جادًّا. وقال: «اسمع يا سيد كيتينج، لمَ لا تدَعُني أُجري حديثًا صحفيًّا مع الشاب هاريجان؟»

«أنت؟»

«نعم! أنا الشخص المناسب … واحد من عُمَّال المناجم العاملين لديه! أساعدُه في جَني ما يكسبه من أموال، أليس كذلك؟ أنا مَن يَصلُح لإخباره بأمر نورث فالي.»

رأى هال الصحفيَّ يُحدِّق إليه وقد اعترته إثارةٌ مفاجئة؛ فواصلَ حديثه: «لقد ذهبتُ إلى المدَّعي العام للمقاطعة، وقاضي الصلح، وقاضي المقاطعة، والعُمدة، ورئيس الشرطة. والآن، ما المانع في ذهابي إلى صاحب الشركة؟»

صاحَ بيلي: «يا للهول! أعتقدُ أن لديك الجرأة لذلك!»

أجاب هال بهدوء: «أعتقد أنني سأفعل ذلك.»

هَبَّ الآخر ناهِضًا من كرسيه وهو يشعر بالبهجة الجامحة. وصاح: «أتحدَّاك!»

قال هال: «أنا جاهز.»

«هل تعني ذلك حقًّا؟»

«بالطبع أعنيه.»

«هل ستذهب إليه في هذا الزي؟»

«بالتأكيد. أحد عمَّال المناجم لديه!»

صاحَ الصحفيُّ: «ولكن لن ينجح الأمر. لن يُسمَح لك بالاقتراب منه إلا إذا كنت حسن المَلبس.»

«هل أنت متأكد من ذلك؟ ما أرتديه مناسب لأن يكون زيًّا لعامِل سكة حديدية. لنفترض أنه حدثت مشكلة في إحدى العربات ... في السمكرة، على سبيل المثال؟»

«لكنك لا تستطيع أن تخدع سائق القطار أو الحمَّال.»

«ربما أستطيع. دعنا نحاول.»

سادَ بعضُ الصمت بينما كان كيتينج يفكِّر. قال: «الحقيقة هي أنه لا يهم إن نجح الأمرُ أم لا ... محاولتُك في حَدِّ ذاتها خبرٌ صحفي. أحدُ عبيدِ ملك الفحم يناشِد ابنه! يرفض قلبُ البلوتوقراطية القاسي نداءَ العُمَّال!»

قال هال: «أجل، ولكنني أريدُ حقًّا الوصول إليه. أتُراه قد عاد إلى القطار؟»

«كانوا قد أوشكوا على ذلك عندما غادرتُ.»

«وأين القطار؟»

«قِيل لي إنه على بُعد مائتَين أو ثلاثمائة ياردة شرقي المحطة.»

كان ماكيلار وإدستروم يستمعان منبهرَين بهذه المحادثة الشائقة. قال الأول: «لا بد إذن أنه خلف منزلي مباشرة.»

أضافَ كيتينج: «إنه قطار قصير ... أربع عربات فخمة للاستقبال، وعربة أمتعة. يَسهُل حتمًا التعرُّف عليه.»

تدخَّل الاسكتلندي العجوز مُعترِضًا. وقال: «قد تكون الصعوبة في الخروج من هذا المنزل. لا أعتقد أنهم ينوون السماح لك بمغادرة المنزل الليلة.»

صاحَ كيتينج: «حقًّا، هذا صحيح! نحن نتحدَّث كثيرًا ... دعونا نبدأ العمل. هل يراقبون الباب الخلفي، أتظنون ذلك؟»

قال ماكيلار: «كانوا يُراقبونه طوال اليوم.»

قاطعه هال: «اسمعوا، لديَّ فكرة. إنهم لم يحاولوا اعتراضَ خروجِك يا سيد كيتينج، أليس كذلك؟»

«بلى، لم يفعلوا.»

«ولا أنت يا سيد ماكيلار؟»

قال الاسكتلندي: «بلى، لم يفعلوا.»

قال هال مقترحًا: «حسنًا، ماذا لو أقرضتَني عُكازَتيك؟»

حينذاك صاحَ كيتينج مبتهجًا. وقال: «نِعم الرأيُ!»

أضاف هال: «سآخذُ مِعطفَك وقبعتك. لقد شاهدتُ مِشيتَك، وأعتقدُ أنه يمكنني أن أُحاكيها. أما عن السيد كيتينج، فليس من السهل ألا يعرفوه.»

ضحك الآخر: «بيلي، الفتى السمين! هيا، دعونا نبدأ العمل!»

قال إدستروم، وصوتُه العجوز يرتجف حماسًا: «سأخرج من الباب الأمامي في اللحظة نفسها. ربما سيساعد ذلك في إبعادهم عن طريقنا.»

الفصل الحادي عشر

كانوا يجلسون في الطابق العلوي في غرفة ماكيلار. ثم نهضوا متجهين نحو الدَّرَج عندما سمعوا فجأةً جرس الباب الأمامي. توقَّفوا وحدَّق كلٌّ منهم إلى الآخر. همسَ كيتينج: «ها هم جاءوا!»

جلسَ ماكيلار فجأة، ومَدَّ عُكَّازَتيه إلى هال. وصاح: «القُبَّعة والمعطف في الردهة الأمامية. فلتحاوِل!» كانت كلماته مُفعَمة بالحيوية، ولكنَّ صوتَه كان يرتجف على غرار إدستروم. فلم يَعُد شابًّا، ولم يَعُد قادرًا على خوض المغامرة بروحٍ لا تَعبأ بعواقب الأمور.

ركض هال وكيتينج إلى الطابق السفلي، وتبعَهما إدستروم. ارتدى هال المعطف والقبعة، وذهبَا إلى الباب الخلفي، بينما فتح إدستروم البابَ الأمامي في الوقت نفسه.

كان الباب الخلفي يُفتَح على ساحة، وكانت تلك الساحة تؤدي بدورها إلى زقاق عبر بوابة جانبية. أخذَ قلبُ هال ينبض بشدة عندما بدأ يعرج بالعُكَّازَتين. كان عليه أن يسير بخُطى ماكيلار الوَئِيدة ... بينما بدأ كيتينج يتحدَّث إلى جانبه. وقد أخبره من قبيل تجاذبهما أطرافَ الحديث، مخاطِبًا إياه بـ «السيد ماكيلار»، أن صحيفة «جازيت» كانت صحيفة تؤمن بقضايا الشعب، وتتعهَّد بنشر وجهة النظر الشعبية في جميع المسائل العامة. وبينما كانا يتحدَّثان في ذلك، خرجَا من البوابة ودخَلا الزقاقَ.

خرج رجلٌ من الظل ومشى بجوارهما. ثم مرَّ بينهما على مسافة ثلاث أقدامٍ من هال، ونظر إليه بفضولٍ، عن قرب. لحُسن الحظ لم تكن ليلة قَمَرية؛ ولم يتمكَّن هال من أن يتبيَّن وجهَ الرجل، وأملَ ألا يكون الرجلُ قد تبيَّنَ وجهَه.

في هذه الأثناء، كان كيتينج يواصلُ حديثَه. ويقول: «كما تفهم يا سيد ماكيلار، في بعض الأحيان يكون من الصعب معرفة الحقيقة في وضعٍ كهذا. عندما يملأ أصحابُ المصالح صُحفهم بالأكاذيب والمبالغات، فإننا نميل إلى نشر أكاذيب الطرف

الآخر ومبالغاته. لكننا، مع مرور الوقت، نجد أن من الأفضل نشر الحقيقة يا سيد ماكيلار ... يمكننا دعمها، ولن نتراجع.»

إحقاقًا للحق، لم يكن هال يُولي اهتمامًا كبيرًا بهذه الخطبة البنَّاءة. كان ينظر أمامه، حيث ينتهي الزقاق مؤديًا إلى الشارع. كان هذا هو الشارع الواقع خلف منزل ماكيلار مباشرة، ولم يكن يبعُد عن السكة الحديدية إلا بقدر مربع سكني واحد.

لم يجرؤ على النظر خلفه، لكنه كان يسترق السمع. وقد سمعَ فجأة صُراخًا بصوتِ جون إدستروم. «اركض! اركض!»

في لمح البصر، أسقط هال العُكَّازَتين، وانطلقَ في الزقاق، وفي عَقبَيه كيتينج. سمعَا صراخًا خلفهما، وصوتًا، بدا قريبًا جدًّا، يأمرهما قائلًا: «توقَّفَا!» لكنهما كانا قد وصلا إلى نهاية الزقاق، وكانا قد أوشكا على الانعطاف في الطريق عندما انطلقت رصاصةٌ وتحطَّم زجاج نافذةِ منزلٍ خلفهما على الجانب الآخر من الشارع.

كان أمامهما بعد ذلك قطعة أرضٍ خالية يمرُّ طريقٌ عبرها. وبعد هذا، احتميَا خلف بعض الأكواخ، ووصلَا إلى شارعٍ آخر ... ثم إلى قضبان السكة الحديدية. كان أمامهما طابورٌ طويلٌ من عربات الشحن، وركضَا بين اثنتَين منهما، ومرَّا فوق الوصلات، ورأَيَا محرِّكًا كبيرًا مُتوقفًا، تضيء مصابيحُه بشدة أمام عيونهما. قفزا أمامه، وبجانب القطار، مرَّت مقطورة، ثم عربة أمتعة، ثم عربة فخمة.

صاحَ كيتينج، الذي كان يلهث برئتَيه الأشبه بمِنفَاخ: «هَا نحن!»

رأى هال أنه لم يكن هناك سوى ثلاث عرباتٍ أخرى في القطار، كما رأى رجلًا يرتدي ملابس العمل الزرقاء يقف عند الدرج. اندفعَ نحوه. وصاحَ فيه: «عربتُك تحترق!»

صاح الرجل: «ماذا؟ أين؟»

صرخَ هال: «هنا!»، وفي لمح البصر، قفزَ متجاوِزًا الآخر، وصعدَ الدرج ودلَفَ إلى العربة.

كان هناك ممرٌّ طويلٌ وضيقٌ يمكن لَمَن يراه أن يعرف بسهولة أنه الجزء المخصَّص للمطبخ في عربة الطعام، وفي الطرف الآخر من هذا الممر كان هناك باب مُتأرجِح قفز إليه هال. صاحَ سائقُ القطار فيه أن يتوقَّف، لكنه تجاهله. خلعَ عنه مِعطفَه وقُبعتَه، ثم دفعَ الباب فاتحًا إياه، ودخل إلى غرفة ساطعة الإضاءة ... وفيها وجدَ ابنَ ملِك الفحم.

الفصل الثاني عشر

تلألأت المفارش البيضاء والزجاج المزخرف لقاعة الطعام تحت الإضاءة الكهربائية البرَّاقة، وقد لطَّفَ من وَقْعِها على العين وجودُ ستائر وردية. كان يجلس إلى الطاولات ستة من الفتيان وعدد مماثل من الفَتيات، جميعهم شباب في ثياب السهرة؛ بالإضافة إلى امرأتَين أو ثلاث أكبر سِنًّا. كانوا قد شرعوا في تناول الطبق الأول من وجبتهم، وكانوا يضحكون ويتبادلون أطراف الحديث عندما جاءَ هذا الزائر غير المتوقَّع فجأة، مُرتديًا ملابس عُمَّال المناجم الملطَّخة بالفحم. لم يُثِر إزعاجًا في طريقة دخوله، ولكن سرعان ما جاء خلفه رجلٌ سمين، يتصبَّب عَرَقًا، ذو ملامح جامحة، وكان يَئِزُّ كمحرك بخاري قديم الطراز، ومن خلفه جاءَ سائقُ القطار، في حالة هياجٍ لا تقل وضوحًا. ومن ثَمَّ، انقطعت المحادثة بالطبع. استدارت الفتياتُ في كراسيهن، بينما هَبَّ عددٌ من الفتية الشباب ناهضين.

أعقبَ ذلك صمتٌ، حتى تقدَّم أحد الشباب. وسأله بنبرة استحقاق في طرح السؤال: «ما هذا؟»

تقدَّم هال نحو المتحدِّث، الذي كان شابًّا نحيفًا، حسن المظهر، ولكن لم يكن ثمة ما يُميِّزه. قال هال: «مرحبًا يا بيرسي!»

ظهرت نظرة دهشة على وجه الآخر. أخذَ يحدِّق إليه، ولكن بدا أنه لا يستطيعُ استيعاب ما يراه. وفجأة جاءت صرخة من إحدى الفتيات، صاحبة الشعر الذي بلون حلوى تُوفي دبس السكر عندما تسحبه ... ولكنه هفهافٌ ورائع تمامًا مع مسحة كمسحة غبار النجوم. كانت وجنتاها بلون الفراولة بالحليب، وكانت عيناها البُنيَّتان واسعتَين ومليئتَين بالعجائب. كانت ترتدي فستان سهرة باللون الأخضر الزيتوني ووشاحًا من قماش شفَّاف باللون الأبيض الكريمي مُلقًى حول كتفَيها العاريتَين.

نهضتْ واقفة على قدمَيها. وصاحت: «إنه هال!»

ردَّد الشابُّ هاريجان: «هال وارنر! عجبًا، ما الذي ...؟»

قاطعته ضجة في الخارج. قال هال بهدوء: «انتظر لحظة. أعتقد أن شخصًا آخر سيأتي.»

دُفِع الباب وفُتِح بعنفٍ. دُفِع بعنفٍ شديد حتى إنَّ بيلي كيتينج وسائق القطار قد اندفعا جانبًا، وظهر جيف كوتون عند المدخل.

كان قائد المعسكر يلهث، وكان وجهُه محمومًا جراءَ المطاردة. كان يحمل في يده اليُمنى مُسدَّسًا. نظر حوله، ورأى الرجلَين اللذَين كان يطارِدهما، كما رأى ابن ملِك الفحم، وبقية الجمع المندهِش. وقفَ صامتًا كالأبكم.

دُفِعَ الباب مجدَّدًا، فاضطر إلى التنحِّي جانبًا، واندفعَ رجلان آخران إلى الداخل، كلاهما يحمل مُسدَّسًا في يده. كان الأول بيت هانون، وقد وقفَ هو الآخر مذهولًا. كان «مُهشِّم الأسنان» قد كُسِرَت له سِنَّتان، وكان هذا العيب يُرى واضحًا عندما يفتح فكَّه الشبيه بفَكِّ ملاكِم محترف. ربما كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها جمعًا كهذا، وكان مثل صبي بدين أمسكوا به مُتلَصِّصًا في خزانة للحلوى.

أصبح أسلوب بيرسي هاريجان متعجرفًا على نحوٍ واضحٍ. وسأل: «ماذا يعني هذا؟»

كان هال هو مَن أجاب. فقال: «إنني أبحثُ عن مجرمٍ يا بيرسي.»

«ماذا؟» أطلقت النساء بعضَ صيحات الذُّعر.

«أجل، مجرم؛ ذلك الرجل الذي أغلقَ المنجم.»

ردَّد الآخر: «أغلق المنجم؟ ماذا تعني؟»

«دعني أشرح لك. بداية، دعني أُقدِّم أصدقائي. هاريجان، هذا هو صديقي كيتينج.»

تذكَّر بيلي فجأة أنه يضع قُبَّعة. فخلعَها، لكنه نسي بقية آداب اللياقة الاجتماعية الواجبة. فقد كان مشدوهًا. حتى إنه كان لا يزال يلهث.

قال هال: «بيلي صحفي. ولكن لا داعي لأن تقلق ... فهو رجلٌ نبيل، ولن يخون الثقة. تفهم ذلك يا بيلي.»

قال بيلي بصوتٍ خافتٍ: «نعم ... نعم.»

قال هال: «وهذا هو جيف كوتون، قائد المعسكر في نورث فالي. أعتقد أنك تعلم يا بيرسي أن مناجم نورث فالي تابعة للشركة العامَّة للوقود. كوتون، هذا هو السيد هاريجان.»

ثم تذكَّر كوتون قُبعتَه، وكذلك مُسدَّسه الذي حاول أن يواريه عن الأنظار بوضعه خلف ظهره.

تابع هال: «وهذا هو السيد بيت هانون، وظيفته هي أنه مُهشِّم أسنان. وهذا الرجل الآخر، الذي لا أعرف اسمه، من المفترض أن يكون مُهشِّم أسنانٍ مساعِد.» ثم واصل هال، مُتبعًا آدابَ التعارُف الاجتماعي، كي يمنح عقله الفرصة للتفكير. فقد كان الأمر يعتمد كثيرًا على النهج الذي سيختار اتِّباعه في هذا الموقف الطارئ! هل يجب أن يأخذ بيرسي جانبًا ويخبره القصة بهدوء، ويترك القرار لوازعِه الإنساني وإحساسه بالعدالة؟ كلَّا، لم تكن هذه الطريقة المناسبة للتعامل مع آلِ هاريجان! لقد شقُّوا طريقَهم بالقوة ليتصدَّروا الصفوفَ الأولى في المجتمع؛ وإذا كان شيءٌ سيُفلح معهم، فلا بد أن يكون بالقوة. إذا كان يريد أن يحصل على شيء من بيرسي، فسيكون ذلك بمواجهته أمام هؤلاء الضيوف، وفضح الوضع أمامهم، وتأجيج مشاعرهم واستغلالها لإثاره استيائه تجاه ما حدث!

راحَ ابن ملِك الفحم يطرح الأسئلة مجددًا. لِمَ كل هذا؟ ومن ثَمَّ، بدأ هال في وصف وضع العمَّال داخل المنجم. فقال: «ليس لديهم طعام أو شراب، إلا ما كان لديهم في دِلاء العشاء، وقد مرَّت ثلاثة أيام ونصف اليوم على الانفجار! إنهم يتنفَّسون هواءً مُلوَّثًا؛ رءوسُهم تؤلِمهم، والعروق تنتفخ في جباههم، وألسنتُهم تتشقَّق، ويسقطون على الأرض لاهثين. ولكنهم منتظرون ... وقد تشبَّثوا بالحياة بفضل ثقتهم في أصدقائهم خارج المنجم، الذين سيحاولون الوصول إليهم. إنهم لا يجرءُون على إزالة الحواجز؛ لأن الغازات ستقتلهم دفعة واحدة. لكنهم يعرفون أن رجال الإنقاذ سيأتون، ومن ثَم ينتظرون أن يسمعوا أصواتَ الفئُوس والمعاوِل. هذا هو الوضع.»

توقَّف هال وانتظر ظهور أي أمارات للقلق على وجه الشاب هاريجان. لكن شيئًا كهذا لم يظهر. ومن ثَمَّ، تابع هال:

«فكِّر في الأمر يا بيرسي! يوجد رجلٌ عجوز في ذلك المنجم، أيرلندي، ولديه زوجة وثمانية أطفال ينتظرون معرفة مصيره. أعرفُ امرأة لها زوجٌ وثلاثة أبناء محتجَزون داخل المنجم. مضت ثلاثة أيام ونصف والنساءُ والأطفالُ عند فتحة المنجم؛ رأيتُهم جالسين ورءوسهم مُنكَّسة فوق رُكَبهم، أو يهزون قبضاتِ أيديهم ويصرخون لاعنين المجرم المسئول عن ذلك.»

سادَ بعضُ الصمت. سألَ الشابُّ هاريجان: «المجرم؟ لا أفهم!»

«لن تصدِّق ذلك؛ ولكن لم يُتَّخذ أيُّ إجراءٍ لإنقاذ هؤلاء العُمَّال. غطَّى المجرم فتحة المنجم بالألواح وأوصدها، ووضعَ القماشَ المشمَّع فوقها … حابسًا الرجال والصبيان حتى الموت!»

تعالى صوت همهماتٍ فَزِعة من الجمع الجالس إلى مائدة العشاء.

«أعلم أنه لا يمكنك تصوُّر شيء كهذا. السبب هو أنَّ حريقًا قد اندلع في المنجم؛ وإذا شُغِّلت المروحة، سيحترق الفحم. ولكن، يمكن في الوقت نفسه إزالة الدخان من بعض الممرات، وإنقاذ بعض الرجال. ومن ثَمَّ، فالمسألة هي إما الحفاظ على الملكية وإما على الأرواح؛ وقد قرَّر المجرم الحفاظ على ملكيته. اقترَح الانتظار أسبوعًا، أو أسبوعَين، حتى تخمد النيران، وعندئذٍ بالطبع سيكون الرجال والفتيان قد ماتوا.»

سادَ الصمتُ. ولكن قطعَه الشابُّ هاريجان. «مَن فعل هذا؟»

«اسمه إينوس كارترايت.»

«ومَن يكون؟»

«لقد ضلَّلتُك قليلًا يا بيرسي عندما قلتُ إنني أبحث عن المجرم. وقد فعلتُ ذلك لأني أردتُ أن أستجمِع أفكاري.» توقَّف هال قليلًا، وعندما واصلَ حديثه أصبح صوتُه أكثر حِدَّة، وكان وَقْعُ كلماته كضرباتِ السوط. قال: «المجرم الذي أخبرتُك عنه هو المشرف على المنجم … رجلٌ عيَّنَته الشركة العامَّة للوقود ووضعته في السلطة. والشخص الذي يطاردونه الآن ليس الشخص الذي أغلقَ المنجم، ولكن الذي طالب بفتحه. لقد عاملوه معاملة المذنِبين؛ لأنَّ الشركة العامة للوقود انتهكت قوانين الدولة وكذلك قوانين الإنسانية؛ فاضطرَّ إلى أن يلجأ إلى عربتك، علَّه يجد مَلاذًا لإنقاذ حياته من البلطجية والمسلَّحين العاملين لدى الشركة!»

الفصل الثالث عشر

كان هال يدرك بحُكم معرفته الجيدة بهؤلاء الأشخاص وَقْعَ هذه الصاعقة التي نزلَ بها عليهم. كانوا أشخاصًا تَعنِيهم الكياسة والذوق أكثر من أي فضيلة أخرى؛ كان يعلم مدى انزعاجهم مما قال. وإذا كان يريد أن يستميلهم إلى جانبه ولو بأقل قدرٍ ممكن، فلا بد أن يشرح سببَ وجوده هنا … واقتحامه المكانَ مُتَعديًا على ممتلكات عائلة هاريجان.

تابعَ قائلًا: «بيرسي، تذكر كيف اعتدتَ توبيخي في العام الأخير في الكلية؛ لأنني كنت أستمع إلى «الصحفيين الاستقصائيين». لقد اتخذت الأمر على محمل الإهانة الشخصية. كنت تعلم أن حكاياتهم لا يمكن أن تمتَّ للحقيقة بصِلة. لكنني أردتُ أن أرى بنفسي، ومن ثَمَّ ذهبتُ للعمل في أحد مناجم الفحم. كنت حاضرًا لحظة الانفجار، ورأيتُ هذا الرجل المدعو جيف كوتون، يقود النساءَ والأطفال بعيدًا عن فتحة المنجم مُنهالًا عليهم بوَابلٍ من الضرب والسباب. وشرعتُ في مساعدة الرجال المحاصَرين داخل المنجم، فطردني القائدُ من المعسكر. قال لي إنني إن لم أهتمَّ بشئوني الخاصة، فعليَّ أن أترقَّب ما سيحدث لي في إحدى الليالي المظلمة. وكما ترى … فهذه ليلة مظلمة!»

انتظر هال ليمنح الشاب هاريجان فرصة لاستيعاب الموقف وتولِّي زمام الأمور. ولكن يبدو أن الشاب هاريجان لم يكن يُدرك وجود قائد المعسكر ومُسدَّسه. حاول هال مرة أخرى، قائلًا:

«من الواضح أن هؤلاء الرجال لا يتورَّعون عن قتلي؛ فقد أطلقوا النار عليَّ للتوِّ. ولا يزال القائدُ يحمل مُسدَّسه، ويمكنك أن تشمَّ رائحة دخان البارود. ولهذا تجرَّأتُ على الصعود إلى عربتك يا بيرسي. كان ذلك لإنقاذ حياتي، وعليك أن تعذِرَني.»

وهكذا حظي ابن مِلك الفحم فجأة بفرصة لإظهار شهامته. فسارعَ لاقتناصها. وقال: «بالطبع يا هال. كان من الصائب تمامًا أن تأتي إلى هنا. إذا كان موظفونا يتصرفون

بهذه الطريقة، فإنهم لم يُمنحَوا السلطة التي تُخوِّل لهم ذلك، وسوف ينالون جزاءَهم بالتأكيد.» تحدث بثقة وهدوء؛ فقد كانت هذه هي طريقة آل هاريجان المعهودة، ووقفَ جيف كوتون وحارسَا المنجم وقد بدت عليهم ملامح الدهشة والإجفال.

قال هال: «شكرًا لك يا بيرسي. هذا ما علمتُ أنك ستقوله. أنا آسف لأنني قاطعتُ حفل عشائك ...»

«لا على الإطلاق يا هال؛ لم يكن حفلًا بالمعنى المقصود.»

«كما ترى يا بيرسي، لم يكن الأمر لإنقاذ نفسي فحسب، بل أيضًا لإنقاذ أولئك الأشخاص في المنجم! إنهم يموتون، وكل لحظة تمرُّ هي فرصة ثمينة لا تُقدَّر بثمنٍ. سيستغرق الأمرُ يومًا كاملًا على أقل تقديرٍ للوصول إليهم، ومن ثَمَّ سيكونون في الرمق الأخير. وأيًّا كان الإجراء الذي سيُتَّخَذ، فلا بد من الشروع فيه في الحال.»

انتظر هال مجدَّدًا ... حتى باتَ الصمتُ مُربِكًا. كان الحضور لا يزالون يُعلِّقون أنظارهم به، ولكنهم تحوَّلوا الآن بأنظارهم إلى الشاب هاريجان، وشعر الشاب هاريجان بهذا التحوُّل.

«لا أعرف ما تتوقَّعه مني تحديدًا يا هال. إنَّ والدِي يوظِّف رجالًا أَكْفَاء لإدارة أعماله، ولا أتصوَّر بالطبع أن لديَّ المعرفة الكافية لإمدادهم بأي اقتراحات.» هذا أيضًا من أساليب عائلة هاريجان، لكنه أظهر ضعفَه أمام نظرة هال الحازمة. وأضاف قائلًا: «ما الذي يمكنني فعله؟»

«يمكنك إصدارُ الأمر بفتح المنجم، وتشغيل مِروحة التهوية. هذا من شأنه أن يسحب الدُّخَان والغازات، ومن ثَمَّ يتمكَّن رجال الإنقاذ من النزول إلى المنجم.»

«ولكني أؤكد لك يا هال أنني لا أتمتع بسلطة إصدار أمرٍ كهذا.»

«يجب أن تتولى السُّلطة. والدُك في الشرق، وموظَّفو الشركة نائمون في أَسرَّتهم في المنازل، وأنتَ هنا!»

«لكنني لا أفهم مثل هذه الأمور يا هال! لا أعرف أيَّ شيء عن الوضع ... باستثناء ما تقوله لي. ومع أنني لا أشكُّ في كلامك، فالخطأ واردٌ لأي شخص في موقف كهذا.»

«تعالَ لترى بنفسك يا بيرسي! هذا كلُّ ما أطلبه، وهو أمرٌ في غاية السهولة. لتجعل قطارك، ولا يزال محركُه يعمل، يتَّجِه إلى فرع الشركة في نورث فالي، ويمكننا أن نصل إلى المنجم خلال نصف ساعة. وبعد ذلك، دعني آخذُك إلى الرجال الذين يعرفون كُلَّ شيء! الرجال الذين قضوا حياتهم في العمل داخل المناجم، الذين شهدوا تلك الحوادث مرارًا

وتكرارًا، والذين سيُخبرونك بالحقيقة ... وهي أن ثمة فرصة لإنقاذ العديد من الأرواح، وأن هذه الفرصة تُهدَر في سبيل الحفاظ على فحمٍ وأخشابٍ وقُضبان تُقدَّر ببعض الآلاف من الدولارات.»

«ولكن حتى إن كان هذا صحيحًا يا هال، فليست لديَّ أي سلطة!»

«إذا ذهبتَ إلى هناك، فيمكنك كسر الحواجز الروتينية في دقيقة واحدة. ما يفعله هؤلاءِ الرؤساءُ هو أمرٌ لا يمكن فِعله إلا في الظلام!»

انهزمَ أسلوب عائلة هاريجان أمام حماسة هال وضغطه؛ إذ تحوَّل ابن ملك الفحم إلى شاب عادي تمامًا مُشوَّش الفِكر. ولكن، كانت هناك قوة أكبر من هال وراءه. ومن ثَمَّ، هَزَّ الشاب رأسه. وقال: «صاحبُ الشركة هو المنوط بالأمر يا هال. ولا يحقُّ لي أن أتدخَّل!»

التفتَ الآخرُ يائسًا إلى بقية الجَمْع. واستقرَّ نظره، الذي كان يُجيله من وجه إلى آخر، على وجه تلك الفتاة الشبيه بما يظهر على أغلفة المجلات، بعينَيها البُنِّيتَين الواسعتَين، والمليئتَين بالعجائب.

«جيسي! ما رأيك في ذلك؟»

أجفلت الفتاة، ووثبَ الحزنُ إلى وجهها. وسألته: «ماذا تعني يا هال؟»

«أخبريه أنَّ عليه أن ينقذ تلك الأرواح!»

بدت اللحظات كأنها دهورٌ بينما كان هال ينتظر ردَّها. كان يدرك أنه اختبار. غضَّت الفتاة عينَيها البُنيتَين لأسفل. وقالت: «أنا لا أفهم في مثل هذه الأمور يا هال!»

«لكني أشرحها يا جيسي! يوجد رجال وفِتيان يختنقون حتى الموت، توفيرًا لبعض الأموال. أليس هذا واضحًا؟»

«ولكن كيف لي أن أعرف يا هال؟»

«أؤكد لكِ يا جيسي. وما كنت لأُناشِدَكم حتمًا لولا أنني أعرفُ أنه أمرٌ مؤكَّد.»

كانت لا تزال متردِّدة. وهنا ظهرت فجأة نبرة من العاطفة في صوته: «جيسي، عزيزتي!»

رفعت الفتاة عينَيها للنظر إليه، وبدت كأنها مَسلوبة الإرادة، ورأى وهَجًا قِرمزيَّ اللون من الإحراج ينتشر على حَلْقِها ووَجنتَيها. قال هال: «جيسي، أعلم أن طلبي يبدو ثقيلًا! ولكنكِ لم يسبِق أن تصرفتِ بوقاحة مع أي من أصدقائكِ. لكني أتذكَّر أنكِ قد نسيتِ ذات مرة أدبَك وأخلاقك ونحَّيْتِهما جانبًا عندما رأيتِ رجلًا غليظ القلب في الشارع

يضرب حصانًا عجوزًا مُنهَكًا. ألا تتذكَّرين كيف اندفعتِ نحوه ... مثل وحش جامِح! والآن ... فكِّري في الأمر يا عزيزتي، هناك مخلوقاتٌ كادِحة مسكينة تُعذَّب حتى الموت، ولكنها ليست خيولًا ... بل عُمَّالٌ!»

كانت الفتاة لا تزال تُحدِّق إليه. كان في إمكانه أن يرى الحزن والفزع في عينَيها، رأى الدموع تنهمر منهما، وتسيل على وجنتَيها. صاحت: «أوه، لا أدري، لا أدري!» وأخفت وجهَها بين يدَيها، وأجهشت بالبكاء.

الفصل الرابع عشر

ساد صمتٌ مؤلم. جالَ هال بناظريه بين الحضور، واستقرَّ على سيدة رمادية الشعر ترتدي فستانَ سهرة أسود اللون، ويوجد عِقْدٌ من اللؤلؤ حول عُنقها. وقال: «السيدة كيرتِس! ستنصحينه بالطبع!»

أجفلت السيدة ذات الشعر الرمادي ... ألم يكن هناك حَدٌّ لجرأته؟ لقد لاحظت الألم الذي شعرت به جيسي. لكن جيسي كانت خطيبته؛ ولم يكن لديه مثل هذا الحق لطلب شيء كهذا من السيدة كيرتِس. أجابت ببرودٍ شديدٍ: «لا أستطيع أن أُملي على مُضيفي ما يفعله في أمرٍ كهذا.»

«سيدتي كيرتِس! لقد أسستِ جمعية خيرية لمساعدة القطط والكلاب الضالة!» همَّ هال أن يقول هذه الكلمات، لكنه لم ينطق بها. وأخذ يجُول بناظريه مجددًا. مَن غيرهما ربما يساعد في الضغط على هاريجان؟

كان ريجي بورتر يجلس بجانب السيدة كيرتِس، واضعًا وردةً في عروة سترة السهرة التي كان يرتديها. وكان هال يعرف ما يفعله ريجي وسط هذا الجَمْع ... شكلٌ من المرافقين الذكور، مُضيف مساعِد، مُعجَب بالأثرياء، سَلوى للمَلُولين. كان ريجي المسكين يعيشُ حياةَ الآخرين، كانت روحُه دائمًا مُتحمِّسة لأفكار الآخرين، للقِيل والقال، ولتحضيرات حفلات الشاي، وللثناء على حفلات الشاي السابقة. لديه روحٌ لا تهدأ؛ ونفسٌ تُجري الحسابات، وتُقدِّر الاحتمالات، وتحاول تعويض قلة المال باللباقة والأناقة. ألقى هال نظرة سريعة على وجهه؛ فوجد أن شُعيرات شاربه الأسود الخفيف قد انتصبَت من فرط تأثُّره ... كان ريجي يتوقَّع أن يوجِّه هال إليه سؤاله، وكان قد استعدَّ ليردَّ بالإجابة التي من شأنها أن تزيد من مكانته ورصيده الاجتماعي لدى عائلة هاريجان!

عَبْر الممر، جلست جينيفيف هالسي، بقوامِها الرشيق وقامتها الطويلة الممشوقة كالتمثال. عندما تنظر إليها تُذكِّرك بالإلهة جونو ذات العينَين الكبيرتَين الأشبه بعينَي الثَّوْر، وتُشعرِك بالمهابة، ولكن عندما تعرفُها جيدًا تكتشف أنها بليدة الذهن، ولا يشغلها شيءٌ إلا نفسها. كان يجلس بجانبها بوب كريستون، حليقَ الذقن، مُتورِّدَ الوجنتَين، ينضح بمظاهر الرفاهية ... كان مثالًا لما يسمونه «الرفيق الجيد»، بطموحه المحمود للفوز بالكئوس لصالح ناديه الرياضي، والحفاظ على نقاط فريق الرماية المنتمي إليه والتابع لميليشيا الدولة. ربما كان في إمكان جولي بوب أن يتحدَّث بدافعٍ من قلبه الطيب، لكنه كان مُغرَمًا بإحدى قريبات بيرسي، وتُدعَى بيتي جونيسون، وكانت تجلس أمامه على الجهة الأخرى من الطاولة ... وقد رأى هال عينَيها السوداوين تلمعان، وقد أحكَمت قبضتَيها الصغيرتَين بقوة، وكزَّت على شفتَيها حتى ابيضَّتَا. كان هال يفهم بيتي ... لقد كانت أحدَ أفراد عائلة هاريجان، وكانت تؤدي دورها — الذي يُمثِّل عقيدة راسخة لدى العائلة — في تحويل أطفال بائع مُتجوِّل إلى قادة مؤثِّرين في «مراحل شبابهم القادمة»!

تلت ذلك في ترتيب الجالسين «فيفي» كاس، التي كان حديثُها عن الخيول والكلاب وما إلى ذلك من الأمور التي لا تشغل الفتيات عادةً، وكان هال قد ناقش مسائلَ اجتماعية في حضورها من قبل، وسمع رأيَها الذي عبَّرت عنه بجملة لافتة ... حين قالت: «إذا كان المرء يأكل بسكينِه، فإني أعتبره عدوِّي الشخصي!» ومن فوق كتفها أطلَّ وجهُ رجل ذي عينَين شاحبتَين وشارب أصفر ... إنه بيرت أتكينز، مُتشائم قد أرهقته الحياة، واحد من هؤلاء الذين كانت تشير إليهم الصحف باسم «رجال النوادي»، والذي وصفه شقيقُ هال بأنه «قِطٌّ أليف». كان هناك أيضًا «ديكي» إيفرسون، الذي كان مثلَ هال يحظَى بحظوة لدى النساء، ولكن لم يكن من شيء آخر يُميِّزه، و«بيلي» هاريس، ابن «رجلِ فحمٍ» آخر، وديزي شقيقته، وبلانش فاجلمان، الذي كان والدُها كبيرَ محامي العجوز بيتر، وشقيقُها هو المستشار المحلي وصاحب صحيفة «بيدرو ستار».

وهكذا جالَ هال بناظريه من وجه إلى آخر، وجالَ بتفكيره من شخصية إلى أخرى. كان الأمر أشبه بفتح لفيفة، استعراض لعالَم كاد ينساه. لم يكن لديه وقت للتفكير، ولكنْ ثمة انطباع باغته، انطباع سريع وغامر. لقد كان يعيش ذات يوم في هذا العالَم وقد اعتادَه. لقد كان يعرفُ هؤلاءَ الناس، ورافقَهم؛ وكانوا يَبدون ودودين، ومتعاونين، أشخاصًا صالحين في العموم. والآن، يا له من تغيير! لم يعودوا يبدون ودودين! هل كان التغيير فيهم؟ أم أنَّ هال هو مَن أصبح مُتشائمًا ... إلى درجة أنه رآهم بهذا الصورة

الجديدة المرعِبة، والباردة، وغير المبالية كالنجوم التي لا تعبأ بالرجال الذين يموتون على بُعد أميالٍ قليلة منها!

عادَ هال بناظريه إلى ابن ملِك الفحم، ورأى أنه قد استشاطَ غضبًا. إذ قال: «أؤكد لك يا هال، لا فائدة من الاستمرار في هذا. لن أسمح لأحدٍ بأي حال من الأحوال بالضغط عليَّ.»

تحوَّل نظرُ بيرسي بعزمٍ مفاجئ إلى قائد المعسكر. وقال: «كوتون، ما رأيُك في ذلك؟ هل السيد وارنر محقٌّ في تصوُّره عن الوضع؟»

قاطعه هال: «أنت تعرف ما سيقوله رجلٌ مثله يا بيرسي!»

وكان ردُّ بيرسي أنه قال: «لا، لا أعرف. أودُّ أن أعرف. ما الأمر يا كوتون؟»

«إنه مخطئ يا سيد هاريجان.» كان صوتُ القائد قويًّا وجريئًا.

«ماذا تعني؟»

«تبذل الشركة قصارى جهدها لفتح المنجم، وقد كانت تفعل ذلك منذ البداية.»

«أوه!» وكانت ثمة نبرة انتصار في صوت بيرسي. «وما سبب التأخير؟»

«كانت المروحة مُعطَّلة، وكان علينا أن نرسل في طلب إحضار مروحة جديدة. يتطلَّب الأمر الكثيرَ من العمل لتشغيلها ... مثل هذه الأمور لا يمكن إنجازُها في غضون ساعة.»

التفتَ بيرسي إلى هال. وقال: «أترى! هناك رأيان في المسألة، على أقل تقديرٍ!»

صاحت بيتي جونيسون، وهي ترمُق هال بعينَيها السوداوَين: «بالطبع!» كانت ستستفيض في الحديث، ولكن هال قاطعها، واقتربَ من مضيفه. قال بصوتٍ منخفض: «بيرسي، ركِّز انتباهَك معي من فضلك. أريدُ أن أقول لك شيئًا على انفرادٍ.»

كانت هناك نبرة تهديدٍ في صوت هال، وقد تحوَّل نظره إلى نهاية العَرَبة، حيث لا يوجد إلا نادلان من الزنوج. تراجعَ النادلان على عجلٍ عندما اتجه الشابان نحوهما، وهكذا، عندما انفرد هال بابن ملِك الفحم، خاضَ معركته الأخيرة معه.

الفصل الخامس عشر

كان هال يعرف بيرسي هاريجان معرفة زملاء الدراسة. لم يكن غليظ القلب كوالِده العجوز القاسي؛ كان فقط مُنغمِسًا في الملذَّات، مثله مثل أي شخص يجد في حوزته كل شيء دائمًا، وقد كان ضعيفًا، مثل شخصٍ لم يضطر قطُّ إلى اتخاذ قرارٍ جريء. لقد ربَّته نساءُ العائلة لكي يصبح جزءًا مما يسمونه «صفوة المجتمع»؛ حيث يُنشئن لديه مفاهيم سامية عن مكانته الاجتماعية. لم تكن تُهيمن على حياة عائلة هاريجان إلا ذكرى مؤلمة وحيدة ... وهي ذكرى البائع المتجوِّل، وكان هال يعلم أن هدف بيرسي الأكثر إلحاحًا هو أن يَعُدَّه الناسُ أرستُقراطيًّا حقيقيًّا وأصيلًا ومِعطاءً. وهذه هي المعلومات التي كان هال يستخدمها في معركته معه.

بدأ هال بالاعتذار محاوِلًا امتصاص غضب بيرسي وتهدئته. لم يكن في نيَّته أن يكون لقاؤهما على هذا النحو؛ بل كان الرجلان المسلَّحان هما مَن أجبراه على ذلك؛ إذ عرَّضا حياته للخطر. لقد كان من المروِّع أن يُطارَد ليلًا ويُطلَق عليه الرصاص! لقد فقدَ أعصابه حقًّا؛ ونسيَ حتى القدر الضئيل من حُسن الخلق الذي كان قادرًا على الحفاظ عليه كمساعِد عامل منجم. أحرجَ نفسَه، أجل يا إلهي، لقد أدركَ كيف بدا — بلا شكٍّ — في أعين الآخرين!

... ونظر هال إلى سترة عامل المنجم القذِرة، ثم إلى بيرسي. وجدَ بيرسي على وفاقٍ تام معه حتى الآن ... لقد جعل من نفسه موضوعًا للسخرية، ومن بيرسي أيضًا! شعر هال بالأسف لهذا السبب الأخير، ولكن ها هما الآن، في ورطة، وكان أوانُ التراجع قد فاتَ بالتأكيد. أصبح الأمر علنيًّا ... ولم يعد هناك مجال لإخفائه! ربما كان في إمكان هال إسكات صديقه الصحفي، وربما كان في إمكان بيرسي إسكات النادلَين وسائق القطار

وقائد المعسكر والحارسَين المسلَّحَين … لكنه لم يكن ليستطيع إسكات جميع أصدقائه! لن يتحدَّثوا عن شيء آخر لأسابيع! سينتشر الخبرُ في جميع أنحاء ويسترن سيتي في غضون يوم واحد … هذه القصة الميلودرامية المذهلة والمثيرة لمساعِد عامل المنجم الذي اقتحم العربة الخاصة لابن ملك الفحم!

تابع هال قائلًا: «ولا بد أنك تعلم يا بيرسي، أن شيئًا كهذا يلتصق بالمرء. إنه شيءٌ سيُشكِّل الجميعُ فكرتهم عنك من خلاله ما حييت!»

قال الآخر في محاولة للرجوع إلى أسلوب عائلة هاريجان: «إنني لا أتورَّع أبدًا في الرد على انتقادات أصدقائي.»

تابع هال دون تهاون: «يمكنك كتابة نهاية القصة كما تريد. فإما أن يقولوا إنه فضَّل الإبقاء على ماله، وإما سيقولون إنه فضَّل الإبقاء على أرواح الناس. صدِّقني يا بيرسي، عائلتُك ليست في حاجة ماسَّة إلى تلك الأموال تحديدًا! عجبًا، لقد أنفقتَ أكثر من ذلك على رحلتك هذه بالقطار!»

وانتظر هال كي يمنح ضحيَّته وقتًا للنظر في الأمر.

وكانت نتيجة التفكير سؤالًا كان أجدر بالعجوز بيتر. «ما الذي ستستفيده من جرَّاء هذا؟»

قال هال: «بيرسي، يجب أن تعلم أنني لن أستفيد شيئًا! إذا كنت لا تستطيع أن تفهم الأمر على نحوٍ آخر، فلتعتبر أنك تتعامل مع رجلٍ غير مسئول. لقد مررتُ بالكثير من الأحداث الفظيعة … طاردني قادة المعسكرات كثيرًا … أجل يا بيرسي، ذلك الرجل المدعو كوتون لديه ست رصاصاتٍ في مسدسه! سأُصاب بالجنون.» ولاحت في عينَيه البُنيتَين نظرة شرسة كانت كفيلة أن تقنع رجلًا أقوى من بيرسي هاريجان بحقيقة الوضع. وأضاف هال: «لم أعُد أُفكِّر إلا في شيء واحد يا بيرسي … أن أُنقِذ عُمَّال المناجم هؤلاء! أنت مخطئ ما لم تدرك مدى الأسى الذي أُعانيه. لقد سعيتُ في الأمر حتى الآن بصفتي غير الرسمية! فقد فعلتُ كلَّ شيء بصفتي جو سميث، مساعِد عامِل المنجم. لو كنت قد أعلنت عن اسمي الحقيقي … حسنًا، ربما لم أكن لأتمكَّن من حملِهم على فتح أبواب المنجم، ولكن كنت على الأقل سأتسبَّب في الكثير من المتاعب للشركة العامة للوقود! لكنني لم أستطع فعل ذلك؛ فأنا أعرف حجم الفضيحة التي ستنجم عن ذلك، وكنت مضطرًّا إلى التفكير في والدي. ولكن إذا رأيتُ أنه ليس هناك حلٌّ آخر، إذا كان الأمر يتعلق بترك هؤلاء الناس يهلكون، فسألقي بكل شيء آخر في مهب الريح. أخبر والدَك بذلك؛ أخبره أنني

هدَّدت بإطلاق يَد هذا الرجل كيتينج وإعلان الأمر … سأُدين الشركة، وأناشِد الحاكِم، وأثير الاضطراب، وليُلقوا القبضَ عليَّ في الشارع، إذا لزم الأمر، لأُعلِن الحقائق على رءوس الأشهاد. كما ترى، فإن الحقائق معي يا بيرسي! لقد كنت هناك ورأيتُ بأم عيني. ألا يمكنك أن تستوعبَ ذلك؟»

لم يُجِبِ الآخر، ولكن كان من الواضح أنه استوعبَ الأمر.

أردف هال: «من ناحية أخرى، انظر كيف يمكنك إصلاح الأمر، إذا اخترتَ أن تفعل ذلك. كنتَ في رحلة ترفيهية عندما سمعتَ بهذه الكارثة، وهرعتَ إلى هناك وأصدرتَ الأمر، وفتحتَ المنجم، وأنقذتَ حياة موظَّفيك. هكذا ستكتب عنك الصحف.»

أدرك هال، من خلال مراقبة ضحيَّته من كَثَب ومحاولة تلمُّس أفكاره، أنه قد أخطأ في نهجه. على الرغم من فظاظة أصل آل هاريجان، فقد علموا أن استجلاب الأنظار ليس من الأرستقراطية في شيء.

سارع هال بأن قال: «حسنًا إذن! لا داعي لذكر اسمك إذا كنت تُفضِّل ذلك. فالتقاريرُ تحت تصرُّف الرؤساء في المعسكر، وسوف يتعاملون مع الأمر بالطريقة التي تريدها. الشيء الوحيد الذي يُهمُّني هو أن تأخذ قطارك إلى هناك وتأمر بفتح المنجم. هل ستفعل ذلك يا بيرسي؟»

كان هال يُحدِّق إلى عينَي الآخر، مُدرِكًا أن حياة عُمَّال المناجم أو موتهم رهنُ إيماءةٍ منه. «حسنًا؟ ما جوابُك؟»

صاحَ بيرسي: «هال، سيُريني أبي الويل!»

«حسنًا، ولكن من ناحية أخرى، ما سأُريك إياه هو الويل بعينه، بل هو أسوأ؟»

سادَ الصمتُ مجددًا. «اذهب يا بيرسي! بالله عليك!» وكانت نبرة هال يائسة ومثيرة للقلق.

وفجأة، استسلم الآخر. وقال: «حسنًا!»

تنفَّس هال الصُّعَداء. وأضافَ قائلًا: «لكن انتبِه! لا تسمح لهم بخداعك هناك! سيحاولون التلاعُب بك … وقد يصل بهم الأمر إلى رفض الانصياع لك. ولكن يجب أن تتمسَّك بموقفك … لأنني، كما ترى، سأستمر، لن أستسلم حتى يُفتَح هذا المنجم. لن أتوقَّف أبدًا حتى ينزل رجال الإنقاذ إليه!»

«هل سيذهبون إلى هناك يا هال؟»

«سيذهبون؟ يا إلهي؛ يا رجل، إنهم يطالبون بفرصة للذهاب! لقد كادوا يقومون بأعمال شغبٍ من أجل ذلك. سأذهب معهم، وأنت أيضًا يا بيرسي ... جميع مجموعتنا من العاطلين سيذهبون! وعندما نخرج من هناك، سوف نتعلَّم شيئًا عن صناعة تعدين الفحم!»

قال ابن ملك الفحم: «حسنًا، سأذهبُ معك.»

الفصل السادس عشر

لم يعرف هال قطُّ ما قاله بيرسي لكارترايت في تلك الليلة؛ ما عرفه هو أنهما عندما وصلا إلى المنجم، استُدعيَ المشرفُ للتشاور، وبعد نصف ساعة ظهر بيرسي مبتسمًا، ومُعلِنًا أن هال وارنر كان مخططًا منذ البداية؛ فقد بذلت السلطات في المنجم قصارى جهدها لتجهيز المروحة، بهدف فتح المنجم في أقرب وقتٍ ممكن. لم يكن العمل قد اكتمل، وفي غضون ساعة أو ساعتَين كان من المقرَّر تشغيل المروحة، وبحلول الصباح ستكون هناك فرصة لدخول رجال الإنقاذ إلى المنجم. قال بيرسي هذا ببراءة شديدة إلى درجة أن هال تساءل للحظة عما إذا كان ثمة احتمال بأن بيرسي نفسه ربما لم يكن يصدق ذلك. كان موقف هال بصفته ضيفًا على المكان يتطلَّب — بالطبع — أن يتظاهر بلطفٍ بتصديق ذلك، ويوافق على الظهور بمظهر الأحمق أمام بقية الجَمْع.

دعا بيرسي هال وبيلي كيتينج لقضاء الليلة في القطار، لكن هال رفضَ هذا. وقال إنه كان مُتَّسخًا للغاية، إلى جانب أنه أراد أن يستيقظ في أول النهار، ليكون من أوائل الذين ينزلون إلى بئر المنجم. أجابَ بيرسي بأن المشرف قد اعترضَ على هذا الاقتراح ... لم يكن يريد أن ينزل إلى البئر أحدٌ سوى الرجال ذوي الخبرة الذين يمكنهم الاعتناء بأنفسهم. وبينما كان هناك الكثير منهم من المستعدين والمتحمسين للنزول، فلم تكن هناك حاجة إلى تعريض حياة غير المختصين للخطر.

على الرغم من احتمال أن يبدو فظًّا، أعلن هال أنه سوف «ينتظر» ويشاهدهم وهم يرفعون الغطاء عن فتحة المنجم. كانت هناك تجمُّعاتٌ للنحيب في بعض الأكواخ، حيث تتجمَّع النساءُ اللاتي لم يكُنَّ يستطعن النوم، وكان من باب الرحمة أن ينقلوا لهن الأخبار الجيدة.

انطلق هال وكيتينج، وذهبا أولًا إلى عائلة رافيرتي، ورأيَا السيدة رافيرتي تنهضُ وتحدِّق إليهما، ثم تصرخ عاليًا مستنجِدة بالسيدة العذراء، ما أيقظ جميعَ أبناء رافيرتي الصغار على صخبٍ مُروِّع. عندما تأكَّدت المرأة من صحة ما يتحدثان عنه، هرعت لنشر الخبر، وهكذا سرعان ما كانت الشوارع تعجُّ بأشخاصٍ يسرعون الخُطى، وتجمَّع حشدٌ من الناس مجددًا عند فتحة المنجم.

واصل هال وكيتينج جولتهما إلى منزل جيري مينيتي. ومن منطلق الشعور بالولاء لبيرسي، لم يفعل هال شيئًا أكثر من أنه كرَّر ما صرَّح به بيرسي من أن كارترايت كان في نيته طوال الوقت فتح المنجم. كان من الممتع رؤية تأثير هذا الإعلان في الناس ... يا لها من نظرة نظرها جيري إلى هال! غير أنهما لم يُضيِّعا أيَّ وقت في المناقشة؛ حيث ارتدى جيري ملابسَه مسرعًا، وهرعَ معهما إلى فتحة المنجم.

من المؤكَّد أن ثمة طاقمًا ما كان يعمل بالفعل على إزالة الألواح والقماش. لم يسبق قطُّ منذ وصول هال إلى نورث فالي أن رأى رجالًا يعملون بمثل هذا العزم! وسرعان ما بدأت المروحة الكبيرة في الحركة، ثم في إصدار صوت هدير، ثم صوت كالغناء، وكان هناك جَمْع من مائة شخص يهدرون ويغنون أيضًا.

كان الأمر يستلزم بضع ساعاتٍ قبل أن يتمكَّنوا من فعل أي شيء آخر، وفجأة أدرك هال أنه مرهَق. فعاد هو وبيلي كيتينج إلى كوخ مينيتي وفرشَا بطانية على الأرض، واستلقَيا متنفِّسَين الصُّعَداء. أما بيلي، فسرعان ما بدأ يَغُطُّ، بينما شعر هال بإرهاقٍ مفاجئ من كل هذه الإثارة، وجفَاهُ النوم.

اجتاحت عقلَه الأفكارُ اجتياحًا؛ ذلك العالَم بالخارج، عالَمه، الذي نبذَه عمدًا لعدة أشهر، والذي اضطر فجأة إلى تذكُّره! ما خطَّط له هذا الصيفَ كان بسيطًا للغاية؛ أن يُغيِّر اسمه، وأن يصبح أحد أفراد طبقة اجتماعية أخرى، أن يعيش حياةَ أفرادِها ويفكِّر فيما يفكِّرون فيه، ثم يعود مرة أخرى إلى عالَمِه ليحكي عن تلك المغامرة الجديدة والمدهشة التي خاضها! لم يَرِدْ قطُّ في باله ذلك الاحتمال، احتمالُ أن يدخُل إلى عالَمه، عالم هال وارنر، بصفته جو سميث، مساعِد عامِل المنجم. كان كاللص، الذي يفعل شيئًا في الظلام، وبينما هو كذلك يجد الغرفة فجأةً وقد سطعت بالضوء.

شرعَ في مغامرته، وقد كان يتوقَّع أن تصادفه أمورٌ من شأنها أن تصدمه؛ فقد كان يعلم أنه بطريقة أو بأخرى، في مكانٍ ما، سيتعيَّن عليه محاربة «النظام». لكنه لم يتوقَّع قطُّ أن يجد نفسه في خضم هذه الحرب الطَّبَقِية، يقود هجومًا على خنادق رفاقه. وقد

علم أنَّ هذه لم تكُن النهاية؛ فهذه الحرب لن يحسمها الانتصارُ على أحد الخنادق! كان هال يدرك، وهو يرقُد هنا في الظلام والصمت، ما الذي زجَّ بنفسه فيه. ولنُعبِّر عن الأمر بتشبيه آخر، فقد كان مثل رجلٍ اعتاد مغازلة النساء في الشوارع، وفجأة يستيقظ في صباح اليوم التالي ليجد نفسه وقد أصبحَ رجلًا مُتزوجًا.

لم يكُن الأمرُ أنه شعرَ بالندم على المسار الذي اتخذه مع بيرسي. فلم يكن في الإمكان التفكير في أي مسارٍ آخر. ولكن بينما عرف هال أهلَ نورث فالي هؤلاء لمدة عشرة أسابيع، فقد عرف الجَمْعَ الموجود في عربة بيرسي لسنواتٍ عديدة. ومن ثَمَّ فقد كانت هذه الشخصيات الأخيرة تَشغَل وعيَه بشكلٍ أكبر، وهنا في الظلام كانت أفكارُهم عنه، سواء أكانت أفكارًا معادية تمامًا أو ولَّدتها الدهشة ليس إلا، قد فرضت حصارًا على دفاعات عقله.

وجدَ نفسَه يتصارع، على وجه الخصوص، مع جيسي آرثر. ظهر وجهُها أمامه، مُتوسِّلًا، مشتاقًا. كان وجهُها من تلك الوجوه المثالية، التي تأسِر الروح فلا يستطيع المرءُ مقاومتها. كانت عيناها البُنِّيَّتان ناعمتَين، ومُشرقتَين، ومليئتَين بالحنان، وشفتاها سرعان ما تختلجُ بالعاطفة، وبشرتها مثل أزهار التفاح، وبشعرها مسحة كمسحة غُبار النجوم! كان هال ناقمًا بشدة على أصحاب المناجم وحُرَّاسها، لكنه لم يخطر بباله قط أن روح جيسي قد تعكس شيئًا بخلاف هذه المفاتن الجسدية. كان مُغرَمًا بها، وكان صغير السن للغاية، عديم الخبرة في الحب، حتى إنه لم يكن ليدرك أن وراء صبوة الفتاة الحلوة هذه، الشديدة الصفاء والمحبوبة للغاية، قد تكمن عميقًا قسوةٌ لا واعية، موروثة وغريزية ... قسوةُ طبقتِها الاجتماعية، قسوة التحيُّز الدنيوي. لا بد للمرء أن يصل إلى منتصف العمر، ويعاني كثيرًا قبل أن يفهم أن مفاتن النساء، أوجه الجمال النادرة والساحرة للعيون والأسنان والشعر، ونعومة البشرة ودقة الملامح، تكلف الكثير من العمالة والعناية على يد عدة أجيال، وتعني حتمًا أن الحياة لطالما كانت وحشية قاسية، وأن تلك العادات والأعراف لطالما كانت مُهلِكة وغير إنسانية.

خذلت جيسي هال في أزمته الطارئة اليائسة. لكنه الآن قد استرجعَ المشهدَ، وأخبر نفسَه أن الاختبار كان غيرَ عادل. لقد عرفها منذ أيام الطفولة، وأحبَّها، ولم يكن قد رأى منها قبل ذلك فِعلًا أو سمع منها كلمة إلا واتَّسمت بالتهذيب واللطف. ولكن ... هكذا قال لنفسه ... إنها كانت تتعاطف مع مَن تعرفهم؛ ولكن كيف كانت ستُتاح لها الفرصة للتعرُّف إلى العُمَّال؟ يجب أن يعطيها تلك الفرصة، يجب أن يُجبِرها، حتى ولو

ضد إرادتها، على توسيع فهمها للحياة! قد يؤذيها ما ستخوضه خلال ذلك، وقد يُفسد على وجهها نعومته الظاهرية، ولكنه سيكون مفيدًا لها ... سيكون «ألم النضج»!

هكذا وجد هال نفسه، في أثناء استلقائه في الظلام والصمت، مستغرِقًا في محادثة طويلة مع حبيبته. اصطحبَها في أرجاء المعسكر، يشرح لها الأمور، ويُعرِّفها على هذا وذاك. وأخذَ آخرين من أصدقائه، الذين اعتاد التجوُّل معهم بسيارته الخاصة، وعرَّفهم بأصدقائه من نورث فالي. كان بينهم أشخاصٌ يشتركون في بعض الصفات، ومن المؤكَّد أنهم كانوا سينسجِمون معًا! بوب كريستون، على سبيل المثال، الذي يجيد «الغناء والرقص» ... من المؤكَّد أنه سيكون مهتمًّا بـ «بلينكي»، مختص العروض المسرحية المتنوعة في المعسكر! والسيدة كيرتِس، التي تحبُّ القطط، ربما كانت ستُكوِّن رابطة أُخُوَّة مع السيدة ناجل العجوز، التي كانت تعيش في المنزل المجاور لمينيتي مع قططها الخمسة! وحتى فيفي كاس، التي تكره الرجال الذين يأكلون بسكاكينهم ... ربما ستراودها أفكارٌ عن ارتكاب جريمة قتل عندما ترى آداب المائدة المتَّبَعة في نُزُل ريمينيتسكي، لكنها ستكون سعيدة برؤية «تشارلي الإيطالي»، البغل الذي يمضغ التَّبغ، والذي كان حيوان هال الأليف ذات يومٍ! لم يكن في وسع هال الانتظار حتى الصباح كي يبدأ محاولاته لتحقيق هذا الاندماج الاجتماعي!

الفصل السابع عشر

مع بزوغ فجر اليوم التالي، دخل هال في النوم، وأيقظه بيلي كيتينج الذي كان جالسًا يتثاءب، ويتذمَّر ويرثي لحاله في الوقت نفسه. أدرك هال أن بيلي أيضًا قد واجهته مشكلات الليلة الماضية. لم يشهد طوال عمله في الصحافة قصة كهذه من قبل، بل لم يشهد أحدٌ من قبل قصة كهذه ... وكان لا بد من التراجُع عن نشرها!

كان كارترايت قد جمع الصحفيين في وقتٍ مُتأخِّر من ليلة أمس، وأخبرهم بالأخبار ... أن الشركة نجحت أخيرًا في تجهيز المنجم لفتحه، وأن السيد هاريجان الشاب كان هناك في قطاره الخاص، مدفوعًا باهتمامه بعُمَّال المناجم المحبوسين تحت الأرض. سيذكر الصحفيون حضورَه بالطبع، ولكن طُلِبَ منهم عدم «المبالغة في الأمر» أو ذكر أسماء ضيوف السيد هاريجان. غنيٌّ عن القول أنهم لم يخبروا هؤلاء الصحفيين أن «مساعد عامل المنجم»، الذي طُرِدَ من المعسكر بسبب عِصيانه، اتضحَ أنه ابن إدوارد إس وارنر، «قُطب الفحم».

كان المطر يسقط خفيفًا وباردًا، واستعار هال معطفًا قديمًا من جيري وارتداه على عجلٍ. صرخ جيري الصغير ليذهب معه، وبعد جدال، لفَّه هال في شَال وعلَّقه على كتفه. لم يكد النهار ينبلج، ولكن جميع سكان القرية كانوا بالفعل قد وصلوا إلى فتحة المنجم. نزل رجال الإنقاذ مُرتدِين الخوذات لاختبار الوضع، وهكذا أوشكت ساعة الإبانة الأخيرة. وقفت النساءُ وقد بلَّل المطرُ الشالات التي يضعنها حول أكتافهن، بوجوههن الشاحبة المشدودة، وكان توترهم يفوق الوصف. كان من المروِّع التفكير في أنهن بينما كن يرتجفن من المطر، ربما كان رجالهن يحتضرون بسبب افتقارهم إلى بضع قطراتٍ من الماء!

عاد الرجال ذوو الخوذات وقالوا إنه كان في الإمكان إشعال المشاعل في قاع بئر المنجم، ومن ثَمَّ فمن الآمن أن ينزل الرجال بلا خوذات، وكان متطوعو فريق الإنقاذ الأول

جاهزين. طوال الليل كانت المطارق تُقعقع؛ حيث كان النجَّارون يعملون على بناء مصعدٍ جديدٍ. وها هو الآن يتأرجح من الرافعة، وقد اتخذ الرجال أماكنهم فيه. عندما بدأت الرافعة تتحرك أخيرًا، واختفت المجموعة تحت سطح الأرض، كان في الإمكان سماع تنهيدة ألف حنجرة، كأنين الريح في شجرة صنوبر. تركوا نساءهم وأطفالهم بالأعلى، ولكن لم تطلب امرأةٌ واحدة منهم البقاء … كانت هذه هي رابطة التضامن العميق اللاواعي الذي جعل هؤلاء الكادحين القادمين من عشرين دولة بمنزلة أُمَّة واحدة!

كانت عملية إنزال المصعد بطيئة؛ نظرًا إلى احتمالية خطر الاختناق بالغاز، ولأن المصعد كان مصنوعًا لتَوِّه، فقد كان لا بد من التحرك مسافة بضعة أقدام قليلة في المرة الواحدة، وانتظار سحبَ سلك الإشارة للتأكُّد من سلامة الرجال. وبعد أن وصلوا إلى القاع، كان لا يزال أمامهم المزيد من الوقت، الذي لم يكن أحدٌ منهم يستطيع معرفته تحديدًا، قبل أن يعثروا على ناجين تظهر عليهم علامات الحياة. كانت هناك أجساد بالقرب من سفح البئر، بحسب أقوال الرجال ذوي الخوذات، لكن لم يكن ثمة طائلٌ من إبطاء عملية الإنقاذ لإحضارهم؛ فلا بد أنهم قد ماتوا قبل أيام. رأى هال حشدًا من النساء يصحن على الرجال ذوي الخوذات، لمحاولة معرفة ما إذا كان في إمكانهم التعرُّف على هذه الجثث. كما رأى جيف كوتون وبود آدامز يؤدون مهمتهما القديمة في إرجاع النساءِ إلى الوراء وإبعادهن عن فتحة المنجم.

عادَ المصعدُ ليأخذ حمولة أخرى من الرجال. قلَّت الحاجةُ إلى الحذر الآن، وتحرَّكت الرافعة بسرعة، ونزلت في حفرة الرعب مجموعةٌ تِلوَ الأخرى من الرجال بوجوهٍ هادئة وجادة، حاملين في أيديهم المعاول، والعتلات، والمجارف. وانتشروا في جميع أنحاء المنجم، متحسِّسين كلَّ مكان أمامهم بمصابيح الأمان، وباحثين عن الحواجز التي أقامها المحبوسون تحت الأرض لحماية أنفسهم من الغازات. فعند طرقهم على هذه الحواجز، قد يسمعون ما يدل على وجود رجال أحياء على الجانب الآخر منها، أو يعبرونها في صمتٍ ليجدوا أنَّ الرجال لم يعُد في إمكانهم إصدار أي صوت منذ زمنٍ بعيدٍ، ولكن ربما كان لا يزال فيهم رمقٌ من الحياة.

نزلَ أصدقاءُ هال واحدًا تِلوَ الآخر … «جاك الكبير» ديفيد، وفريسماك البلغاري، وكووفوسكي والبولندي، وأخيرًا جيري مينيتي. لوَّح جيري الصغير بيده بينما كان يجلس على كتف هال، في حين كانت روزا، التي خرجت وانضمَّت إليهم، مُتشبِّثة بذراع هال، صامتة، كما لو كانت روحها تنزل مع الرجال في المصعد. ذهبَ تيم رافيرتي ذو العينَين

الزرقاوَين للبحث عن والِده، وذهب «آندي» ذو العينَين السوداوَين، ذلك الصبيُّ اليوناني الذي لقي والِدُه حتفَه في حادثٍ مماثلٍ قبل سنوات، كما ذهبَ روفيتا، وكارمينو، رئيس العُمَّال وابن عم جيري. ذُكِرَت أسماؤهم واحدًا تِلوَ الآخر وسط الحشد، كأنهم أبطال يتقدَّمون إلى المعركة.

الفصل الثامن عشر

نظر هال حوله، ورأى بعضَ ضيوف حفل هاريجان. كانت هناك فيفي كاس، تقف تحت مظلة مع بيرت أتكينز، وبوب كريستون مع ديكي إيفرسون. كان هذان الاثنان يرتديان مِعطفَين مضادَّين للمطر وقُبعتَين مقاوِمتَين للماء، ويتحدَّثان إلى كارترايت؛ كانا رجلَين طويلَي القامة أنيقَين، وقد ظهرا بجوار عُمَّال مناجم الفحم المتقزِّمين كأنهما مخلوقَان من عالَم آخر.

تقدَّما نحو هال عندما شاهداه. سألَ بوب، وقد انفرجت أساريرُ وجهه الوردي الحليق: «من أين حصلت على هذا الطفل؟»

قال هال وهو يقذف بجيري الصغير في الهواء وينزله من فوق كتفه: «لقد التقطتُه.»

قال بوب: «مرحبًا أيها الطفل!»

وجاءَ الجوابُ على الفور: «مرحبًا بك!» عرف جيري الصغير كيف يتحدَّث باللهجة الأمريكية؛ لقد كان مُؤَهَّلًا أن يصبح أحدَ رجال المجتمع! قال وهو ينظر إلى أعلى باتجاه الرجل الغريب الطويل القامة، وكانت عيناه السوداوان مُتلألئتَين: «نزلَ أبي في ذلك المصعد.»

ردَّ الآخر: «أحقًّا؟ لماذا لم تذهب معه؟»

«سيُخرجهم أبي. إنه لا يخاف من أي شيء، أبي!»

«ما اسم أبيك؟»

«جيري الكبير.»

«أوه! وماذا ستصبح عندما تكبر؟»

«سأصبح مُفَجِّر ألغام.»

«في هذا المنجم؟»

«كلَّا بالتأكيد!»

«لِمَ لا؟»

بدا على جيري الصغير الغموض. وقال: «لا أقولُ كلَّ ما أعرفه.»

ضحكَ الشابان. هنا كان في إمكانهما معرفة الحياة! قال ديكي إيفرسون: «هل ستعود إلى بلدك القديم؟»

قال جيري الصغير: «لا يا سيدي! أنا أمريكي.»

«ربما ستُصبح رئيسًا يومًا ما.»

أجابَ الشاب الصغير: «ذلك ما يقوله أبي ... رئيسًا لنقابة عُمَّال المناجم.»

ضحكًا مرة أخرى، ولكن روزا همهمت بتوتُّرٍ وأمسكت بكُمِّ الصبي. لم يكن هذا مما يُقال لغريبَين يبدو عليهما الغموض والثراء! قال هال لطمأنتها: «هذه والِدة جيري الصغير، السيدة مينيتي.»

قال الشابان وقد خلعَا قبعتَيهما وانحنَيا برشاقة، محدِّقَين إلى روزا التي بدت جميلة عندما احمرَّت وجنتاها: «يسعدنا لقاؤك يا سيدة مينيتي.» أُحرِجَت أكثر؛ فلم يكن قد انحنى لها من قبل في حياتها رجُلان مثلهما، وردَّت بخجلٍ.

كانا يُحيِّيَان جو سميث باعتباره صديقًا قديمًا، ويخاطبانه باسمٍ غريبٍ! أدارتْ عينَيها الإيطاليَّتَين السوداوَين نحو هال متسائِلة، وشعرَ هال بالإحراج يتسلَّل إليه. كان من غير المريح أن تُعرَف حقيقة أمره في نورث فالي تقريبًا كما كان في ويسترن سيتي!

تحدَّث الرجالُ عن أعمال الإنقاذ، وعما قاله كارترايت عن مدى التقدُّم المُحرَز فيها. كانت النيرانُ في أحد الممرات الرئيسية، وكانت تحرق الأخشاب، وتنتشر في البئر بسرعة بفِعل المروحة التي انعكسَ اتجاهُها. لم يكن الأمل كبيرًا في نجاح أعمال الإنقاذ في هذا الجزء من المنجم، لكنَّ الرجال ذوي الخوذات تمكَّنوا من اختراق الممرات المحترقة رغم الحرارة والدخان. كانوا يعرفون مدى سهولة انهيار السقف والجدران في تلك الأجزاء من المنجم، ولكنهم كانوا يعرفون أيضًا أن الرجال كانوا يعملون هنا قبل الانفجار. قال ديكي: «أُقِر أنهم رجال شجعان!»

كانت مجموعةٌ من النساء والأطفال محتشِدة للاستماع، وقد غلبَ قلقُهم الشديد لمعرفة الأخبار خجلَهم. كانوا يُذكِّرون المرءَ بالنساءِ في أوقات الحرب عندما كُنَّ يستمعن إلى هدير البنادق البعيدة وينتظرن وصول الجرحى. رأى هال بوب وديكي يرمُقان، بين

الحين والآخر، تلك الحلقة من الوجوه المحتشدة حولهما؛ كانا يندمجان بعضَ الشيء مع أجواء المكان، وكان ذلك جزءًا مما يتمنَّاه.

سألَ: «هل سيأتي الآخرون؟»

قال بوب: «لا أعرفُ. أفترضُ أنهم يتناولون وجبة الإفطار. حانَ الوقتُ لنُغادر.»

أضافَ ديكي: «ألن تأتي معنا؟»

أجاب هال: «لا، شكرًا، لديَّ موعدٌ مع هذا الطفل هنا.» وصافح يد جيري الصغير بقوة. وقال: «لكن أخبِرا بعضًا من الزملاء الآخرين أن يأتوا. ستُثير هذه الأشياءُ اهتمامَهم.»

قال الاثنان وهما يغادران: «حسنًا.»

الفصل التاسع عشر

بعد إتاحة الوقت الكافي للمجموعة في عربة الطعام للانتهاء من تناول وجبة الإفطار، ذهب هال إلى السكة الحديدية، وأرسلَ الحمَّالَ إلى بيرسي هاريجان ليُخبره أنه في انتظاره. كان يأمل أن يُقنع بيرسي بأن يرى القرية دون أن يصطحب معه حُرَّاسه؛ فقد استاءَ لما سمعه عن أن المجموعة قد قررت المغادرة بعد بضع ساعات.

قال مُحتجًّا: «لكنك لم ترَ شيئًا على الإطلاق!»

أجاب الآخر: «لن يسمحوا لنا بدخول المنجم. ما الذي يمكننا فعله غير ذلك؟»

«كنت أريدك أن تتحدَّث إلى الناس وتعرف شيئًا عن الأحوال هنا. يجب ألا تُفوِّت هذه الفرصة يا بيرسي!»

«لا بأس يا هال، ولكن عليك أن تفهم أن هذا ليس وقتًا مناسبًا. معي الكثير من الأشخاص، ولا يحقُّ لي أن أطلبَ منهم أن ينتظروا.»

«ولكن، ألا يمكنهم أيضًا أن يتعلَّموا شيئًا يا بيرسي؟»

كان الرد: «السماءُ تمطر. ولن يروق للسيدات أن يقفن وسط الحشد ويرَين الجُثث وهم يخرجونها من المنجم.»

شعر هال بالتوبيخ. أجل، لقد أصبح قاسيًا منذ مجيئه إلى نورث فالي؛ لقد فقدَ رهافة حِسِّه، ذلك الإدراك الحَدْسي لمشاعر السيدات، الذي كان بالتأكيد سيُظهره في فترة ليست بالبعيدة من حياته. كان الحادث قد أثار حماسته؛ فقد كان للأمر مَحْمَله الشخصي لديه، وغابت عن ذهنه حقيقة أن السيدات ضيفات هاريجان لم يكُنَّ يرين من المشهد إلا تفاصيله القذِرة المثيرة للاشمئزاز. إذا خرجن وسط الطين والمطر في قرية التعدين ووقفن يحدِّقن إلى المكان، فلم يكن ما سيشعرن به هو التعاطف الإنساني، بل الفضول فحسب. كان من شأن المَشَاهد التي كن سيرَينها أن تصدِمهن، ولكنها لن تؤدي بهن إلى فعل

شيء، بالإضافة إلى أنهن سيُعرِّضن أنفسهن إلى الدعاية المزعجة. أما بالنسبة إلى إظهار التعاطف تجاه الأيتام والأرامل، فقد كان معظمهن من الأجانب، اللاتي لم يكُن من سبيل لأن يفهمن ما سيُقال لهن، واللاتي ربما يشعرن بالحرج — وليس بالعون والمساعدة — من تدخُّل أشخاصٍ من عالَم غريب في أحزانهن.

لقد اختزلت الحضارةُ، التي ساعد هؤلاء السيدات في الحفاظ عليها، مسألةَ إظهار التعاطف في نظام محدَّد، وتصادفَ أن كان من بين الحاضرين شخصٌ على دراية بهذا النظام. فكما أخبر بيرسي هال، كانت السيدة كيرتِس قد تصرَّفت بالفعل؛ فقد وزَّعت أوراقَ اشتراك، وفي بضع دقائق كانت قد جمَّعت أكثر من ألف دولار. وكانت هذه الأموال ستُدفع بشيك إلى «الصليب الأحمر»، الذي كان وكلاؤه يعرفون كيفية توزيع مثل هذه الإعانات على المتضرِّرين. هكذا شعر ضيوفُ بيرسي أنهم فعلوا اللائق وبلباقة، وأن في إمكانهم المغادرة بضميرٍ مطمئنٍّ.

قال ابنُ ملك الفحم: «لن يتوقَّف العالَم لمجرد وقوع حادث في أحد المناجم. للناس التزاماتٌ يجب أن يحافظوا عليها.»

وشرعَ بيرسي في توضيح هذه الالتزامات. هو نفسه كان لديه موعدٌ على العشاء في ذلك المساء، ولم يكن ليتمكَّن من اللحاق به. وكان على بيرت أتكينز أن يلعب مباراة تحدٍّ في البلياردو، وكان على السيدة كيرتِس حضور اجتماع لجنة النادي النسائي. كما أنَّ هذا اليوم هو الجمعة الأخيرة في الشهر؛ هل نسي هال ما يعنيه ذلك؟

بعد لحظة تذكَّر هال ... «ليلة الشباب» في النادي الريفي! باغته تصوُّر مفاجئ لمنزلٍ أبيض على طراز منازل الحقبة الاستعمارية على جانب الجبل، بأبوابه ونوافذه المفتوحة على مِصراعَيها، ونغمات الأوركسترا تنبعث منها. وتظهر في قاعة الرقص السيداتُ الشابات من ضيوف بيرسي ... ومن بينهن حبيبتُه جيسي ... مُرتديةً الشيفون الشفَّاف والحرير، ويحيطها رذاذُ العطر، والألوان، والموسيقى. كن يضحكن ويثرثرن، ويتغزَّلن ويخطِّط كلٌّ منهن للاستحواذ على قاعة الرقص ... بينما هنا في نورث فالي، كانت الأرامل المنتحِبات يُعانقن جثثَ أزواجهن المشوَّهة بأذرعهن! كم بدا هذا غريبًا، وكم بدا مُروِّعًا! كم كانت المشاهد تشبه تلك التي قرأ عنها في وصف أحداث عشية الثورة الفرنسية!

الفصل العشرون

أرادَ بيرسي أن يُغادر هال مع ضيوفه. اقترح هذا بلباقة في البداية، ثم عندما لم يفهم هال التلميح، شرعَ في الإلحاح عليه، مُظهِرًا غضبَه. صار المنجم مفتوحًا الآن ... ما الذي كان يريده هال أكثر من ذلك؟ عندما اقترح هال أن كارترايت قد يأمر بإغلاقه مرة أخرى، كشفَ بيرسي عن حقيقة أن الأمر في يد والده. فقد أرسل المشرف برقية مُطوَّلة ليلة أمس، وهم في انتظار الرد في أي لحظة. وأيًّا كان الرد، فلا بد من تنفيذه.

كانت ثمة نظرة تجهُّم على وجه هال، لكنه أجبر نفسه على التحدُّث بأدبٍ. وردَّ بقوله: «إذا أمر والدُك بأي شيءٍ يتعارض مع إنقاذ الرجال ... ألا تعلم يا بيرسي أنني سيَتعيَّن عليَّ أن أُحاربه؟»

«ولكن كيف لك أن تُحاربه؟»

«السلاحُ الوحيد الذي أملكه هو الدعاية.»

«تقصد ...» وتوقَّف بيرسي مُحدِّقًا إليه.

«أعني ما قلتُه من قبل ... سأطلقُ يدَ بيلي كيتينج، وأنشر الأمر برُمَّته أمام العالَم.»

صاحَ الشاب هاريجان: «حقًّا، يا إلهي! يجب أن أقول إنني سأُسمِّي هذا تصرفًا وقِحًا منك! قلتُ إنك لن تفعل ذلك إذا جئتُ إلى هنا وفتحتُ المنجم.»

«ولكن ما الفائدة من فتحه إذا أغلقتَه مجددًا قبل خروج الرجال؟» توقَّف هال قليلًا، وعندما تابعَ حديثَه كان في محاولة صادقة للاعتذار. وقال: «لا تظن يا بيرسي أنني لا أُقدِّر الإحراج الذي ينطوي عليه هذا الموقف. أعلم أنه لا بد أنني أبدو لك نذلًا ... أكثر مما كنت مهتمًّا بإخباري. لقد دعوتك صديقي على الرغم من جميع مشاجراتنا. كل ما يمكنني فعله هو أن أؤكد لك أنني لم أنوِ قطُّ أن أضعك في مثل هذا الموقف.»

«حسنًا، ماذا كنت تبغي من مجيئك إلى هنا؟ كنت تعلم أنها ممتلكاتُ صديقٍ لك ...»

«هذا هو السؤال المطروح بيننا يا بيرسي. هل نسيتَ نقاشاتنا؟ حاولتُ أن أقنعك بما يعنيه أن نمتلك أنا وأنت الأشياء التي يعيش عليها الآخرون. قلتُ إننا كنا جاهلين بالظروف التي تُدار بها ممتلكاتنا، لقد كنَّا حفنة من الطُّفَيليات والعاطلين. لكنك ضحكت مني، ووصفتني بغريب الأطوار، والأناركي، وقلتَ إنني أستمع إلى كلام أي أفَّاقٍ يُشهِّر بالناس. فقلتُ في نفسي: «سأذهبُ إلى أحد مناجم بيرسي! ثم عندما يحاول الجدالَ معي، سأنالُ منه!» هكذا بدأ الأمر ... مزحة. ولكني انغمرتُ في الأحوال بعد ذلك. لا أريدُ أن أكون لئيمًا، لكن لا يمكن لأي شخص تجري الدماءُ في عروقه أن يبقى في هذا المكان مدة أسبوعٍ دون أن تتولَّد لديه الرغبة في القتال! لهذا أريدُك أن تبقى ... يجب أن تبقى، لتقابل بعضَ الناس وترى بنفسك.»

قال الآخر ببرودٍ: «حسنًا، لا أستطيع البقاء. وكلُّ ما يمكنني قوله لك هو إنني أتمنى أن تذهب إلى مكانٍ آخر لتطبيق علم الاجتماع الذي درستَه.»

«ولكن أين يمكنني الذهاب يا بيرسي؟ ثمة مَن يملك كلَّ شيء. إذا كنت سأذهب إلى مكانٍ كبيرٍ، فمن المؤكَّد أنه سيكون تابعًا لممتلكات أحد معارفنا.»

قال بيرسي: «إن سألتني اقتراحًا، فربما يمكنك أن تبدأ بمناجم الفحم التابعة لشركة وارنر.»

ضحك هال. وقال: «فكَّرتُ في ذلك بالتأكيد يا بيرسي. ولكن فكِّر في الوضع!» إذا أردتُ تحقيقَ هدفي، فقد كان من الضروري ألا أكون معروفًا. وقد قابلتُ بعضًا من المشرفين العاملين لدى والدي في مكتبه، وأعلم أنهم كانوا سيتعرَّفون عليَّ. ولذا، كان عليَّ أن أذهب إلى بعض المناجم الأخرى.»

أجاب بيرسي بنبرة مُشاكِسة: «هذا من حُسن حظ شركة وارنر.»

أجاب هال بجدية: «اسمع، أنا لا أنوي إخراج شركة وارنر تمامًا من بحثي الاجتماعي.»

أجاب الآخرُ: «حسنًا، كلُّ ما يمكنني قوله هو إننا سنمرُّ بأحد ممتلكاتها في طريق عودتنا، ولا شيءَ سيُسعدني أكثر من أن أُوقِفَ القطار واتركك تنزل هناك!»

الفصل الحادي والعشرون

ذهب هال إلى عربة الاستقبال. كانت هناك السيدة كيرتِس وريجي بورتر، يلعبان لعبة البريدج مع جينيفيف هالسي والشاب إيفرسون. وكان بوب كريستون يتبادل أطرافَ الحديث مع بيتي جينيسون ويُخبرها بما رآه في الخارج بلا شكٍّ. كان بيرت أتكينز يتصفَّح جريدة الصباح، مُتثائِبًا. واصل هال البحثَ عن جيسي آرثر، ووجدَها في إحدى مقصورات العربة، تنظر من النافذة التي تناثرت عليها زخَّاتُ المطر ... وتجول بناظريها متفقِّدةً معسكر التعدين كما يليق بامرأة شابة من طبقتها الاجتماعية.

توقَّع أن يجدها مُضطَرِبة الذهن، وكان مستعدًّا للاعتذار. ولكن عندما رأى نظرة الضيق التي ارتسمت في عينَيها، لم يعرف من أين يبدأ تحديدًا. حاول التحدُّث برباطة جأشٍ، لقد سمع أنها ستغادر. لكنها أمسكتْ بيده، وصاحت قائلة: «هال، ستأتي معنا!»

لم يُجِبْ للحظة، ولكنه جلسَ بجانبها. وسألها: «هل جعلتُكِ تُعانين كثيرًا يا جيسي؟»

رأى الدموعَ تتدفَّق في عينيها. وقالت: «ألم تعلم أنك كنت تؤذيني؟ لقد أتيتُ إلى هنا ضيفةً لبيرسي، فوجدتُكَ تستجوبني! ماذا كان عليَّ أن أقول؟ ماذا أعرف عن الطريقة التي يجب أن يدير بها السيدُ هاريجان أعماله؟»

قال بتواضعٍ: «أجل يا عزيزتي. ربما لم يكن من المفترض أن أزج بكِ في الأمر. لكنه كان مُعقَّدًا جدًّا ومفاجئًا للغاية. هل يمكنكِ تفهُّم ذلك، وأن تُسامحيني؟ لقد سار كلُّ شيء على ما يُرام!»

لكنها لم تعتقد أنَّ كلَّ شيء سار على ما يرام. وقالت: «أولًا، أكتشفُ أنك هنا، في مثل هذه المحنة! بينما كنت أحسبُكَ تصطاد الماعزَ الجبلي في المكسيك!»

لم يستطِع أن يمنع نفسَه عن الضحك، لكن جيسي لم تستطع حتى أن تبتسم. «ثم ... أن تزجَّ بحُبِّنا في الأمر، أمام الجميع!»

«هل أزعجكِ هذا حقًّا يا جيسي؟»

نظَرَتْ إليه في ذهولٍ. كيف يمكن له، وهو هال وارنر، أنْ يصلَ إلى هذا الحَدِّ، ألا يدرك كم كان ما فعله فظيعًا! أن يضعها في موقفٍ يتحتَّم عليها فيه إما أن تنتهك قوانين الحب، وإما أن تنتهك قوانين تربيتها الجيدة! عجبًا، لقد وصلَ الأمرُ إلى حَدِّ الشجار العام. سيُصبح حديثَ المدينة ... ولن تكون هناك نهاية للإحراج الذي تسبَّب فيه!

قال هال: «لكن يا حبيبتي! حاولي أن ترَي حقيقة الأمر ... فكِّري في هؤلاء الأشخاص المحبوسين في المنجم. عليكِ حقًّا أن تفعلي ذلك!»

نظرت إليه، ولاحظت الخطوط العابِسة التي ظهرت مؤخرًا على وجهه اليافع. كما أنها لاحظت نبرة العاطفة المكبوتة في صوته. كان شاحبًا ومرهَقًا، ويرتدي ملابس قذِرة، وغير مصفَّف الشعر، ووجهُه نصفُ مغسول. كان الأمرُ مرعبًا ... كما لو كان قد ذهبَ إلى الحرب.

أصرَّ قائلًا: «اسمعي يا جيسي. أريدُكِ أن تعرفي هذه الأشياء. إذا أردنا أنا وأنتِ أن يُسعِدَ كلٌّ منا الآخر، فيجب أن تُحاولي أن تنضجي معي. لهذا كنت سعيدًا بوجودكِ هنا ... ستكون لديكِ الفرصة لترَي بنفسكِ. الآن أطلبُ منكِ ألا تغادري دون أن تشاهدي.»

«لكني يجب أن أذهب يا هال. لا أستطيع أن أطلبَ من بيرسي هاريجان البقاءَ وإزعاجَ الجميع!»

«يمكنكِ البقاءُ من دونه. يمكنكِ أن تطلبي من إحدى السيدات مرافقتكِ.»

نظرت إليه في فزعٍ. وقالت: «عجبًا يا هال! يا له من شيء تقترحه!»

«لِمَ العجب؟»

«فكِّر فيما سيبدو عليه الأمر!»

«لا أستطيعُ أن أفكِّر كثيرًا في المظاهر يا عزيزتي ...»

قاطعته: «فكِّر فيما ستقوله أمي!»

«لن يروق لها ذلك، أعرفُ ...»

«سوف تغضب! لن تسامح أيًّا منا أبدًا. ولن تسامح أبدًا أيَّ شخص يبقى معي. وماذا سيقول بيرسي لو أنني بعد أن أتيتَ هنا ضيفةً له بقيتُ لأتجسَّس عليه وعلى والده؟ ألا ترى كم سيكون الأمرُ منافيًا للعقل ومستحيلًا؟»

نعم، كان يرى. كان يتحدَّى جميعَ أعراف عالَمها، وبدا لها هذا ضربًا من الجنون. قبضَتْ على يدَيه، وسالت الدموعُ على وجنتَيها.

صرخت: «هال، لا أستطيعُ أن أتركَكَ في هذا المكان المروِّع! أنت تبدو كالشبح، وكالفزَّاعة أيضًا! أريدُكَ أن تذهبَ وتحصلَ على بعض الملابس اللائقة، وأن تعود إلى الديار على متن هذا القطار.»

لكنه هَزَّ رأسه بالرفض. وقال: «هذا غير ممكن يا جيسي.»

«لِمَ لا؟»

«لأن لديَّ واجبًا عليَّ القيام به هنا. ألا تفهمين يا عزيزتي؟ طوال حياتي، كنت أعيش على عمل عُمَّال مناجم الفحم، ولم أتكبَّد من قبل العناءَ للاقتراب من واقع حياتهم، لأرى كيف كانت تأتي أموالي!»

«ولكن يا هال! هؤلاءِ ليسوا عُمَّالك! إنهم عُمَّال السيد هاريجان!»

قال: «نعم، ولكن الأمر كله سواء. إنهم يكدحون، ونحن نعيش على كدحهم، ونعتبره أمرًا طبيعيًّا.»

«ولكن ما الذي يمكننا فعله حيال ذلك يا هال؟»

«يمكننا أن نتفهَّمه، إن لم يكن بيدِنا أن نفعل شيئًا آخر. وأنتِ ترَين ما كان في استطاعتي أن أفعله في هذه الحالة ... أن أجعلهم يفتحون المنجم.»

صرخت قائلة: «هال، لا أستطيع أن أفهمك! لقد أصبحتَ شديدَ التشاؤم، لم يعُد في استطاعتك أن تثقَ بأحدٍ! وأصبحتَ مقتنِعًا تمامًا بأنَّ هؤلاء المسئولين قد تعمَّدوا قتل العاملين لديهم! كما لو أنَّ السيد هاريجان كان سيَدَع مناجمه تُدار بهذه الطريقة!»

«السيد هاريجان يا جيسي؟ لقد جمعَ التبرعات في كنيسة القديس جورج! هذا هو المكان الوحيد الذي رأيتِه فيه، وهذا كلُّ ما تعرفينه عنه.»

«أعرفُ ما يقوله الجميع يا هال! أبي يعرفه، وإخوتي ... نعم، وأخوك أيضًا! أليس صحيحًا أنَّ إدوارد لن يوافق على ما تفعله؟»

«بلى يا عزيزتي، أخشى ذلك.»

«وتُعارِضه ... تعارض كلَّ مَنْ تعرفه! أمِن المعقول أن تعتقد أنَّ الكبار جميعهم مُخطئون، وأنت وحدك على صواب؟ أليس من الممكن على الأقل أن تكون مخطئًا؟ فكِّر في ذلك ... صِدْقًا يا هال، من أجلي!»

كانت تنظر إليه مُتوسِّلة، وانحنى إلى الأمام وأمسكَ بيدها. ثم قال بصوتٍ مرتجِف: «جيسي، أعرفُ أنَّ هؤلاء العُمَّال مَقموعون، أعرفُ ذلك جيدًا؛ لأنني كنت واحدًا منهم!

وأعلم أن رجالًا مثل بيتر هاريجان، وحتى أخي، مُذنبون! وأنه يجب أن يواجههم أحد ... يجب أن يفتح أعينهم! لقد جئتُ لأرى الأمر عن قرب هذا الصيف ... هذه هي المهمة التي يجب أن أقوم بها!»

كانت تُحدِّق إليه بعينَيها الجميلتَين الواسعتَين، الممتلئتَين بالرفض والفزع، كانت مُرتعِبة من هذا المجنون الذي أحبَّته. صاحت: «سوف يقتلونك!»

«لا يا عزيزتي ... لا داعي للقلق بشأن ذلك ... لا أعتقدُ أنهم سيقتلونني.»

«لكنهم أطلقوا النار عليك!»

«لا، لقد أطلقوا النار على جو سميث، مساعِد عامِل المنجم. لن يُطلقوا النار على ابن مليونير ... هذا لا يحدث في أمريكا يا جيسي.»

«ولكن في إحدى الليالي المظلمة ...»

قال: «لا تُرهقي نفسك بالتفكير، لقد ورَّطتُ بيرسي في الأمر، والجميعُ يعرف ذلك. من المستحيل أن يقتلوني دون أن تظهر القصة بأكملها إلى العَلن ... ولذا، فإنني في أمان كما لو كنت في سريري في المنزل!»

الفصل الثاني والعشرون

كان هال لا يزال مهووسًا بفكرة وجوب تعليم جيسي ... يجب أن تُفرَض عليها المعرفة، شاءت أم أبت. كان قد بقي أمام القطار ساعتان ليتحرك، وحاول التفكير فيما يمكن أن يفعله للاستفادة من تلك الفترة الزمنية الثمينة. تذكَّر أن روزا مينيتي كانت قد عادت إلى كوخِها لرعاية طفلها. تخيَّل جيسي فجأة في ذلك المنزل الصغير. كانت روزا لطيفة وودودة، وبالتأكيد سيستحوذ جيري الصغير على قلبها ويفوز بإعجابها.

قال: «عزيزتي، أتمنَّى أن تأتي معي في نزهة على الأقدام.»

«لكن السماء تمطر يا هال!»

«لكنه لن يضرَّكِ أن تُفسِدي أحدَ فساتينكِ؛ فلديكِ الكثير منها.»

«أنا لا أفكِّر في ذلك ...»

«أتمنَّى أن تأتي.»

«لا أشعرُ بالارتياح حيالَ ذلك يا هال. أنا هنا ضيفة لدى بيرسي، وقد لا يحبُّ ...»

اقترحَ متظاهِرًا بالجدية: «سأسأله إن كان لديه اعتراضٌ على ذهابكِ في نزهة.»

«لا، لا! هذا من شأنه أن يجعل الأمر أسوأ!» لم تكن جيسي تتمتَّع بروح الدعابة على الإطلاق حيال هذه الأمور.

«حسنًا، ولكن فيفي كاس بالخارج، وبعض الأصدقاء الآخرين يغادرون. لم يعترض على ذلك.»

«أعلم يا هال. لكنه يعلم أنه لا خطرَ منهم جميعًا.»

ضحك هال. وقال: «هيا يا جيسي. لن يُحاسبَكِ بيرسي على خطاياي! إنَّ أمامكِ رحلة طويلة بالقطار، ومن شأن بعض الهواء النقي أن يفيدكِ.»

رأت أنها يجب أن تُقدِّم له بعض التنازلات إذا أرادت الاحتفاظَ بأي تأثير لها فيه.

قالت باستسلامٍ: «حسنًا»، ثم اختفت وعادت بغطاءٍ ثقيلٍ على وجهها كي تخفي نفسها عن أعين الصحفيين المتطفِّلين، كما استعدَّت بِمعطفٍ مضاد للمطر، ومِظلَّة، وحذاءٍ مطاطي عالٍ مقاوِم للمطر. انسلَّ الاثنان من العربة، وشعرا كما لو أنهما اثنان من المجرمين.

تجنَّبا الحشدَ عند فتحة المنجم، ووصلَا إلى الحي المُوحِل غير المُمهَّد الذي كان الإيطاليون يقيمون فيه؛ فأمسكَ بذراعها، وقادها عبر المستنقعات والجداول الصغيرة. كان من المثير له أن يكون معها هكذا، أن يرى وجهها الجميل ويسمع صوتها المليء بالحب. تخيَّلها كثيرًا هنا، وأخبرها في مُخيِّلته عن تجاربه في المكان!

أخبرها حينئذٍ ... عن عائلة مينيتي، وكيف التقى بجيري الكبير والصغير في الشارع، وكيف أخذوه للعيش معهم، وكيف اضطروا بعد ذلك إلى إخراجه من بيتِهم بدافع الخوف. روى قصة اختياره مراقِبًا للأوزان، وكان يروي قصة اعتقال جيف كوتون له، ولكنهما وصلَا إلى كوخ مينيتي، وانقطعَ السرد المروِّع.

كان جيري الصغير هو مَن أتى إلى الباب وبقايا طعام الإفطار متناثرة على وجنتَيه، كان يحدِّق في عجبٍ إلى الفتاة الملثَّمة الغامضة. عندما دخلَا، رأيَا روزا تجلس على كرسي وترضع طفلها. نهضتْ في حيرة، لكنها لم تكن تريد أن تدير ظهرها تمامًا للضيفَين، فأخذت تحاول إخفاء ثديها قدر استطاعتها؛ فاحمرَّ وجهها خجلًا وبدتْ كفتاةٍ صغيرة في غاية الجمال.

قدَّم هال جيسي باعتبارها صديقة قديمة كانت مهتمة بمقابلة أصدقائه الجُدد، وأزاحت جيسي عنها غطاءَ وجهها وجلست. مسحَ جيري الصغير وجهَه كما أمرته والدته، ثم جاءَ لينظر إلى المنظر البديع الجمال.

قال هال مُخاطبًا روزا: «كنت أحكي للآنسة آرثر عن مدى اهتمامكِ بي. أرادت أن تأتي وتشكركِ على ذلك.»

أضافت جيسي بلطفٍ: «أجل. أيُّ شخص يتعامل جيدًا مع هال يستحقُّ مني الامتنان.»

بدأت روزا تُتمتِم بشيء ما، لكن جيري الصغير قاطعَها بصوته المبتهج: «لماذا تدعينه هال؟ اسمه جو!»

صاحت روزا: «صه.» لكن هال وجيسي ضحكا ... وهكذا استمرت عملية أمركة جيري الصغير.

قال هال: «لديَّ الكثير من الأسماء. لقد أطلقوا عليَّ اسم هال عندما كنت طفلًا مثلك.»

سأل جيري الصغير: «هل عرفَتْكَ في ذلك الوقت؟»

«أجل.»

«هل هي فتاتُك؟»

ضحكت روزا بخجلٍ، واحمرَّت وجنتا جيسي خجلًا وبدت فاتنة. انتابها إدراكٌ غامض بأن ثمة اختلافًا في سلوك هؤلاء الأشخاص. فقد قبلوا وجود «الفتيات» دون إخفاء اهتمامهم بالظاهرة.

قال هال مُحذرًا: «إنه سِرٌّ. لا تخبِر أحدًا عنا!»

قال جيري الصغير: «يمكنني أن أحفظَ السر.» بعد توقُّف للحظة، أضافَ بصوتٍ منخفض: «عليك أن تحفظ الأسرار إذا كنت تعمل في نورث فالي.»

قال هال: «بالتأكيد.»

تابعَ الآخرُ مُخاطبًا جيسي: «والدي اشتراكي»، ثم لما كان الحديث يجلب بعضه بعضًا، أضافَ: «والدي مُفجِّر ألغام.»

سألت جيسي، في محاولة منها أن تكون اجتماعية: «ما هو مُفجِّر الألغام؟»

صاحَ جيري الصغير: «يا إلهي! ألا تعرفين شيئًا عن التعدين؟»

قالت جيسي: «كلَّا. أخبرني أنت.»

قال جيري الصغير: «لا يمكن الحصول على الفحم من دون مُفجِّر ألغام. ولا بد أن يكون مُفجِّر ألغام جيدًا أيضًا، وإلا انهار المنجم. أبي هو أفضل مفجِّر ألغام حصلوا عليه.»

«وماذا يفعل؟»

«حسنًا، يحفرون ثقبًا ... طويلًا، طويلًا، مثل هذا، على طول الغرفة، ويدورون به ويحفرون ثقوبًا في الفحم. في بعض الأحيان تكون لديهم آلاتُ حفر، لكننا لا نحب هذه الآلات، لأنها تحل محل الرجال. عندما يحفرون الثقوب، يأتي مُفجِّر الألغام ويضع البارود. يجب أن يكون لديكِ ...» وهنا أبطأ جيري الصغير، ناطقًا كلَّ مقطع لفظي بعناية شديدة ... «بارود مسموح به ... ذلك الذي لا يتسبَّب في أي لهبٍ. وعليكِ أن تعرفي القدر الذي يجب أن تضعيه. إذا وضعتِ كمية أكبر من اللازم، فإنها تؤدي إلى تحطُّم الفحم، ويشتعل المنجم كالجحيم، وإذا لم تضعي كمية كافية، فإن الأمر يتطلَّب وقتها الكثير من العمل، وتشتعل النيران أيضًا. ولهذا السبب، يجب أن تحصلي على مفجِّر ألغام جيد.»

نظرت جيسي إلى هال، ورأى أن مشاعرها غير السارة أصبحت ممزوجة بمشاعر التسلية الحقيقية. رأى أن هذه طريقة جيدة لتعليمها، لذلك شرعَ في جعل جيري الصغير يتحدَّث عن جوانب أخرى تخصُّ تعدين الفحم، من بَخْس الأوزان، وساعات العمل الطويلة، ورشوة رؤساء العُمال، وقادة المعسكرات، ومتاجر الشركات، وأماكن سَكَن العُمَّال، والمحرِّضين الاشتراكيين، ومُنظِّمي الاتحادات النقابية. تحدَّث جيري الصغير بحُرِّية عن أسرار المعسكر. قال بجدية: «لا بأسَ أن تعرفي. أنتِ فتاة جو!»

صاحت جيسي: «يا لك من كروب صغير!»

كان رد جيري الصغير: «ما هو الكروب؟»

الفصل الثالث والعشرون

هكذا مرَّ الوقت في استمتاعٍ. وفازت جيسي بمقصده تمامًا بفضل هذا المشاكس الإيطالي الصغير، على الرغم من كل ما تلفَّظ به من السِّباب المروِّع، ورأى هال أنها أيضًا استفادت، وكان سعيدًا بنجاح تجربة الاندماج الاجتماعي هذه. لم يستطِع معرفة ما يدور في ذهن جيسي، أو أن يدرك أن وراء فرحتها الحقيقية يكمن تحفُّظٌ نابع من تحيُّزها، تلك القسوة الغريزية التي يتَّسم بها أبناءُ طبقتها الاجتماعية. أجل، كان فتى المنجم الصغير كملائكة الكروب، هذا الآن، ولكن ماذا سيصبح عندما يكبر؟ سيصبح قبيحًا وفظَّ المظهر، وفي غضون عشر سنواتٍ لن يُمكن التعرُّف عليه وسط رجال القرية الفظِّين والقذرين الآخرين. ترى جيسي أن حقيقة كون الأشخاص العاديين يصبحون قبيحين عندما ينضجون دليلًا على أنهم، على نحوٍ مترسِّخ ودائم، أقل شأنًا مِمن هم أرقى منهم. كان هال يضيع وقته وقوته محاولًا تحويلهم إلى شيء من الواضح أن الطبيعة لم تكن تقصد أن يكونوا عليه! قررَتْ أن توضِّح هذا الأمر لهال في طريق عودتهما إلى القطار. أدركت أنه أحضرها إلى هنا لتعليمها، وبما أن التعليم بالإجبار كان مثيرًا لاستيائها، مثلها في ذلك مثل أي شخص آخر، فقد كانت تأمل في تغيير مجرى الأمور والتمكُّن من تعليم هال.

سرعان ما انتهت روزا من إرضاع الطفل، ولاحظت جيسي عينَيه السوداوَين. كسرَ هذا الموضوعُ حاجزَ خجل الأم، وتحدَّثوا بسرورٍ، ولكنهم سمعوا فجأة أصواتًا في الخارج أصابتهم بالفزع، كان صخبًا من أصوات النساء، وقفز هال وروزا إلى الباب. كان الوقتُ حرجًا؛ فقد كان الجميع على أُهْبة الاستعداد لمعرفة الأخبار.

فتح هال الباب ونادى مَن بالخارج: «ما الأمر؟» أتى الردُّ بصوتِ امرأة: «لقد عثروا على رافيرتي!»

«أهو حي؟»

«لا أحدَ يعرف بعد.»

«أين؟»

«في الغرفة السابعة عشرة. أحد عشر منهم ... رافيرتي، والشاب فلاناجان، ويوهانسون، السويدي. يقولون إنهم على وشك الموت ... ولا يستطيعون الكلام. لن يسمحوا لأحدٍ بالاقتراب منهم.»

تداخلت أصواتٌ أخرى، لكن الصوت الذي أجاب هال كان مختلفًا؛ فقد كان صوتًا دافئًا ورخيمًا، أيرلنديًّا لا شك، وقد لفتَ انتباهَ جيسي. «لقد وضعوهم في غرفة المَقلَب، والنساء يُرِدن أن يعرفن أحوال أزواجهن، ولن يُخبروهن. إنهم يضربونهن لإرجاعهن وإبعادهن كما لو كُنَّ كلابًا!»

كان هناك ضجيجٌ من البكاء، وخرج هال من الكوخ، وبعد دقيقة أو نحو ذلك دخل مرة أخرى، ساندًا بذراعه فتاة، ترتدي فستانًا قطنيًّا أزرق اللون باهتًا، وذات شعر أحمر لافت للغاية. بدت كأنها على وشك الإغماء، وظلَّت تتأوَّه قائلة إن الأمر كان فظيعًا، شديد الفظاعة. قادها هال إلى كرسي، فغاصت فيه وأخفت وجهَها بين يديها، باكيةً، ومتحدِّثةً على نحوٍ غير متماسكٍ وسط تنهداتها.

وقفت جيسي تنظر إلى هذه الفتاة. وشعرت بشدة انفعالها، وشاركتها إياه، ولكن في الوقت نفسه كان ثمة شيء استاءت منه جيسي. لم تكن ترغب في أن تنزعج من أشياء كهذه، الأمر الذي لم تستطع منعه. بالطبع كان هؤلاء الأشخاص التُّعساء يعانون، ولكن ... يا لها من ضجة صادمة كانت تُحدِثها تلك الفتاة المسكينة! كان الغضبُ جزءًا من انفعالها، وأدركت جيسي ذلك، واستاءت منه أكثر. كان الأمر كما لو كان تحديًا شخصيًّا لها، تلك المشاعر الاجتماعية الضارية نفسها التي اجتاحت هال، والتي أذهلتها وصدمَتْها بشدة.

كرَّرت الفتاة: «إنهم يضربونهن لإرجاعهن وإبعادهن كما لو كنَّ كلابًا!»

قال هال، وهو يحاول تهدئتها: «ماري، سيفعل الأطباءُ كلَّ ما في وسعهم. لم تستطع النساءُ تصوُّر أن يحتشدن حول الجثث!»

«ربما لم يستطعن، ولكن هذا ليس كل شيء يا جو، وأنت تعرف ذلك! لقد كانوا يجلبون الجثث إلى السطح، عثروا على بعضها حيث كان الانفجار ... فجَّرها إلى أشلاء. ولن يسمحوا لأحدٍ برؤيتها. هل هذا بسبب الأطباء؟ لا، ليس كذلك! كان ذلك لأنهم يريدون أن

يكذبوا بخصوص عدد القتلى! يريدون أن يعدُّوا أربع أو خمس أرجُلٍ لجثة واحدة! وذلك ما يقود النساء إلى الجنون! رأيت السيدة زامبوني تحاول النزول إلى السفح، وأمسكها بيت هانون من ذراعَيها ودفعها إلى الخلف. صرخت: «أريدُ زوجي!» وجاءها الردُّ: «حسنًا، ماذا تريدين أن تفعلي به؟ ما هو إلا أشلاء!» فصاحت مجدَّدًا: «أريد أشلاءَه!» وسألها الصوتُ مرة أخرى: «فيما ستنفعكِ؟ هل ستأكلينها؟»»

عَلَتْ حينئذٍ صرخاتُ رعبٍ، حتى من جيسي، وخبَّأت الفتاةُ الغريبة وجهها بين يديها وأجهشت بالبكاء مجدَّدًا. وضع هال يدَه بلطفٍ على ذراعها.

توسَّل قائلًا: «ماري، الأمرُ ليس سيئًا للغاية ... فهم يُخرجون الناسَ على الأقل.»

«كيف لَك أن تعرف ماذا يفعلون؟ ربما يُغلقون أجزاءً من المنجم بالأسفل! هذا ما يجعل الأمر فظيعًا للغاية ... لا أحدَ يعرف ماذا يحدث! كان يجب أن تسمع صراخَ السيدة رافيرتي المسكينة. لقد اخترقني كالسكين يا جو. فقط فكِّر، لقد مرَّت نصفُ ساعة منذ أن أحضروه إلى السطح، ولا تستطيع السيدة المسكينة معرفة ما إذا كان زوجُها على قيد الحياة أم لا.»

الفصل الرابع والعشرون

وقف هال لحظاتٍ يُفكِّر. فُوجِئَ بحدوث أشياء كهذه على الرغم من وجود قطار بيرسي هاريجان في القرية. كان يفكِّر فيما إذا كان ينبغي له الذهاب إلى بيرسي، أو ما إذا كان التلميح إلى كوتون أو كارترايت لن يكون كافيًا.

قال بصوتٍ هادئ: «يا ماري، لا داعي للقلق إلى هذا الحَدِّ. يمكننا الوصول إلى أسلوبٍ أفضل في التعامُل مع النساء، أنا متأكد.»

غير أنها استمرت في البكاء. وقالت: «ماذا يمكنك أن تفعل؟ إنهم يفعلون ما يريدون!»

قال هال: «لا. الأمر مختلفٌ الآن. صَدِّقيني ... ثمة شيءٌ يمكن فعله. سوف أتقدَّم وأتحدَّث مع جيف كوتون.»

انطلقَ نحو الباب، ولكنه سمعَ صرخة: «هال!» كان صوتُ جيسي، التي كاد أن ينساها وسط غضبه المفاجئ من رؤساء العمل.

استدار استجابةً لاحتجاجها، ونظر إليها ثم نظرَ إلى ماري. ورأى يدَي الأخيرة تسقطان من على وجهها الملطَّخ بالدموع، وتحوَّل تعبيرُها عن الألم إلى تعبيرٍ عن التعجُّب. «هال!»

قال مسرعًا: «معذرةً. آنسة بيرك، هذه صديقتي الآنسة آرثر.» ثم أضافَ، غير متأكد تمامًا مما إذا كان هذا تقديمًا مُرضيًا، قائلًا: «جيسي، هذه صديقتي ماري.»

لم تكن تربية جيسي الجيدة لتخذلها في أي موقفٍ طارئ. ومن ثَمَّ ابتسمت بكل أدبٍ وقالت: «آنسة بيرك.» لكن ماري لم تقل شيئًا، ولم يفارق التوتُّر وجهَها.

كادت في خِضَم غضبها ألا تلاحظ تلك الغريبة، لكنها حدَّقت إليها الآن، وبدأت تدرك الموقف. كانت فتاة، جمالها من النوع الذي يصعب تصوُّر وجوده في معسكر للتعدين، مُحتشِمة، ولكن من الواضح أن ملابسها كانت باهظة الثمن ... حتى مع مِعطَف المطر

والحذاء المطاطي اللذَين كانت ترتديهما. اعتادت ماري رؤية فساتين السيدة أوكالاهان الباهظة الثمن، لكن ها هو نوعٌ جديد من الملابس الباهظة الثمن، راقٍ وساحر، وغير متكلِّف بشكلٍ غريبٍ. وتتحدَّث بعَشَمٍ إلى جو سميث، مساعِد عامِل المنجم! وتناديه باسم غير معروف حتى الآن لرفاقه في نورث فالي! لم يكن الأمر بحاجة إلى كلمة من جيري الصغير لتدرك ماري الأمر بغريزتها؛ عرفَتْ على الفور أنها كانت «الفتاة الأخرى».

أدركت ماري فجأة أنها كانت ترتدي فُستانًا قطنيًّا أزرق، مُرقَّع عند الكتف وملطَّخ ببُقع الشحم، وأن يديها كانتا كبيرتَين وخشِنتَين من أثر العمل الشاق، وأن قدمَيها كانتا تنتعلان حذاءً قد بلِيَ جانب كعبِه ويوشك على الانقطاع عند موضع أصابع القدم. أما جيسي، فقد كانت هي الأخرى تمتلك غريزة المرأة؛ حيث رأت فتاة جميلة، من ذلك النوع من الجمال الذي لم يرُق لها، ولكنها لم تستطع إنكاره ... جمال تُكسِبه الصحة القوية، جمال حيواني مُفعَم بالحيوية. لم تكن جيسي تجهل طبيعة مفاتنها، فقد تربَّت جيدًا للعناية بها، كما كانت تدرك جيدًا عيوبَ الفتاة الأخرى ... الفستان المرقَّع والمُشحَّم، واليدان الكبيرتان الخشنتان، والحذاء الذي قد بلي جانبُ كعبه. ولكن على الرغم من ذلك، أدركت أن لـ «ماري الصهباء» صفة كانت تفتقر هي إليها ... وهي أنها ربما بدت هي، جيسي آرثر، بجانب هذه الوردة البرية في معسكر التعدين، زهرة من زهور الحدائق، هَشَّة وعديمة الروح.

لقد رأت هال يضع يَدَه على ذراع ماري، وسمعَتْها تتحدَّث إليه. كانت تدعوه جو! ووثب خوفٌ مفاجئ في قلب جيسي.

كانت جيسي آرثر، مثل العديد من الفتيات اللاتي تربَّين على أن يكُنَّ لطيفاتٍ، تعرف أكثر مما يمكنها التصريح به، حتى لنفسها. كانت تعرف ما يكفي لتدرك أنَّ الشباب الذين يَنعمون بالمُتَع الوفيرة والرفاهية ليسوا دائمًا قدِّيسين وزاهدين. كما سمعتْ عدة مرات الإشارةَ إلى نساء الطبقات الدنيا باعتبارهن «عديمات الأخلاق». ماذا يعني هذا الوصف حقًّا؟ ماذا سيكون سلوكُ فتاة مثل ماري بيرك ... مُفعَمة بالحماس والانفعالية، وغير راضية عن نصيبها في الحياة ... مع رجل مثقَّف وساحر مثل هال؟ ستشتهيه بالطبع؛ فلا تعرفه امرأةٌ إلا واشتهته. وستُحاول إبعاده عن أصدقائه، وعن العالَم الذي ينتمي إليه، وعن المستقبل المليء بالسعادة والراحة الذي في انتظاره. لا بد أنها تمتلك الوسائلَ التي تستطيع بها فعل ذلك ... وسائل مظلِمة ومرعبة، مما يزيد من رعب جيسي؛

لأنها كانت وسائل غامضة. هل قد تتمكَّن بها من التغلُّب حتى على عيوبها من فستانها القطني القذِر، ويديها الكبيرتَين الخشنتَين وحذائها الذي بليَ جانبُ كعبه.

خطرت هذه الأفكارُ، التي كانت تتطلَّب الكثير من الكلمات لشرحها، على ذهن جيسي في لمح البصر. وفهمت الآن، فجأة، الظاهرة التي بدت غير مفهومة ... وهي أن يترك هال أصدقاءَه ومنزله وحياته المهنية، ويأتي ليعيشَ وسط هذه القذارة والمعاناة! رأت المعاناة القديمة لروح الإنسان، التنافُس بين الفردوس والجحيم من أجل السيطرة على روحه، وعرفت أنها كانت الفردوس، وأن «ماري الصهباء» كانت الجحيم.

نظرت إلى هال. وبدا لها عاقلًا وصادقًا؛ كانت أمارات الصراحة ظاهرةً على وجهه، كان الاستقامة ذاتها. كلا، كان من المستحيل أن تُصدِّق أنه قد استسلم إلى مثل هذا الإغراء! لو كان الأمرُ كذلك، ما كان ليُحضِرها قطُّ إلى هذا الكوخ؛ ما كان ليدع فرصةً للقائها بالفتاة. كلَّا، لكنه ربما كان يقاوم إغراءَها، ربما كان يكدح في ذلك، ولا يدركه تمامًا. لقد كان رجلًا، ومن ثَم أعمى؛ لقد كان حالِمًا، وسيبدو هذا دأبه؛ أن ينظر إلى هذه الفتاة باعتبارها مثالية، ويصفها بالساذجة والبراءة، مُعتقِدًا أنها لا تعرف حيلَ الخداع! لقد جاءت جيسي في الوقت المناسب لإنقاذه! وستقاتل لإنقاذه ... مُستخدِمة حيلًا أكثر دهاءً من تلك التي تمتلكها أي فتاة وقِحة في معسكر للتعدين!

الفصل الخامس والعشرون

هكذا تأجَّجت الذاتُ الغريزية في جيسي آرثر، نِتاجَ قسوةٍ متأصِّلة، لم يكن لدى هال فكرة عن وجودها. تراجعتْ إلى الخلف، وكان ثمة عجرفة هادئة في نبرة صوتها عندما تكلَّمت. «هال، تعالَ إلى هنا، من فضلك.»

أتى، وانتظرت حتى أصبح على مسافة تسمح بمحادثته بصوتٍ خافتٍ، ثم قالت: «هل نسيتَ أنك يجب أن تعيدني إلى القطار؟»

قال راجيًا: «ألا يُمكنكِ أن تأتي معي لبضع دقائق؟ سيكون لذلك أثرٌ جيد.»

أجابت، وارتجفَ صوتُها فجأة وترقرقت الدموعُ في عينَيها البُنِّيتَين: «لا أستطيعُ الذهابَ وسط ذلك الحشد. ألا تعلم يا هال أنني لا أستطيع تحمُّل مثل هذه المشاهد الفظيعة؟ هذه الفتاة المسكينة ... إنها تعتادها ... لقد اشتدَّ قلبُها! لكن أنا ... أنا ... أوه، خُذني بعيدًا، خُذني بعيدًا، عزيزي هال!» أحدثَ هذا التوسُّل النسائي طلبًا للحماية صدًى مألوفًا في ذهن هال. لم يتوانَ للتفكير ... بل حرَّكته غريزتُه. أجل، لقد عرَّضَ الفتاةَ التي أحبَّها للمعاناة! لقد تعمَّد ذلك لمصلحتها، ولكن على الرغم من ذلك، كان الأمر قاسيًا!

وقفَ بالقرب منها، ورأى شعاعَ الحب في عينَيها؛ رأى الدموعَ، وارتعاشَ ذقنها الرقيق. مالت نحوه وأمسكها بين ذراعَيه ... وحينئذٍ، أمام هؤلاء الحضور، جعلته يضمُّها إليه وهي تبكي وتهمس بحزنها. كانت تخجل من المداعبات حتى ذلك الحين؛ إذ كانت والدتُها الخبيرة تراقبها وتعاتبها، فمن المؤكَّد أنها لم تُقدِم من قبل على ما يمكن لخياله أن يعتبره، ولو من بعيدٍ، مبادرة حميمة منها. لكنها الآن تجرَّأت، وكان ثمة نداء انتصار في روحها عندما رأت استجابته لها. كان لا يزال ملكها ... ويجب على هؤلاء الأشخاص الوضِيعِين أن يعرفوا ذلك، يجب أن تعرف هذه «الفتاة الأخرى» ذلك!

ولكن في خِضَم هذه البهجة، شعرت جيسي آرثر حقًّا بحزنٍ أعربت عنه على نساء نورث فالي؛ لقد شعرت حقًّا بالرعب في قصة السيدة زامبوني وزوجها المسكين، فهكذا هي روح المرأة، الشديدة التعقيد، وهكذا هي قدرتُها، مُحيِّرة وقديمة، قِدَم الزمان، تصيبها بالجنون وفي الوقت نفسه توجِّهها إلى استخدام هذا الجنون بحساباتٍ عميقة ولا مجالَ فيها للخطأ.

لكنها جعلت هال يدرك أنه يتعيَّن عليه أن يأخذها بعيدًا. التفتَ إلى ماري بيرك وقال: «قطار الآنسة آرثر سيغادر بعد قليلٍ. سأضطر إلى مرافقتها، وبعد ذلك سأذهبُ إلى فتحة المنجم معكِ لأرى ما يمكنني فعله.»

أجابت ماري، وكان صوتُها قاسيًا وباردًا: «جيد جدًّا.» لكن هال لم يلحظ هذا. لقد كان رجلًا، وغير قادر على مواكبة عواطف امرأة واحدة ... فضلًا عن امرأتَين في وقتٍ واحد.

أخذَ جيسي بالخارج، وطوال طريق سيرهما إلى القطار كانت تكافح كفاحًا يائسًا لإبعاده عن هذا المكان. لم تعُد تقترح حتى أن يحصل على ملابس لائقة؛ فقد كانت تريده أن يأتي بهيئته التي كان عليها، ببذلة العمل الملطَّخة بالفحم، في قطار ابن ملك الفحم. لقد توسَّلت إليه باسم ما بينهما من عاطفة. وهدَّدته بأنه إذا لم يأتِ، فقد تكون هذه هي المرة الأخيرة التي سيلتقيان فيها. حتى إنها أجهشت بالبكاء وسط الشارع، وتركته واقفًا مكانه على مرأًى من زوجات عُمَّال المناجم وأطفالهم، وربما مُراسلي الصحف، وهو يُسندها بذراعَيه ويُهدِّئها.

كان هال في حيرة كبيرة، لكنه لم يكن ليستسلم. أصبحت فكرةُ المغادرة في قطار بيرسي هاريجان تبدو بغيضة من الناحية الأخلاقية بالنسبة إليه؛ قال إنه كره قطار بيرسي هاريجان، وبيرسي هاريجان نفسه. ورأت جيسي أن كلَّ ما تفعله هو أنها تُخرِجه عن صوابه ... وأنه ربما سرعان ما يكرهها هي أيضًا. وبلباقتها الاجتماعية الفطرية، جعلته يقترحُ أنها قد تجد شخصًا لمرافقتها، وتبقى معه في نورث فالي حتى يُصبح هال مستعدًّا لمغادرة المكان.

طرِبَ قلبُ هال لذلك الاقتراح؛ لم يكن لديه أي فكرة عما كان يدور في ذهنها ... فقد كان من المؤكَّد ألا تُقدِم أيٌّ من سيدات صُحبة هاريجان على الإساءة إلى مضيفها بالبقاء في مثل هذه الظروف.

صاحَ سعيدًا: «هل تعنين ذلك حقًّا يا حبيبتي؟»

أجابت: «أعني أنني أحبُّك يا هال.»

قال: «حسنًا يا عزيزتي! سنرى ما إذا كان في إمكاننا ترتيب ذلك.»

ولكن بينما كانا يسيران في طريقهما، تمكَّنت، دون أن يدرك، من جعله يفكِّر في عواقب بقائها. كانت على استعدادٍ للبقاء، إذا كان هذا ما أراده، لكن ذلك كان من شأنه أن يضرَّ بعلاقتها مع والدَيها، وربما على نحوٍ لا رجعة فيه. كانوا سيرسلون إليها في تلك الحالة برقية بأن تأتي على الفور، وإذا لم تُطِع الأمر، فقد كانوا سيأتون في أول قطار. وهكذا، حتى اضطر هال إلى التراجع عن اقتراحه. في نهاية المطاف، ما الفائدة من بقائها إذا كان ذهنُها مع أبناءِ موطنها، إذا كانت ستُعرِّضه للمتاعب؟ قبل أن تنتهي المحادثة، أصبح واضحًا في ذهن هال أن نورث فالي لم تكن مكانًا مناسبًا لجيسي آرثر، وأنه كان أحمق عندما ظنَّ أن في إمكانه أن يخلق ترابُطًا بين العالَمين.

حاولت إقناعَه أن يعِدَها بالمغادرة بمجرد أن يُخرِجوا آخِر رجل من المنجم. أجابَ بأنه كان ينوي الرحيل في تلك الحالة ما لم يطرأ أمرٌ جديد. حاولت الحصول على وعدٍ غير مشروط، ولكنها فشِلت في ذلك، وعندما أوشكا على الوصول إلى القطار، استسلمت تمامًا فجأة. فليفعل ما أراد ... ولكن ليتذكَّر أنها أحبَّته، وأنها كانت في حاجة إليه، وأنها لم تكن تستطيع الاستغناءَ عنه. بغض النظر عما كان ربما سيفعله، وعما كان ربما سيقوله الناسُ عنه، كانت تؤمن به، وكانت ستقف بجانبه. تأثَّر هال بشدة، وأخذها بين ذراعَيه مرة أخرى وقبَّلها برقة تحت المظلَّة، فيما كان العديد من الفِتية الأشقياء من ذوي الوجوه الملطَّخة بالفحم ينظرون إليهما في دهشة. تعهَّد مُجدَّدًا بحُبِّه لها، مؤكِّدًا أنه لن يصرفه عنها أيُّ قدر من الاهتمام بمعسكرات التعدين.

ثم أدخلها القطار، وصافح الضيوف المغادرين. كان شديدَ التجهُّم، ويبدو عليه الضيقُ إلى درجة أن الشباب لم «يُمازِحوه» كعادتهم. وقفَ على رصيف المحطة ورأى القطار يتأرجَح مبتعدًا ... وشعرَ في حيرة يائسة بأنه أصبح يكره أصدقاءَ طفولته وشبابه هؤلاء. احتجَّ عقلُه على ذلك؛ وقال لنفسه إنه لم يكن ثمة شيء في إمكانهم فعله، لم يكن ثمة سببٌ على وجه الأرض لبقائهم ... ولكنه كرههم. كانوا يسارعون للرقص والمغازلة في النادي الريفي ... بينما كان هو عائدًا إلى فتحة المنجم، كي يحاول أن يحصل للسيدة زامبوني على الإذن لتفقُّد أشلاء «زوجها»!

الجزء الرابع

إرادة مملكة الفحم

الفصل الأول

كانت حفرة الموت تكشف عن أسرارها. كانت الرافعة تعمل بلا كللٍ، وكان المصعد يخرج بحمولة تِلوَ الأخرى، بجثثٍ، وأجسادٍ حية، وأجساد لم يكن في الإمكان الحكم على حالتها إلا بعد أن ضخَّت الآلات الهواء فيها بعض الوقت. وقف هال تحت المطر وشاهد الحشد، وفكر في أنه لم يشهد قطُّ مشهدًا مثيرًا للشفقة والرعب بهذا القدر. يا له من صمتٍ كان سيسود عند ظهور أي شخص قد يحمل خبرًا! يا لها من صرخة ألمٍ مباغتة انطلقت من امرأة انهارت آمالها فجأة! يا لها من أنَّات تعاطُفٍ تردَّدت بين الحشد، بالتناوب مع هتافاتٍ لبعض الأخبار السارَّة، هزَّت نفوس الجمع كعاصفة ريحٍ تهزُّ حقلًا للقصب!

ويا لها من قصصٍ تردَّدت في المعسكر ... آتية من العالَم السفلي ... قصص معاناة لا تُصدَّق، بل وبطولات تفوق الوصف! رجال ظلُّوا أربعة أيام دون طعامٍ أو ماء، لكنهم قاوموا إخراجهم من المنجم مُفضِّلين البقاء والمساعدة في إنقاذ الآخرين! رجالٌ استلقوا معًا في الظلام والصمت، واستطاعوا البقاءَ على قيد الحياة بالمياه التي تسرَّبت من الصخور فوقهم، متناوبين على الاستلقاء رافعي الرءوس حيث كانت تسقط القطرات، أو مبلِّلين قطعًا من ملابسهم وماصِّين نداوتها! كان أعضاء من فرق الإنقاذ يحكون كيف كانوا يطرقون الحواجز، ويسمعون إشارات استجابة خافتة من الرجال المُحاصَرين، وكيف جاهدوا جهادًا محمومًا حتى ظهرت فجوة صغيرة في النهاية، وسمعوا هتافات الفرح ورأَوا عيون الرجال تلمع في الظلام، وهم ينتظرون، لاهثين، أن تتسع الفجوة، كي يتمكَّن فريقُ الإنقاذ من تمرير الماء والطعام إليهم!

في بعض الأماكن كانوا يكافحون النيران. شُوهِدَت طوابير طويلة من خراطيم المياه تُدلى إلى أسفل، وكان الرجال يتقدَّمون مسافة قدمٍ بعد أخرى، بينما كان الدخان يُسحَب

من أمامهم بواسطة المروحة. أولئك الذين قاموا بهذا العمل كانوا يحملون حياتهم على أكُفهم، ولكنهم أدَّوا مهمَّتهم دون تردُّد. كان الأمل موجودًا دائمًا في العثور على رجالٍ في الغرف الموصَدة الواقعة على مسافة أبعد.

بحث هال عن جيف كوتون عند مدخل غرفة المَقْلَب، التي تحوَّلت إلى مستشفًى مؤقَّت. كانت هذه هي المرة الأولى التي يلتقي فيها الاثنان منذ انكشاف شخصية هال في سيارة بيرسي، وكان وجه قائد المعسكر قد خطَّت فيه ابتسامة تنمُّ عن ارتباكٍ. قال: «حسنًا يا سيد وارنر، لقد ربِحتَ.» وبعد قليلٍ من الجدال وافقَ على السماح لبعض النساء بالذهاب إلى غرفة المَقْلَب، وإعداد قائمة بالجرحى والخروج وإذاعة الأخبار للجَمْع. ذهب هال إلى عائلة مينيتي ليطلب من ماري بيرك المشاركة في هذا الأمر، لكن روزا قالت إن ماري قد خرجت خلفه بعدما غادرت الآنسة آرثر، ولا يعرف أحدٌ مكانها. لذلك ذهب هال إلى السيدة ديفيد، التي وافقت على جلب بعض صديقاتها وتنفيذ المهمة، دون تشكيل أي «لجنة». أعلن قائدُ المعسكر: «لا أريدُ أن أسمع عن أي لجان لعينة!»

وهكذا مرَّت الليلة، وجزءٌ من يومٍ آخر. جاء موظف من المكتب إلى هال ومعه ظرف مختوم، يحتوي على برقية، موجَّهة إلى عناية كارترايت. «أتوسَّل إليكَ بشدة أن تعود إلى المنزل في الحال. سيكون الأمر مفجعًا لأبي إذا سمع بما حدث، وسيكون من المستحيل إخفاءُ الأمر عنه فترة طويلة.»

وبينما كان هال يقرأ، عبس وجهه؛ من الواضح أن آل هاريجان قد اتخذوا ردودَ أفعال فورية! ذهب إلى المكتب وأوصلَ ردَّه عبر الهاتف. «أنوي المغادرة في غضون يوم أو يومَين. أنا على ثقة بأنك ستحاول ألَّا يعرف أبي الأمر حتى تسمع روايتي.»

أزعجت هذه الرسالة هال. وجعلته يفكِّر في جدالاتٍ طويلة مع شقيقه وتوضيحاتٍ واعتذاراتٍ لوالِده. لقد أحبَّ أباه حُبًّا جمًّا. يا له من عارٍ إذا جعل أحد مبعوثي عائلة هاريجان يُزعجه بادعاءاتٍ مغلوطة!

كما كان من شأن هذه الأفكار أن تُشعِر هال بالحنين إلى الوطن؛ فقد ذكَّرته على نحوٍ أكثر وضوحًا بالعالَم الخارجي، بإغراءاته المادية ... فثمة حَدٌّ لما يستطيع الشخصُ الراقي أن يُجبِر نفسه على تحمُّله من الوجبات غير الصحية والأَسِرَّة القذرة والمناظر المثيرة للاشمئزاز. وجد هال نفسه مُستغرقًا في تخيُّل غرفة طعام النادي، وروائح شرائح اللحم المشوية واللفائف الساخنة، وألوان السلطات والفواكه الطازجة والقشدة. نمت قناعة مفاجئة داخله بأن عمله في نورث فالي كان يوشك على الانتهاء!

مرَّت ليلةٌ أخرى، ويوم آخر. وأُخرِجَت آخِر الجثث، وشُحِنَت إلى بيدرو لإقامة إحدى تلك الجنازات الجماعية التي كانت من سِمات حياة المناجم. أُخمِدَت النيران، وأفسحت أطقم الإنقاذ المكانَ لسربٍ من النجَّارين والحطَّابين لإصلاح الأضرار وتأمين المنجم. رحل الصحفيون، وصافح بيلي كيتينج يدَ هال، ووعده بلقائه لتناول الغداء في النادي. وحضر أحدُ وكلاء «الصليب الأحمر»، وكان يُطعِم الجياعَ من تلك التبرعات التي جمعتها السيدة كيرتِس. ماذا كان في إمكان هال أن يفعله أكثر من ذلك … سوى أن يودع أصدقاءَه، ويؤكِّد لهم أنه سيساعدهم في المستقبل؟

كان من بين هؤلاء الأصدقاء في المقام الأول ماري بيرك، التي لم تُتَح له الفرصة للتحدُّث إليها منذ لقائها بجيسي. أدرك أن ماري كانت تتجنَّبه عمدًا. لم تكن في منزلها، وقد ذهب للسؤال عنها في منزل رافيرتي، وتوقَّف لتوديع المرأة العجوز التي أنقذوا زوجها.

كان رافيرتي في طريقه إلى التحسُّن. وقد سُمِح لزوجته بالدخول لرؤيته، وسالت الدموع على وجنتَيها المنكمشتَين عندما رَوَت الأمر. ظلَّ محبوسًا لمدة أربعة أيام بلياليها في نفقٍ صغيرٍ، بلا طعامٍ أو ماءٍ، باستثناء بضع قطراتٍ من القهوة التي شاركها مع رجال آخرين. كان لا يزال غير قادر على الكلام، وبالكاد يستطيع تحريك يده، لكن عينَيه كانتا تُشِعَّان بالحياة، وكانت نظرته بمنزلة تحية نابعة من تلك الروح التي أحبَّتها وخدمتها طوال ثلاثين عامًا وأكثر. ترنَّمت زوجته بتسبيحاتٍ لإله رافيرتي، الذي أخرجه بأمان من هذه المخاطر؛ بدا واضحًا أنه لا بد أنه كان أكثر كفاءة من إله يوهانسون البروتِستانتي، ذلك السويدي العملاق، الذي كان يرقد بجانب رافيرتي وقد فارقَ الحياة.

لكن الطبيب قال إن الأيرلندي العجوز لن يصلح للعمل مجددًا، ورأى هال سحابة من الفزع تغيم على وهَج الفرحة التي كان يشعُّ بها وجه السيدة رافيرتي. كيف يمكن لطبيبٍ أن يقول شيئًا كذلك؟ كان رافيرتي عجوزًا، لا شكَّ، لكنه كان صلبًا … وهل كان في إمكانِ أي طبيبٍ أن يتخيَّل مدى الكَد الذي يبذله الرجل الذي لديه عائلة يعولها ويتعيَّن عليه الاعتناء بها؟ بالطبع لم يكن رافيرتي ذلك الشخص الذي يستسلم بسهولة بسبب بعض الآلام التي تنتابه بين الحين والآخر! لم يكن أحدٌ بجانبه يكسب المال سوى تيم، وعلى الرغم من أن تيم كان فتًى جيدًا وكان يعمل على الدوام، فقد كان حَرِيًّا بأي طبيب أن يعرف أنه لم تكن أي عائلة كبيرة لتستطيع العيش على أجر صبي يبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا. أما بالنسبة إلى بقية الأبناء، فقد كان هناك قانون ينُص على أنهم أصغر من السن القانونية للعمل. اعتقدت السيدة رافيرتي أنه يجب أن يكون هناك مَن يوضِّح

الصورة بعض الشيء لواضعي القوانين ... لأنهم إذا أرادوا منع الأطفال من العمل في مناجم الفحم، فلا بد لهم بالطبع أن يوفروا طريقة أخرى لإطعامهم.

استمع هال إليها، مؤيدًا رأيَها ومتعاطفًا معها، وفي هذه الأثناء كان يشاهدها، ويتعلَّم من أفعالها أكثر من أقوالها. لقد كانت مطيعة لتعاليم دينها، «أن تُثمر وتُكثر» كما جاء في الكتاب المقدس؛ لقد أمدَّت بطون عالَم الصناعة بثلاثة أبناء بالغين، وكان لا يزال لديها ثمانية أطفال آخرين وزوج لتعتني بهم جميعًا. تساءل هال عما إذا كانت قد استراحت ولو لدقيقة واحدة من نهار طوال سنوات عمرها الأربع والخمسين. فلم يحدث ذلك بالتأكيد طوال فترة وجوده في منزلها! حتى الآن، في أثناء تسبيحها لإله رافيرتي ولومها على المُشرِّعين الرأسماليين، كانت تُعِد العشاء، متحركة بسرعة، في صمتٍ، مثل الآلة. كانت هزيلة مثل حصان عجوز يكدح في الصحراء؛ كان الجلد فوق عظام وجنتَيها مشدودًا كالمطاط، وكان مِعصماها يُظهران أوتارًا كأوتار البيانو.

والآن تنحني خوفًا أمام شبح العَوَز. سأل هال عما كانت تفكِّر في فعله، ورأى غيمة من الفزع تمرُّ عبر وجهها مجددًا. يبدو أنه لم يكن هناك إلا ملاذ واحد للنجاة من الجوع ... أن تسمح بأن يُؤخَذ منها أطفالها، وأن يُودَعوا إحدى المؤسسات! وعلى ذكر هذ الأمر، الذي يُعَد أحد الكوابيس الخاصة بالفقراء، أجهشت المرأة العجوز بالبكاء وصرخت مجددًا قائلةً إن الطبيب كان مخطئًا؛ سيرى الطبيب، وسيرى هال أنَّ العجوز رافيرتي سيعود إلى عمله في غضون أسبوع أو أسبوعَين!

الفصل الثاني

عاد هال إلى الشارع. كان ذلك هو وقت الغروب في المناطق المستوية؛ كانت قِمم الجبال مشوبة بضوء أرجواني، وكان الهواءُ منعشًا وباردًا مع بداية الخريف. رأى في الشوارع المظلمة تجمُّعًا من الرجال، وكان هناك صراخٌ، وأشخاصٌ يركضون نحو المكان، فأسرع متسائلًا «ماذا حدث؟» كان هناك ما يقرب من مائة رجل يصرخون، امتزجت أصواتُهم، فكانت أشبه بصوت أمواج البحر. استطاع أن يُفسِّر بعضَ الكلمات: «هيا! هيا! كفانا هذا! هيا!»

سألَ شخصًا على أطراف الحشد: «ماذا حدث؟»

وقد عرفه الرجلُ، فأطلقَ صرخة انتشرت بين الحشد: «جو سميث! إنه رجلنا! تعالَ هنا، جو! ألقِ خطابًا!»

راح هال يطرح الأسئلة، محاولًا استيضاح الموقف، ولكن حتى في تلك الأثناء انتشرت صيحاتٌ أخرى منادية اسمه. «لقد سئمنا منهم ومن قمعِهم لنا!» وصاح أحدُهم بصوتٍ أعلى: «أَخبِرنا! أَخبِرنا مجددًا! هيا!»

كان هناك رجلٌ يقف على درجات مبنًى عند إحدى النواصي. حدَّق هال في ذهولٍ؛ لقد كان تيم رافيرتي. من بين جميع الناس في العالَم ... تيم، تيم المَرِح والبسيط، تيم ذو الوجه الضاحك والعينين الأيرلنديَّتَين الزرقاوين اللتين تشعَّان مرحًا! الآن شَعِث شعرُه الرملي اللون وشوَّه الغضبُ أساريره. صرخَ قائلًا: «إنه يعاني سكرات الموت! ذهبَ عنه صوتُه، ولم يستطع تحريك يده! كان عبدًا لهم على مدى إحدى عشرة سنة، وكاد أن يُقتَل في حادث كان خطأهم ... أقسم إنَّ كل رجل في هذا الحشد يعلم أنه خطؤهم!»

صرخ الحشدُ فيما يشبه جوقة من الأصوات: «أمر مُؤكَّد! أنت على حقٍّ! قل كلَّ شيء!»

«يُعطونه خمسة وعشرين دولارًا ونفقات المستشفى ... وكم ستكون نفقات المستشفى؟ سيخرجونه إلى الشارع مرة أخرى قبل أن يتمكَّن من النهوض على قدمَيه. أتعلم ... لقد فعلوا ذلك مع بيت كولين!»

«بالطبع فعلوا ذلك.»

«ويأتي هؤلاء المحامون الملاعين إلى هناك ... يُجبرونهم على التوقيع على أوراقٍ لا يعرفون ما فيها. وأنا الذي ربما في مقدوري أن أساعده لا أستطيع الاقتراب! بحق المسيح، هذا لا يُحتمَل! هل نحن عبيد أم كلاب لنتحمَّل أمورًا كهذه؟»

صاح أحد الأشخاص: «لن نتحمَّل أكثر من ذلك! سوف نذهب إلى هناك ونرى بأنفسنا!»

صاح آخرُ: «هيا! وليذهب حراسُهم المسلَّحون إلى الجحيم!»

شقَّ هال طريقَه وسط الحشد. وصاح: «تيم! كيف علمتَ بهذا؟»

«زميلٌ هناك رأى ذلك.»

«مَن؟»

«لا أستطيعُ إخبارك ... سوف يطردونه، ولكنه شخص تعرفه تمامًا كما أعرفه. لقد جاء وأخبرني. إنهم لا يدفعون لأبي التعويض!»

صاح واكوب، عامِل منجم إنجليزي كان يقف بجوار هال: «يفعلون ذلك دائمًا! لذلك لن يسمحوا لنا بالدخول هناك.»

قال صوتٌ آخر: «لقد فعلوا الأمر نفسه مع والدي!» عرف هال أنه كان صوت آندي، الصبي اليوناني.

صاح تيم: «ويريدون بدءَ العمل في المنجم رقم ٢ في الصباح! مَن عساه ينزل إلى هناك مرة أخرى؟ ومع أليك ستون، ذلك الذي يلعن العُمَّال ويُنقذ البِغال!»

صاح واكوب: «لن نعود إلى مناجمهم حتى تصبح آمنة! ليرشُّوها ... وإلا فسأعتزل ذلك العمل للأبد.»

صاح آخر: «وليعطونا مقابل أوزاننا! سيكون لدينا مراقِبٌ للأوزان، وسنحصل على مقابل ما نستخرجه من فحمٍ!»

وهكذا علَت الصيحة مرة أخرى: «جو سميث! ألقِ لنا خطابًا، جو! أعطِهم ما يستحقونه! أنت رجلنا!»

وقف هال عاجزًا، جَزِعًا. لقد حسبَ أنه انتصر في معركته … ولكن ها هي معركة أخرى! كان الرجال ينظرون إليه، ويُنادونه باعتباره أشجع الثوار. ولم يعرف إلا عددٌ قليل منهم شيئًا عن التغيير المفاجئ في وضعه.

وبينما كان لا يزال مترددًا، تجاوزته جبهة القتال؛ إذ قفز الإنجليزيُّ واكوب على الدَّرَج وبدأ في مخاطبة الحشد. لقد كان من الرجال ذوي البِنية المنحنية والمتقزِّمة، لكنه استطاع في هذه الأزمة أن يُظهِر قوة أنفاسه المفاجئة. استمع هال مندهشًا؛ فهذا الرجل الهادئ البليد المظهر كان آخِر مَن سيختاره لخوض القتال. كان توم أولسون قد قيَّمه، وقال إنه لا يريد أن يسمع شيئًا عنه، ومن ثَم استبعدوه من تفكيرهم. وها هو هنا يخطب بتحدٍّ رهيبٍ!

«إنهم مجموعة من اللصوص والقتلة! إنهم يسرقوننا في كل مكان نذهب إليه! من جهتي، لقد اكتفيتُ منهم! ماذا عنكم؟»

كان هناك هديرٌ قادمٌ من كل مَن وصله صوتُه. كانوا جميعًا قد اكتفوا منهم.

«حسنًا، إذن … سوف نقاتلهم!»

«هيا! هيا! سنحصلُ على حقوقنا!»

وصل جيف كوتون على عجلٍ، ومعه «بود» آدامز واثنان أو ثلاثة من المسلَّحين في عقبَيه. استدار الحشد نحوهم، وقبضَ الرجالُ في أطراف الحشد أياديهم، مُظهرين أسنانهم مثل الكلاب الغاضبة. احمرَّ وجه كوتون من الغضب، لكنه رأى أنه يواجه أمرًا جللًا؛ فاستدار وذهب للحصول على مزيدٍ من الدعم … وعلا هديرُ الجماهير فرحًا. كانوا قد بدءوا معركتهم بالفعل! وقد حققوا بالفعل نصرهم الأول!

الفصل الثالث

تحرَّك الحشدُ في الشارع، وهم يصرخون ويسبُّون في أثناء سيرهم. بدأ أحدهم في غناءِ النشيد الوطني الفرنسي، وانضم إليه آخرون، وتردَّد صدى الكلمات عاليًا بقوة:

«إلى السلاح! إلى السلاح أيُّها الشجعان!
تقدَّموا، تقدَّموا، كلُّ القلوب عازمة
على النصر أو الموت!»

كان في هذا الحشد مظلومون من عدة دول؛ غنوا بعشرات اللغات، لكنها كانت الأغنية نفسها. كانوا يتغنَّون ببعض العبارات، لكنها كانت تتوه وسط صياح الآخرين. «تقدَّموا! تقدَّموا! كلُّ القلوب عازمة!» اندفعَ بعضُهم في شتى الاتجاهات لنشر الأخبار، وسرعان ما تجمَّع جميعُ سكان القرية في المكان، ولوَّح الرجالُ بقُبعاتهم، ورفعت النساءُ أيديهن صارخات ... أو وَقفن مرعوبات، مدركات أنَّ الغناء الثوري لن يسدَّ جوع أطفالهن.

رفعَ الحشدُ تيم رافيرتي على الأكتافِ، وجعلوه يروي قصتَه مرة أخرى. وبينما كان يرويها، جاءت والدتُه العجوز تركض، وعلت صرخاتُها الصخب: «تيم! تيم! انزل من هناك! ماذا جرى لك!» كانت تعتصر يديها في خوفٍ مميتٍ، وعندما رأت هال، أسرعت إليه. «اجعله ينزل يا جو! لقد أُصيبَ الفتى بالجنون لا شك! سيتسبَّب في طردنا من المعسكر، يا إلهي، ماذا حلَّ بالفتى؟» نادت تيم مجددًا، لكنه لم يُرعِها انتباهًا، هذا إن كان قد سمعها من الأساس. كان تيم كمَن كانوا في مسيرة الثورة الفرنسية إلى قصر فِرساي!

صاح أحدهم أنهم سيذهبون إلى المستشفى لحماية الرجال المصابين من «المحامين الملعونين». كان هذا مَسعًى محدَّدًا، وتحرَّك الحشدُ في ذلك الاتجاه، وتبِعه هال مع مَن تخلَّفوا عن الركب، من النساء والأطفال، والرجال الأقل جرأة. لاحظَ وجودَ بعض كتبة

الشركة وموظفيها النظاميين، وها هو الآن يرى جيف كوتون مرة أخرى، ويسمعه وهو يأمر هؤلاء الرجال بالحضور إلى المكتب لجلب المسدسات.

جاء ديفيد «جاك الكبير» مع جيري مينيتي، وعاد هال أدراجه للتشاور معهما. كان جيري شديدَ الحماس. ها هي الثورة التي كان يتطلَّع إليها لسنواتٍ تندلع أمام عينَيه! لماذا لم يُلقوا الخطابات، للسيطرة على الرجال وتنظيمهم؟

أعربَ جاك ديفيد عن شكوكه. ذلك أنه كان عليهم أن يفكروا فيما إذا كانت هذه الموجة في إمكانها أن تصبح حركة دائمة.

أجاب جيري أنها ستصبح ما سيختارون لها أن تكون. إذا تحمَّلوا المسئولية، فسوف يتسنَّى لهم توجيه الرجال وتوحيدهم. ألم يكن هذا ما أراده توم أولسون؟ أجاب الويلزي الكبير بالنفي، وقال إن أولسون كان يحاول تنظيم الرجال سِرًّا، تمهيدًا لاندلاع الثورة في جميع المعسكرات. كان ذلك مغايرًا تمامًا لمفهوم الحركة العلنية، التي تقتصر على معسكرٍ واحدٍ. هل من أملٍ في نجاح حركة كهذه؟ إذا لم يكن من أملٍ في نجاحها، فسيكون من الحماقة أن يَشرعوا فيها؛ إذ لن يضمنوا بذلك إلا طردهم.

توجَّه جيري إلى هال. فيمَ كان يُفكِّر؟

وهكذا جاء دورُ هال ليتكلم أخيرًا. قال إنه كان من الصعب عليه الحُكم. فلم يكن يعرف إلا القليل عن أمور العمل. وقد جاءَ إلى نورث فالي ليتعلَّمها. كان من الصعب أن ينصح الرجال بالخضوع للمعاملة التي كانوا يتلقَّونها، ولكن من ناحية أخرى، كان في إمكان أي أحدٍ أن يعرف أن فشل الثورة كان من شأنه أن يُثبِّط عزيمة الجميع، ويجعل تنظيمهم أصعبَ من أي وقتٍ مضى.

تحدَّث هال كثيرًا، غير أنه كان لا يزال هناك الكثير من الكلام في ذِهنه لم يستطع أن يقوله. لم يستطع أن يقول لهؤلاء الرجال: «أنا صديقكم، لكنني أيضًا صديقُ عدوكم، وفي هذه الأزمة لا أستطيع أن أتخذ قراري إلى أي جانب أدين بالولاء. أنا ملزَمٌ بالتزامٍ أدبي تجاه أسياد قوت يومكم، كما أنني حريصٌ على عدم مضايقة الفتاة التي سأتزوجها!» كلَّا، لم يستطع أن يقول كلامًا كهذا. شعر بأنه خائنٌ لأنه فكَّر في هذا الكلام، ولم يستطع أن يحمل نفسه على النظر في أعين هؤلاء الرجال. عرف جيري أن له صلة بآل هاريجان، وربما أخبر بقية أصدقاء هال، وقد ناقشوا الأمر وتكهَّنوا حول ما يعنيه. ماذا لو ظنُّوا أنه كان جاسوسًا؟

لذلك شعر هال بالارتياح عندما تحدَّث جاك ديفيد بحزمٍ. سيُقدمون النصر للعدو على طبقٍ من ذهبٍ إذا سمحوا لأنفسهم بالانجرار إلى النزاع قبل أوانه. عليهم أن يأخذوا بنصيحة توم أولسون.

ولكن أين كان أولسون؟ كان هذا سؤال هال، وأوضح ديفيد أنه في اليوم الذي طُرِدَ فيه هال من المعسكر، حصل أولسون على أجر ما قضى من «وقتٍ» وانطلقَ إلى شيريدان؛ حيث المقر المحلي للنقابة، للإبلاغ عن الوضع. ربما لم يكن ليعود، فقد حشدَ مجموعته الصغيرة؛ لقد زرع بذرة الثورة في نورث فالي.

ناقشوا مِرارًا وتكرارًا مسألة الحصول على المشورة. كان من المستحيل إجراء اتصال هاتفي من نورث فالي دون أن يتنصت أحدٌ إلى كل ما يقولونه، ولكن القطار المسائي المتجه إلى بيدرو كان من المقرر أن يغادر بعد بضع دقائق، وقال «جاك الكبير» إنه على أحدهم أن يستقلَّه. لم تكن شيريدان تبعد سوى خمسة عشر أو عشرين ميلًا عن بيدرو، وكان هناك مسئولٌ نقابي هناك لتقديم المشورة لهم، أو قد يجرون مكالمة خارجية، ويقنعون أحد قادة الاتحاد النقابي في ويسترن سيتي أن يستقلَّ قطار منتصف الليل، ويذهب إلى بيدرو في صباح اليوم التالي.

مرَّر هال، الذي كان لا يزال يأمل في الانسحاب، هذه المهمة إلى جاك ديفيد. أفرغوا محتويات جيوبهم كي يحصل على ما يكفي من المال للرحلة، وانطلقَ الويلزي الكبير للَّحاق بالقطار. في هذه الأثناء، وافقَ جيري وهال على البقاء في الخلفية والعثور على أعضاء مجموعتهما وحثِّهم على فعل الشيء نفسه.

الفصل الرابع

كانت هذه الخطة مناسبة لهال، ولكنه اكتشف في الوقت نفسه تقريبًا الذي توصَّلوا فيه إليها أن ذلك كان بعد فوات الأوان. ذهبَ هو وجيري خلف الحشد، الذي توقَّف أمام أحد مباني الشركة، وعندما اقتربوا سمعوا شخصًا يُلقي خطابًا. كان صوت امرأة، ارتفعت نبراته واضحةً وساحرة. لم يتمكَّنا من رؤية المتحدِّثة، بسبب الحشد، لكن هال تعرَّف على صوتها، وأمسكَ رفيقه من ذراعه. «إنها ماري بيرك!»

قد كانت ماري بيرك حقًّا، وبدا أنها كانت تثير هياج الحشد. كانت كلما قالت جملة، أتى هديرٌ من الحشد، ثم كانت إذا قالت جملة أخرى يأتي هديرٌ آخر. شقَّ هال وجيري طريقَهما بين الحشد، إلى حيث يمكنهما تفسير كلماتها وسط هذه العبارات الغاضبة.

«هل تظنون أنهم سينزلون إلى المناجم بأنفسهم؟»

«لن يفعلوا ذلك!»

«هل تظنون أنهم سيفعلون ذلك وهم يرتدون الحرير والدانتيل؟»

«لن يفعلوا ذلك!»

«هل تظنون أنهم سيفعلون ذلك بأيديهم الناعمة؟»

«لن يفعلوا ذلك!»

«هل سيفعلون ذلك وهم يعتبرون أنفسهم أفضل من أن ينظروا إليكم؟»

«لن يفعلوا ذلك! لن يفعلوا ذلك!»

وتابعت ماري قائلة: «فقط إن اتَّحدتم، سيأتون إليكم راكعين يسألونكم عن شروطكم! لكنكم جبناء، وهم يستغلون خوفكم! أنتم خَوَنة، وهم يشترونكم بأموالهم! إنهم يمزقونكم إربًا، يفعلون بكم ما يحلو لهم … ثم ينطلقون في سياراتهم الخاصة،

ويتركون الرجال المسلَّحين ليضربوكم ويدوسوا وجوهكم! إلى متى ستقبلون هذا؟ إلى متى؟»

اندفعَ هدير الحشد بطول الشارع وعرضه. «لن نقبل هذا! لن نقبل هذا!» هزَّ الرجال قبضاتهم المشدودة، وصرخت النساء، وحتى الأطفال صاحوا بالشتائم. «سوف نحاربهم! لن نكون عبيدًا لهم بعد الآن!»

ووجدت ماري كلمة سحرية. صاحت: «سيكون لدينا اتحادٌ نقابي! سنتَّحد ونظل متحدين! إذا رفضوا حقوقنا، فسنعرف بماذا نرد عليهم ... سنقوم بإضرابٍ!»

كان هناك هدير مثل هدير ضرب الرعد للجبال. أجل، لقد وجدت ماري الكلمة السحرية! لسنواتٍ عديدة لم يُعلنها أحدٌ صريحة مدوية في نورث فالي، لكنها الآن انتشرت عبر الحشد مثل وميض البارود. «إضراب! إضراب! إضراب! إضراب!» بدا الأمر كما لو أنهم لن يكتفوا منه أبدًا. لم يفهم الجميع حديث ماري، لكنهم عرفوا هذه الكلمة: «إضراب!» ترجموها وأعلنوها بالبولندية، والبوهيمية، والإيطالية، واليونانية. لوَّح الرجال بقُبعاتهم، ولوَّحت النساء بمآزرهن ... وفي الضوء الخافت كانوا أشبه بنوعٍ غريبٍ من النباتات قذفته عاصفة. تصافحَ الرجال، وتعانقَ الأجانب الأكثر ميلًا إلى الأُلفة. «إضراب! إضراب! إضراب!»

صاحت المتحدِّثة: «لم نعد عبيدًا! إننا رجال، وسنعيش رجالًا! سنعمل رجالًا ... أو لن نعمل على الإطلاق! لن نكون بعد الآن قطيعًا من الماشية، يمكنهم أن يسوقونا كما يحلو لهم! سنُنظِّم أنفسنا، ونقف معًا ... كتِفًا بكتفٍ! وإما أن نربح معًا، أو نجوع ونموت معًا! ولن يستسلم رجلٌ منا، لن يصبح رجلٌ منا خائنًا! هل يوجد هنا مَن سيخون زملاءَه؟»

كان هناك عِواءٌ مثل عواء قطيع من الذئاب. فليتجرَّأ رجل سيخون زملاءَه على إظهار وجهه القذر في ذلك الحشد!

«هل سندعم الاتحاد؟»

«سندعمه!»

«هل نُقسم على ذلك؟»

«نُقسم على ذلك!»

رفعت ذراعَيها إلى السماء في دلالة على المناشدة بحماسٍ. وصاحت: «أَقسِموا على ذلك بحياتكم! أن نتماسك، وألَّا يستسلم رجلٌ منكم حتى ننتصر! أقسموا! أقسموا!»

وقف الرجال يُحاكون رفعة ذراعها، بأيادٍ ممدودة إلى السماء. وصاحوا: «نُقسِم! نُقسِم!»

«لن ندعهم يكسرونكم! لن نسمح لهم بإخافتكم!»

«لا! لا!»

«التزموا بكلمتكم أيها الرجال! التزموا بها! إنها الفرصة الوحيدة لزوجاتكم وأطفالكم!» واصلت الفتاة ... تحثُّهم بكلماتٍ مفاجئة وذراعَين مرفوعتَين بحماسٍ ... كانت رمزًا للتمرد المحتدِم يتمايل عاليًا. استمع هال إلى الخطاب وشاهدَ المتحدِّثة متعجبًا. ها هي معجزة من معجزات النفس البشرية، هنا وُلِد الأملُ من رحم اليأس! وكان الحشد حولها ... كانوا يتشاركون في الولادة الجديدة الرائعة، مُلوِّحين ومتمايلين كما تفعل ماري، كأنهم أوركسترا تُحركها عصا قائدها.

انتابت هال رجفة ... رجفة الانتصار! كان هو نفسه قد هُزِم، وأرادَ أن يهرب من هذا المكان المروِّع، ولكن الآن يلوح الأمل في نورث فالي ... الآن تلوح أمارات النصر والحرية!

منذ أن جاء هال إلى بلدة الفحم، استوعبَ أكثر فأكثر أن المأساة الحقيقية لحياة هؤلاء الناس لم تكن في معاناتهم الجسدية، ولكن في معاناتهم النفسية ... ذلك البؤس اليائس البليد في نفوسهم. نما هذا إلى وعيه يومًا بعد يوم، سواءٌ من خلال ما رآه، أو من خلال ما أخبره به الآخرون. كان توم أولسون أولَ من عبَّر عن الأمر بالكلمات: «تكمن أسوأ مشكلاتك داخل رءوس الرجال الذين تحاول مساعدتهم!» كيف كان في الإمكان أن تعطي الأملَ للرجال في هذه البيئة المروِّعة؟ حتى هال نفسه، الذي كان شابًّا وحرًّا، أصابه اليأس. جاء من الطبقة التي اعتادت أن تقول: «افعل هذا» أو «افعل ذاك»، وكان ما تأمر به يتم. لكن عبيد المناجم هؤلاء لم يعرفوا قطُّ هذا الشعور بالقوة، بالطبع، بل على العكس من ذلك، فقد اعتادوا اعتراضَ جهودهم عند كل منعطفٍ، كل دافع للسعادة أو الإنجاز كانت تسحقه إرادةُ شخصٍ آخر.

ولكن ها هي معجزة النفس البشرية! هنا انبثق الأمل في نورث فالي! هنا راحَ الناس ينهضون ... وماري بيرك على رأسهم! ها هي رؤياه تتحقق ... ماري بيرك والمجد في وجهها، وشعرها يلمع مثل تاجٍ من الذهب! امتطت ماري بيرك حصانًا أبيض بياضَ الثلج، ناعمًا ولامعًا ... مثل جان دارك، أو قائدةٍ في موكبٍ للاقتراع! أجل، وكانت على رأس الحشد، سمعَ موسيقى مسيرتها في أُذُنَيه!

في أعماق كلماتِ مزاحه كانت ثمة رؤيا حقيقية، وإيمان حقيقي في هذه الفتاة. منذ ذلك اليوم الذي اكتشفها فيه أول مرة، وردة بريَّة في معسكر التعدين تغسل ملابس عائلتها، أدركَ أنها لم تكن فتاةً عاملة جميلة، بل امرأة ذات عقلٍ وشخصية. كان لديها

بُعد نظرٍ، وشعورٌ أعمق من معظم هؤلاء العبيد المأجورين. كانت مشكلتها هي مشكلتهم، ولكنها أكثر تعقيدًا. عندما أراد مساعدتها وعرضَ عليها أن يجدَ لها وظيفة، أوضحت أن ما كانت تتوق إليه لم يكن مجرد راحة من الكدح، ولكن حياة ذات أهمية فكرية. ومن ثَم جاءته فكرة أن ماري يجب أن تصبح مُعلِّمة، قائدةً لسكان بلدتها. كانت تحبهم، وقد عانت من أجلهم ومعهم، وفي الوقت نفسه كانت تتمتع بعقلٍ قادرٍ على البحث في أسباب بؤسهم. ولكن عندما ذهب إليها بهذا المخطط لجعْلها قائدة، قابلته بيأسِها الواهن؛ وقد بدا تشاؤمها كأنه يسخر من أحلامه، فقد جعلها ازدراؤها لعبيد المناجم هؤلاء لا تجد جدوى في جهوده من أجلهم وأجلها.

والآن، ها هي تتولَّى الدور الذي رسمه لها! اعتقد أنها قد وجدت روحَها وسط هذا الحشد الصارخ. لقد عاشت حياة هؤلاء الناس، شاركتهم جميع معاناتهم، ودفعتها الظروفُ إلى التمرد معهم. ولكونه رجلًا، فقد غابَ عنه أمرٌ مهمٌّ في هذا التطور المذهل؛ إذ لم يُدرك أن كلمات ماري البليغة كانت موجَّهة، ليس فقط إلى آل رافيرتي وواكوب وبقية عبيد المناجم في نورث فالي، ولكن إلى فتاة بعينها تُشبه الفتيات التي تظهر على أغلفة المجلات، فتاة ترتدي مِعطفًا مضادًّا للمطر وقُبَّعة باللون الأخضر الفاتح وغطاءَ وجه مُتحركًا ناعمًا وشفافًا وباهظَ الثمن للغاية!

الفصل الخامس

انتهى خطابُ ماري فجأة. وتحركت مجموعةٌ من الرجال في الشارع، فأحدثوا فيه اضطرابًا. علت ضجته، وبدأ المزيد من الناس في التحرك في اتجاهها. استدارت ماري لتنظر إليهم، وفي الحال اندفعَ الحشدُ كله في الشارع.

كانت المشكلة في المستشفى. فأمام هذا المبنى كان هناك مدخلٌ مسقوف، حيث كان يقف كارترايت وأليك ستون مع مجموعة من كتَبة الشركة وموظفيها النظاميين، وقد رأى هال من بينهم بريدوفيتش، وجونسون، ومدير مكتب البريد، وسي آدامز. أسفل الدرج وقف تيم رافيرتي، مع حشدٍ من الرجال العازمين خلفه. كان يصرخ قائلًا: «نريد هؤلاء المحامين هناك بالخارج!»

وكان المشرف نفسه قد تولَّى أمرَ التحدُّث إليه. فقال: «لا يوجد محامون هنا يا رافيرتي.»

«نحن لا نثِق بك!» وأخذ الحشد يصرخ: «سنرى بأنفسنا!»

أعلن كارترايت: «لا يمكنكم دخول هذا المبنى.»

صاحَ تيم: «أنا ذاهبٌ لرؤية والدي! يحقُّ لي رؤية والدي، أليس كذلك؟»

«يمكنك رؤيته في الصباح. يمكنك أن تأخذه معك، إذا أردت. ليست لدينا رغبة في إبقائه. لكنه نائم الآن، ولا يمكنك إزعاج الآخرين.»

«لم تكن خائفًا من إزعاجهم بمحامِيكَ اللُّعَناء!» وارتفع هدير استحسان ... عاليًا جدًّا، إلى درجة جعلت إنكار كارترايت لا يمكن سماعه.

«أقول لك إنه لم يكن هناك محامون بالقرب منه.»

صاحَ واكوب: «إنها كذبة! لقد كانوا بالداخل طوال اليوم، وأنت تعرف ذلك. نحن عازمون على إخراجهم.»

صاحَ آندي، الصبي اليوناني، وهو يشقُّ طريقَه إلى الأمام: «هيا يا تيم!» وصاح الآخرون: «هيا!» ومن ثَم شجَّعوا رافيرتي على صعود الدرج.

«أريدُ أن أرى والدي!» وعندما أمسكه كارترايت من كتفه، صرخَ قائلًا: «أقول لك دعني أذهب!»

كان من الواضح أن المشرف كان يبذل قصارى جهده كي لا يلجأ إلى العنف؛ إذ أمر أتباعه بالعودة في الوقت نفسه الذي كان يمسك فيه بالصبي. لكنَّ الدماء غلت في عروق تيم؛ فاندفع إلى الأمام، فما كان من المشرف، إلا أن قذف به إلى الخلف على الدرج، ضاربًا إياه أو محاولًا تفادي ضربته. ارتفعت ضجة غاضبة من حشدٍ؛ واندفعوا إلى الأمام، وفي الوقت نفسه سحب بعضُ الرجال في المدخل مسدساتهم.

كانت دلالة هذا الموقف واضحةً بما فيه الكفاية. في لحظة سيُصبح الحشد أعلى الدَّرج، وسيكون هناك إطلاق نار. وبمجرد حدوث ذلك، مَن عساه يُخمِّن النهاية؟ في مثل هذه الحالة للحشد الهائج المندفع، ربما لم يكن ليتوقف حتى يُحرق كلَّ مبنًى للشركة، ربما ليس حتى قبل أن يقتُل كلَّ ممثِّلٍ للشركة.

كان هال قد قرر البقاء في الخلفية، لكنه رأى أن البقاء في الخلفية في تلك اللحظة كان من شأنه أن يكون تصرُّفًا جبانًا، بل يكاد يكون جريمة. ومن ثَم، انطلق إلى الأمام، وارتفعت صرخته فوق الضجيج. «توقفوا يا رجال! توقفوا!»

ربما لم يكن هناك رجلٌ آخر في نورث فالي كان من الممكن أن يستمعوا إليه في تلك اللحظة. لكن هال كان يتمتع بثقتهم، لقد اكتسبَ الحق في أن يستمعوا إليه. ألم يُسجَن من أجلهم، ألم يَرَوه خلف القضبان؟ «جو سميث!» ترددت الصرخة من أحد أطراف الحشد المتحمس إلى آخر.

كان هال يشقُّ طريقه إلى الأمام، دافعًا الرجال جانبًا، متوسلًا إياهم، وآمرهم بالصمت. «تيم رافيرتي! انتظر!» وعندما تعرَّف تيم على صوته، امتثل للأمر.

بمجرد أن أصبح هال بعيدًا عن الصحافة، قفز إلى مدخل المستشفى، حيث لم يحاول كارترايت إيقافه.

صاح: «أيها الرجال! انتظروا لحظة! هذا ليس ما تريدونه! إنكم لا تريدون قتالًا!» توقَّف لحظة، لكنه كان يعلم أن مجرد الإنكار لم يكن ليمنعهم في تلك اللحظة. يجب أن يخبرهم بما هم في حاجة إليه تحديدًا. كان قد علم لتوِّه الكلمات المحددة التي تشجعهم، فأعلنها بأعلى صوته: «ما تريدونه هو الاتحاد! إضراب!»

جاء الرد عليه في صورة هدير من الحشد، كان الهدير الأعلى على الإطلاق. أجل، كان ذلك ما يريدونه! إضراب! وأرادوا جو سميث أن يُنظِّمه، أن يقوده. لقد كان قائدهم ذات مرة، ولقد طُرد من المعسكر من أجل ذلك. لم يعرف الرجال تحديدًا كيف عاد ... لكنه كان هناك، المفضَّل لديهم. مرحى له! سوف يتبعونه إلى الجحيم ومنه!

ألم يكن الفتى الجسور! واقفًا هناك في مدخل المستشفى، تحت أنوف الرؤساء مباشرة، يُلقي عليهم خطابًا عن الاتحاد، ولا يجرؤ الرؤساء على مَسِّه! شعر الحشد ببهجة عارمة عندما أدركوا الموقف. صاح الرجال الناطقون بالإنجليزية مؤيدين كلامه، ومَن لم يستطيعوا الفهم، صاحوا لصياح الآخرين.

هم لا يريدون القتال ... بالطبع لا! القتال لن يساعدهم! ما كان سيساعدهم هو أن يتَّحِدوا، وأن يقفوا كتلة واحدة من الرجال الأحرار. سيُشكِّلون لجنة نقابية قادرة على التحدث نيابة عنهم جميعًا، على أن تقول إنه لن يذهب أحد إلى العمل بعد الآن حتى تتحقق العدالة! سيضعون حدًّا لمسألة تسريح العُمال لمطالبتهم بحقوقهم، ولمسألة وضع الرجال على القائمة السوداء، ولطردهم من المنطقة لأنهم يفترضون أنهم يريدون ما منحتهم إياه قوانينُ الدولة!

الفصل السادس

كم الوقت الذي يُخيَّل للمرءِ أن يكفيَه ليتمكَّن من تنظيم اتحاد نقابي لعمال المناجم، بينما هو واقف على دَرَج أحد مباني الشركة، ومن ورائه يقف المشرف ورئيس العُمال؟ أدرك هال أنه يتعيَّن عليه إبعاد الحشد عن ذلك المكان المحفوف بالمخاطر.

طالبهم قائلًا: «هل ستفعلون ما أقوله الآن؟» وعندما وافقوا في صوتٍ واحدٍ، أضاف محذِّرًا: «لن يكون هناك شجار ولا مشاحنات! ولا احتساء للخمر! إذا رأيتم رجلًا سكرانًا الليلة، فاجثموا عليه وقيدوه!»

ضحكوا وهللوا. أجل، سوف يتصرفون باستقامة وحكمة. فتلك مهمة للرجال المنتبهين اليقِظين، بلا شكٍّ!

تابع هال: «والآن، لنرَ ما سنفعله حيال الرجال نزلاء المستشفى. سنُشكِّل لجنة للدخول إليهم وتفقُّد أحوالهم. بلا ضجيج ... لا نريد أن نُزعِج المرضى. كل ما نريده هو أن نتأكد من أن أحدًا لا يُزعجهم. سيدخل أحد الأشخاص ويبقى معهم. هل يُناسبكم ذلك؟»

أجل، ناسبهم ذلك.

قال هال: «حسنًا. اصمتوا لحظة.»

التفت إلى المشرف. وقال له: «كارترايت، نريد إدخال لجنة إلى رجالنا والبقاء معهم.» ثم، عندما شرع المشرف في الاعتراض، أضاف بصوتٍ منخفضٍ: «لا تكن أحمق يا رجُل! ألا ترى أنني أحاول إنقاذ حياتك؟»

كان المشرف يعلم مدى الضرر الذي قد يَلحق بالانضباط والنظام إذا سمح لهال بتنفيذ خطته التي أقنع بها الحشد، ولكنه أيضًا رأى الخطر الوشيك ... ولم يكن متأكدًا من شجاعة محاسبيه وكاتبيه المختزِلين وقدرتهم على التصويب.

صاح هال: «أسرِع يا رجل! لا أستطيع أن أمنع هؤلاء الناس لفترة طويلة. إذا كنت لا تريد أن تُفتَح عليك أبواب الجحيم، فعُدْ إلى رُشدك.»

قال كارترايت وهو يبتلع إهانته: «حسنًا.»

والتفت هال إلى الرجال وأعلن التسليم. فانطلقت صيحة انتصار.

قال هال، عندما أمكن سماع صوته مرة أخرى: «والآن، مَن سيذهب؟» ونظر حوله إلى الوجوه المضطربة. كان هناك تيم وواكوب، أوضحهم، لكن هال قرر أن يُبقيهما تحت عينَيه. فكر في جيري مينيتي والسيدة ديفيد ... لكنه تذكر اتفاقه مع «جاك الكبير» بإبقاء مجموعتهما الصغيرة في الخلفية. ثم فكر في ماري بيرك، التي ألحقت بنفسها بالفعل كلَّ الأذى المحتمَل، والتي يمكن للجميع الاعتماد عليها. دعاها، ودعا السيدة فيريس، وهي امرأة أمريكية كانت ضمن الحشد. صعدت الاثنتان الدرج، والتفت هال إلى كارترايت.

قال: «الآن، دعونا نتفاهم. هؤلاء الناس سيدخلون للبقاء مع المرضى والتحدُّث إليهم إذا أرادوا ذلك، ولن يعطيَهم أحدٌ أيَّ أوامر باستثناء الأطباء والممرضات. هل اتفقنا؟»

قال المشرف بتجهُّم: «حسنًا.»

قال هال: «جيد! وبالله عليكَ، تحلَّ بالقليل من العَقل، وابقَ عند كلمتك؛ لقد تحمَّل هذا الحشد كُلَّ ما يمكنه تحمُّلُه، وإذا فعلت المزيد لإثارته، فستحِل العواقب عليك. وفي تلك الأثناء، تأكد من غلق الحانات ومن إبقائها مغلَقة حتى تُسوَّى هذه المشكلة. وأبعد حراسك عن الطريق ... لا تدعهم يتجوَّلون شاهرين أسلحتهم ومُتجهمين للناس.»

التفت هال إلى الحشد دون أن ينتظر سماع رد المشرف، ورفع يده آمرهم بالصمت. قال: «يا رجال، لدينا مهمة كبيرة ... سننُظم اتحادًا نقابيًّا. ولا نستطيع أن نفعل ذلك هنا أمام المستشفى. لقد أحدثنا الكثيرَ من الضوضاء بالفعل. دعونا نغادر بهدوءٍ، ونعقد اجتماعنا في مكبِّ النفايات خلف محطة الطاقة. هل يناسبكم ذلك؟»

أجابوا بأنه يناسبهم، وبعد أن رأى هال المرأتَين وقد دخل كلٌّ منهما بسلامٍ إلى المستشفى، قفز نازلًا من مدخل المستشفى ليشُقَّ الطريق. جاء جيري مينيتي ووقف بجواره وهو يرتجف من شدة البهجة، وأمسك هال بذراعه وهمس بحماسٍ: «غَنِّ يا جيري! غنِّ لهم أغنية إيطالية!»

الفصل السابع

وصلوا إلى المكان المحدد دون أي مقاومة. وفي هذه الأثناء، وضع هال في ذهنه خطة للتواصل مع هذا الحشد المتعدِّد اللغات. كان يعلم أن نصف الرجال لا يستطيعون فهم كلمة واحدة باللغة الإنجليزية، وأن النصف الباقي لا يفهم إلا كلمات قليلة جدًّا. وبالطبع، إذا أراد توضيح الأمور لهم، فلا بد أن يُقَسِّمهم إلى مجموعاتٍ حسب جنسياتهم، وأن يجد مترجمًا موثوقًا لكل مجموعة.

كانت عملية التقسيم بطيئة، ولم تخلُ من الصراخ المتواصل والتدافع غير العدائي ... البولنديون هنا، والبوهيميون هنا، واليونانيون هنا، والإيطاليون هنا! عندما أُنجِزت هذه المهمة، وعثروا على رجلٍ لكل مجموعة يفهم الإنجليزية بما يكفي ليتولَّى الترجمة لزملائه، بدأ هال يُلقي خطابًا. ولكن قبل أن يقول الكثير، ارتفع الضجيج. بدأ جميع المترجمين في الحديث في الوقت نفسه ... وبأعلى صوتهم؛ فكان الأمر أشبه بموكبٍ تقف فيه الفرق الموسيقية بالقرب من بعضها! أصيب هال بالبكم؛ ثم شرع في الضحك، وشرعت الجماهير المختلفة في الضحك؛ وتوقف المترجمون المفوَّهون، في حيرة من أمرهم ... ثم شرعوا هم أيضًا في الضحك. ومن ثَم انتشرت موجة بعد أخرى من البهجة بين الحشد؛ وتغيَّر المزاج العام للجمع كله دفعة واحدة؛ إذ تحوَّل من الغضب والجدية إلى البهجة الشديدة. تعلَّم هال درسَه الأول في التعامل مع هذه الجحافل الشبيهة بالأطفال، الذين كانت أمزجتهم سريعة التحوُّل، والذين كانت عواطفهم تتأثَّر بأقل شيء.

وكان عليه أن يكمل كلمته حتى النهاية، ثم يُبعِد الجماهير المختلفة عن بعضها، ليتعامل معهم المترجمون كلٌّ على حدة. ولكن لاحت مشكلة جديدة في ذلك الحين. كيف يمكن لأي شخصٍ الإلمام بهذا الفيض من العبارات البليغة؟ كيف يتأكد من أن رسالته لن تُحرَّف؟ لقد حذَّر أولسون هال من محققي الشركة الذين يتظاهرون بكونهم عُمالًا،

لكسب ثقة الرجال من أجل حثِّهم على العنف. وبالتأكيد كان بعض هؤلاء المترجمين من ذوي المظهر العنيف، وبدت كلمات أحدهم غريبة في ترجماتهم!

كان المترجم اليوناني، على سبيل المثال، رجلًا عنيفًا، ذا شعر أشعث، وعينَين جامحتَين، وبدا كأنه يمزِّق حماسته إلى قِطَعٍ، ويقذف بها في صورة كلماتٍ على سامعيه. وقف على رأس برميل، مُسلَّطًا عليه ضوء مصباحَين، وكان نحو عشرين من بني وطنه يقفون عند قدمَيه، وقد لوَّح بذراعَيه، وهزَّ قبضتَيه، وهاج وماج. ولكن عندما شعر هال بعدم الارتياح تجاهه، ذهب وسأل يونانيًّا آخر يتحدث الإنجليزية عما يقوله ذلك المترجم اليوناني، وكان الجواب أنه كان يَعِد بضرورة تطبيق القانون في نورث فالي!

وقف هال يُراقِب هذا الرجل الضئيل الحجم المتحمِّس، في درسٍ لما يمكن أن تفعله الإيماءات. وقف بصدرٍ ممشوقٍ وكتفَين مُستقيمتَين، حتى كاد يرمي بنفسه للوراء من فوق رأس البرميل؛ إذ كان يقول لهم إن عمال المناجم سيتمكَّنون من العيش مثل بقية الرجال. ثم جثى وحنى رأسه وهو يئنُّ؛ إذ كان يحدِّثهم عما سيحدث لو أنهم استسلموا. ثم أمسك شعره الأسود الطويل بقبضته، وبدأ يجذبه بقوة، جذبه ثم مدَّ يدَيه فارغتَين ولم يخرج معهما شيء، ثم جذبَ شعره مرة أخرى بقوة إلى درجة أن المرء كاد يصرخ من الألم عند مشاهدته. وعندما سأل هال عن سبب ما يفعله، كان الجواب إنه يقول: «ابقوا مُتَّحدين! عند شد شعرة واحدة، فإنها تنخلع بسهولة، ولكن عند شد الشعر كله، فإنه أبدًا لا ينخلع!» لقد أعاد المرء إلى أيام إيسوب وخرافاته!

كان توم أولسون قد أخبر هال شيئًا عن أسلوب منظِّم الاتحادات النقابية، الذي يريد ترويض مثل هذه الجحافل الجاهلة. كان عليه أن يعيد مرارًا وتكرارًا، حتى يدرك أقل جمهوره ذكاءً ما يَعنيه، حتى يستوعبوا فكرة التضامن التي فيها خلاص الجميع. عندما عبَّر مختلف الخطباء عما عليهم إيصاله، وعاد الجمهور إلى مكان اجتماع الحشد، ألقى هال كلمته مرة أخرى، بكلماتٍ بسيطة من مقطعٍ لفظي واحد، وبتلك اللغة الإنجليزية المبسَّطة التي تفي بالغرض في المعسكرات. كان هال يتوقف في بعض الأحيان ليؤكد ما يقوله بكلماتٍ يونانية أو إيطالية أو سلافية قد التقطها. أو ربما كانت بلاغته تشعل حماس أحد المترجمين مجدَّدًا، ومن ثَم كان ينتظر بينما يهتف الرجل ببعض العبارات لبني وطنه. لم يكن من الضروري أخذ مسألة الملل في الاعتبار؛ لأن هؤلاء كانوا رجالًا صبورين وطويلي الأناة، وقد أصبحوا الآن شديدي الجدية.

إنهم بصدد تنظيم اتحادٍ نقابي، وسيؤدُّون المهمة بالطريقة المعتادة، ببطاقات عضوية، والمسئولون سيختارونهم عن طريق الاقتراع. ولذا أوضح لهم هال الأمر خطوة

بخطوة. لم تكن هناك فائدة من تشكيل نظامٍ نقابي ما لم تكن لديهم النية في الحفاظ عليه. سوف يختارون قادة، واحدًا من كل مجموعة لُغوية رئيسية، وسوف يجتمع هؤلاء القادة ويضعون مجموعة من المطالب، التي ستُسلَّم في اجتماعٍ جماهيري، ويُصدَّق عليها، ومن ثَم تُعرض على الرؤساء مع الإعلان عن أنه لن يعود عاملٌ واحدٌ في نورث فالي إلى المناجم حتى تُلبَّى هذه المطالب.

نصح جيري مينيتي، الذي كان يعرف كلَّ شيء عن الاتحادات النقابية، هال بتسجيل الرجال في الاتحاد على الفور؛ فهو يثق بالتأثير النفسي لتقدُّم كل رجل وذكر اسمه. ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام مشكلة تواجه جميع المنظِّمين؛ وهي نقص الأموال. إنهم يحتاجون إلى أقلامٍ وأوراقٍ للتسجيل، وكان هال قد أعطى كلَّ ما معه لجاك ديفيد! فاضطر إلى اقتراض ربع دولار وإرسال رسول إلى المتجر. وقد صوَّت المندوبون على أن كل عضو يجب أن يحصل على عشرة سنتات عند انضمامه إلى الاتحاد. كما يتعيَّن عليهم إرسال بعض البرقيات وإجراء بعض الاتصالات الهاتفية إذا كانوا سيطلبون المساعدة من خارج بلدتهم.

شكَّلوا لجنة مؤقتة، مُكوَّنة من تيم رافيرتي وواكوب وهال، لحفظ قوائم الأعضاء والأموال، ولإدارة الأمور حتى يتمكَّنوا من عقد اجتماعٍ آخر في الغد، كما عيَّنوا اثني عشر حارسًا من أقوى الرجال وأكثرهم موثوقية لمرافقة اللجنة وحمايتها. عاد الرسول ومعه الدفاتر والأقلام، وجلس على الأرض على ضوء مصابيح المناجم، وكتب المترجِمون أسماء الرجال الراغبين في الانضمام إلى الاتحاد، وتعهَّد كل رجل بدوره بالتضامن وحفظ النظام. ثم أعلنوا تأجيل الاجتماع حتى الصباح، وتفرَّق العُمال ليناموا في منازلهم، وقد غمرتهم الفرحة وإحساسٌ بالقوة لم يشعر به من قبل سوى القليل منهم.

الفصل الثامن

وصلت اللجنة والرجال القائمون على حراستها إلى غرفة الطعام في نُزُل ريمينيتسكي، حيث استلقَوا جميعًا على الأرض، ولم يحاول أحدٌ اعتراضهم، وبينما كانت الأغلبية تغُط في سلامٍ، جلس هال ومجموعة صغيرة يكتبون قائمة المطالب التي من المقرر تقديمها إلى الرؤساء في الصباح. كانوا قد رتَّبوا أن يذهب جيري إلى بيدرو بقطار الصباح الباكر، للتواصل مع جاك ديفيد ومسئولي الاتحاد وإخبارهم بآخر التطورات. ونظرًا إلى أن المسئولين كانوا على يقينٍ من وجود محقِّقين يتبعونهم، حذَّر هال جيري من الذهاب إلى منزل ماكيلار، وأن يطلب من ماكيلار إحضار «جاك الكبير» لمقابلته هناك. كما أكد على جيري أن يطلب من ماكيلار إجراء مكالمة خارجية بصحيفة «جازيت»، وإخبار بيلي كيتينج بالإضراب.

كان ذهن هال يعجُّ بمائة شيء من هذا القبيل، حتى إنه لم يستطع النوم. فكَّر في الرؤساء، وماذا عساهم قد يفعلون. لم يكن الرؤساء لينعموا بالنوم، كان متأكدًا من ذلك!

ثم تذكر أصدقاءه في السيارة الخاصة؛ في غرابة هذه المحنة التي أوقع نفسه فيها! ضحك بصوتٍ عالٍ في حالة من اليأس عندما تذكر جهود بيرسي في إبعاده عن هنا. وجيسي المسكينة! ماذا عساه يقول لها الآن؟

لم يتحرك الرؤساء في تلك الليلة، وفي الصباح أسرع المضرِبون إلى مكان الاجتماع، حتى إن بعضَهم لم ينتظر لتناول طعام الإفطار. جاءوا بشعرٍ أَشعث وهيئة غير منظمة، ينظرون بلهفة إلى زملائهم، كما لو أنهم لا يستطيعون تصديقَ التصرف الجريء الذي قاموا به ليلة أمس. ولكن عندما وجدوا اللجنة وحرَّاسها حاضرين وعلى استعدادٍ للعمل، استعادوا شجاعتهم، وشعروا مرة أخرى بالتضامن الرائع الذي صنع منهم رجالًا. وسرعان ما بدأ إلقاء الخطب والهتاف والغناء، وهو ما أظهر المتقاعسين والجبناء. وهكذا

أصبحت الحركة في فترة قصيرة على قدمٍ وساقٍ؛ إذ كان الجميع تقريبًا، من رجل وامرأة وطفل، حاضرين بين العمال.

جاءت ماري بيرك من المستشفى حيث قضت ليلتها. بدت مُتعَبة وغير منظمة، لكن روحها القتالية لم تتراجع. أخبرتهم أنها تحدثت مع بعض الرجال المصابين، وأن العديد منهم قد وقَّعوا على «مستنداتٍ» من شأنها حماية الشركة حتى من التهديد برفع دعوى قضائية. وقد رفض آخرون التوقيع، وكانت ماري حازمة في تحذيرهم من التنازُل عن حقوقهم بالتوقيع على هذه المستندات. تطوَّعت امرأتان أُخريان للذهاب إلى المستشفى، حتى تنال ماري قسطًا من الراحة، لكن ماري لم ترغب في الراحة، وشعرت أنها ليس في مقدورها أن تنعم بالراحة أبدًا بعد الآن.

شرع أعضاء الاتحاد المشكَّل حديثًا في انتخاب المسئولين. طلبوا أن يكون هال رئيسًا للاتحاد، لكنه نأى بنفسه عن التقيُّد بهذه الطريقة التي لا رجعة فيها، ونجح في التنازل عن هذا الشرف إلى واكوب. وقد عيَّنوا تيم رافيرتي أمينًا للصندوق وسكرتيرًا. ثم اختاروا لجنة للذهاب إلى كارترايت بمطالب العمال. شملت هذه اللجنة هال وواكوب وتيم، فضلًا عن رجلٍ إيطالي يُدعَى مارسيلي ضمِنَه جيري، وممثِّلٍ للسلافيين وهو روسيك، وآخر لليونانيين وهو زاماكيس، وكلاهما رجلان قويَّان ومخلصان. وأخيرًا، وبقدرٍ كبيرٍ من الضحك والهتاف، صوَّت المجتمعون على ضمِّ ماري بيرك إلى هذه اللجنة. كان شيئًا جديدًا أن تضطلع امرأة بدورٍ كهذا، ولكن ماري ابنةٌ لعامل منجم وأختٌ لمُكسِّر فحم، ولها الحق في التحدث مثلها مثل أي شخص في نورث فالي.

الفصل التاسع

قرأ هال الوثيقة التي أعدُّوها الليلة الماضية. وطالبوا بحقِّهم في أن يكون لهم اتحاد نقابي دون أن يُعرِّضهم ذلك للطرد من العمل. وطالبوا كذلك بتعيين مراقبٍ للأوزان، ينتخبه العمال بأنفسهم. وطالبوا برشِّ المناجم لتفادي الانفجارات، وبتسقيفها بالأخشاب على نحوٍ سليمٍ لمنع انهيارها. كما طالبوا بحقِّهم في التعامل مع أي متجرٍ يريدون التعامل معه. لفتَ هال الانتباه إلى حقيقة أن كلَّ مطلبٍ من هذه المطالب مكفولٌ بموجب قوانين الدولة؛ فهذه حقيقة مهمة، وحثَّ الرجال على عدم إدراج مطالب أخرى. بعد بعض الجدل، صوَّتوا ضد اقتراح الراديكاليين الذين أرادوا زيادة مقدارها عشرة في المائة في الأجور. كما صوَّتوا ضد اقتراح أحد الراديكاليين النقابيين الذي أوضح لهم — في مزيجٍ من اللغتين الإنجليزية والإيطالية — أن المناجم ملكٌ لهم، وأن عليهم رفضَ كل التنازلات وطرد الرؤساء على الفور.

في أثناء إلقاء هذا الخطاب، شقَّ الشاب روفيتا طريقَه عبر الحشد، وسحب هال جانبًا. كان قد ذهب إلى محطة السكة الحديدية وشاهد قطار الصباح في طريقه قادمًا. ومنه نزل حشدٌ من ثلاثين أو أربعين رجلًا، من هذا النوع من «الرجال المدنيين الأشداء» الذين يمكن لكل عامل منجم في المنطقة التعرف عليهم من النظرة الأولى. من الواضح أن مسئولي الشركة تعمَّدوا أن تظل خطوط الهاتف مشغولة في تلك الليلة؛ فقد كانوا منشغلين بجلب حراس، ليس فقط على متن هذا القطار، ولكن أيضًا في سياراتٍ من معسكرات أخرى ... من الشمال الشرقي أسفل الوادي، ومن باريلا، في وادٍ جانبي أعلى الجبل.

أخبر هال الحاضرين في الاجتماع بهذا الخبر، الذي استقبلوه بصيحات غضبٍ مدوية. تلك هي خطة الرؤساء إذن! فارت دماء الحشد، وحاول اثنا عشر شخصًا منهم إلقاء

الخطب في وقتٍ واحدٍ. واضطر القادة إلى تهدئة هؤلاء المتهورين بالقوة، وحذَّر هال مرة أخرى، قائلًا:

«لا قتال!» عليهم أن يثقوا باتحادهم؛ سيصبحون جبهة قوية أمام الشركة، وستتعلَّم الشركة أن الإضراب لا يُهزَم بالترهيب.

اتفقوا على ذلك، وانطلقت اللجنة إلى مكتب الشركة، وحمل واكوب في يده المطالب التي كتبوها في الاجتماع. سار الحشد خلف اللجنة مُشكِّلين كُتلة صلبة، وسدُّوا الشارع المواجِه لمكتب الشركة، في حين صعد الأبطال السبعة الدَّرَج، ودلفوا إلى المبنى. قدَّم واكوب طلبَه إلى السيد كارترايت، وأخذ أحد الكتَبة الرسالة.

وقفوا ينتظرون، وفي تلك الأثناء، أشار أحد الموظفين، وكان آتيًا من الشارع، إلى هال. كان معه مظروفٌ في يده، وأعطاه إياه دون أن ينبِس ببِنت شفة. كان مُرسَلًا إلى «جو سميث»، وفتحه هال ليجد داخله بطاقة عملٍ صغيرة حدَّق إليها. «إدوارد إس وارنر، الابن»!

لم يستطع هال لوَهلة أن يصدِّق ما رأته عيناه. إدوارد في نورث فالي! ثم، عندما قلبَ البطاقة، قرأ محتوى الرسالة المكتوب بخط يد أخيه الذي يعرفه جيدًا: «أنا في منزل كارترايت. لا بد أن أراك. الأمر يتعلَّق بأبي. تعالَ على الفور.»

قفز الخوف إلى قلب هال. ماذا تعني رسالة كهذه؟

التفت سريعًا إلى اللجنة، وأوضح الموقف. «والدي رجلٌ عجوزٌ، وقد أصيب بسكتة دماغية قبل ثلاث سنوات. أخشى أن يكون قد تُوفي، أو أن يكون مريضًا جدًّا. يجب أن أذهب.»

صاح واكوب بحماسٍ: «هذه خدعة!»

أجاب هال: «لا، لا يمكن. أعرف خطَّ أخي. يجب أن أذهب للقائه.»

قال الآخر: «حسنًا، سننتظر. لن نقابل كارترايت حتى تعود.»

فكَّر هال في الأمر. وقال: «لا أعتقد أن هذا قرارٌ حكيمٌ. يمكنكم أيضًا أن تفعلوا ما عليكم فعله من دوني.»

«لكنني أردت أن تكون أنت مَن يتكلم!»

أجاب هال: «لا، هذه مهمتك يا واكوب. أنت رئيس الاتحاد. أنت تعرف ما يريده العمال، تمامًا كما أعرفه؛ تعرف ما يشكون منه. وإلى جانب ذلك، لن يكون هناك داعي للتحدث إلى كارترايت. فإما أنه سيسمح بمنحنا مطالبنا وإما أنه سيرفض.»

ناقشوا الأمر بينهم أخذًا وردًّا. أصرَّت ماري بيرك على أنهم يتعمَّدون إبعاد هال في اللحظة الحاسمة تمامًا! ضحك وهو يرد عليها. إنها تُجيد الجدال شأنَ أي من الرجال. وإذا ظهر أيُّ إحباطٍ أو وَهَن على واكوب، فلتتحدث هي!

الفصل العاشر

ومن ثَم غادر هال على عَجَلٍ، وشقَّ طريقَه في الشارع المؤدي إلى منزل المشرف، والذي كان عبارة عن بيتٍ خَرساني من طابقٍ واحدٍ يقع على ارتفاعٍ صغيرٍ يطل على المعسكر. دقَّ الجرس، وانفتح الباب، وكان شقيقه يقف في المدخل.

إدوارد وارنر يكبُر هال بثماني سنوات، وهو نموذجٌ لرجل الأعمال الأمريكي الشاب. يتمتع بقوامٍ ممشوق وبِنية رياضية، وذو ملامح ثابتة وقوية، صوته، وسلوكه، وكل شيء فيه ينمُّ عن أنه شخصٌ صاحب قرار هادئ، وطاقة موجَّهة بدقة. يرتدي عادة ملابس تشبه عارضي الأزياء، ولكنْ ثمة شيء غير معتادٍ في ملابسه وكذلك في سلوكه قد طرأ في تلك اللحظة.

كان قلق هال قد تفاقم كثيرًا وهو في طريقه إليه. صاحَ: «ما خطب أبي؟»

كان الرد: «أبي بخيرٍ … حتى الآن.»

«إذن ماذا …؟»

«إن بيتر هاريجان في طريق عودته من الشرق. ومن المقرر أن يصل إلى ويسترن سيتي غدًا. ولعلَّك تستوعب الآن أن خطبًا ما سيحلُّ بأبي ما لم تترك هذا الأمر في الحال.»

شعر هال فجأة بأن خوفه قد تلاشى. صاح: «إذن هذا كل شيء!»

كان شقيقه يُحدق إلى عامل المنجم الشاب، الذي كان يرتدي بذلة العمل الزرقاء المُشحَّمة، بوجهه المُلطَّخ بالسواد، وشعره الأشعث المتجعِّد. وقال: «لقد أرسلتَ إليَّ برقية تُخبرني فيها أنك ستغادر من هنا يا هال!»

«أجل كنت أنوي ذلك، ولكن حدثت أمورٌ لم أستطع توقُّعها. هناك إضراب.»

«أجل، ولكن ما علاقة ذلك بالأمر؟» ثم قال بنبرة ساخطة: «عجبًا لأمرك يا هال، إلى أي مدًى تتوقع أن تمضي في هذه الحال؟»

وقف هال بضع لحظات ينظر إلى أخيه. وحتى في ظل ما كان فيه من توترٍ، لم يستطع أن يمنع نفسه من الضحك. وقال مخاطبًا أخاه: «أعرف كيف يبدو كل هذا لك يا إدوارد. إنها قصة طويلة؛ لا أعرف من أين أبدأ سردها.»

قال إدوارد بنبرة صارمة: «لا، لا أعتقد ذلك.»

وضحك هال مرة أخرى. وقال: «حسنًا، نحن مُتفقان إلى هذا الحد، على أي حالٍ. ما كنت آملُه هو أن نتمكَّن من الحديث عن الأمر بهدوءٍ، بعد أن يهدأ انفعالنا. عندما أشرح لك الوضع في هذا المكان ...»

لكن إدوارد قاطعه. وقال: «حقًّا يا هال، لا فائدة من جدالٍ كهذا. لا دخل لي بما عليه الوضع في معسكرات بيتر هاريجان.»

غادرت الابتسامة وجه هال. وقال: «هل كنت تُفضِّل أن أتفقَّد الوضع في معسكرات وارنر؟» حاول هال أن يكظِم غضبه، ولكن ببساطة لم يكن هناك سبيلٌ لاتفاق هذَين الشخصَين. وأضاف: «كثيرًا ما تَجادلنا بشأن هذه الأمور يا إدوارد، وكنتَ دائمًا تتفوق عليَّ ... كنت تقول لي إنني ما زلت طفلًا، وإنه ليس من الأدب أن أعترض على تأكيداتك. أما الآن ... حسنًا، لم أعد طفلًا، وعلينا أن نتناقش على أساسٍ جديدٍ.»

كان لنبرة هال وقعٌ أكبر من كلماته. فكَّر إدوارد قبل أن يتكلم. ثم قال: «حسنًا، وعلى أي أساسٍ جديدٍ نتحدث؟»

«أنا الآن بصدد إضراب عُمالي، ولا يسعُني التوقف كي أوضح لك الأمر.»

«ألا تُفكر في أبي وسط كل هذا الجنون؟»

«أفكر في أبي، وفيك أيضًا يا إدوارد، ولكن هذا ليس الوقت المناسب ...»

«إن كان ثمة وقت مناسب لذلك من الأساس، فإنه الآن!»

تأوَّه هال في نفسه. وقال: «حسنًا، اجلس. سأحاول أن أعطيك فكرة عن قصة انخراطي في هذا الأمر وانجرافي إليه.»

بدأ يتحدث عن الظروف التي وجدها في معقِل «الشركة العامَّة للوقود». وكالعادة، عندما تحدث عنها، انغمس في جوانبها الإنسانية؛ وظهرت الحماسة في لهجته، واستمر في ذلك، كما كان عندما حاول مجادلة المسئولين في بيدرو. غير أن سردَه البلاغي قد انقطع، تمامًا كما حدث من قبل؛ فقد اكتشف أن شقيقه كان في حالة من السخط جعلته لا يستطيع الاستماع إلى حديثه المتلاحق.

إنها القصة القديمة نفسها، ودائمًا ما كانت على هذا النحو حسبما تذكَّر هال. بدا الأمر كأنه سرٌّ من أسرار الطبيعة، كيف يمكن أن ينبثق طبعان مختلفان تمامًا إلى هذا الحد من نسلٍ واحدٍ. إدوارد عملي وحاسم، يعرف ما يريده في الحياة، ويعرف كيف يحصل عليه، لا تُزعزِعه الشكوك مطلقًا، ولا يعبأ بمساءلة الذات، أو بأي مشاعر جارفة، ولا يستطيع فهم الأشخاص الذين يُهدرون طاقتهم الذهنية في مثل هذه الأمور. لا يستطيع أن يفهم الأشخاص الذين «ينجرفون وراء الأشياء» ويسمحون لها أن تجتاحهم اجتياحًا.

في البداية، كانت علاقة إدوارد مع هال مُغلَّفة بهيبة الأخ الأكبر. كان إدوارد وسيمًا مثل إلهٍ يوناني شاب، ويتَّسم بالقوة والبراعة، سواءٌ في تزلُّجه على الجليد بحركاتٍ قوية وواثقة، أو في اختراقه الأمواج بكتفَين لامعتين، أو في إطلاقه النار على طائر الحجل بثقة وبسرعة مثل صاعقة برق؛ فهو تجسيدٌ حقيقي للنجاح. وعندما يحكم على أفكار شخصٍ ما بأنها «مُتعفِّنة»، أو عندما يتحدث بازدراء عن «المدلَّلين»، فإنه يكون لوقع كلماته أثرٌ قويٌّ في نفس مُحدِّثه، حتى إن الشخص ليقرأ في أعمال شيلي وروسكين الأدبية بحثًا عن ملاذٍ يستعيد فيه شجاعته.

بدأ هال تساؤلاته حول الحياة في وقتٍ مبكرٍ للغاية؛ فقد بدا أن ثمة شيئًا في طبيعته اضطرَّه إلى البحث في جذور الأشياء، وبقدر ما كان يتطلَّع إلى أخيه الرائع ويتخذه قُدوة له، أدرك أن هناك جوانبَ من الحياة كان أخوه غافلًا عنها. وكان أول هذه التساؤلات ما اعتراه من شكوك دينية؛ ذلك الكرب الذي يُصيب الشاب عندما يتبادر إلى ذهنه أول مرة أن الإيمان الذي نشأ عليه ما هو إلا حكايات خيالية من نوعٍ أسمى. يبدو أنه لم يتبادر إلى ذهن إدوارد مثل هذه التساؤلات قطُّ. فقد كان يذهب إلى الكنيسة؛ لأنه شيء يتوجَّب عليه القيام به، لا سيَّما أنه كان من دواعي سرور الفتاة التي يرغب في الزواج منها أن تراه في الكنيسة مُرتديًا الملابس الأنيقة، وأن يصطحبها إلى هذا المكان الجميل في أيام الآحاد؛ حيث الموسيقى والزهور والعطور، وحيث تلتقي بأصدقائها وهي ترتدي أيضًا ملابسها الأنيقة. كم بدا غريبًا لإدوارد أن يتخلَّى شابٌّ عن هذه العادة اللطيفة، لمجرد أنه لا يستطيع التأكد من أن يونان قد ابتلعه الحوت كما جاء في العهد القديم!

ولكن عندما هاجمت شكوك هال شريعةَ أخيه الدنيوية — شريعة الربح — أصبح الخلاف بينهما على أشده. لم يكن هال في البداية يعرف شيئًا عن شئون العمل، وكان من واجب إدوارد أن يردَّ على أسئلته. أخبره إدوارد أن ازدهار البلاد قد تحقَّق على أيدي الرجال الأقوياء، وقد كان لهؤلاء الرجال أعداء … أشخاص ذوو عقلية شريرة، تحركهم

الغيرة والأهواء الدنيئة الأخرى التي تسعى إلى هدم هذا البناء الضخم. أرضت نظرية الشيطان هذه الصبيَّ في البداية، ولكنه بعد ذلك قرأ ولاحظ، وأحدقت به الشكوك. وفي النهاية، حسب ما سمعه من حديث أخيه، وقرأه في كتابات مَن يُسمَّون بـ «الصحفيين الاستقصائيين»، أدرك فجأة أن هذا الجدال يتضمن عقليتَين مختلِفتَين ... عقلية تركز على الأرباح، وأخرى تركز على منفعة الإنسان.

انزعجَ إدوارد من الكتب التي يقرؤها هال، وانزعج أكثر عندما لاحظ الأفكار التي يعود إلى المنزل وعقله مشحونٌ بها من الكُلِّية. لا بد أن تغييرًا غريبًا قد حدث في كلية هاريجان خلال السنوات القليلة الماضية؛ فلم يكن أحدٌ يحلم بمثل هذه الأفكار عندما كان إدوارد طالبًا فيها! لم يكن أحدٌ يكتب أغاني ساخرة عن الكلية، أو عن التماس تبرعات خيرية من ذوي الشأن الرفيع!

في تلك الأثناء، كان إدوارد وارنر الأب قد أصيب بسكتة دماغية تسبَّبت في إصابته بالشلل، وتولَّى إدوارد الابن مسئولية الشركة. وقد أكسبته السنوات الثلاث التي مضت على مزاولته هذا العمل نظرةَ أصحاب مناجم الفحم نفسها، من صلابة استمرَّت معه طوال حياته. كان نهج صاحب مناجم الفحم في العمل أن يشتري عمالته بأرخص الأسعار، ويُحقق أعلى إنتاجٍ في أقصر وقتٍ، ويبيع المنتج بسعر السوق إلى الأطراف الذين كان وضعُهم المالي مُرضيًا. وكان النجاح من وجهة نظره أن يتمكَّن من تحقيق تلك الأهداف؛ ومن ثَم، فإن أي اقتراح بأن ذلك من شأنه الإضرار بالعُمَّال الذين يحفرون تلك المناجم؛ يُتَّهم صاحبه بالوقاحة وفرط العاطفة.

كان إدوارد قد انزعج حين سمع من شقيقه أنه ينوي دراسة الصناعة من خلال قضاء إجازته كعامِلٍ عادي. ولكن، عندما فكَّر في الأمر، مال إلى الاعتقاد بأن الفكرة لم تكن سيئة. ربما لن يجد هال ما يبحث عنه، ولربما يساعده العمل بيديه في طرح هذه الخرافات عن ذهنه!

ولكن ها هي التجربة قد تمَّت، وتبيَّن لإدوارد أنها باءت بالفشل الذريع. لم يُدرك هال أن العمَّال مثيرون للشغب وكُسالى وغير أكْفاء وفي حاجة إلى يدٍ قوية لتحكمهم، بل على العكس، أصبح واحدًا من هؤلاء العمَّال المثيرين للشغب أنفسهم! أصبح بطلًا في الكسل والعجز، مُحرِّضًا، ومُهَيِّجًا للتحيُّز الطبقي، وعدوًّا لأصدقائه ولشركاء أخيه في العمل!

لم يسبق أن رأى هال إدوارد غاضبًا إلى هذا الحد. كان هناك شيء غير طبيعي حقًّا فيه، أدرك هال ذلك، وحيَّره على نحوٍ غامضٍ في أثناء حديثه، لكنه لم يفهمه حتى أخبره

أخوه كيف أتى إلى هنا. لقد كان يحضر حفل عشاء راقصًا في منزل أحد الأصدقاء، واتصل به بيرسي هاريجان عبر الهاتف في الساعة الحادية عشرة والنصف ليلًا. كان لدى بيرسي رسالة من كارترايت، مفادها أن هال يقود أعمال شغب في نورث فالي، وقد وصف بيرسي الموقف بوضوحٍ جعل إدوارد يهبُّ من فوره ويلحق بقطار منتصف الليل، مُرتديًا ملابس السهرة، ودون أن يُحضر معه فرشاة أسنانه!

لم يستطع هال أن يمنع نفسه من الانفجار في الضحك. أخوه، المنمَّق الرصين، ينزل من عربة النوم في السابعة صباحًا، مُرتديًا بذلة سهرة وقُبعة حريرية! وها هو، إدوارد وارنر الابن، الأنيق، الذي لم يدفع قطُّ أقل من مائة وخمسين دولارًا في البذلة الواحدة، يرتدي ثيابًا «مُستعارة» دفع مقابلها اثني عشر دولارًا وثمانيةً وأربعين سنتًا في «متجر يهودي» في بلدة للفحم!

الفصل الحادي عشر

لكن أسارير إدوارد لم تنفرج بابتسامة واحدة؛ بل كانت كل حواسه مستغرَقة في المهمة التي هو بصددها، وهي إخراج أخيه من هذا المأزق، الشديد الخطورة والإهانة. فقد جاء هال إلى بلدة يملكها أصدقاء عملٍ لإدوارد، وشرع في التدخل في شئونهم، وإثارة عُمَّالهم، وتعريض ممتلكاتهم للخطر. لم يكن لدى إدوارد أي شكٍّ في كون نورث فالي بأكملها ملكًا للشركة العامَّة للوقود ... ليس فقط المناجم والمنازل، بل والأشخاص الذين كانوا يعيشون فيها، ومن ثَم عندما حاول هال تقديم وجهة نظر مغايرة لم يكن من أخيه إلا أن صبَّ عليه جامَّ غضبه من عبارات وصيحات ساخطة. هل كانت ستوجد أي بلدة في نورث فالي لولا رأس مال الشركة العامَّة للوقود وجهودها؟ إذا كانت الشروط التي عرضَتها الشركة العامة للوقود على أهالي نورث فالي لا تروق لهم، فقد كان أمامهم حلٌّ بسيطٌ وواضحٌ ... وهو الذهاب إلى مكان آخر للعمل. لكنهم بقُوا، لقد أخرجوا الفحم للشركة العامة للوقود، وتقاضَوا أجورًا من الشركة ...

قال هال: «حسنًا، لقد توقَّفوا عن تقاضيها الآن.»

أجاب إدوارد بأن هذا الشأن يخصُّهم. ولكن ليتوقفوا لأن هذا اختيارهم ... وليس لأن محرضين من خارج المعسكر دفعوهم إلى فعل ذلك. ومهما تكن الظروف، فلنحرص على ألا ندع المحرضين ينضم إليهم عضو من عائلة وارنر!

وصف الأخ الأكبر حال العجوز بيتر هاريجان في طريق عودته من الشرق، وكيف سيمتلَّكه غضبٌ لا يُوصف، والعاصفة التي سيثيرها في عالَم الأعمال في ويسترن سيتي. تبًّا، الأمر لا يمكن تصوُّره، فلم يُسمَع بشيء كهذا من قبل! «ويتزامن ذلك بالضبط مع افتتاح منجم جديد ... في وقتٍ نحتاج فيه إلى كل دولار من الائتمان الذي يمكننا الحصول عليه!»

سأل هال: «ألسنا أقوياء بما يكفي لمواجهة بيتر هاريجان؟»

كان الجواب: «لدينا الكثير من الأشخاص الآخرين الذين علينا مجابهتهم والتصدي لهم. يجب ألا نَحيد عن طريقنا لنصنع عداوات لأنفسنا.»

لم يكن إدوارد يتحدث باعتباره الأخ الأكبر فحسب، بل بصفته أيضًا الشخص المسئول عن إدارة الشئون المالية للعائلة. عندما تدهورت صحة الأب نتيجة إفراطه في العمل، وتحوَّل — في ساعة رهيبة — من شخصٍ قوي يقود الأمور إلى شخصٍ ضعيفٍ أشبه بالطفل المثير للشفقة، كان هال سعيدًا بوجود شخص عَمَلي في العائلة؛ فقد كان على أتم الاستعداد لرؤية أخيه وهو يحمل هذه الأعباء، بينما يذهب هو إلى كليته لتسلية نفسه بالأغاني الساخرة. لم يكن لدى هال أي مسئوليات، ولم يطلب أحدٌ منه شيئًا … باستثناء ألَّا يُعطِّل عجلات الصناعة التي يديرها شقيقه. «أنت تعيش على صناعة الفحم! كل دولار تُنفقه يأتي منها …»

صاح هال: «أعلم ذلك! أعلم ذلك! ذلك ما يُعذبني! حقيقة أنني أعيش على فضل هؤلاء العبيد المأجورين …»

صاح إدوارد: «كُف عن ذلك! ليس ذلك ما أعنيه!»

«أعلم، ولكنه ما أعنيه. من الآن فصاعدًا، أنوي التعرف إلى الأشخاص الذين يعملون لديَّ، والدراية بالمعاملة التي يتلقَّونها. لم أعُد أخاك الصغير لتُضللني بالعبارات المبتذَلة.»

«تعلم يا هال أن مناجمنا مناجم نِقابية …»

«نعم، ولكن ماذا يعني ذلك؟ كيف نُديرها؟ هل نعطي الرجال المقابل الصحيح لأوزانهم؟»

«بالطبع! لديهم مراقبو الأوزان الخاصُّون بهم.»

«ولكن عندئذٍ، كيف يمكننا منافسة أصحاب المناجم الأخرى في المقاطعة، الذين يدفعون ثلاثة آلاف جنيه للطن؟»

«إننا ندير الأمر … بترشيد النفقات.»

«أي نفقات؟ لا أرى أن بيتر هاريجان ينفق أي شيء هنا!» توقف هال انتظارًا لإجابة، ولكنه لم يتلقَّ ردًّا. «هل نشتري مراقبي الأوزان؟ هل نَرشو رؤساء العُمال؟»

علت مسحة من حُمرة وجهَ إدوارد. وقال: «ما الداعي من هذا الموقف العدائي يا هال؟ أنت تعرف أنني لا أتورط في تلك الممارسات الوضيعة.»

«لا أقصد أن أكون عدائيًّا يا إدوارد، ولكن يجب أن تعلم أنه في إمكان الكثير من رجال الأعمال أن يقولوا إنهم لا يتورطون في تلك الممارسات الوضيعة؛ لأن لديهم آخرين

يقومون بها نيابة عنهم. ماذا عن النواحي السياسية، على سبيل المثال؟ هل ندير شركاتنا من خلال تعيين موظفينا ورؤسائنا في الفروع المحلية؟

لم يُجِب إدوارد، وأصرَّ هال قائلًا: «أريد أن أعرف هذه الأمور! لن أكون أعمى بعد الآن!»

«حسنًا يا هال ... يمكنك معرفة أي شيء تُريده؛ ولكن بالله عليك ليس الآن! إذا كنتَ تريد أن أُعاملك معاملة الرجال، فتصرَّف بعقلية الرجال! ها هو العجوز بيتر يعود إلى ويسترن سيتي مساء غدٍ! ألا تدري أنه سيُطاردني مثل الثور الهائج؟ ألا تدري أنني لو أخبرته بمجيئي هنا ومحاولة أخذك بعيدًا ... وعجزي عن فعل شيء يُذكر ... ألا تدري أنه سيطارد أبانا؟»

لقد جرَّب إدوارد كلَّ الحجج، وكانت هذه هي الحجة الوحيدة التي أفلحت. صاح هال: «يجب أن تُبقيَه بعيدًا عن أبي!»

ردَّ الآخر سريعًا: «أتقول لي ذلك! وأنت تعرف العجوز بيتر جيدًا! ألا تعلم أنه سيصل إليه، ولو اضطر إلى تحطيم باب المنزل؟ سوف يصبُّ جامَّ غضبه على ذلك العجوز المسكين! لقد حذرتُك من ذلك بوضوحٍ؛ وتعلم أن إبعاد أبي عن الانفعال مسألة حياة أو موت بالنسبة إليه. لا أدري ماذا عساه أن يفعل، ربما يغضب منك، وربما يدافع عنك. إنه كبيرٌ في السن وضعيف، لقد فقد سيطرته على الأمور. على أي حالٍ، لن يسمح لبيتر بالإساءة إليك ... ما لم يسقط ميتًا وسط الشجار! أيمكنك أن تواجِه ضميرك بهذا الأمر، بالإضافة إلى المشكلات التي تسبَّب فيها أصدقاؤك العُمال؟»

الفصل الثاني عشر

جلس هال ناظرًا أمامه في صمتٍ. هل حقًّا لكل إنسان نقطة ضعف في حياته، تجعله لا حولَ له ولا قوة في معركة العدالة الاجتماعية؟

عندما تحدث مرة أخرى، كان ذلك بصوتٍ منخفضٍ. فقال: «إدوارد، إنني أفكر في صبي أيرلندي صغير يعمل في هذه المناجم. هو أيضًا لديه أب، وهذا الأب وقع ضحية الانفجار. إنه رجلٌ عجوزٌ، ولديه زوجة وسبعة أطفال آخرين. إنه رجلٌ طيبٌ، والصبي فتًى جيد. دعني أخبرك بما فعله بهم بيتر هاريجان!»

قال إدوارد: «حسنًا، مهما يكن الأمر، فلا بأس، يمكنك مساعدتهم. ليس من المفترض أن يتضوَّروا جوعًا.»

قال هال: «أعرف ذلك، ولكن يوجد الكثير غيرهم؛ لا أستطيع مساعدتهم جميعًا. وبالإضافة إلى ذلك، ألا ترى يا إدوارد ... ما أفكر فيه ليس الصدَقة، وإنما العدل. أنا متأكد من أن هذا الصبي، تيم رافيرتي، يُحب أباه تمامًا كما أحب أبي، وهناك غيره من الرجال المتقدمين في السن هنا، ولديهم أبناء يحبونهم ...»

صاح إدوارد بصوتٍ يشبه الانفجار: «أوه يا هال، بالله عليكَ!» ولم ينبِس بكلمة أخرى للتعبير عن نفاد صبره. ولكنه تساءل مُستنكِرًا: «هل تتوقَّع أن تحمل جميع مشكلات العالم على عاتقك؟» ونهض وأمسك الآخر من ذراعه. وقال: «يا بُني، عليك أن تخرج من هنا!»

نهض هال دون أن يجيب. وبدا مترددًا، وبدأ شقيقه يسحبه نحو الباب. «لديَّ سيارة هنا. يمكننا الوصول إلى القطار في غضون ساعة ...»

رأى هال أن عليه أن يتحدث بحزمٍ. فقال: «لا يا إدوارد. لا يمكنني المجيء بعد.»

«أقول لك إنك يجب أن تأتي!»

«لا أستطيع. لقد قطعت وعدًا لهؤلاء العُمال!»

«بالله عليك ... ما مكانة هؤلاء العُمال عندك؟ مقارنةً بأبيك!»

«لا أستطيع أن أشرح ذلك يا إدوارد. لقد تحدثت لمدة نصف ساعة، ولا أعتقد حتى أنك استمعت إليَّ. يكفي أن أقول إنني أرى هؤلاء الناس وقد وقعوا في فخٍّ ... وهو فخ ساعدت الحياةُ التي أعيشها بكل تفاصيلها في نصبه. لا يمكنني أن أتركهم عالقين فيه. علاوة على أنني أعتقد أن أبي ما كان ليعترض إذا فهم الأمر.»

حاول الآخر للمرة الأخيرة تمالك أعصابه والسيطرة على زمام نفسه. وقال: «لن أدعوك بالأحمق المرهَف الحِس. ولكن دعني فقط أطرح عليك سؤالًا واحدًا بكل وضوح. ما الذي تستطيع أن تفعله لهؤلاء الناس، في رأيك؟»

«أعتقد أنني أستطيع المساعدة في توفير ظروف لائقة لهم.»

صاح إدوارد: «يا إلهي!» وتنهَّد في ألمٍ ساخطٍ. ثم أضاف: «في مناجم بيتر هاريجان! ألا تدرك أنه سوف يجمعهم ويطردهم من هنا، سيحصدهم حصدًا ... فريق العمل بأكمله، كل رجل في البلدة، إذا لزم الأمر؟»

أجاب هال: «ربما، ولكن إذا انضم إليهم العُمال في المناجم الأخرى ... إذا وقف الاتحاد النقابي الكبير في الخارج إلى جانبهم وساندهم ...»

«أنت تحلم يا هال! أنت تتحدث كطفلٍ! لقد تحدثتُ إلى المشرف هنا؛ لقد أرسل برقية يشرح فيها الموقف إلى العجوز بيتر، وحصل لتوِّه على الرد. وقد تصرَّف بالفعل، بلا شكٍّ.»

ردَّد هال: «تصرَّف؟ ماذا تعني؟» كان يحدق إلى أخيه وقد ظهر في عينَيه قلقٌ مفاجئ.

«سيطردون المحرضين بالطبع.»

«ماذا؟ بينما أنا هنا أتحدث إليك!»

استدار هال نحو الباب. وصاح: «كنت تعرف ذلك طوال الوقت! لقد أبقيتني هنا عمدًا!»

كان في طريقه للخروج، لكن إدوارد اندفع نحوه وأمسك به. وقال: «ما الذي كان في وُسعك أن تفعله؟»

صاح هال بغضبٍ: «دعني!»

«لا تكُن أحمق يا هال! كنت أحاول إبعادك عن المشكلات. ربما ينشب قتال.»

ألقى إدوارد بنفسه بين هال والباب، ونشب بينهما عراكٌ حادٌّ. لكن الأخ الأكبر لم يعُد رياضيًّا كما كان، فقد كان الإله البرونزي الشاب يجلس إلى مكتبه، بينما كان هال يؤدي العمل الشاق. أطاح هال به جانبًا، وبعد لحظة انبثق خارجًا من الباب، وركض نازلًا المنحدَر.

الفصل الثالث عشر

عند وصول هال إلى الشارع الرئيسي في القرية، رأى الحشد أمام المكتب. عرف من نظرةٍ واحدة أن شيئًا ما قد حدث. كان الرجال يركضون في هذا الاتجاه وذاك، يومئون، ويصرخون. وكان البعض يأتون في اتجاهه، وعندما رأوه بدءوا يصيحون في اتجاهه. أول مَن وصل إليه كان كووفوسكي، ذلك البولندي الهزيل، الذي جاءه لاهثًا، لا يقوى على التقاط أنفاسه من شدة الانفعال. «لقد طردوا لجنتنا!»

«طردوهم؟»

«طردوهم! من الوادي!» كان الشاب الصغير يُلَوح بذراعَيه في إيماءاتٍ عنيفة؛ وبدت عيناه كأنها توشك على الخروج من رأسه. «أخرجوهم بالقوة! مجموعة كاملة من الرجال المسلحين! رآهم الناس ... يخرجون من الباب الخلفي. قيَّدوا أذرُع الجميع. أمسك هؤلاء المسلحون بلجنتنا، ولم يسمحوا لهم بالصراخ، لم يستطيعوا فعل شيء! كانت في انتظارهم عربات ... ماذا تُسميها؟»

«أتقصد سيارات؟»

«نعم، ثلاث سيارات! وضعوا الجميع فيها، بسرعة هكذا ... وانطلقوا كالريح! خرجوا من الوادي، ذهبوا جميعًا! لقد أخمدوا إضرابنا!» واختتم البولندي الشاب حديثه بتنهيدة يأسٍ مريرة.

صاح هال: «لا، لن يخمدوا إضرابنا! ليس بعد!»

وفجأة انتبه إلى حقيقة أن شقيقه قد جاء في أعقابه ... لاهثًا بقوة؛ لأن الركض قد أجهده وأنهك قُواه. أمسك إدوارد أخاه هال من ذراعه، وهو يصرخ: «دعك من هذا، أقول لك!»

وهكذا، فبينما كان هال يستفسر من كووفوسكي، كان يكافح بنصف وعيه، ليُحرِّر نفسه من قبضة أخيه. تفاقم الوضع فجأة، حيث أطلق الشاب البولندي صرخة كأنه قِطٌّ غاضب، وذهب نحو إدوارد بأصابع ممدودة كالمخالب. كان شقيق هال الموقَّر يوشك أن يتخلَّى عن وقاره، لولا أن هال تدخَّل وكبح جماح كووفوسكي بذراعه الأخرى. ثم قال مخاطبًا أخاه: «دعه وشأنه! إنه أخي!» وعندها تراجع الشاب البولندي إلى الخلف، ووقف يشاهد الموقف مشدوهًا.

رأى هال أندروكولوس يركض نحوه. كان الصبي اليوناني في الشارع خلف المكتب، وقد شهد خروج اللجنة، أخذوا تسعة أشخاص … واكوب، وتيم رافيرتي، وماري بيرك، ومارسيلي، وزاماكيس، وروسيك، وثلاثة آخرين وهم مَن تولَّوا مهمة الترجمة لزملائهم في الليلة الماضية. تمَّ كلُّ ذلك بسرعة كبيرة إلى درجة أن الحشد لم يكَد يُدرك ما يحدث.

والآن، بعد أن فهم الرجال ما حدث، احتشدوا جميعًا في حالةٍ من الغضب. هزُّوا قبضاتهم، وهتفوا بتحدٍّ في أوجه المسئولين والحراس الذين وقفوا على مرأًى منهم ومسمعٍ في مدخل مبنى الشركة. انطلقت صيحات غضب مُدوية معلنةً الرغبة في الانتقام.

استطاع هال أن يدرك على الفور مخاطر الموقف، كأنه رجلٌ يشاهد أمامه اشتعال فتيل قُنبُلة. الآن، إذا كان لهذا الحشد المتعدد اللغات أن تكون له قيادة، فلا بد أن تكون قيادة حكيمة وهادئة وواسعة الحيلة.

عندما اكتشف الحشد وجودَه، اندفعوا نحوه كالموج. تجمَّعوا حوله وهم يهتفون. لقد خسروا بقية أفراد لجنتهم، ولكن كان لا يزال لديهم جو سميث. جو سميث! فليَحيَ جو! ليُحاول المسلحون أخذه، إن استطاعوا! لوَّحوا بقبعاتهم، وحاولوا أن يرفعوه على أكتافهم كي يراه الجميع.

صاحوا به أن يُلقِي خطابًا، وبدأ هال يشُقُّ طريقه إلى درج أقرب مبنًى، وإدوارد ممسكًا بمعطفه. كان إدوارد يشُقُّ طريقه بصعوبة متدافعًا وسط الحشود، واضطر إلى التخلي عن وقاره … لكنه لم يتخلَّ عن شقيقه. وعندما أوشك هال على صعود الدرج، جاهد إدوارد في محاولة يائسة أخيرة، صارخًا في أُذُنه: «انتظر لحظة! انتظر! هل ستحاول التحدث مع هؤلاء الغوغاء؟»

«بالطبع. ألا ترى أن مشكلةً ستحدث إن لم أفعل ذلك؟»

«ستُعرِّض نفسك للقتل! ستتسبَّب في نشوب معركة، وسيُطلقون النار على هؤلاء الأشقياء المساكين! تعقَّل يا هال؛ فقد أحضَرَت الشركة حُراسًا مسلحين، بينما أصدقاؤك لا سلاح معهم.»

«لهذا السبب بالضبط يجب أن أتحدث!»

جرت المحادثة في ظروف صعبة، والأخ الأكبر متشبث بذِراع أخيه الأصغر، بينما الأصغر يسعى للإفلات منه، وصاح الحشد في صوتٍ واحدٍ: «فلتُلقِ خطابًا! فلتُلقِ خطابًا!» كان هناك بعض الأشخاص القريبين، مثل كووفوسكي، الذين لم يستسيغوا اعتراض هذا الغريب لطريق بطلهم، وأظهروا أمارات الاستعداد «للتدخل»؛ لذلك تخلى إدوارد أخيرًا عن محاولته المضنية، وصعد الخطيب الدرج وواجه الحشد.

الفصل الرابع عشر

رفع هال ذراعَيه مُشيرًا إليهم بأن يصمتوا.

وصاح قائلًا: «يا شباب، لقد خطفوا لجنتنا. يحسبون أنهم سيقمعون إضرابنا بهذه الطريقة ... ولكنهم سيكتشفون أنهم قد ارتكبوا خطأً!»

جاء هدير عشرات الأصوات: «أجل! أنت على حقٍّ!»

«لقد نسُوا أن لدينا اتحادًا نقابيًّا. فليحيَ اتحاد نورث فالي!»

«يحيا! يحيا!» تردَّد صدى هتافهم في جُدران الوادي.

«وليحيَ الاتحاد النقابي الكبير الذي سيدعمنا ... اتحاد عُمَّال المناجم في أمريكا!»

ومن جديدٍ، تردَّد صدى هتافهم مرارًا وتكرارًا. «فليحيَ الاتحاد! فليحيَ اتحاد عُمَّال المناجم!» كان عامل منجم أمريكي كبير، وهو فيريس، في مقدمة الحشد، وتردَّد صدى صوته في أذنَي هال كأنه صافرة سفينة بخارية.

استطرد هال، عندما تمكَّنوا من سماع صوته أخيرًا: «يا رفاق، أعمِلوا عقولكم لحظة. لقد حذَّرتكم من أنهم سيحاولون استفزازكم! إن أكثر ما يرغبون فيه أن تدبَّ مناوشات هنا، وتصبح أمامهم فرصة للقضاء على اتحادنا! لا تنسوا يا شباب، إذا تمكَّنوا من جرِّكم إلى القتال، فسيتمكَّنون من القضاء على الاتحاد، الاتحاد هو أملنا الوحيد!»

هتفوا مجددًا: «فليحيَ الاتحاد!» تركهم هال يهتفون بالعبارة بعشرين لغة حتى اكتفوا.

ثم تابع أخيرًا: «الآن يا رفاق، لقد طردوا لجنتنا. وقد يطردونني بالطريقة نفسها ...»

صاحت أصوات الحشد: «لا، لن يفعلوا ذلك!» وارتفع صوت فيريس عاليًا في غضبٍ. «دعهم يحاولوا! وسوف نُحرِقهم في أسرَّتهم!»

قال هال: «ولكنهم يمكنهم أن يُرسلوني إلى الخارج! تعلمون أنهم يستطيعون التغلُّب علينا في تلك اللعبة! يمكنهم أن يستدعوا رئيس الشرطة، ويمكنهم إحضار الجنود، إذا لزم الأمر! لا يمكننا أن نقاومهم بالقوة … يمكنهم طرد كل رجل وامرأة وطفل في القرية إذا أرادوا ذلك. ما يجب أن نؤكده هو أنه حتى لو حدث هذا، فلن يقضي على اتحادنا! ولا على الاتحاد الكبير في الخارج، الذي سوف يدعمنا! يمكننا الصمود، وإجبارهم على إرجاعنا في النهاية!»

جاء بعض أصدقاء هال لدعمه عندما رأَوا ما كان يحاول فعله. وأردف هال: «لا للقتال! لا للعنف! ادعموا الاتحاد!» وواصل تأكيد هذه النقطة المهمة؛ حتى وإن طردتهم الشركة، فإن الاتحاد الكبير، الذي يُمثِّل جملة عمال المناجم العاملين في الدولة البالغ عددهم ٤٥٠ ألفًا، سيدعمهم، وسيستدعي بقية العمال في المقاطعة لمؤازرتهم. ومن ثَم فإن الرؤساء، الذين فكروا في تجويعهم لإجبارهم على الطاعة، سيجدون مناجمهم وقد توقفت تمامًا عن العمل. وسيضطرون إلى الرضوخ لمطالبهم، وبهذا ستنتصر أساليب التضامن.

وهكذا تابع هال، متذكرًا ما قاله له أولسون، ومحاولًا تنفيذه. رأى الأمل في وجوههم مرة أخرى، وهو ما بدَّد مزاج الاستياء والغضب.

قال: «الآن يا رفاق، سأدخل لمقابلة المشرف بالنيابة عنكم. سأكون لجنتكم، بما أنهم قد طردوا البقية.»

هتف فيريس مجددًا بصوته الأشبه بصافرة سفينة بخارية: «أنت رجلنا! جو سميث!»

«حسنًا أيها الرجال … انتبهوا الآن لما أقوله! سأقابل المشرف، وبعد ذلك سأذهب إلى بيدرو؛ حيث سيوجد بعض موظفي اتحاد عُمَّال المناجم هذا الصباح. سأخبرهم بالموقف، وأطلب منهم أن يدعموكم. هذا ما تريدونه، أليس كذلك؟»

كان هذا ما يريدونه. «الاتحاد الكبير!»

«حسنًا. سأبذل قصارى جهدي من أجلكم، وسأجد طريقة للحصول على وعدٍ لكم. وفي هذه الأثناء أدعوكم إلى الثبات. سيُخبركم الرؤساء بالأكاذيب، وسيحاولون خداعكم، وسيدسُّون الجواسيس ومثيري المشكلات بينكم … ولكن تمسَّكوا، وانتظروا الاتحاد الكبير.»

وقف هال وهو ينظر إلى الحشد المبتهج. كان لديه الوقت ليُلاحظ بعض الوجوه التي تطلَّعت إليه. وجوه مثيرة للشفقة، أتعبها الكدح، وكان لكلٍّ منها استجداؤه الخاص،

ويحكي قصة معاناته المتفردة من القهر والحرمان. أشرقت وجوههم مرة أخرى، لمعت بهذا الضوء الرائع الجديد الذي رآه أول مرة ليلة أمس. كانت قد انطفأت للحظة، لكن ها هو وهجُها يشتعل مجددًا، وهو الذي لن يموت أبدًا في قلوب الرجال ... بمجرد أن عرفوا القوة التي يمنحها لهم. لم يؤثِّر في هال أي شيء رآه حتى الآن بقدر ما أثَّرت فيه هذه الحماسة التي وُلِدت فيهم من جديدٍ. يا له من شيء جميل ورائع!

نظر هال إلى أخيه ليرى تأثير الأمر فيه. واستطاع أن يرى في وجه أخيه أمارات الرضا والارتياح اللامحدود. ها هو الأمرُ يمرُّ بسلامٍ! وسيُغادر هال المكان!

التفت هال مرة أخرى نحو العُمال، وبعد أن نظر إلى إدوارد بدَوا إلى حدٍّ ما أكثر إثارة للشفقة من أي وقتٍ مضى. كان إدوارد يُجسِّد السُّلطة التي يواجهونها ... السلطة غير المرئية وغير المفهومة التي تعتزم تحطيمهم. وخطرت احتمالية الفشل على ذهن هال في ومضة من العاطفة، واستحوذت على تفكيره. تخيَّل ما سيئُول إليه حالهم عندما يُصبحون بلا قائد يُحدِّثهم ويخطب فيهم. رآهم ينتظرون، ورأى عادةَ الإذعان التي تلازمهم طوال حياتهم والتي تسعى إلى إعادة تأكيد نفسها، ورأى آلاف المخاوف التي تحدق بهم، آلاف الشائعات التي تفترسهم ... تلك الوحوش الضارية التي يُطلقها عليهم أعداؤهم الماكرون. سوف يكابدون إحساس الفزع والجزع نفسه الذي كابده هال عندما فكَّر في أبيه ... ذلك الرجل العجوز في ويسترن سيتي، الذي حذَّره أطباؤه من التعرُّض للانفعال ... سيُكابدون ذلك الإحساس ليس فقط لأجل أنفسهم، بل لأجل زوجاتهم وأطفالهم كذلك.

إذا ظلُّوا صامدين، وحافظوا على اتفاق زعيمهم معهم، فسيُطردون من منازلهم، وسوف يواجهون بردَ الشتاء المقبِل، والجوع، والإدراج في القائمة السوداء. وما الذي سيكون هو بصدد فعله في هذه الأثناء؟ ما دوره في هذا الاتفاق؟ سيقابل المشرف بالنيابة عنهم، وسيُحيلهم إلى «الاتحاد الكبير!» ... وبعدها سينطلق إلى حياته الخاصة حيث الراحة والمتعة. كي يأكل شرائح اللحم المشوي واللفائف الساخنة في نادٍ مُجهَّز على أجمل وجه، حيث الخدم المهذبون ذوو الخطوات الرقيقة رهن إشارته! كي يرقص في النادي الريفي مع فتياتٍ فاتناتٍ يرتدين الشيفون والساتان، يتعطرن ويطللن بالابتسامات الحلوة والسحر في سعادة وغير اكتراثٍ! أجل، إنه أمرٌ سهلٌ للغاية! لربما يقول إن هذا ما يُحتِّمه عليه واجبه تجاه والده وأخيه، لكنه يعلم في أعماق نفسه أنها ستكون بمنزلة خيانة للحياة بجوهرها ومعناها الأسمى؛ سيكون كمَن يأخذه الشيطان إلى جبلٍ عالٍ ويُرِيه جميع ممالك الأرض ثم يُغريه بالهيمنة عليها مقابل التنازل عن قِيَمه ومبادئه!

اجتاح هال دافعٌ مفاجئ، فرفع يديه مرة أخرى. وقال: «أيها الرفاق، يُدرك كلٌّ منا الآن المطلوب منه. لن تعودوا للعمل حتى يُخبركم الاتحاد الكبير بذلك. وأنا من جهتي سأقف بجانبكم وأُساندكم. قضيتكم هي قضيتي، سأستمر في النضال من أجلكم حتى تحصلوا على حقوقكم، حتى يمكنكم العيش والعمل كبقية البشر! اتفقنا؟»

«اتفقنا! اتفقنا!»

«جيد جدًّا، إذن ... سنُقسِم على ذلك!» ورفع هال يديه، ورفع العُمال أيديَهم، ووسط عاصفة من الهتاف، والتلويح المحموم بالقبعات، تعهَّد لهم بما يعلم أنه سيلتزم به أمام ضميره. لقد تعمَّد فعل ذلك، هناك في حضور أخيه. لم يعُد الهدف الآن مجرد الاستيلاء على أحد الخنادق في معركة، بل كان تجنيدًا للحرب! ولكن حتى في غمرة هذه اللحظة من الحماسة، كان هال سيشعر بالخوف لو أنه أدرك ما يُفتَرَض أنه سيحدث في فترة التجنيد، تلك السنوات من النضال اليائس والمرهق الذي يتعهد أن يكرِّس له حياته.

الفصل الخامس عشر

نزل هال عن مِنبَره، وأفسح له الحشد الطريق، وخرج إلى الشارع وشقيقه إلى جانبه مُتَّجِهًا إلى المبنى الإداري، الذي كان الحراس يقفون في مدخله. تقدَّم تقدُّمَ المنتصر؛ وهتفت الأصوات الخشنة بكلمات التشجيع في أُذنَيه، وتدافع العُمال وتزاحموا لمصافحته أو التربيت على ظهره؛ حتى إنهم ربتوا على ظهر إدوارد وحاولوا مصافحته لأنه كان مع هال، وبدا أنه يحظى بثقته. حسِب هال بعد ذلك أن الأمر قد انتهى وكان سعيدًا. يا لها من مغامرة لإدوارد!

صعد الشاب درَج المبنى وتحدَّث إلى الحراس. وقال: «أريد أن أرى السيد كارترايت.»

أجاب أحدهم بنبرة غير ودودة: «إنه بالداخل.» دخل هال وإدوارد يتبعه وقادوهما إلى مكتب المشرف.

نظرًا إلى كون هال رجلًا عاملًا وذا وعي بالطبقات الاجتماعية، فقد كان مُراعيًا لسلوك المشرفين على المناجم؛ ولاحظ أن كارترايت قد انحنى بأدبٍ لإدوارد، لكنه لم يشمل شقيق إدوارد في هذه التحية. قال: «سيد كارترايت، جئتُ لك مُفوَّضًا من عمال هذا المعسكر.»

لم يبدُ أن المشرف قد أعجبه هذا الإعلان.

«لقد تلقيتُ تعليمات بأن أقول إن العُمال يطالبون بالفصل في أربع مظالم قبل العودة إلى العمل. أولًا ...»

هنا تحدث كارترايت بطريقته السريعة والحادة. وقال: «لا جدوى من المتابعة يا سيدي. هذه الشركة سوف تتعامل مع رجالها كأفرادٍ فحسب. ولن تعترف بأي نُوَّاب عنهم.»

جاءت إجابة هال بالسرعة نفسها. فقال: «حسنًا يا سيد كارترايت. في هذه الحالة، فقد جئت إليك بصفتي فردًا.»

للحظة بدا المشرف في حيرة.

«أودُّ أن أطالب بأربعة حقوق تمنحها لي قوانين هذه الولاية. أولًا: الحق في الانتساب إلى اتحادٍ نقابي دون أن أُطرَد لمطالبتي بهذا الحق.»

استعاد الآخر أسلوبه القيادي الهادئ. وقال: «تملك هذا الحق يا سيدي، لقد كنت دائمًا تمتلكه. وتعلم جيدًا أن الشركة لم تطرد أحدًا بسبب انتمائه إلى اتحاد نقابي.»

راحَ الرجل ينظر إلى هال، وبدأت مبارزة بالعيون بينهما. حرَّك هال غضبٌ غير محموم. كان قد استنفد قدرته على تحمُّل مثل هذه الأمور. قال: «سيد كارترايت، أنت خادمٌ لواحدٍ من أعظم الممثلين في العالم؛ وتدعمه بمهارة.»

احمرَّ وجه الآخر غضبًا وتراجع، فتدخَّل إدوارد على الفور قائلًا: «هال، لا جدوى من هذا الكلام!»

أصرَّ هال قائلًا: «العالَم كله جمهوره. إنه يلعب أكثر أدوار الكوميديا الهزلية روعةً ... هو وجميع مُمثِّليه يضعون مثل هذه الأقنعة المهيبة!»

قال إدوارد بوقارٍ: «سيد كارترايت، أنا على ثقة بأنك تفهم أنني فعلتُ كلَّ ما في وُسعي لكبح جماح أخي.»

أجاب المشرف: «بالطبع يا سيد وارنر. ويجب أن تعرف أنني، من جهتي، فعلتُ كلَّ شيء لإظهار الاحترام لأخيك.»

صاح هال: «مجددًا! هذا الممثل عبقري!»

«هال، إذا كان لديك شأن مع السيد كارترايت ...»

«لقد أظهر لي الاحترام بإرسال مُسلَّحِيه للقبض عليَّ ليلًا، وسحبي من أحد الأكواخ، وكادوا يخلعون ذراعي! يا له من مرحٍ لم يسبق له مثيل!»

حاول كارترايت التحدث ... ولكنه كان ينظر إلى إدوارد، وليس إلى هال. وأردف قائلًا: «في ذلك الوقت ...»

«لقد أظهر لي الاحترام بحبسي في السجن وإطعامي الخبز والماء لمدة ليلتين ويوم كامل! هل يمكنك تحمُّل ذلك القدر من المرح؟»

«في ذلك الوقت لم أكن أعرف ...»

«زوَّرتم اسمي على رسالة وأمرتم بتداولها في المعسكر! وأخيرًا ... الأكثر احترامًا على الإطلاق ... أخبرتم أحد الصحفيين بأنني أغوَيتُ فتاةً هنا!»

كان احمرار وجه المشرف لا يزال أكثر توهُّجًا. قال: «لا!»

صاح هال: «ماذا؟ ألم تخبر بيلي كيتينج من صحيفة «جازيت» أنني أغويت فتاة في نورث فالي؟ ألم تصف له الفتاة … فتاة أيرلندية ذات شعر أحمر؟»

«لم أقُل يا سيد وارنر غير أنني سمعت بعض الشائعات …»

«بعض الشائعات يا سيد كارترايت؟ لقد أكدتَ الأمر! لقد قدَّمت تقريرًا مفصلًا وصريحًا للسيد كيتينج …»

قال الآخر: «لم أفعل!»

«سأُثبت ذلك قريبًا!» واتَّجه هال نحو الهاتف على مكتب كارترايت.

«ماذا ستفعل يا هال؟»

«سوف أتصل ببيلي كيتينج، وسأدعُك تسمع كلامه.»

صاح إدوارد: «أوه، دعك من هذا يا هال! لا أهتم إطلاقًا بكلام كيتينج. أنت تعلم أنه في ذلك الوقت لم يكن لدى السيد كارترايت أي وسيلة لمعرفة مَن أنت.»

سارع كارترايت إلى تأكيد هذا الدعم. وقال: «بلى بالطبع يا سيد وارنر! لقد جاء أخوك إلى هنا متظاهرًا بأنه صبي عامل …»

صاح هال: «أوه؟ إذن ذلك هو بيت القصيد! تعتقد أنه من الصحيح تداول الافتراءات حول الصبية العاملين في معسكرك؟»

«لقد قضيتَ هنا فترة كافية لتعرف فيها طبيعة أخلاق هؤلاء الصبية.»

«لقد قضيتُ هنا فترة كافية يا سيد كارترايت مكَّنتني من معرفة أنك إذا أردت الخوض في مسألة الأخلاق في نورث فالي، فعليك أن تبدأ بالرؤساء والحراس الذين تضعهم في السلطة، وتسمح لهم بافتراس النساء.»

قاطعه إدوارد: «هال، لا جدوى من مواصلة هذه المحادثة. إذا كان لديك أي مسألة تريد تسويتها هنا، فانتهِ منها بالله عليك!»

بذل هال جهدًا لاستعادة رباطة جأشه. وعاد إلى مطالب الإضراب … ولكنه وجد أنه قد استنفد رباطة جأش المشرف. قال كارترايت: «لقد أعطيتُك إجابتي. وأرفض تمامًا أي مناقشة أخرى.»

قال هال: «حسنًا، بما أنك رفضت السماح لي — مُفَوَّضًا عن رجالك — بالتعامل معك بطريقة واضحة واحترافية، فيجب أن أبلغك — باعتباري فردًا — أن كلَّ فردٍ آخر في معسكرك يرفض العمل عندك.»

لم يدع المشرف نفسه ليتأثر بهذا الإسهاب في السخرية. وقال: «كل ما لديَّ لأقوله لك يا سيدي هو أنه سيُستأنَف العمل في المنجم رقم ٢ في الصباح، وأن أي شخصٍ سيرفض العمل سيُطرَد من الوادي قبل حلول الليل.»

«أبهذه السرعة يا سيد كارترايت؟ لقد استأجروا منازلهم من الشركة، وأنت تعلم أنه وفقًا لعقد الإيجار الخاص بالشركة، فإن لهم الحق في الحصول على إشعارٍ قبل ثلاثة أيامٍ من الإخلاء!»

لم يكن كارترايت يتمتع بالقدر الكافي من الحكمة لمجادلته. وكان يعلم أن إدوارد كان يستمع إلى الحديث، وأراد أن يبرئ ساحته. ومن ثَم، قال: «لن تطردهم الشركة. بل ستتعامل معهم سلطات المدينة.»

«أتلك التي ترأسها أنت نفسك؟»

«لقد انتُخِب عمدة نورث فالي.»

«وبصفتك عمدة نورث فالي، أوضحتَ لأخي أنك سوف تطردُني، أليس كذلك؟»

«لقد طلبت من أخيك أن يقنعك بالمغادرة.»

«لكنك أوضحت أنه إذا لم يتمكَّن من ذلك، فسوف تطردني، أليس كذلك؟»

«بلى، ذلك صحيح.»

«والسبب الذي قدمتَه هو أنك تلقيتَ تعليماتٍ عن طريق برقية من السيد بيتر هاريجان. هل لي أن أسأل عن المنصب الذي انتُخِب السيد هاريجان ليَشغَلَه في بلدتك؟»

أدرك كارترايت المأزق الذي كان فيه. قال بفظاظة: «لقد أساء أخوك فَهمي.»

«هل أسأتَ فهمه يا إدوارد؟»

كان إدوارد قد مشى إلى النافذة وهو يشعر بالاشمئزاز؛ حيث كان ينظر إلى علب الطماطم وأكوام الرماد، ولم يرَ أنه من المناسب أن يلتفت. لكن المشرف قد علم أنه كان يستمع، ورأى أنه من الضروري أن يُغطِّي الخلل في حُجته. قال: «أيها الشاب، لقد انتهكتَ العديد من قوانين هذه المدينة.»

«هل يوجد قانونٌ يمنع تنظيمَ اتحادٍ نقابي لعمال المناجم؟»

«لا؛ ولكن يوجد قانونٌ يمنع إلقاء الخطب في الشوارع.»

«مَن أصدر هذا القانون، إن جاز لي أن أسأل؟»

«مجلس المدينة.»

«الذي يتكوَّن من جونسون مدير مكتب البريد وموظف متجر الشركة، وإليسون محاسب الشركة، وشتراوس رئيس عمال بالشركة، وأوكالاهان صاحب حانة الشركة. هل القائمة صحيحة؟»

لم يُجِب كارترايت.

«والعضو الخامس في مجلس المدينة هو أنت، بحكم منصبك … السيد إينوس كارترايت، العمدة وأحد المشرفين في الشركة.»

مرة أخرى لم يتلقَّ ردًّا.

«لديك قانون يمنع إلقاء الخطب في الشوارع، وفي الوقت نفسه تمتلك شركتك مباني الحانات، والنُّزل والكنيسة، والمدرسة. أين تتوقع أن يُلقي المواطنون أحاديثهم؟»

«سوف تُصبح محاميًا جيدًا أيها الشاب. ولكن نحن المسئولون هنا نعرف جيدًا ما تعنيه بـ «الخطب»!»

«أنت لا توافق إذن على عقد المواطنين للاجتماعات؟»

«أعني أننا لا نعتبر أنه من الضروري إتاحة الفرصة للمُحرِّضين لتحريض موظفينا.»

«هل لي أن أسأل يا سيد كارترايت عما إذا كنتَ تتحدث بصفتك عمدة مجتمع أمريكي أم بصفتك مُشرفًا على منجم للفحم؟»

كان وجه كارترايت يزداد احمرارًا باستمرارٍ. قال موجهًا حديثه إلى إدوارد مرة أخرى: «لا أرى أيَّ سببٍ لضرورة استمرارنا في هذا.»

وافقه إدوارد الرأي. التفت. «حقًّا يا هال …»

«لكن يا إدوارد! رجلٌ يتهم أخاك بأنه منتهِكٌ للقانون! هل تعلم حتى الآن بوجود أي ميول إجرامية في عائلتنا؟»

التفتَ إدوارد إلى النافذة مرة أخرى، واستأنف تأمُّلَه لأكوام الرماد وعلب الطماطم. لقد كان شجارًا مبتَذَلًا وغبيًّا، لكنه كان يعلم جيدًا طباع هال، ومن ثَم يدرك أنه سيستمر في ذلك ما دام مَن يخاطبه من الحماقة بمكان للرد عليه.

«أنت تقول، يا سيد كارترايت، إنني انتهكتُ القانون الذي يمنع إلقاء الخطب في الشوارع. هل لي أن أسأل ما العقوبة التي ينصُّ عليها هذا القانون؟»

«سوف تعرف عندما تُفرَض عليك.»

ضحك هال. وقال: «مما قلته للتوِّ، أعتقد أن العقوبة هي الطرد من المدينة! حسب فهمي للإجراءات القانونية، كان ينبغي أن أمثُل أمام قاضي الصلح … الذي تصادف أنه

موظفٌ آخر في الشركة. ولكن بدلًا من ذلك، فإن العمدة يتولى إصدار الحكم ضدي ... أم ينبغي أن أقول مشرف الشركة؟ هل لي أن أسأل كيف يحدث ذلك؟»

«هذا بسبب احترامي ...»

«متى طلبت منك الاحترام؟»

«أعني احترامي لأخيك.»

«أوه! إذن، فإن قانونك ينصُّ على أن العمدة ... أم هل هو المشرف؟ ... يجوز له أن يحترم شقيق المخالِف للقانون، وذلك بتغيير عقوبته إلى الطرد من المدينة. أكان احترامك لتومي بيرك هو ما جعلك تطرد أخته من الوادي؟»

قبض كارترايت يديه. وقال: «لقد تحمَّلتُ هذا بما فيه الكفاية!»

كان يُخاطب إدوارد مرة أخرى الذي كان في ذلك الوقت ينظر عبر النافذة؛ فالتفتَ إدوارد وأجاب: «لا ألومك يا سيدي.» ثم قال لهال: «أعتقد حقًّا أنك قلتَ ما يكفي!»

أجاب هال: «أتمنى أن أكون قد قلتُ ما يكفي ... لإقناعكَ بأن التظاهر باحترام القانون الأمريكي في معسكر الفحم هذا هو مهزلة سخيفة، إهانة وإذلال لأي رجلٍ يحترم مؤسسات دولته.»

قال المشرف لإدوارد: «أنت يا سيد وارنر لديك خبرة في إدارة مناجم الفحم. وتعرف ماذا يعني التعامل مع الأجانب الجاهلين، الذين لا يفهمون القانون الأمريكي ...»

انفجر هال في الضحك. «أنت إذن تُعلِّمهم القانون الأمريكي! تُعلِّمهم بأن تطأ بالأقدام كل قانون لمدينتك وولايتك، وكل الضمانات الدستورية ... وتُحلُّ محلها التعليمات التي تتلقَّاها عبر برقية من بيتر هاريجان!» استدار كارترايت ومشى إلى الباب، وقال في قلقٍ: «أيها الشاب، سيكون من الضروري أن تغادر نورث فالي هذا الصباح. يا ليت أخاكَ يستطيع إقناعك بالمغادرة دون عناء.» وكان صوت إغلاق الباب بعنفٍ هو الوداع الوحيد للمشرف.

الفصل السادس عشر

التفتَ إدوارد إلى أخيه. وقال: «والآن ما الذي أردتَ أن تزجَّ بي إليه في موقفٍ كهذا؟ يا له من أمرٍ مُخجلٍ! لا مبرر له على الإطلاق! شجار مع رجل أدنى منك كثيرًا!»

وقف هال حيث تركه المشرف. نظر إلى وجه أخيه الغاضب. ثم سأله: «هل ذلك كل ما فهمته من الأمر يا إدوارد؟»

«كل تلك الأمور المتعلقة بشخصيتكَ! ماذا يُهمُّك في رأي رجلٍ مثل كارترايت فيكَ؟»

«لا يُهمُّني على الإطلاق رأيه في شخصي، ولكن يُهمُّني ألَّا يستخدم مثل هذا الافتراء. هذا أحد إجراءاتهم المعتادة، هكذا يقول بيلي كيتينج.»

أجاب إدوارد ببرودٍ: «خُذ بنصيحتي، وافهم أنه بإنكارك للفضيحة، فإنك تساعد على تداولها.»

أجاب هال: «بالطبع. وهذا ما يجعلني غاضبًا للغاية. فكِّر في الفتاة، والضرر الذي لحق بها!»

«ليس عليكَ أن تقلق بشأن الفتاة.»

«ماذا لو أن كارترايت قد افترى على إحدى صديقاتك. هل كنتَ ستشعر باللامبالاة نفسها؟»

«لم يكن ليفتريَ على إحدى صديقاتي؛ فأنا أختار أصدقائي بعناية شديدة.»

«أجل بالطبع. ومعنى ذلك أنك تختارهم من الأغنياء. ولكني أكثر ديمقراطية في ذوقي …»

صاح إدوارد: «أوه، بحق السماء! أنتم أيُّها الإصلاحيون جميعكم متشابهون … تثرثرون كثيرًا!»

«يمكنني أن أُخبرك بالسبب في ذلك يا إدوارد … رجل مثلك يستطيع أن يغمض عينَيه، لكنه لا يستطيع أن يُصِمَّ أُذنَيه!»

«حسنًا، ألا يمكنكَ أن تتركني وشأني بعض الوقت … بما يكفي حتى أخرج من هذا المكان؟ أشعر كأنني جالسٌ على فُوَّهة بركان، ولا أدري متى قد يثور مرة أخرى.»

شرع هال في الضحك. وقال: «حسنًا. أعتقد أنني لم أُظهِر الكثير من التقدير لزيارتك. سأكون أكثر اجتماعية الآن. مهمَّتي القادمة في بيدرو، ومن ثَم سأذهب معك إلى هناك. ثمة شيء واحد أخير …»

«ما هو؟»

«الشركة مَدينة لي بالمال …»

«أيُّ مال؟»

«بعض المال الذي اكتسبته.»

جاء دور إدوارد ليضحك. فسأله: «هل يكفي ثمنًا لحلاقة ذقنك والاستحمام؟»

أخرج مِحفظته وأخرج عدة دولارات، وراح هال يشاهده وأدرك فجأة التغيير الذي حدث في شخصيته. فهو لم يكتسب وعي طبقة العُمال فحسب، بل اكتسب وعيهم بقيمة الأموال أيضًا. كان مُهتمًّا حقًّا بالدولارات التي تدين بها الشركة له! فقد استحقَّ تلك الدولارات عن طريق الكدح المضني، ورفع كُتَل الفحم إلى العربات، وكان المبلغ كافيًا لإعاشة عائلة رافيرتي بأكملها مدة أسبوع أو أسبوعَين. وها هو إدوارد بمحفظته البُنية من الجلد الناعم المليئة بالأوراق النقدية من فئة العشرة دولارات والعشرين دولارًا، التي يُخرِجها دون عَدِّها، تمامًا كما لو أن المال قد نما على الأشجار، أو كما لو أن الفحم يخرج من الأرض ويمشي إلى الأتون على صوت الكمان والناي!

لم تكن لدى إدوارد بالطبع أي فكرة عن عمليات التفكير غير المعتادة التي تدور في رأس أخيه. كان يُمسك بالأوراق النقدية. وقال: «اشترِ لنفسك بعض الملابس اللائقة. آملُ ألا تضطر إلى البقاء مُتَّسخًا حتى تشعر بالديمقراطية، ألا توافقني الرأي؟»

أجاب هال: «بلى، إذن كيف سنغادر؟»

«لديَّ سيارة تنتظر، خلف المكتب.»

«إذن فقد جهَّزتَ كل شيء!» لكن إدوارد لم يُجِب خوفًا من إثارة البركان مرة أخرى.

الفصل السابع عشر

خرجا من الباب الخلفي للمكتب، واستقلَّا السيارة، وأسرعا خارجَين من القرية دون أن يراهما الحشد. وطوال الطريق إلى أسفل الوادي، ناشد إدوارد أخاه هال بالتخلي عن الجدال والعودة إلى المنزل على الفور. ذكَّره مجددًا بالوضع المأساوي لأبيهما، وعندما لم يُفلح ذلك، شرع في استخدام التهديد. ماذا لو انقطعت عن هال الإمدادات المالية، ماذا لو وجد نفسه مستبعَدًا من وصية والده ... ماذا سيفعل حينها؟ أجاب هال دون أن يبتسم: «يمكنني دائمًا الحصول على عملٍ كمُنظم نقابي لاتحاد عمال المناجم.»

ومن ثَم، تخلَّى إدوارد عن خط الهجوم هذا. وقال: «إذا لم تأتِ، فسأبقى بجانبك حتى تنتهي من ذلك!»

قال هال: «حسنًا.» لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من الابتسام على إثر هذا التهديد الخطير. وقال مُعقِّبًا: «ولكن إذا أخذتُك وقدَّمتُك إلى أصدقائي، فلا بد أن نتفق على أن ما ستسمعه سيظل سرًّا.»

ظهر الاشمئزاز على وجه الآخر. وسأله مُستنكرًا: «ولماذا أرغب في التحدث مع أصدقائك؟»

قال هال: «لا أعرف ما قد يحدث. سوف تُقابِل بيتر هاريجان وتأخذ صفَّه، ولا يمكنني أن أقول ما الذي ستعتبر أن من واجبك فعله.»

صاح الآخر بانفعالٍ مفاجئ: «سأُخبرك الآن! إذا حاولتَ العودة إلى معسكر الفحم هذا، فأُقسم إنني سأتقدَّم إلى المحاكم وأطالب بإيداعك في مصحة. لا أعتقد أنني سأجد صعوبة كبيرة في إقناع القاضي بأنك مجنون.»

قال هال ضاحكًا: «بلى ... ولكن شريطة ألا يكون قاضيًا في هذه البقعة من العالم!»

ثم، بعد أن تفحَّص وجه أخيه للحظة، خطر بباله أنه لن يكون من الجيد ترك مثل هذه الفكرة تجُول في عقل إدوارد دون تشكيكٍ فيها. قال: «انتظر حتى تُقابل صديقي بيلي كيتينج، من صحيفة «جازيت»، واسمع ماذا سيفعل بمثل هذه القصة! يتُوق بيلي حقًّا إلى أن يتركني «أخوض معركتي» مع العجوز بيتر!» لم تستمر المحادثة … لكن هال كان على يقينٍ من أن إدوارد سيأخذ كلامه بعين الاعتبار ويفكر فيه مليًّا.

وصلا إلى منزل ماكيلار في بيدرو، وانتظر إدوارد في السيارة بينما دخل هال. رحَّب به الاسكُتلندي العجوز بحرارة، وأخبره بما لديه من أخبارٍ. كان جيري مينيتي هناك في الصباح، وبناء على طلبه اتصل ماكيلار هاتفيًّا بمكتب الاتحاد في شيريدان، وتأكد من أن جاك ديفيد قد أبلغ بالإضراب ليلة أمس. واحتاطت جميع الأطراف من ذكر أي أسماء؛ نظرًا إلى ما هو معروف عن حدوث «تسريبات» في الهواتف، غير أن شخصية الرسول كانت واضحة. بعد تلقي الرسالة، كان يوهان هارتمان، رئيس الاتحاد المحلي لعُمال المناجم، في ذلك الوقت في الفندق الأمريكي في بيدرو، مع جيمس مويلان، سكرتير منظمة المقاطعة … وقد جاء الأخير من ويسترن سيتي على متن القطار نفسه الذي جاء فيه إدوارد.

كان كل هذا جيدًا، لكن ماكيلار أضاف معلومة يائسة … أعلن مسئولو الاتحاد أنهم لا يمكنهم دعم الإضراب في الوقت الحاضر! كان الأمر سابقًا لأوانه، وكان من الممكن ألا يجلب سوى الفشل والإحباط للحركة الكبرى التي يُخططون لها.

أدرك هال هذا الاحتمال بنفسه منذ البداية. ولكنه شهد مَولِد الحرية الجديد في نورث فالي، ورأى وجوه الرجال الجائعة والمرهَقَة تتطلَّع إليه طلبًا للمساندة والدعم؛ فتأثر بها، وشعر أن مسئولي الاتحاد قد تأثروا حتمًا. صاحَ: «كل ما عليهم فعله هو أن يدعموه! يجب ألا يخيِّب ظن هؤلاء الرجال! سوف يفقدون كل أمل، ويغرقون في يأسٍ أبدي! على المسئولين أن يُدركوا ذلك … يجب أن أحملهم على ذلك!»

أجاب الاسكُتلندي العجوز أن مينيتي شعر بالأمر نفسه. فألقى بالحذر عرض الحائط، واندفع إلى الفندق لرؤية هارتمان ومويلان. وقرر هال أن يتبعه، وخرج إلى السيارة.

شرح الأمور لأخيه الذي كان تعليقه «بالطبع!»؛ لأن هذا هو ما توقعه. سيعود عمال المناجم الفقراء والمُضلَّلون إلى عملهم، وسيتعيَّن على زعيمهم المحتمل أن يعترف بحماقة مَسَاعيه. وهناك قطار سيتجه إلى ويسترن سيتي خلال ساعتَين؛ ومن ثَم سيكون من الجيد جدًّا أن يتمكَّن هال من أن يستقله.

أجاب هال بعد فترة وجيزة بأنه ذاهب إلى الفندق الأمريكي. وأخبر أخاه أن في إمكانه أن يأخذه إلى هناك، إذا أراد. أعطى إدوارد الأمر لسائق السيارة. وعلى ذكر ذلك، بدأ إدوارد يسأل عن متاجر الملابس في بيدرو. وبينما كان هال في الفندق، يتوسَّل من أجل بقاء اتحاده النقابي المُنشَأ حديثًا، كان إدوارد يبحث عن زي يرتديه و«يُشعره بآدميته».

الفصل الثامن عشر

وجد هال جيري مينيتي مع اثنين من المسئولين في غُرفتِهما بالفندق، جيم مويلان سكرتير المقاطعة وصبي أيرلندي طويل القامة فارع، ذو عينَين سوداوين وشعر أسود، سريع وحساس، من ذلك النوع الذي يثِق به المرء وينال إعجابه من أول لحظة، ويوهان هارتمان، الرئيس المحلي، بالإضافة إلى عامل منجم ألماني المَولِد ذي شعرٍ رمادي، متحفِّظ وبطيء الكلام، ومن الواضح أنه رجل قوي، في كلٍّ من بِنيته وشخصيته. لقد كان في حاجة إلى تلك القوة، كان في إمكان أي أحد أن يُدرِك ذلك، لتولِّيه مسئولية مقر الاتحاد في قلب «إمبراطورية ريموند» هذه!

أخبَرَهم هال أول ما أخبرهم عما جرى من اختطاف للجنة. ولكنه اكتشف أن الخبر لم يفاجئ المسئولين؛ إذ كان هذا ما تفعله الشركات عادةً عند وجود تهديد بالتمرُّد في المعسكرات. ولهذا السبب كانت جهود التنظيم العلني ميئوسًا منها تمامًا. لم تكن هناك فرصة لأي شيء إلا الدعاية السرية، والحفاظ عل تلك السرية حتى تصبح لكل معسكر نواة لتنظيمٍ ما.

صاح هال: «لا يمكنكم إذن دعم هذا الإضراب!»

كان رد مويلان أنه لم يكن ثمة احتمالٌ لذلك. وأنه سوف يفشل بمجرد أن يبدأ. لم يكن هناك أدنى أمل في النجاح حتى إنجاز الكثير من العمل التنظيمي.

قال هال: «لكن في هذه الأثناء، سينتهي أمر الاتحاد في نورث فالي!»

كان الرد: «ربما. لن يكون أمامنا إلا أن نبدأ مجددًا. هذا هو دأب الحركة العُمالية.»

كان جيم مويلان صغيرًا في السن، ورأى مزاج هال. فصاح: «لا تُسِئ فهمنا! إنه أمرٌ مفجعٌ ... ولكن ليس في وُسعنا المساعدة. نحن مكلَّفون بتشكيل الاتحاد، ونعلم أننا إذا دعمنا كلَّ ما بدا إضرابًا، فإننا سنُفلِس في السنة الأولى. لا يمكنُك أن تتخيل عدد المرات

التي يحدُث فيها هذا الشيء نفسه … لا يكاد يمرُّ شهر دون أن يدعوَنا أحد إلى التعامل مع مثل هذا الموقف.»

قال هال: «يُمكنني أن أفهم ما تعنيه. لكنني اعتقدت أنه في هذه الحالة، عقب الحادث مباشرة، والرجال في حالة اضطرابٍ شديدٍ …»

ابتسم الشاب الأيرلندي وعلى وجهه مسحة من الحزن. وقال: «أنت جديد في هذا الأمر. لو أن حادثًا واحدًا من حوادث المنجم يكفي لإنجاح إضراب، فيعلم الرب أن مهمَّتنا كانت ستصبح سهلة. في باريلا، أسفل الوادي مباشرةً، وقعت لديهم ثلاثة انفجارات كبيرة … قُتِل منهم أكثر من خمسمائة رجل خلال السنة الماضية!»

أدرك هال أنه لم يشعر بحجم الموقف لقلة خبرته.

نظر إلى الزعيمَين العُماليين، وتذكر صورة الشخص الذي أحضره معه إلى نورث فالي … شخص حاد الطباع ومُحرِّض مُتهوِّر، يشجع العُمال الشرفاء على ترك وظائفهم. ولكن هنا كان الوضع معكوسًا تمامًا! فقد كان هنا في أوج انفعاله … وقد أطفأ نيرانَ هذا الانفعال اثنان من الزعماء العُماليين والقادة النقابيين! جلسا هادئَين ومُرتبَين، يُصدرون أحكامًا على عبيد نورث فالي. وكان الحكم هو أن يعودوا إلى زنازينهم المعتِمة!

سأل هال، وهو يبذل جهدًا للسيطرة على كدره: «ماذا يمكننا أن نقول للعمال؟»

«لا يَسَعُنا إلا أن نقول لهم ما أقوله لك … إننا عاجزون حتى تُنظَّم صفوف جميع العمال في المقاطعة. وفي هذه الأثناء، عليهم أن يتحمَّلوا المصاعب؛ يجب أن يفعلوا ما في وسعهم للحفاظ على التنظيم.»

«ولكنهم سيَطردون جميع العمال الناشطين!»

«لا، ليس جميعهم … فهم نادرًا ما يطردونهم جميعًا.»

هنا تكلم الألماني العجوز القوي. وقال إنه في العام الماضي طردت الشركة أكثر من ستة آلاف عامل بسبب مزاولة النشاط النقابي أو الاشتباه في مزاولته.

ردَّد هال: «ستة آلاف! هل تقصد في هذه المقاطعة وحدها؟»

«ذلك ما أعنيه.»

«ولكن ليس هناك أكثر من اثني عشر أو خمسة عشر ألف عامل في المقاطعة!»

«أعلم ذلك.»

«إذن كيف يمكن الحفاظ على التنظيم؟»

أجاب الآخر بهدوء: «يعاملون العُمال الجدد بالطريقة نفسها التي عاملوا بها القدماء.»

فكر هال فجأة في نمل جون إدستروم! ها هم … يبنون جسرهم، يُشيدونه مرارًا وتكرارًا، كلما دمرته الفيضانات! لم ينفد صبرهم سريعًا كشبابٍ من الطبقة المترَفَة اعتادوا أن تسير الأمور وَفقًا لإرادتهم، وعلى اعتبار أن الحرية والكرامة والعدالة من أساسيات الحياة. وبقدر ما تعلَّم هال من كلام هؤلاء الرجال، فقد تعلَّم أكثر من صمتهم … تلك الطريقة الهادئة والواقعية التي يتناولون بها الأمور التي شغلت عقله. بدأ يدرك معنى الوفاء بوعده لهؤلاء المساكين في نورث فالي. سيحتاج إلى أكثر من شعلةِ إثارة؛ سيحتاج إلى العقل والصبر والانضباط، سيحتاج إلى سنواتٍ من الدراسة والعمل الجاد!

الفصل التاسع عشر

وجد هال نفسه مُجبَرًا على قبول قرار القادة العُماليين. ذلك أن لديهم الخبرة، وفي إمكانهم الحكم على مجريات الأمور. سيتعيَّن على عمال المناجم العودة إلى العمل، وسيقودهم كارترايت وأليك ستون وجيف كوتون كما حدث من قبل! وكل ما في وسع الثوار أن يفعلوه هو محاولة الحفاظ على سرية التنظيم في المعسكر.

ذكر جيري مينيتي جاك ديفيد. كان قد عاد هذا الصباح دون رؤية القادة العماليين. وذلك كي ينأى بنفسه عن الشبهات، ويحتفظ بوظيفته، ويساعد العمل النقابي.

سأل هال: «ماذا عنك؟ أفترض أنك أحرقت جميع سفنك.»

لم يسمع جيري هذه العبارة من قبل، لكنه فهم معناها. قال: «بالطبع!» وأضاف: «أحرقتها عن بكرة أبيها!»

سأل هارتمان: «ألم ترَ «المحققين» أسفل الدرَج في الردهة؟»

«لم أكتسب فراسة التعرُّف عليهم بعدُ.»

«حسنًا، ستكتسبها، إذا بقيت في هذا العمل. لم تمر دقيقة واحدة منذ افتتاح مكتبنا إلا وكان هناك ستة منهم يقفون في الجهة المقابلة من الشارع. كل رجل يأتي لرؤيتنا يتبعونه إلى معسكره ويُطرَد في اليوم نفسه. لقد اقتحموا مكتبي ليلًا وسرقوا رسائلي وأوراقي، وهدَّدونا بالموت مائة مرة.»

«لا أرى كيف يمكننا إحراز أي تقدمٍ بأي حالٍ من الأحوال!»

«لا يمكنهم إيقافنا أبدًا. ظنُّوا أنهم إذا اقتحموا مكتبي، فسيحصلون بذلك على قائمة بمنظمينا النقابيين. ولكنني، كما تعلم، أحفظ القوائم عن ظهر قلب!»

قال مويلان: «إنه ليس بالأمر السهل. هل تريد أن تعرف عدد المنظمين النقابيين لدينا؟ إنهم سبعة وتسعون. ولم يقبضوا على واحدٍ منهم!»

سمعه هال مندهشًا. وهنا ظهر جانبٌ جديدٌ للحركة العمالية! هذا «الهولندي» العجوز الهادئ والحازم، الذي ربما ظننته صاحب متجر للأطعمة المعلبة، وهذا الصبي الأيرلندي ذو العينَين المرحتَين، الذي قد تظنُّه مرافقًا لسيدة في إحدى الحفلات الراقصة لرجال الإطفاء ... لقد كانا مثل قائدَين عسكريين من خبراء المتفجرات، يهدمان أبراج قلعة بيتر هاريجان المبنية على الجشع والطمع!

اقترح هارتمان أن جيري قد يغتنم الفرصة للقيام بهذا النوع من العمل. من المؤكد أنه سيُطرد من نورث فالي، ولذا فمن الأفضل أن يُرسَل إلى عائلته للقدوم إلى بيدرو. وبهذه الطريقة، يمكنه أن يوفر لنفسه عملًا كمنظمٍ نقابي؛ لأنه كان من عادة «جواسيس» هذه الشركة تتبُّع الرجل إلى معسكره والتعرُّف عليه هناك. إذا استقل جيري قطارًا إلى ويسترن سيتي، فسيُبعدهم عن طريقه، وقد يدخل إلى معسكرٍ جديدٍ ويمارس نشاطه التنظيمي وسط الإيطاليين. قَبِل جيري هذا الاقتراح بابتهاجٍ؛ فقد كان من شأنه أن يرجئ اليوم المشئوم الذي ستُترك فيه روزا وأطفالها الصغار لرحمة المصادفة.

وبينما هم يتحدثون، رنَّ الهاتف. كان سكرتير هارتمان في شيريدان يخبرهم بأنه سمع للتوِّ أخبارًا عن اللجنة المختطَفة. لقد أخذوا المجموعة بأكملها، ثمانية رجال ومعهم ماري بيرك، إلى هورتون، وهي محطة ليست بعيدة عن خط السكة الحديدية، ووضعوهم في القطار موجِّهين إليهم العديد من التهديدات الخطيرة. لكنهم غادروا القطار في المحطة التالية، وأوضحوا أنهم يعتزمون القدوم إلى بيدرو. من المفترض أن يصلوا إلى الفندق قريبًا جدًّا.

أراد هال أن يحضر هذا الاجتماع، ونزل إلى الطابق السفلي ليخبر أخاه. نشب بينهما خلافٌ آخر بالطبع. ذكَّر إدوارد هال أن الوضع في بيدرو يميل إلى الرتابة، وهو ما لم يسَع هال الرد عليه إلا باقتراحه أن يُعرِّف أخاه إلى أصدقائه. إنهم رجال يستطيعون أن يُعلِّموا إدوارد الكثير، إذا وافق أن يتعلم. كان في إمكانه أن يحضر الجلسة مع اللجنة ... ثمانية رجال وامرأة غامروا بعملٍ بطولي وأصبحوا ضحايا لجريمة. ليسوا نمطيين أو رتيبين، مثلما يرى إدوارد على الأرجح! بينهم، على سبيل المثال، تيم رافيرتي ذو العينَين الزرقاوَين، قَزَم هادئ ذو وجه مُسَخَّم، خرج من كهفه المظلم وبسط أجنحة الخطابة الذهبية التي لم يتوقعها أحدٌ منه، وهناك أيضًا ماري بيرك، التي قد يقرأ إدوارد عنها في ذلك اليوم في الطبعة المسائية لصحيفة «جازيت» التابعة إلى ويسترن سيتي ...

«جان دارك معسكرات الفحم»، أو شيء رائع من هذا القبيل. لكن مزاج إدوارد لم يكن ليتحسَّن. رأى أن أخاه سيظهر في الصحيفة باعتباره رفيقًا لجان دارك الأيرلندية!

ذهب هال مع جيري مينيتي إلى ما وصفه شقيقه بـ «المنزل البائس» بينما ذهب إدوارد منعزلًا إلى غرفة الطعام في الفندق الأمريكي. لكنه لم يُترك في عزلته؛ فسرعان ما جاء شابٌّ حاد الملامح للجلوس بجانبه، وشرع في محادثته. قال إنه «بائع متجول»، وأن «مجال عمله» هو الخردوات، فماذا عن مجال عمل إدوارد؟ أجاب إدوارد ببرودٍ أنه لم يكن لديه «مجال عمل»، لكن ذلك لم يصُدَّ الشاب ... على ما يبدو أن «مجال عمله» قد جعله لا يعبأ بردود أفعال الآخرين. ربما كان إدوارد مهتمًّا بمناجم الفحم؟ ولكن هل كان في زيارة للمعسكرات؟ ألحَّ الشاب في سؤاله، وطرحه مرارًا وتكرارًا، إلى درجة أنه خطر على بال إدوارد في النهاية ما يعنيه هذا ... ربما يكون في استجوابٍ من قِبَل أحد «الجواسيس»! من الغريب أن الظروف قد جعلت غضب إدوارد من نظام بيتر هاريجان يفوق ما جاء في كل روايات أخيه البليغة عن القمع الذي يُمارَس في نورث فالي.

الفصل العشرون

بعد وقتٍ قصيرٍ من تناولهما وجبة العشاء، وصل أفرادُ اللجنة المختطَفة، منهَكين جسديًّا ونفسيًّا. سألوا عن يوهان هارتمان، وأُرسِلوا إلى الغرفة بالطابق العلوي، في مشهدٍ مؤلمٍ. ثمانية رجال وامرأة غامروا بعملٍ بطولي وأصبحوا ضحايا لجريمة، لم يكن من السهل إقناعهم برؤية جهودهم وتضحياتهم تُلقَى في مَكبٍّ للنفايات، ولم يخجلوا من التعبير عن آرائهم في أولئك الذين يخونونهم.

صاح تيم رافيرتي: «كنت تحاول إخراجنا! حسبما أتذكر، فقد ذهبت إلى والدي لمساعدتك ... وعندما فعلنا ما طلبت هنا، تخليت عنا!»

قال مويلان: «لم نطلب منكم قطُّ تنظيم إضراب.»

«لا، هذا ليس صحيحًا. لقد طلبتم منا دفع المستحقات، حتى تتمكَّنوا أنتم من الحصول على الرواتب الكبيرة.»

أجاب القائد الشاب برباطة جأش: «رواتبنا ليست كبيرة. سوف تكتشف ذلك إذا تحققت من الأمر.»

«حسنًا، أيًّا ما كانت، فهي مستمرة، بينما توقفت رواتبنا. أصبحنا في الشارع، وانتهى أمرنا. انظر إلى حالنا ... وأغلبنا لديه عائلات أيضًا! لديَّ أمٌّ عجوز والعديد من الإخوة والأخوات، وأبي العجوز قد انتهى أمره ولا يستطيع العمل بعد الآن. إلامَ سينتهي بنا الحال في رأيك؟»

«سنساعدُك قليلًا يا رافيرتي ...»

صاح تيم: «تبًّا لك! لا أريد مساعدتك! عندما أحتاج إلى صدقة، فسأذهب إلى المقاطعة. إنهم مجموعة أخرى من النصابين، لكنهم لا يتظاهرون بأنهم أصدقاء للعُمال.»

كان هذا ما قاله توم أولسون لهال في البداية ... العُمال في حيرة، لا يعرفون بمَن يثقون، ويشكُّون في أكثر الأشخاص رغبة في مساعدتهم. قال: «تيم، لا فائدة من الحديث بتلك الطريقة. علينا أن نتحلَّى بالصبر ...»

توجَّه الصبي بحديثه إلى هال. وقال: «ماذا تعرف عن هذا الأمر؟ الأمر كله مزحة في نظرك. يمكنك أن تغادر وتنسى كل شيء متى أردت. لديك المال، يقولون لي ذلك!»

لم يشعر هال بأي استياء من حديثه؛ فهذا ما قاله له ضميره. لكنه أجاب: «الأمر ليس بهذه السهولة عليَّ يا تيم. هناك أمور أخرى تُشعِر المرء بالمعاناة إلى جانب افتقاره إلى المال ...»

قال تيم ساخرًا: «ستُعاني كثيرًا ... مع أهلك الأغنياء!»

وسُمِعت همهمة احتجاجٍ من أعضاء اللجنة الآخرين.

تدخَّل مويلان، قائلًا: «ويحك يا رافيرتي! لا يمكننا فعل شيء يا رجل ... نحن عاجزون مثلك تمامًا!»

«إذن تقول إنكم عاجزون ... لكنكم حتى لم تحاولوا!»

«نحاول؟ هل تريد منَّا أن ندعم إضرابًا نعلم أنه لا فرصة أمامه لأن يُكلَّل بالنجاح؟ ربما تطلب منَّا أيضًا أن نستلقي على الأرض ونترك عربة فحم تدهسنا. لا توجد فرصة أمامنا للنجاح يا رجل! صدقني لا يمكننا أن ننجح! لن نخرج بشيء من هذا إلا القضاء على تنظيمنا!»

أصبح مويلان متحمسًا فجأة. كان قد شهد عشرات الإضرابات التي فشلت في هذه المقاطعة، وعشرات الشباب المضرِبين الذين أصبحوا بلا مأوى، والذين علَّقوا خيبة أملهم عليه شاعرين بالحزن والمرارة. «قد ندعمك بأموالنا، كما تقول ... قد نستمر في ذلك، حتى والشركة تدير المنجم بهؤلاء الأنذال. لكن إلامَ سيئُول بنا الأمر في النهاية يا رافيرتي؟ لقد رأيتُ العديد من الاتحادات تنهار ... على الرغم من أنني لست كبيرًا في السن! لو كان لدينا مصرف، لكنا دعمنا جميع عمال المناجم في البلاد، ولما احتاجوا إلى العمل مرة أخرى قطُّ حتى يحصلوا على حقوقهم. لكن هذا المال الذي ننفقه هو المال الذي يكسبه عمال المناجم الآخرون ... الآن، في حفر المناجم، يا رافيرتي، مثلك أنت وأبيك العجوز. إنهم يعطوننا هذا المال ويقولون: «استخدموه لبناء الاتحاد. استخدموه لمساعدة الرجال الذين ليس لهم تنظيمٌ نقابي ... اشملوهم برعايتكم كي لا يخفضوا أجورنا ويتسبَّبوا في إلحاق الضرر بنا. ولكن لا تُضيِّعوه بالله عليكم؛ فإن علينا أن نعمل جاهدين لاكتسابه، وإذا

لم نرَ النتائج، فلن تحصلوا على المزيد منا.» ألا ترى كيف يسير الأمر يا رجل؟ وكيف أنه يثقل كاهلنا أكثر من الخوف من فقد رواتبنا الهزيلة ... حتى لو كنت لا توافق على تصديق أي شيء جيد عنا؟ لا داعي لأن تتحدث معي كما لو كنت ابن بيتر هاريجان. لقد كنت لجَّامًا عندما كنت في العاشرة من عمري، ولم يمر وقت طويل على تركي العمل في المناجم حتى أنسى هذا الشعور. أؤكد لك أن الشيء الذي يُبقيني مستيقظًا في الليل ليس الخوف من عدم حصولي على قوت يومي؛ لأنني اهتممت بعض الشيء بتعليمي، عن طريق الدراسة ليلًا، وأعلم أنه يمكنني دائمًا أن أكسب ما أحتاج إليه، ولكن ما يُذهِب النوم عن عيني هو تساؤلي عما إذا كنت أنفق أموال عمال المناجم بأفضل طريقة، عما إذا لم أتمكَّن من تقليل بعض بؤسهم بعدم قيامي بهذا الأمر أو ذاك. عندما أخذت قطار النوم ليلة أمس للقدوم إلى هنا، فهذا ما كنت أفكر فيه يا تيم رافيرتي ... كنت طوال الوقت أستمع إلى صوت اهتزاز القطار ... الآن سأرى المزيد من المعاناة، سأرى بعض الرجال الطيبين ينقلبون ضدنا؛ لأنهم لا يستطيعون أن يفهموا لماذا نحصل على الرواتب بينما يُطرَدون هم من عملهم. كيف سأُفهِمهم أنني أعمل من أجلهم ... أعمل بأقصى جهد لديَّ ... وأنني يجب ألا أُلام على ما حلَّ بهم؟»

قطع واكوب هنا حديثه. وقال: «لا فائدة من مواصلة الحديث. أرى أننا عاجزون. لن نزعجك يا مويلان.»

صاح مويلان: «أنتم تزعجونني حقًّا ما لم تدعموا الحركة!»

ضحك الآخر بمرارة. وقال: «لن تعرف أبدًا ما أفعله. لديَّ طريق أمامي ... وأنت تعرف ذلك!»

«حسنًا، أينما ذهبت، فلن يتغير الوضع؛ إما أن تكافح من أجل الاتحاد، وإما ستصبح عبئًا علينا تحمُّله.»

التفتَ القائد الشاب إليهم من عضوٍ إلى آخر في اللجنة يترجَّاهم ألا يُشعرهم هذا الفشل بالمرارة، بل أن يحوِّلوه إلى مصلحتهم، وأن يستمروا في العمل على بناء التضامن بين عمال المناجم. يجب أن يبذُل كلٌّ فرد تضحياته، أن يدفع نصيبه في ضريبة الأمر وتبعاته. وكان الشيء المهم أن كل رجل طُرد من عمله ينبغي أن يكون شرارة للعمل النقابي، أن يحمل شعلة الثورة إلى بُقعة جديدة في البلاد. ذلك كي يؤدي كلٌّ دورَه، وعندئذٍ لن يجد السادة أمامهم مكانًا يرسلون إليه هؤلاء «الأنذال».

الفصل الحادي والعشرون

كان هناك عضو واحد في هذه اللجنة راقبه هال بترقُّب كبير، وهو ماري بيرك. لم تقل كلمة واحدة؛ فبينما تَجادل الآخرون واعترضوا، جلست هي مطبقة شفتَيها وقابضة يدَيها. عرف هال مدى الغضب الذي أَشعَرها به هذا الفشل. نهضت وكافحت وتمنَّت، وكانت النتيجة مثلما قالت دائمًا ... لا شيء! الآن رآها بعينَين كبيرتَين ومُسودَّتَين من الإرهاق ومثبتتَين على هذا القائد العمالي الشاب المتحمس. كان يعلم أن حربًا ما تدور حتمًا داخلها. هل ستترك كل شيء الآن؟ لقد كان اختبارًا لشخصيتها ... كما كان اختبارًا لشخصياتهم جميعًا.

كان جيم مويلان يقول: «ما دُمنا أقوياء وشجعانًا بما فيه الكفاية، يمكننا استخدام هزائمنا لتعليم رجالنا وتوحيد جبهتهم. الآن، إذا تمكَّنَّا من جعل الرجال في نورث فالي يرون ما نفعله، فلن يعودوا مهزومين، لن يشعروا بالمرارة من الاتحاد، سوف يكون عليهم فحسب أن يعودوا وينتظروا. أليست هذه طريقة للتغلب على الرؤساء ... والاحتفاظ بوظائفنا، والإبقاء على الاتحاد قائمًا، حتى نصل إلى جميع المعسكرات، ونتمكَّن من الإضراب والانتصار؟»

ساد بعض الصمت، ثم تحدثت ماري. وقالت: «ماذا تريد أن تقول للرجال؟» خلا صوتها من المشاعر، لكن قلب هال كان ينبض بقوة. سواء أكان لدى ماري أمل أم لا، فستبقى في الطابور مع بقية النمل!

أوضح يوهان هارتمان فكرته. سيُصدر منشورات مطبوعة بعدة لغات، ويوزعها سرًّا في المعسكر، ليطالب من خلالها العمال بالعودة إلى العمل. لكن، سرعان ما رفض جيري هذا الاقتراح. لن يصدق الناس المنشورات، وسوف يشتبهون في أن رؤسائهم هم مَن طبعوها. ألم يفعل الرؤساء ما هو أسوأ من ذلك، «تلفيق» رسالة من جو سميث لعرقلة

حركة مراقِب الأوزان؟ الشيء الوحيد المفترض أن ينجح هو أن يدخل بعض أعضاء اللجنة إلى المعسكر، ومقابلة العمال وجهًا لوجه.

أصرَّ جيري: «ويجب أن يَتم ذلك بسرعة! لقد تلقَّوا إشعارًا للعمل في الصباح، وهؤلاء الذين لم يُطردوا. إنهم أفضل الرجال أيضًا ... رجال نريد الإبقاء عليهم.»

تحدث أعضاءٌ آخرون في اللجنة، مُعرِبين عن موافقتهم على ذلك. قال روسيك السلافي، البطيء الفهم والكلام: «سيُصاب الرجال بالجنون إذا فقدوا وظائفهم، ولم ينجح الإضراب.» وقال زاماكيس اليوناني السريع والعصبي: «نقول: إضراب، علينا أن نقول: لا للإضراب.»

ماذا في إمكانهم أن يفعلوا الآن؟ هناك، في المقام الأول، صعوبة الخروج من الفندق، الذي يُراقبه «الجواسيس». اقترح هارتمان أنهم إذا خرجوا جميعًا معًا وتفرقوا، فلن يتمكَّن المحققون من تعقبهم جميعًا. وأولئك الذين سيتمكَّنون من الفرار ربما يستطيعون الوصول إلى نورث فالي بالاختباء في «العربات الفارغة» التي في طريقها إلى المنجم.

لكن مويلان أشار إلى أن الشركة ستتوقع ذلك، وقال روسيك الذي كان متشردًا ذات يومٍ: «إنهم بالطبع يفتشون عرباتهم. وسيُذِيقُوننا الويل أيضًا إذا أمسكوا بنا.»

أجل، كان من شأنها أن تكون مهمة خطيرة. تحدثت ماري مرة أخرى. وقالت: «ربما تستطيع امرأة أداء المهمة على نحوٍ أفضل.»

قال مينيتي: «لقد ضربوا امرأة من قبل.»

«أعلم، ولكن ربما تخدعهم امرأة. هناك بعض الأرامل الذين جاءوا إلى بيدرو لحضور الجنازات، وهُن يرتدين الأغطية التي تخفي وجوههن. يمكنني التظاهر بأنني واحدة منهن وأدخل إلى المعسكر.»

تبادل الرجال النظرات. يا لها من فكرة! تحوَّل العُبوس الذي كان ملازمًا لوجه تيم رافيرتي منذ تشاجره مع مويلان، إلى ابتسامة عريضة فجأة.

قال: «لقد رأيتُ السيدة زامبوني في الشارع. كانت ترتدي غطاء وجه أسود يكفي لإخفاء الكثير منا.»

وهنا تحدث هال للمرة الأولى منذ أن أسكته تيم رافيرتي. «هل يعرف أحد أين نجد السيدة زامبوني؟»

قال روسيك: «إنها تقيم مع صديقتي السيدة سوايكا.»

قال هال: «حسنًا، هناك شيء لا تعرفونه عن هذا الموقف. بعد أن طردوكم، ألقيت خطابًا آخر على العمال، وجعلتهم يقسمون إنهم سيُبقون الإضراب قائمًا. يجب أن أعود

الآن وأتراجع عن كلامي. إذا كنَّا سنعتمد على غطاء الوجه ونحوه، فيمكن للرجال أن يتنكروا في هيئة النساء.»

كانوا يحدقون إليه. قال واكوب: «سوف يضربونك حتى الموت إذا أمسكوا بك!»

قال هال: «لا، لا أعتقد ذلك. على أي حال، الأمر متروك لي» ... نظر إلى تيم رافيرتي ... «لأنني الوحيد الذي لن يعاني من فشل إضرابنا.»

ساد بعض الصمت.

صاح تيم باندفاعٍ: «أنا آسف لأني قلت ذلك!»

أجاب هال: «لا بأس أيها الرجل العجوز. ما قلتُه صحيح، وأود أن أفعل شيئًا كي أريح ضميري.» نهض واقفًا وضحك. ثم قال: «سأتنكر في هيئة أرملة فاتنة! سأذهب واستمتع بحفل شاي مع صديقي جيف كوتون!»

الفصل الثاني والعشرون

اقترح هال الذهاب للعثور على السيدة زامبوني في المكان الذي تقيم فيه، لكن مويلان تدخل معترضًا؛ لأن المحققين سيتبعونه بالتأكيد. وعلى الرغم من أن عليهم جميعًا الخروج من الفندق معًا، فإن الشخص الوحيد الذي سيتعقَّبه المحقِّقون بالتأكيد هو المتمرد اللدود وصانع المشكلات جو سميث. قرروا أخيرًا إحضار السيدة زامبوني إلى الغرفة. لتأتي مع السيدة سوايكا أو امرأة أخرى تتحدث الإنجليزية، وتذهب إلى المكتب وتسأل عن ماري بيرك، مُدَّعية أن ماري قد اقترضت منها المال، وأنها مضطرة إلى استعادته كي تدفع إلى متعهد دفن الموتى تكاليف دفن زوجها. ربما لم يكن موظف الفندق يعرف مَن هي ماري بيرك، لكن «الجواسيس» اليقظين سيتجمَّعون ويستمعون، وإذا ذُكر أن ماري من نورث فالي، فقد يربط أحدهم بينها وبين اللجنة المختطَفة.

أوضحوا ذلك جيدًا إلى روسيك، الذي سارع بالخروج، وعاد في غضون ساعة معلنًا عن أن المرأتَين كانتا في الطريق. وبعد دقائق معدودة، سُمِعَ طرْق على الباب، حيث وقفت الأرملة العجوز مُتَّشِحة بالسواد هي وصديقتها. دخلت، ثم رأوا عليها نظرات مندهشة وفَزِعة. طلب روسيك منها أن تعطي جو سميث ثيابَ حدادها!

أوضح الرجل السلافي: «تقول إنها لا تملك ثيابًا غيرها.»

قال هال: «أخبرها أنني سأُعطيها الكثيرَ من المال، ولتشترِ المزيدَ منها.»

صاحت السيدة زامبوني، بسيلٍ من الكلمات المتناثرة: «أوه! يا إلهي!»

«تقول إنها ليس لديها ما ترتديه. وتقول إنه ليس من اللائق أن تكون بلا ملابس!»

«أليس لديها تنورة داخلية؟»

«تقول إن التنورة الداخلية بها ثقوب!»

انفجرت المجموعة في الضحك، واحمرَّ وجه المرأة العجوز من جبهتها إلى حلقها الواسع. قال هال: «أخبرها أن تتدثَّر بالبطاطين. اشتري لها يا ماري بيرك ملابس جديدة.»

كان من الصعب للغاية إقناع السيدة زامبوني بالتخلي عن ثياب حدادها، التي دفعت فيها ثمنًا باهظًا من الوقت والدموع. لم يُطلَب من امرأة شريفة، أم لستة عشر طفلًا، شيء كهذا من قبل، أن تبيع علامة حزنها ... وهنا في غرفة فندق، مزدحمة بعشرات الرجال! كما أن مرح الرجال الذي كان في غير محلِّه زاد من صعوبة المهمة. صاحت السيدة زامبوني مجددًا: «أوه! يا إلهي!»

قال هال: «أخبرها أن هذا مهم جدًّا. أخبرها أنني يجب أن أحصل على ملابسها.» ثم عندما رأى روسيك أنه لم يكن يُحرز تقدمًا، أدخل في كلامه بعض المفردات الإنجليزية التوافُقية التي يتعلَّمها المرء في المعسكرات. وقال: «يجب أن يأخذها! أمر مؤكد! يجب أن يتخفَّى! بسرعة! يجب أن يتخفَّى من رئيس العمال! أتفهمين؟ سيُقتَل إذا لم يذهب!»

وأخيرًا وافقت المرأة العجوز الخائفة. وقال روسيك: «تقول فليُدِر الجميع ظهورهم.» واستدار الجميع وهم يضحكون ويتهامسون في مرحٍ، بينما خلعت السيدة زامبوني ملابسها، تحت حماية ماري بيرك والسيدة سوايكا، ثم وضعت بطانية حول كتفَيها الحمراوَين على سبيل الاحتشام. عندما ارتدى هال الملابس، كانت واسعة بمقدار قدم من جميع الجوانب، ولكن بعد أن حشوها بوسادتَي سرير في الجزء الأمامي، وشدُّوهما بقوة عند خط الخصر، أصبح التنكر أكثر إحكامًا. ارتدى حذاء السيدة العجوز الذي أصبح عريضًا عند تمزيقه، ووضعت ماري بيرك قلنسوة الأرملة على رأسه وأغطية الوجه الكثيرة، وبعدها لم يكن أطفال زامبوني أنفسهم ليشتبهوا في هذه الهيئة التنكُّرية.

حظيت المجموعة بالمرح بضع دقائق، على الرغم مما بدت عليه ماري من الإنهاك واليأس، فقد استحوذت عليها الآن روح المرح. ولكن سرعان ما تلاشى الضحك. وحان وقت العمل. قالت ماري بيرك إنها ستبقى بملابس السيدة زامبوني كي تفتح الباب في حالة حضور أحد موظفي الفندق أو المحققين. طلب هال من جيم مويلان مقابلة إدوارد وإخباره بأن هال يكتب بيانًا لعمال نورث فالي، ولن يكون مستعدًّا للمغادرة حتى موعد قطار منتصف الليل.

وافقوا على هذه الأمور، وصافح هال الجميع، وغادر أحد عشر رجلًا الغرفة معًا، ونزلوا الدرج، وساروا عبر الردهة، ثم تفرَّقوا في كل اتجاه بالشوارع. تبعتهم بعد دقيقة السيدة زامبوني المزيفة والسيدة سوايكا ... وكما توقعا، فقد وجدا الردهة خالية من المحققين.

الفصل الثالث والعشرون

ودَّع هال السيدة سوايكا، وانطلق إلى محطة السكة الحديدية. لكنه في أثناء مغادرته الفندق، التقى بأخيه مصادفةً، حيث وجده قادمًا نحوه مباشرة.

بدت على وجه إدوارد نظرة ضجرٍ، وظهر من هيئته المعتادة والمجلة التي حملها تحت ذراعه أنه قد اهتدى بعد جهدٍ ويأسٍ إلى شرائها لمقاومة رتابة بيدرو. يا لها من خدعة للقدر، أن يأخذ رجل أعمال مهم، ويضعه تحت رحمة مجنون في بلدة فحم منبوذة! ما الذي يفعله الناس في حفرة كهذه؟ هل يدفعون نيكلًا لمشاهدة الصور المتحركة لرعاة البقر ومزيِّفي العملات؟

كان مظهر إدوارد يفوق روح دعابة هال. وإلى جانب أنه كان لديه عذرٌ جيدٌ؛ ألم يكن من المناسب اختبار تنكُّره قبل مواجهة الخطر الحقيقي في نورث فالي؟

وقف في طريق أخيه، وقال بنبرة صوت السيدة زامبوني العالية المتذمِّرة: «سيدي!»

حدق إدوارد إلى الشخص المتشح بالسواد الذي اعترض طريقه. «سيدي، أنت شقيق جو سميث، أليس كذلك؟»

كان لا بد من تكرار السؤال قبل أن يُعطي إدوارد إجابته على مضضٍ. وقد أعطاها الإجابة في غير فخرٍ بهذه العلاقة.

تابع الصوتُ المتذمر: «سيدي، مات زوجي العجوز جرَّاء الانفجار الذي حدث في المنجم. حصلتُ على خمسة أشلاء منه ودفنتها بالأمس في المقبرة. كان عليَّ أن أدفع ثلاثين دولارًا مقابل دفنِها، ولم يتبقَّ معي أي أموال. لم أحصل على أي مال من رجال الشركة. أتى محامٍ وقال إنني ربما أحصل على المال لأدفن زوجي، ولكن هذا إذا لم أجادل كثيرًا. لكن يا سيدي، لديَّ أحد عشر طفلًا يجب عليَّ إطعامهم. ولم يعد لديَّ زوج، ولن أجد زوجًا جديدًا لامرأة عجوز مثلي. عندما أعود إلى المنزل أسمع الأطفال يبكون ولا أملك أي

طعام، ومتاجر الشركة لا تعطيني أيَّ طعام. أعتقد أنك يا شقيق جو سميث، أيها الرجل الطيب، ربما ترثي لحال أرملة مسكينة، ربما تعطيني بعض المال يا سيدي، كي أشتري طعامًا لصغاري.»

قال إدوارد: «حسنًا.» أخرج محفظته، وأخرج ورقة نقدية، تصادف أنها كانت بقيمة عشرة دولارات. بدا لسان حاله يقول: «بحق السماء، ها هو المال!»

أمسكت السيدة زامبوني الورقة النقدية بأصابعها البدينة، لكنها لم تكن راضية. فقالت: «لديكَ الكثير من المال يا سيدي! أنت رجل غني، هيا! يمكنك أن تُعطيني كل ما لديك من أموال، كي أشتري ما يكفي لإطعام صغاري؟ أنت لا تعرف متاجر الشركة، يا سيدي، أسعارها مرتفعة جدًّا كالجبال، والأطفال جائعون، يبكون طوال النهار والليل، ولن تدوم قطعة نقود واحدة طويلًا. أعطِني المزيد من النقود، يا سيدي ... هلا فعلت؟»

قال إدوارد: «سأُعطيكِ ورقة أخرى. أحتاج إلى بعض المال لنفسي.» أخرج ورقة نقدية أخرى.

«لِمَ تحتاج إلى الكثير من المال يا سيدي؟ ليس لديك الكثير من الأطفال، أليس كذلك؟ وربما لديك الكثير من المال في المنزل!»

قال الرجل: «ذلك كل ما أستطيع أن أعطيه لكِ.» تنحَّى جانبًا، كي يتجنب هذا العائق الذي اعترض طريقه.

لكن العائق اتخذ خطوة هو الآخر ... وبخفة حركة مدهشة. «يا سيدي، أشكرك على الأموال. سأقول للأطفال إنني حصلت على المال من رجلٍ طيبٍ. أنا مُعجَبة بك يا سيد سميث، فأنت تعطي المال لأرملة فقيرة ... أنت رجل لطيف.»

وأخرجت المخلوقة المروعة إحدى كفَّيها، كما لو كانت ستربت على وجنتَي إدوارد، أو تمسك بذقنه. تراجع إدوارد، كما لو كان خائفًا من العدوى، لكنها تبعته، عازمة على أن تفعل له شيئًا، لم يستطع التأكد من ماهيته. فقد سمع أن لهؤلاء الأجانب عادات غريبة!

قال مُصرًّا: «لا بأس! هذا شيء بسيط!» وتراجع ... في الوقت نفسه كان ينظر حوله متوترًا كي يرى ما إذا كان هناك مشاهدون لهذا المشهد.

صاحت المرأة العجوز بودٍّ متزايد: «أنت رجل لطيف يا سيدي! رجل لطيف! ربما أجد يومًا ما رجلًا مثلك يا سيد إدوارد سميث ... فلا أبقى أرملة بعد ذلك الحين. هل تعتقد أنك ربما ترغب في الزواج بامرأة سلافية لطيفة، لديها الكثير من الأطفال اللُّطفاء؟»

أدرك إدوارد أن الأمر أصبح يائسًا، فهرع جانبًا. كادت تصله تلك القفزة إلى بر الأمان، لكن مما أثار رعبه أن الأرملة السلافية قفزت من بعده ... أنشبت فيه أظافرها

من تحت إبطه، وقرصته بقوة من ضلوعه. ثم خرجت صاحبة الأظافر إلى الشارع دون أن تلتفت إلى الوراء، ولكنها أصدرت كركرة غريبة، والتي ربما كانت نحيب أرملة ثكلى باللغة السلافية، أو ربما كانت أي شيء آخر كذلك.

الفصل الرابع والعشرون

سرعان ما غادر القطار المتجه إلى نورث فالي، واعتقد هال أنه سيُنجز مهمته ويعود في القطار الأخير. جلس في مقعده في العربة دون أن يَلفت الانتباه، وظل في مكانه حتى اقتربوا من وجهتهم، المحطة الأخيرة أعلى الوادي. كان هناك العديد من نساء عمال المناجم في العربة، واختار هال امرأة من جنسية السيدة زامبوني، وانتقل للجلوس بجانبها. أفسحت له مكانًا، مُعلِّقة على شيء ما، لكن هال بكى بهدوء، وتحسَّست المرأة يده لتهدئته. ولأن يدَيه كانتا مُشبكتَين تحت غطاء الوجه، ربتت على ركبته مُطمئِنة إياه.

توقف القطار عند حدود القرية المُطوَّقة، ودخل بود آدامز العربة متفحصًا كل راكب. عندما رأى هال هذا، أجهش بالبكاء مجددًا، وتمتم بشيء غير واضحٍ إلى المرأة الجالسة بجواره ... ما جعلها تميل نحوه وتثرثر بلغتها الأم. ثم مرَّ «بود».

عندما كان هال يوشك على مغادرة القطار، أمسك بذراع رفيقته، وبكى أكثر، وتحدثت هي أكثر بدورها، وهكذا نزلا إلى الرصيف، على مرأًى ومسمعٍ من بيت هانون «مُهشِّم الأسنان». انضمَّت إليهما امرأة ثالثة، وسرن في الشارع، وكانت المرأتان تتحدثان بالسلافية، ويبدو أنهما لم يشُكَّا في هال.

كان هال قد وضع خطة لنفسه. لن يحاول التحدث إلى العمال خِلسةً ... سيستغرق الأمر وقتًا طويلًا، وقد يتعرض للخيانة قبل أن يتمكن من التحدث إلى عددٍ كافٍ منهم. كان الأفضل أن يسدد ضربة واحدة جريئة. بعد نصف ساعة سيحين وقت العشاء، وسيجتمع العمال لتناول العشاء في غرفة الطعام بنُزُل ريمينيتسكي. سيبلغهم جميعًا رسالته هناك!

كانت رفيقتا هال في حيرة من أمرهما لأنه فوَّت كوخ زامبوني، حيث كان من المفترض أن الجيران يرعون صغار زامبوني. لكنه تركهما يحسبان ما يحسبانه، وذهب

إلى منزل مينيتي. كشف عن شخصيته لروزا التي اندهشت، وأبلغها رسالة زوجها … أنها يجب أن تذهب هي والأطفال إلى بيدرو، وتنتظر في هدوء حتى تسمع منه خبرًا. أسرعت وأحضرت جاك ديفيد، الذي شرح له هال الأمور. يبدو أن دور «جاك الكبير» في الاضطرابات الأخيرة لم يكن موضع اشتباه؛ ومن ثَم سيبقى هو وزوجته، مع روفيتا، وفريسماك، وكووفوسكي نواةً يمكن للاتحاد من خلالها تنظيم العمال.

حلَّت ساعة العشاء، وخرجت السيدة زامبوني المزيفة إلى الشارع تمشي الهوينى. عندما مرَّت بغرفة الطعام في النُّزُل، نظر إليها العُمال، لكن أحدًا لم يتحدث. كانوا في تلك المرحلة من الوجبة التي يحاول فيها الجميع التهام ما في وُسعهم، كي يحصل كلٌّ منهم على أفضل ما يمكن لزملائه الاستيلاء عليه والتهامه. ذهبت المرأة المتَّشحة بالسواد إلى أقصى الغرفة، حيث يوجد كرسي شاغر، فسحبته من الطاولة ووقفت عليه. ثم رنت صيحة في جميع أنحاء الغرفة: «أيها الرفاق! أيها الرفاق!»

نظر متناولو العشاء إلى أعلى، ورأَوا ثياب الحداد تُخلَع وقائدهم جو سميث يحدق إليهم. «أيها الرفاق! لقد جئتُ إليكم برسالة من الاتحاد!»

ارتفعت الصيحات، وهبَّ الرجال وُقوفًا على أقدامهم، وأُرجِعَت الكراسي إلى الخلف، ساقطةً على الأرض مصطدمة بها. ثم ساد الصمت على الفور تقريبًا، كان في الإمكان سماع أصوات مضغ الطعام، لولا أن أحدهم لم يستطع حتى أن يواصل مضغ طعامه.

«أيها الرفاق! لقد ذهبت إلى بيدرو والتقيت بأعضاء الاتحاد. عرفت أن الرؤساء لن يسمحوا لي بالعودة، ومن ثَم تنكَّرت، وها أنا ذا!»

أدركوا معنى هذا الزي الرائع؛ فكانت هناك هتافات، وضحك، وصيحات بهجة.

لكن هال مدَّ يدَيه، وساد الصمت مرة أخرى. «استمعوا إليَّ! الرؤساء لن يتركوني أتحدث طويلًا، ولديَّ شيء مهم لأقوله. يقول قادة الاتحاد إننا لا نستطيع القيام بإضرابٍ ناجح الآن.»

ظهر الذعر على الوجوه أمامه. وكانت هناك صيحات فزعٍ. ولكنه واصل قائلًا:

ما نحن إلا معسكر واحد، وسيطردنا الرؤساء ويُدخلون الأنذال ويُشغِّلون المناجم من دوننا. يجب أن يكون لدينا إضراب يشمل جميع المعسكرات في آنٍ واحدٍ. اتحاد واحد كبير وإضراب واحد كبير! إذا تخلينا عن الإضراب الآن، فسيُرضي ذلك الرؤساء، ولكننا سوف نخدعهم … سوف نحتفظ بعملنا، وباتحادنا أيضًا! أنتم أعضاء في الاتحاد، وسوف تستمرون في العمل من أجل الاتحاد! فليحيَ اتحاد نورث فالي!»

للحظة لم يكن هناك ردٌّ. كان من الصعب على الرجال أن يهتفوا لمثل هذا الاقتراح! رأى هال أنه يجب أن يلعب على وترٍ آخر.

«يجب ألا نكون جبناء أيها الرفاق! علينا أن نحافظ على رباطة جأشنا! أنا أؤدي دوري ... لقد تطلَّب الأمر جرأة للوصول إلى هنا! بملابس السيدة زامبوني ووسادتَين محشوَّتَين أمامي!»

ضرب على الوسادتَين، وانفجروا في الضحك. كان الكثيرون في الحشد يعرفون السيدة زامبوني ... كان الأمر أشبه بما يسميه الكوميديُّون «حيلة محلية.» ساد الضحك، وتحوَّل الغضب إلى بهجة. أخذ الرجال يهتفون: «فلتحيَ جو! أنتِ فتاتنا!» هل تتزوجيني يا جو؟» وهكذا، بالطبع، كان من السهل على هال أن يحصل على ردٍّ عندما هتف قائلًا: «فليحيَ اتحاد نورث فالي!»

رفع يدَيه مرة أخرى مطالِبًا بالصمت، واستأنف حديثه. «اسمعوا يا رجال. سوف يطردونني، ولن نقاومهم. ستعملون وتحافظون على وظائفكم، وتستعدون للإضراب الكبير. وسوف تخبِرون بقية العُمال بما أقول. لا يمكنني التحدث إليهم جميعًا، ولكن لتخبروهم عن الاتحاد. تذكروا أن هناك أشخاصًا بالخارج يخططون ويقاتلون من أجلكم. سنقف جميعًا إلى جانب الاتحاد، حتى نعيد معسكرات الفحم هذه إلى أمريكا!» علا هتاف هزَّ جدران الغرفة. أجل، كان هذا ما أرادوه ... أن يعيشوا في أمريكا!

كان حشدٌ من الرجال قد تجمَّع عند المدخل، منجذبين إلى الضجة؛ ولاحظ هال اضطرابًا ودفعًا، ورأى رأس عدوِّه بيت هانون وكتفَيه القويتَين أمامه.

صاح: «ها هم المسلحون قد أتوا أيها الرفاق!» وعلا هديرٌ غاضبٌ من الحشد. استدار الرجال، وقبضوا أيديهم، ونظروا إلى الحارس. لكن هال واصل مسرعًا:

«أيها الرفاق، اسمعوا ما أقول! لا تفقدوا أعصابكم! لا أستطيع البقاء في نورث فالي، وأنتم تعلمون ذلك! لكنني فعلت الشيء الذي جئت من أجله، لقد أوصلت رسالة الاتحاد. وسوف أُخبر بقية العمال ... سأخبرهم بأن يقفوا إلى جانب الاتحاد!»

تابع هال مكررًا رسالته مرة بعد أخرى. وعندما تفقَّد هذه الوجوه التي أنهكها الكدح وجهًا بعد الآخر، تذكر العهد الذي قطعه لهم، وقال مجددًا: «سأقف إلى جانبكم! سأواصل الكفاح يا رفاق!»

كان هناك المزيد من الاضطراب عند الباب، وفجأة ظهر جيف كوتون، مع حارسَين آخرَين، يشُقُّون طريقهم إلى داخل الغرفة، لاهثين وبوجوه حمراء من أثر الركض.

صاح هال: «آه، ها هو القائد! لا داعي إلى دفعي يا كوتون، لن أتسبَّب في أي مشكلات. نحن رجال نقابيون هنا، ونعرف كيف نسيطر على أنفسنا. الآن يا رفاق، نحن لن نستسلم، ولن نُهزَم، نحن ننتظر فحسب بقية العمال في المعسكرات الأخرى! لدينا اتحاد، وننوي الحفاظ عليه! ثلاثة هتافات للاتحاد!»

رنَّت الهتافات بعزمٍ شديدٍ: هتافات للاتحاد، وهتافات لجو سميث، وهتافات للأرملة وثياب حدادها!

«أنتم تنتمون إلى الاتحاد! وستقفون بجانبه مهما حدث! وإذا طردوكم، فستواصلون كفاحكم في مكان آخر! وتُعلمونه العمال الجدد، لا تتركوه أبدًا يموت في قلوبكم! في الاتحاد قوة، في الاتحاد أمل! لا تنسوا ذلك أبدًا أيها الرجال ... الاتحاد!»

رنَّ صوت قائد المعسكر. وقال: «إذا كنتِ ستأتين أيتها الشابة، فتعالي الآن!»

حنى هال رأسه في خجلٍ. وقال: «أوه، يا سيد كوتون! لقد فاجأتني!» عوى الحشد، ونزل هال عن منصته. وضع هال غطاء وجه الأرملة على وجهه في دلالٍ، وتعثَّر بتكلفٍ عبر غرفة الطعام. وعندما وصل إلى قائد المعسكر، أمسك بلطفٍ ذراعَه، ومع «مُهشِّم الأسنان» على الجانب الآخر، وبود آدامز في المؤخرة، مشى الهوينى خارجًا من غرفة الطعام إلى الشارع.

لقد ترك الرجال الجياع عشاءهم ليروا هذا المشهد. اندفعوا خارجين من المبنى وهم يضحكون ويصيحون ويستهزئون. وجاء آخرون من كل حدبٍ وصوبٍ ... بحلول الوقت الذي وصلت فيه المجموعة إلى المحطة، كان جزء كبير من سكان القرية هناك، وانطلقت العبارة في كل مكان: «إنه جو سميث! عاد برسالة من الاتحاد!» وضحك عمال المناجم الضخام البنية الملطخون بالفحم حتى انهمرت الدموع على وجوههم أنهارًا، وعانق كلٌّ منهم الآخر ابتهاجًا بهذه الحيلة التي لعبها هال على مُضطهِديهم.

حتى جيف كوتون لم يستطع أن يخفي إجلاله للموقف. تمتم: «وربي لم أرَ مثلك!» وقرر أن يتحلى بآداب «حفلات الشاي» في هذا الأمر، على اعتبار أن هذه هي أسهل طريقة للتخلص من ضيفه الذي يعاود الظهور دائمًا، وتجنب احتمالات الخطر الواردة. اصطحبَ الأرملة إلى القطار وساعدها في صعود الدرج، ووضع مرافقين على أبواب العربات، ولم يكُفَّ هؤلاء المرافقون الشجعان عن متابعتها حتى تحرك القطار خارجًا من المحطة، مجتازًا حدود نورث فالي!

الفصل الخامس والعشرون

خلع هال ثياب الأرملة، وخلع معها المرح الذي تظاهر به من أجل العمال. ولكنه شعر بردٍّ فعلٍ مفاجئ؛ إذ أدرك أنه مُتعَب.

عاش لعشرة أيام في دوامة من الإثارة، وبالكاد كان يتوقف لنيل قسطٍ من النوم والراحة. ها هو الآن يستلقي في مقعد العربة، شاحبًا ومُنهَكًا؛ كانت رأسه تؤلمه، وأدرك أن محصلة تجربته في نورث فالي هي الفشل. لم يبقَ فيه أيُّ أثر لروح المغامرة تلك التي كان قد بدأ بها في «دورته الصيفية في علم الاجتماع التطبيقي.» لقد ذاكر دروسه، وحاول تسميعها، لكنه «فشل». ابتسم ابتسامة مريرة، متذكرًا الابتسامة اللامبالية التي ارتسمت على شفتَيه عندما وصل إلى هذا الوادي نفسه:

«إنه يُبقيها تدور، ذلك العجوز المَرِح ...
إنها عجلات الصناعة،
تدور وتدور، من أجل غليونه ووعائه
وكُلِّيَّته!»

وصل القطار إلى بيدرو، واستقل هال سيارة في المحطة وتوجه إلى الفندق. كان لا يزال يحمل ثياب الأرملة، ملفوفة معه في حزمة. ربما كان سيتركها في القطار، إلا أنَّ دافع الاقتصاد وترشيد النفقات الذي اكتسبه خلال الأسابيع العشرة الماضية قد أصبح عادةً لديه. سوف يُرجعها إلى السيدة زامبوني. ربما من الأفضل أن تستخدم المال الذي وعدها به لإطعام صغارها. وسيترك الوسادتَين في العربة، وليتحمَّل الفندق الخسارة!

عند دخول الردهة، كان أول شخص يراه هال هو شقيقه، وقد أدَّت رؤية ذلك الوجه الأرستقراطي، المعبِّر عن شعورٍ إنساني بالاشمئزاز، إلى التخفيف من صداع هال بعض

الشيء. كانت الحياة قاسية وموحشة، ولكن ها هو إدوارد المُتعَب ينتظره هنا، تلك الهبة من العزاء البهيج!

سأله إدوارد أين كان، وأجاب هال: «كنت أزور الأرامل والأيتام.»

قال إدوارد: «أوه! بينما كنت أجلس أنا في هذا الجحيم قلقًا! ما هذا الذي تحت ذراعك؟»

نظر هال إلى الحزمة. قال: «إنها هدية تذكارية من إحدى الأرامل»، وفك الحزمة وبسط الثياب أمام عينَي أخيه الحائرتَين. «أعطتها لي سيدة تُدعى السيدة سوايكا. كانت ملكًا لسيدة أخرى، وهي السيدة زامبوني، لكنها لم تعُد في حاجة إليها بعد الآن.»

«ما شأنك بهذه الثياب؟»

«يبدو أن السيدة زامبوني سوف تتزوج مرة أخرى.» وخفض هال صوته في سرية. وقال: «إنها قصة حب يا إدوارد ... ربما تثير اهتمامك لكونها مثالًا على أخلاق هذه الأجناس الأجنبية. لقد التقت برجلٍ في الشارع، تقول: إنه رجلٌ طيبٌ ولطيفٌ ... وقد أعطاها الكثيرَ من المال. فذهبت واشترت لنفسها بعض الملابس الجديدة، وهي تريد أن تُعطي ثياب الحداد هذه للزوج الجديد المنتظر. هذه هي العادة في بلدها، على ما يبدو ... علامة على أنها تقبل خطبته.»

عندما رأى هال نظرة الدهشة ترتسم على وجه أخيه، كان عليه أن يتوقف لحظة ليحافظ على جدية تعابير وجهه. وقال: «إذا لم يكن ذلك الرجل جادًّا في نواياه يا إدوارد، فسيُواجه مشكلة؛ لأنني أعرف السيدة زامبوني وحالتها العاطفية. سوف تتبعه في كل مكان ...»

«هال، تلك المخلوقة مجنونة!» ونظر إدوارد حوله متوترًا، كما لو أنه يعتقد أن الأرملة السلافية قد تظهر فجأة في ردهة الفندق لإظهار حالتها العاطفية.

أجاب هال: «لا، إنها مجرد أحد الاختلافات بين عادات الشعوب.» وفجأة انبسطت أسارير وجه هال. وبدأ يضحك، ربما بصوتٍ أعلى مما يسمح به المظهر اللائق.

كان إدوارد منزعجًا جدًّا. كان هناك أشخاصٌ في الردهة، يحدقون به. صاح: «كفى يا هال! نكاتك الحمقاء تصيبني بالملل!» غير أن هال استطاع أن يرى التشكُّك في وجه أخيه. تعرَّف إدوارد على ثياب الأرملة. وكيف يمكنه التأكد من «العادات المحلية» لتلك المخلوقة البشعة التي قرصته في ضلوعه على قارعة الطريق؟

صاح مرة أخرى: «كفى!»

غيَّر هال صوته فجأة إلى صوت السيدة زامبوني، وصاح: «يا سيدي، لديَّ ثمانية أطفال يجب أن أطعمهم، ولم يعد لديَّ زوج، ولا أجد زوجًا جديدًا لامرأة عجوز مثلي!»

وهكذا بدأت الحقيقة بكامل فداحتها تتجلَّى أخيرًا لإدوارد. ذهب عنه ذعره واشمئزازه، واستمع هال إليه وقد هدأت حدة ضحكاته. قال: «إدوارد، أنت ما زلت لا تأخذني على محمل الجد!»

صاح الآخر: «يا إلهي! أعتقد أنك مجنون حقًّا!»

«لقد كنتَ هناك يا إدوارد! لقد سمعتَ ما قلتُه لهؤلاء المساكين! واعتقدت حقًّا أنني سأذهب معك وأنسى أمرهم!»

تجاهل إدوارد هذا. وكرر قائلًا: «أنت مجنون حقًّا! سوف تتسبَّب في مقتلك، على الرغم من كل ما أقوم به!»

لكن هال لم يسَعْه إلا أن ضحك. وقال: «لا داعي للخوف! كان يجب أن ترى آداب حفلات الشاي التي عاملني بها قائد المعسكر!»

الفصل السادس والعشرون

لم يكن إدوارد ليتردد في إبعاد شقيقه على الفور، ولكن لم يكن هناك قطار سيُغادر المنطقة حتى وقت متأخر من الليل، ومن ثَم ذهب هال إلى الطابق العلوي، حيث وجد مويلان وهارتمان مع ماري بيرك والسيدة زامبوني، وكان جميعهم متحمِّسين لسماع قصته. وعندما عاد أعضاء اللجنة متأخرين، وكانوا قد خرجوا لتناول العشاء، رُويت القصة مرارًا وتكرارًا.

لقد غمرتهم البهجة مثلما حدث للرجال في نُزُل ريمينيتسكي. يا ليت كل الإضرابات التي يتعيَّن إلغاؤها تُلغى بتلك الدرجة من الإجادة.

ثم ناقشوا مستقبلهم بين نوبات الرضا هذه. كان مويلان عائدًا إلى ويسترن سيتي، وهارتمان إلى مكتبه في شيريدان، حيث سيُرتِّب منه لإرسال منظِمين نقابيين جدد إلى نورث فالي. مما لا شك فيه أن كارترايت كان سيطرد العديد من الرجال … أولئك الذين ظهروا بوضوحٍ في الإضراب، أولئك الذين واصلوا الحديث عن الاتحاد في العلن. ولكن مثل هؤلاء الرجال يجب استبدالهم، وقد عرف الاتحادُ من أي وكالات حصلت الشركة على عمالها. سيجد عمال المناجم في نورث فالي أن منشورات الاتحاد تصلهم بمختلف اللغات؛ ستُدَس تحت وسائدهم، أو توضع في دِلاء عشائهم، أو في جيوب معاطفهم في أثناء وجودهم في العمل.

كما كانت هناك دعاية يجب القيام بها بين أولئك الذين أُبعِدوا؛ فأينما ذهبوا، ستصل إليهم رسالة الاتحاد. كانت هناك فورة متعاطفة في باريلا، عرف هال ذلك … بدأت بشكلٍ عفوي تمامًا في ذلك الصباح، عندما سمع الرجال بما حدث في نورث فالي. وطُرِد عشرات العمال، ويُحتمَل أن يلحق بهم المزيد في الصباح. كان هناك عملٌ لأعضاء اللجنة

المختطَفة، تيم رافيرتي، على سبيل المثال … هل سيحرص على البقاء في بيدرو مدة أسبوع أو أسبوعَين لمقابلة هؤلاء الرجال وإعطائهم المنشورات والتحدث إليهم؟

كان هذا العرض موضعَ ترحيب؛ لأن الحياة بدَت مُقفِرة في عينَي الصبي الأيرلندي في هذه اللحظة. لقد أصبح عاطلًا عن العمل، ووالده أصبح مُقعدًا، وعائلته في حالة عَوز وعجز. سيتعيَّن عليهم مغادرة منزلهم بالطبع؛ فلن يوجد مكان لأحد من أفراد عائلة رافيرتي في نورث فالي. أين سيذهبون، الرب وحده يعلم؛ سيصبح تيم عاملًا مُتجوِّلًا، يعيش بعيدًا عن أهله، يُجوِّع نفسه ويرسل مُدَّخَراته البائسة إلى عائلته.

كان هال يراقب الصبي، ويقرأ هذه الأفكار. سيتولى هو، هال وارنر، زمامَ كل شيء في هذه الحالة، وفي العديد من الحالات الأخرى المثيرة للشفقة على حدٍّ سواء. كان له الحق في التوقيع باسم والده على الشيكات، ذلك الامتياز الذي اعتقد أنه يستطيع الاحتفاظ به، حتى في أثناء قيامه بدور «هارون الرشيد» الخيِّر في حادث المنجم. ولكن ماذا عن حوادث المناجم والإضرابات المُجهَضَة؛ حيث لم يكن هناك مع الرجال هارون الرشيد؟ ماذا عن هؤلاء الناس، في نورث فالي نفسها، الذين لم يُخبِر أحدٌ هال بأحوالهم؟ لقد أدرك أنه لا يستطيع الخروج من هذه المغامرة بأي قدرٍ من الثبات إلا بإدارة ظهره للأمر والهروب. لقد كانت حقًّا هذه الحضارة الجميلة والرائعة أشبه بأرضية مقبرة أو ساحة معركة؛ في أي مكان يضرب فيه المرءُ بمجرفته تحت سطحها، يكشف عن أهوالٍ، ومناظر مفزعة، وروائح كريهة تشعره بالغثيان!

كان هناك روسيك، على سبيل المثال، الذي لديه زوجة وطفلان، ولا يملك دولارًا واحدًا. خلال تلك المدة التي تُقدَّر بسنة وأكثر، والتي عمل فيها بإخلاصٍ وإصرارٍ، لإخراج الفحم لصالح بيتر هاريجان، لم يتمكَّن — ولو لمرة — من دفع فواتير أساسيات الحياة لمتجر بيتر. جميع متعلقاته يمكنه حملها في حزمة واحدة على ظهره، وتعتمد احتمالية رؤيته لتلك المتعلقات مجددًا على أهواء قائد المعسكر والحراس التابعين للعجوز بيتر. كان سيتعيَّن على روسيك السفر، بتذكرة اشتراها له الاتحاد. ربما كان سيجد وظيفة وربما لا، على أي حال، فإن أفضل ما يمكن أن يتمنَّاه في الحياة هو أن يعمل لدى هاريجان آخر، ويصبح مدينًا لمتجر شركة أخرى.

وكان هناك هوبيانيش الصربي وهيرنانديز المكسيكي، اللذان كانت تنطبق عليهما الأمور نفسها، إلا أن أحدهما لديه أربعة أطفال والآخر لديه ستة. أما بيل واكوب، فلم تكن له إلا زوجة … وقد مات أطفالهما، هذا من فضل السماء عليهما، كما قال. لم يبدُ

أنه قد تأثر كثيرًا بتوسلات جيم مويلان، وقد كان مفلسًا، وينوي السفرَ وشقَّ طريقه إلى الشرق عائدًا إلى إنجلترا. قالوا إن هذا بلدٌ حرٌّ! وأقسم إنه إن حكى ما حدث له، فلن يُصدقه عامل منجم إنجليزي واحد!

أعطى هال هؤلاء الرجال اسمه الحقيقي وعنوانه، وطلب منهم التعهد بتطمينه عليهم. قال إنه سيساعدهم بعض الشيء؛ وكان بينه وبين نفسه يفكر في مقدار ما يجب عليه فعله. ما حجم الدور الذي يمكن أن يلعبه في تخفيف جوعهم، قبل أن يتمكَّن من الاستمتاع بوجباته في نادٍ مُجهَّز جيدًا؟ أي فيلسوف يمكنه أن يحلَّ هذه المعضلة … أن يخبره بمدى ما يجب أن يقدمه للتخفيف من جوعهم الذي رآه بنفسه، مقارنة بما يراه في الشوارع، وما يقرأ عنه في تقارير الحكومة من ارتفاع تكاليف المعيشة. إلى أي مدًى يحقُّ له أن يُغمض عينَيه في أثناء سيره في الشوارع متجهًا إلى ناديه؟ إلى أي مدًى يحقُّ له أن يتجنَّب قراءة تقارير الحكومة قبل أن يخرج لحفلات العشاء والرقص مع خطيبته؟ مشكلات كتلك قد أهمل حلَّها أساتذة الرياضيات في الجامعات، والأكاديميون الحكماء، ورجال الدين في الكنائس، لقد فشِلوا كذلك في التوصل إلى صيغٍ للحل، بينما حاول هال التوصُّل إليها من خلال حساباته العقلية البسيطة، ولم يجد نتائجَ مُرضِية.

الفصل السابع والعشرون

أراد هال اغتنام فرصة للتحدث مع ماري بيرك؛ لم يكن قد خاضَ معها حديثًا خاصًّا منذ لقائها بجيسي آرثر، والآن ينوي الرحيل لوقتٍ طويل. أراد أن يعرف خطط ماري للمستقبل … والأهم من ذلك … كيف كان شعورها؟ إن استطاع انتشال هذه الفتاة من اليأس، فلن تكون دورتُه الصيفية في علم الاجتماع التطبيقي قد باءت بالفشل الذريع!

طلب منها أن تذهب معه لتوديع جون إدستروم، الذي لم يكن قد رآه منذ فراقهما المفاجئ في منزل ماكيلار، عندما سارع هال إلى قطار بيرسي هاريجان. أوضح هال في الردهة مهمته إلى أخيه الذي كان في انتظاره، والذي لم يعلق، ولكنه فقط قال إنه سيتبعه، إذا لم يكن لدى هال أي اعتراض. لم يكن مهتمًّا بالتعرف على جان دارك الأيرلندية، ولم يكن ليقترب بما يكفي للتدخل في محادثة هال مع السيدة، لكنه أراد أن يفعل ما في وسعه لحماية أخيه. هكذا انطلق الموكب في ضوء القمر … أولًا هال وماري، ثم إدوارد، ثم رفيق إدوارد على مائدة العشاء، «بائع الخردوات المتجوِّل»!

كان هال مُحرَجًا في بداية حديثه الأخير مع ماري الذي هو بمنزلة وداعٍ لها. لم تكن لديه فكرة عن شعورها تجاهه، وقد اعترف شاعرًا بالذنب لخوفه من معرفة شعورها! اعتقد أنه من الأفضل أن يكون مُبتهِجًا، فبدأ يخبرها عن حسن تصرفها في أثناء الإضراب. لكنها لم ترد على كلامه، وفي النهاية أدرك أن بعض الأفكار غير المعلَنة كانت تُثقل كاهلها.

شرعت في الحديث فجأة، قائلة: «هناك شيء يجب أن أقوله لك! قبل بضعة أيام كنت أعرف كيف أريد أن أقول ذلك، لكنني الآن لا أعرف.»

ضحك قائلًا: «حسنًا، قولي ذلك كما كنتِ تريدين قولَه.»

«لا؛ لقد كان الأمر مريرًا … وأنا الآن لا حول لي ولا قوةَ أمامك.»

قال هال وهو لا يزال يضحك: «لا أريدُكِ أن تشعُري بالمرارة، ولكنني أنا مَن أصبح لا حول له ولا قوة أمامكِ. فلم أُحقق أي شيء، أنتِ تعرفين ذلك.»

«لقد فعلتَ كل ما في وُسعك ... وأكثر مما فعلته بقيتُنا. أريدك أن تعرف أنني لن أنسى ذلك أبدًا. ولكنني أريدك أن تسمع الشيء الآخر أيضًا!»

واصلت السير وهي تنظر أمامها، وتثني يدَيها في توترٍ. قال، وهو لا يزال يحاول الحفاظ على نبرة صوتٍ مبهجة: «حسنًا، ما الأمر؟»

«هل تتذكر ذلك اليوم بعد الانفجار مباشرة؟ هل تتذكر ما قلتُه عن ... عن الذهاب بعيدًا معك؟ أنا أتراجع عن هذا الكلام.»

قال بسرعة: «نعم، بالطبع! لقد كنتِ مُشتَّتة الانتباه يا ماري ... لم تكوني تدركين ما تقولينه.»

«لا، لا! ليس الأمر كذلك! لكنني غيرتُ رأيي؛ فلا أنوي أن أُلقيَ بنفسي بعيدًا.»

قال: «لقد أخبرتُكِ أنكِ سترَين الأمر على هذا النحو. لا يوجد رجلٌ يستحق كل هذا العناء.»

قالت: «آه يا فتى! هذا لسان حالك بكلماتك اللطيفة ... ولكنني أُفضِّل أن تعرف الحقيقة. عندما رأيتُ الفتاة الأخرى، كرِهتُها!»

سارا مسافة قصيرة في صمتٍ. أدرك هال جيدًا صعوبة الأمر. قال بلُطفٍ: «لا أريد أن أكون مُتحذلِقًا يا ماري. لكنكِ ستُغيِّرين رأيكِ بشأن ذلك أيضًا. لن تكرهيها؛ بل ستشعرين بالأسف تجاهها.»

ضحكت ... ضحكة قاسية جافة. «أي نكتة هذه؟»

«أعلم ... قد يبدو الأمر كذلك. لكنكِ ستدركين الأمر يومًا ما. لديك شيء رائع للعيش والكفاح من أجله، بينما هي ...» تردد للحظة؛ لأنه لم يكن متأكدًا من اعتقاده الشخصي في الأمر ... «أمامها أشياء كثيرة لتتعلَّمها، وقد لا تتعلمها أبدًا. ستفوتها بعضُ الأشياء الجميلة.»

قالت ماري متجهمة: «أعرف أحد الأشياء الجميلة التي لا تنوي تفويتها. إنه السيد هال وارنر.» ثم بعد أن سارا مجددًا في صمتٍ: «أريدُكَ أن تفهمني، يا سيد وارنر ...»

قال مُتوسلًا: «آه، يا ماري! لا تُعامليني بهذه الطريقة! اسمي جو.»

قالت: «حسنًا، فليكن اسمك جو. فسيُذكِّرك بمغامرة جميلة ... عندما كنت عاملًا لبضعة أسابيع. حسنًا، هذا جزء مما عليَّ أن أقوله لك. لديَّ كبريائي، حتى لو كنت ابنة عامل منجم فقير؛ وقد عرفت مكاني في ذلك اليوم.»

سأل: «ماذا تقصدين؟»

«ألا تفهم؟ أصِدقًا؟»

قال: «نعم، صِدقًا.»

«أنت غبي فيما يخُص النساء، يا جو. لم ترَ ما فعلَتْه بي الفتاة! لقد كنتُ كالحشرة أمامها. لم تكُن متأكدة مما إذا كنت من النوع الذي يلدغ، لكنها لم تجازف ... تخلَّصت مني بكل سهولة.» وحركت ماري يدها، كما يفعل المرء عندما يتصدى لحشرة.

توسَّل هال، قائلًا: «آه، الآن! أنتِ لستِ عادلة!»

«أنا عادلة قدر الإمكان يا جو. لقد أخرجتُ نفسي من الأمر وفهمته تمامًا. أُدرك جيدًا ... أنه ليس خطأها، ربما ... إنها طبقتها الاجتماعية، أنتم جميعًا هكذا، حتى أفضل مَن فيكم، حتى أنت يا جو سميث!»

أجاب: «نعم، قال تيم رافيرتي ذلك.»

«لقد قال تيم الكثير ... ولكن جزءًا منه كان صحيحًا. تعتقد أنك أتيت إلى هنا وأصبحت واحدًا منا نحن العُمال. ولكن ألا يخبرك إحساسك بالفرق، كما لو أن هناك واديًا عرضه مليون ميل ... بين مخلوق فقير جاهل في معسكر للتعدين، وابنة رجل ثري، سيدة نبيلة؟ ستقول لي ألَّا أخجل من الفقر، ولكن هل وضعتَني من قبل بجانبها ... على كل مشاعر الصداقة الجميلة التي تشعر بها تجاه مَن هم أدنى منك؟ ألم تُظهر ذلك في منزل مينيتي؟»

«ولكن ألا ترين يا ماري ...» وبذل جهدًا ليضحك. «لقد اعتدتُ طاعة جيسي! لقد عرفتُها منذ وقت طويل قبل أن أعرفك.»

«آه، يا جو! لديك قلب طيب، وأسلوب لطيف في الكلام. لكن ألن يهمك أن تعرف الحقيقة؟ قلت إنك أتيت إلى هنا لمعرفة الحقيقة!»

وأجاب هال بصوتٍ منخفضٍ: «نعم»، ولم يقاطعها مرة أخرى.

الفصل الثامن والعشرون

انخفض صوت ماري، وفكر هال كم كان صوتها غنيًّا ودافئًا عندما تأثرت بشدة. وتابعت:

«لقد عشتُ طوال حياتي في معسكرات التعدين، يا جو سميث، ورأيتُ رجالًا يتعرضون للسرقة والضرب، ونساءً يبكين، وأطفالًا جوعى. رأيتُ الشركة، بهيئة وحوش ضارية ضخمة تلتهمهم. لكنني لم أعرف أبدًا السبب، أو المغزى من ذلك ... حتى ذلك اليوم، هناك في منزل عائلة مينيتي. لقد قرأت عن السيدات النبيلات في الكُتُب، كما تعلم، لكني لم أتحدث مع إحداهن قطُّ، لم أضطر إلى تقبُّل إحداهن قطُّ، كما يمكنك القول. ولكن هناك حدث ذلك ... وفجأة بدا أنني أعرف أين تذهب الأموال التي يجلبها عمال المناجم بعرقهم. عرفت لماذا كان الناس يسرقوننا ويطحنون حياتنا ... من أجل السيدات الجميلات مثلها، لإبقائهن لامعات وناعمات للغاية! لم يكن ليصبح الأمر بهذا السوء لو لم تكن قد أتت في ذلك الوقت، بينما كان جميع هؤلاء الرجال والأولاد يموتون في حُفر المناجم ... من أجل تلك البشرة البيضاء الناعمة، وتلك الأيدي البيضاء الناعمة، وكل تلك الأشياء الحريرية التي كانت تكتنفها. يا إلهي، يا جو ... أتعرف كيف بدت لي؟ مثل قطة ناعمة ملساء التهمت للتوِّ جحرًا كاملًا مليئًا بصغار الفئران، التي لا يزال دمها يلطخ خدَيها.»

توقفت ماري ملتقطةً أنفاسها بصعوبة. والتزم هال الصمت، وتابعت مجددًا: «لقد أدركت الأمر بنفسي يا جو! لا أريدُكَ أن تعتقد فيَّ شيئًا أفضل مما أنا عليه بالفعل، وقد سألت نفسي هذا السؤال ... هل تكرهينها إلى هذا الحد الفظيع بسبب ما حدث للرجال في المناجم؟ أم بسبب الرجل الوحيد الذي تُريدينه، وحصلت هي عليه؟ وقد عرفت الجواب عن ذلك! ولكنني سألت نفسي بعد ذلك سؤالًا آخر ... هل ستكونين مثلها لو استطعتِ؟ هل ستفعلين ما تفعله الآن ... هل ستتحمَّل رُوحُك ذلك؟ وبما أن الرب يسمعني يا جو،

فالحق أقول لك … لم أكن لأفعل ذلك! كلَّا، لم أكن لأفعل ذلك بدافع الحب لأي رجلٍ مشى على هذه الأرض على الإطلاق!»

كانت قد رفعت قبضتها المشدودة وهي تتحدث. وتركتها تسقط مرة أخرى، وسارت بخطواتٍ واسعة دون أن تنظر إليه. «قد تحاول ألف سنة، يا جو، ولا تدرك الشعور الذي انتابني هناك في منزل مينيتي. العار الذي انطوى عليه الأمر … ليس بسبب ما فعلَتْه بي، ولكن بسبب ما جعلَتْني أبدو عليه أمام نفسي! أنا، ابنة عامل منجم عجوز مخمور، وهي … لا أعرف مَن هو والدها، لكنها أميرة من نوعٍ ما، وهي تعرف ذلك. وذلك هو ما يُهِمُّ، يا جو! ليس أنها تمتلك الكثيرَ من المال، والكثيرَ من الأشياء الجميلة، أو لأنها تعرف كيف تتحدث، وأنا لا أعرف، وأن صوتها حُلو، وصوتي قبيح، عندما أغضب كما هو الحال الآن. لا … بل لأنها شديدة الثقة بنفسها! هذه هي الكلمة التي وجدتُها مناسبة، إنها واثقة … واثقة … واثقة! لديها الأشياء الجميلة، لطالما كانت تمتلكها، ولها الحق في أن تمتلكها! وليس لي الحق في شيء إلا المتاعب، يُطاردني البؤس والخوف طوال اليوم، لقد فقدتُ حتى السقف الذي يُظلُّني! جو، أنت تعلم أنني أتمتع بشيء من رباطة الجأش … ليس من السهل أن أُهزَم، ولكن تبيَّن لي المكان الذي أنتمي إليه، خرجت واختبأت ودفنت وجهي في الوحل من شدة غضبي الكريه! قلت لنفسي: هذا صحيح! هناك شيء فيها أفضل مني! إنها مخلوق أرقى نوعًا ما. انظر إلى هاتَين اليدَين!» مَدتهما بإيماءة محمومة سريعة. «ولذا، فإن لديها الحق في الظفر بالرجل الذي تحبه، وأنا حمقاء لأنني رفعت عيني إليه! يجب أن أراه يرحل بعيدًا، وأزحف عائدةً إلى كوخي القديم الذي تتسرَّب من سقفه مياه الأمطار! أجل، تلك هي الحقيقة! وعندما أُخبر الرجل بذلك، ماذا تظن أنه يقول لي؟ عجبًا، يقول لي بلطفٍ وطيبة إنني يجب أن أشعر بالأسف تجاهها! يا إلهي! هل سمعت بشيء كهذا من قبل؟»

ساد صمتٌ طويل. لم يكن في إمكان هال أن يقول أي شيء حينئذٍ حتى لو أراد ذلك. فقد كان يعلم أن هذا هو ما جاء للبحث عنه! كانت هذه هي الحقيقة العارية للحرب الطبقية!

اختتمت ماري كلامها قائلة، بيَدَين مضمومتَين ونبرة تتناسب وحال يديها: «الآن، لقد نأيتُ بنفسي عن هذا. لست أَمَة، لديَّ الحق في الحياة كأي سيدة نبيلة. أعلم أنني لن أحظى به أبدًا، بالطبع، لن أرتدي ملابس جيدة أبدًا، ولن أعيش في منزلٍ لائقٍ، ولن أكون

مع الرجل الذي أريده، لكنني سأعرف أنني فعلت شيئًا للمساعدة في تحرير العُمال من العار الذي تعرضوا له. وهذا ما فعله الإضراب لي يا جو! لقد أنار لي الطريق. لقد هُزمنا هذه المرة، لكن ذلك لم يؤثر بالقدر الذي قد تعتقده. سأخوض المزيدَ من الإضرابات قبل أن أكُفَّ عن الكفاح، ولن تفشل جميعها!»

كانت تعتمل في داخله معركة من المشاعر المتضاربة. كانت رؤيته لها حقيقية بالفعل؛ كانت ستخوض المزيد من الإضرابات! وكان سعيدًا وفخورًا بذلك، ولكنه تذكَّر أنها هي، الفتاة، ستخوض الحرب المريرة، بينما هو، الرجل، سيكون في تلك الأثناء يتناول شرائح لحم البقر المشوي في النادي!

قال: «ماري، إنني أخجل من نفسي ...»

«هذا ليس صحيحًا، يا جو! ليس لديك ما يدعو إلى الخجل. لم تختر مكان مولدك ...»

«ربما هذا صحيح يا ماري. ولكن عندما يعلم المرء أنه لم يدفع قطُّ مقابل الأشياء التي استمتع بها طوال حياته، فبالتأكيد أقل ما يمكنه فعله هو أن يشعر بالخجل. أتمنى أن تُحاولي ألا تكرهيني كما تكرهين الآخرين.»

«لم أكرهْكَ قطُّ يا جو! ولا لحظة واحدة! أقول لك بصدقٍ وأمانة إن حُبي لك مثلما كان دائمًا. أستطيع أن أقول ذلك؛ لأنك لم تعُد لي الآن؛ لقد رأيت الفتاة الأخرى، وأعلم أنني لن أُرضِيَك أبدًا. لا أعرف ما إذا كان ينبغي لي أن أقول ذلك، لكنني أعتقد أيضًا أنها لن تُرضيَك تمام الرضا. لن تكون سعيدًا في كلتا الحالتَين ... فليُساعدْكَ الرب!»

بهذا الكلام الأخير، توغلت الفتاة بعُمقٍ في أغوار رُوحه، بعمقٍ شديدٍ إلى درجة أن هال لم يمتلك الثقة للإجابة. كانا يمرَّان بمصباحٍ من مصابيح الإنارة في الشارع، ونظرت إليه للمرة الأولى منذ بدآ السير معًا، ورأت الحرج على وجهه. ظهرت فجأة نبرةٌ حنون في صوتها. قالت: «جو، تبدو في حالة سيئة. من الجيد أنك ستبتعد عن هذا المكان!»

حاول أن يبتسم، لكن جهده كان ضعيفًا.

تابعت قائلة: «جو، لقد طلبتَ مني أن أكون صديقتَك. حسنًا، سأكون كذلك!» ومدَّت يدها الكبيرة الخشنة.

فأخذها. وقال بصوتٍ مرتعشٍ: «لن ينسى أحدُنا الآخر يا ماري.»

صاحت: «بالطبع يا فتى! سنُنظم إضرابًا آخر في يومٍ من الأيام، تمامًا كما فعلنا في نورث فالي!»

ضغط هال على يدها الكبيرة، ولكنه عندما تذكر فجأة أن أخاه كان يتبعهما، لم يقل جميع الأشياء الجميلة التي كانت في ذهنه. وصفَ نفسه بالثائر، ولكنه لم يكن ثائرًا بما يكفي ليعبِّر عن مشاعره أمام إدوارد!

الفصل التاسع والعشرون

وصلا إلى المنزل الذي كان يقيم فيه جون إدستروم. فتحت زوجة العامل الباب لهما. وردًّا على سؤال هال، قالت: «إن حال الرجل العجوز سيئ للغاية.»

«ما خَطبُه؟»

«ألم تعلم أنه أصيب؟»

«لا، كيف؟»

«لقد ضربوه يا سيدي. كسروا ذراعه، وكادوا يحطمون رأسه.»

صاح هال وماري فيما يُشبه الجوقة: «مَن فعل ذلك؟ متى؟»

«لا نعرف مَن فعل ذلك. كان ذلك قبل أربع ليالٍ.»

أدرك هال أنه لا بد أن هذا قد حدث في أثناء هروبه من منزل ماكيلار. وسألها: «هل أحضرتم له طبيبًا؟»

«نعم يا سيدي، لكننا لا نستطيع أن نفعل الكثير؛ لأن زوجي عاطل عن العمل، وعليَّ أن أعتني بالأطفال والنزلاء.»

ركض هال وماري إلى الطابق العلوي. كان صديقهما العجوز مُستلقيًا في الظلام، لكنه تعرَّف على صوتَيهما ورحَّب بهما بصيحة واهنة. أحضرت المرأة مصباحًا، فرأياه مُستلقيًا على ظهره، ورأسه معصوبة بضمادات، وذراعه ملفوفة بالجبائر. لقد بدا في حالة شديدة السوء، وعيناه العجوزتان اللطيفتان غائرتان ومُنهَكتان، ووجهه ... تذكر هال ما كان جيف كوتون يدعوه به، «ذلك الواعظ العجوز الشاحب الوجه!»

عرفوا قصة ما حدث في أثناء رحلة هال إلى قطار بيرسي. صرخ إدستروم مُحذِّرًا الهاربين، وانطلق ليركض خلفهم؛ وعندئذٍ مرَّ به أحد حراس المنجم، وضربه على عينه فأسقطه أرضًا. اصطدم رأسه بالرصيف، وظل هناك فاقدًا الوعي لعدة ساعات. وعندما

صادفه أحدهم أخيرًا واستدعى شرطيًّا، ففتَّشوا جيوبه، ووجدوا عنوان هذا المكان الذي احتفظ به مكتوبًا في قصاصة من الورق. كان هذا كل ما حدث … باستثناء أن إدستروم امتنع عن أن يُرسل إلى ماكيلار طلبًا للمساعدة؛ لأنه كان متأكدًا من أنهم جميعًا يعملون على فتح المنجم، ولم يشعر أن له الحق في إزعاجهم بمشكلاته.

استمع هال إلى كلام الرجل العجوز الواهن، ثم عادت إليه موجة من الغضب ولَّدتها لديه تجربته في نورث فالي. ربما كان الأمر غبيًّا؛ لأن ضرب رجل عجوز يفتعل المشكلات كان نوعًا ما مهمة بسيطة من مَهام حراس المناجم. ولكن بالنسبة إلى هال، بدا هذا الأمر، من بين كل الاعتداءات التي رآها هو، أكثر ما يميز تجاهل الشركة المطلق لكل ما هو أفضل في الحياة. هذا الرجل العجوز الذي كان لطيفًا للغاية، وصبورًا للغاية، والذي عانى كثيرًا، ولم يتعلم أن يَكره أحدًا، والذي حافظ على إيمانه نقِيًّا! ماذا كان إيمانه يعني لبلطجية الشركة العامَّة للوقود؟ ما الذي نفعته به فلسفته، وورعه، وآماله للبشرية؟ لقد سدَّدوا إليه ضربة في أثناء مرورهم به، وتركوه مُلقًى … حيًّا كان أو ميتًا، فقد كان الأمران سواء.

لقد حصل هال على بعض الرضا من مغامرته الصغيرة في زي الأرملة، وبعض آخر من نصر ماري الشخصي، ولكن هناك، عندما استمع إلى قصة العجوز الهامس، مات رضاه واندثر. أدرك مرة أخرى الحقيقة المُرة لتجربته الصيفية، وهي أنها باءت بالهزيمة. هزيمة نكراء ومطلَقة! لقد تسبَّب في إزعاجٍ مؤقتٍ لرؤساء العمل، لكن الأمر لم يكن ليستغرق ساعات ليدركوا أنه قد قدَّم لهم خدمة حقيقية عندما ألغى لهم الإضراب. سيُديرون عجلة الصناعة من جديدٍ، وسيكون حال العمال تمامًا كما كان قبل أن يصبح جو سميث، مسئول الإسطبل والمساعد، بينهم. ماذا عن كل ذلك الحديث الذي دار عن التضامن، عن الأمل في المستقبل، ما الذي يمكن أن يصل إليه على المدى الطويل، الدوران اليومي لعجلات الصناعة؟ سينال عمال نورث فالي الحق نفسه الذي طالما نالوه … الحق في أن يكونوا عبيدًا، وإذا لم يهتموا لذلك، فسينالون الحق في أن يكونوا شُهَداء!

جلست ماري ممسكة بيد الرجل العجوز، وهمست له بكلمات تعاطف دافئة، بينما نهض هال وراح يسير في العلِّية الصغيرة وقد استشاط غضبًا.

قرر فجأة أنه لن يعود إلى ويسترن سيتي؛ سيبقى هنا، وسيُحضر محاميًا أمينًا، ويخطط لمعاقبة الرجال الذين ارتكبوا هذا الانتهاك. سيحتكم إلى القانون إلى أقصى درجة؛ فإذا لزم الأمر، سيبدأ معركة سياسية، كي يضع حدًّا لسيطرة شركات الفحم في هذا المجتمع. سيجد شخصًا يكتب له هذه الشروط، وسيجمع الأموال وينشر صحيفة للتعريف

بهم! قبل أن تأكل نيران غضبه نفسها، رأى نفسه يترشح لمنصب الحاكم ويطيح بمنظومة الحزب الجمهوري ... كل ذلك بسبب محقق مجهول من شركة الفحم ضرب عاملَ منجم عجوزًا شاحب الوجه، وصدمه بالرصيف في الشارع، وكسر ذراعه!

الفصل الثلاثون

في النهاية، كان على هال بالطبع أن يلجأ إلى الأمور العملية. جلس بجوار السرير وأخبر الرجل العجوز بلباقة أن أخاه قد أتى لرؤيته وإعطائه بعض المال. هذا الأخ كان لديه الكثير من المال، الذي يُتيح لهم نقل إدستروم إلى المستشفى، أو كان في إمكان ماري أن تبقى هنا بالقرب منه وتعتني به، إذا فضَّل ذلك. توجَّها إلى صاحبة المنزل، التي كانت واقفة في المدخل، كان لديها ثلاثة نُزلاء في منزلها الصغير، على ما بدا، ولكن إذا تمكَّنت ماري من مشاركة السرير مع طفلَيها، فقد يُدَبَّر الأمر. على الرغم من احتجاج هال، قبلت ماري هذا العرض، وقد أدرك ما جال في ذهنها ... ستأخذ بعضًا من أمواله لسد حاجة العجوز إدستروم إليه، لكنها ستأخذ منه بأقل قدرٍ ممكن.

لم يكن جون إدستروم يعلم بالطبع شيئًا عن الأحداث منذ إصابته، ومن ثَم أخبره هال بالقصة باختصار ... ولكن دون ذكر التحوُّل الذي حدث لمساعِد عامل المنجم. أخبره بالدور الذي لعبته ماري في الإضراب، وفي محاولة الترويح عن الرجل العجوز المسكين، أخبره كيف رآها تمتطي صهوة حصان أبيض كبياض الثلج، وترتدي رداءً أبيض ناعمًا ولامعًا، كأنها جان دارك، أو قائدة لموكب اقتراع.

قالت ماري: «بالطبع، فهو يَلفت الانتباه دائمًا إلى هذا الفستان القديم!»

نظر إليها هال، فرآها ترتدي الفستان القطني الأزرق القديم نفسه. قال: «ثمة شيء غامض بشأن هذا الفستان. إنه أحد الفساتين التي تقرئين عنها في القصص الخيالية، التي تُرقِّع نفسها دائمًا، وتحتفظ بنفسها جديدة ومُستوية. لا يحتاج المرء إلا إلى ثوبٍ واحدٍ كهذا!»

أجابت: «بالطبع يا فتى. ليست هناك جِنيَّات في معسكرات الفحم ... إلا لو كنت أنا الجنية، التي تغسل ثوبها في الليل وتُجفِّفه على الموقد وتكويه في صباح اليوم التالي.»

قالت هذا ببهجة لا تتزعزع، ولكن حتى عامل المنجم العجوز، الذي كان مُستلقيًا في آلامه على تخته، أدرك مأساة ألا يكون لفتاة شابة إلا فستان واحد قديم وهي في العمر الذي تتزوج فيه الفتيات. نظر إلى الفتى والفتاة الشابَّين، ورأى اهتمامهما الواضح المتبادَل، وكعادة العجائز، كان على استعدادٍ للمساعدة في التوفيق بينهما. غامر قائلًا في وهنٍ: «قد تحتاج إلى بعض أزهار البرتقال.»

ضحكت ماري، وهي لا تزال ثابتة، وقالت: «مُوافقة!»

قال هال بشجاعة متسرعة: «بالطبع، هي نفسها زهرة! وردة في معسكرٍ للتعدين ... وقد تنازع الشعراء من أجلها في قصائدهم. أحدهما يريدك أن تتركها في ساقها، وآخر يريدك أن تجمع براعم الورد بينما لا يزال ذلك ممكنًا ... فالوقت يمُر!»

قالت ماري: «الأمر مختلط عليك. منذ قليل كنت أمتطي حصانًا أبيض.»

قال إدستروم العجوز: «أتذكَّر أنكِ كنتِ نملة في وقتٍ ليس ببعيدٍ، يا ماري.»

أصبح وجهها جادًّا. كان المزاح بشأن مأساتها الشخصية أمرًا، بينما المزاح بشأن الإضراب أمرٌ آخر. «نعم، أتذكر ذلك. قلتَ إنني سأبقى في الطابور! لقد كنتَ أكثر حكمة مني يا سيد إدستروم.»

«هذا أحد الأشياء التي يكتسبها المرء مع التقدم في السن يا ماري.» حرَّك يده العجوز المطوية نحوها. وسألها: «هل ستستمرين الآن؟ هل أنت الآن نقابية يا ماري؟»

أجابت مسرعةً وعيناها الرماديتان تلمعان: «أنا كذلك بالفعل!»

قال: «ثمة قولٌ مأثور ... مَن يثور مرة يثور دائمًا. اعثُري على طريقة تتلقَّين بها بعض التعليم يا ماري، وعندما يحين وقت الإضراب الكبير، ستُصبحين أحد مَن يتطلع إليهم عُمال المناجم. سأكون هنا، أعلم ذلك ... يجب أن يأخذ الشباب مكاني.»

أجابت: «سأؤدي دوري.» كان صوتها منخفضًا؛ كان الأمر كما لو أن الرجل العجوز قد باركه.

كانت المرأة قد نزلت إلى الطابق السفلي لتعتني بأطفالها، وقد عادت الآن لتقول إنه كان هناك رجلٌ نبيلٌ عند الباب، يريد أن يعرف متى يأتي شقيقه. تذكر هال فجأة ... لقد كان إدوارد يذرع الأرض جيئة وذهابًا في الخارج، ولم يكن معه أحد إلا «بائع الخردوات المتجوِّل»! كان عزمُ الأخ الأصغر على البقاء في بيدرو قد بدأ بالفعل يضعُف نوعًا ما، والآن ضعُفَ أكثر؛ فقد أدرك أن الحياة مُعقَّدة، وأن الواجبات تتعارض! تعهَّد لعامل المنجم العجوز مرة أخرى أنه لن يعاني العَوز، ثم ودَّعه وداعًا مؤقتًا.

انطلق، وذهبت ماري حتى رأس الدرج معه. أمسك بيد الفتاة الكبيرة الخشنة بين يديه ... دون أن يراهما أحدٌ هذه المرة. وقال: «أريدك أن تعلمي يا ماري أن لا شيءَ سيُنسيني إياكِ، أو سيُنسيني عُمال المناجم.»

صاحت: «آه، يا جو! لا تدعْهُم يُبعدونك عنا! نحن في حاجة ماسة إليك!»

أجاب: «سأعود إلى المنزل بعض الوقت، ولكن يمكنك التأكد أنه بغض النظر عما يحدث في حياتي، فسأُقاتل من أجل العُمال. عندما يأتي الإضراب الكبير، كما نعلم أنه قادم في بلد الفحم هذا، فسأكون هنا لأؤدي دوري فيه.»

قالت وهي تنظر إلى عينَيه بشجاعة: «بالتأكيد يا فتى، ووداعًا لك يا جو سميث.» لم ترمش عيناها، لكن هال لاحظ رعشة في صوتها، ووجد نفسه مدفوعًا ليأخذها بين ذراعَيه. كان الأمر محيِّرًا للغاية. كان يعلم أنه أحبَّ جيسي آرثر، وتذكر سؤالًا طرحته عليه ماري ذات مرة ... هل يستطيع أن يُحبَّ فتاتَين في وقتٍ واحدٍ؟ لم يكن ذلك متوافقًا مع أي مبادئ أخلاقية نشأ عليها، ولكن يبدو أنه استطاع ذلك!

الفصل الحادي والثلاثون

خرج إلى الشارع، حيث كان شقيقه يسير غاضبًا ذهابًا وإيابًا. كان «بائع الخردوات المتجوِّل» قد بذل جهدًا مرة أخرى ليخوض معه محادثة، فقِيل له أن يذهب إلى الجحيم ... لا شيء أقل من ذلك!

سأل إدوارد وهو يُنفِّس عن غضبه في هال: «حسنًا، هل انتهيت الآن؟»

أجاب الآخر: «نعم. أفترض ذلك.» أدركَ أن إدوارد لم يكن ليهتمَّ بشأن ذراع إدستروم المكسورة.

«إذن، بالله عليك، ارتدِ بعض الملابس ودعنا نتناول بعض الطعام.»

قال هال: «حسنًا.» لكن إجابته كانت فاترة، ونظر الآخر إليه بحدة. حتى في ضوء القمر، كان في إمكان إدوارد أن يرى الخطوط التي بزغت في وجه أخيه الأصغر، والهالات حول عينَيه. أدرك للمرة الأولى إلى أي مدًى أثرت هذه التجارب في رُوح الصبي. صاح بشعورٍ مفاجئ: «يا لكَ من فتًى مسكين!» لكن هال لم يُجِب؛ لم يكن يريد التعاطف، لم يكن يريد أي شيء!

قام إدوارد بلفتة يائسة. وقال: «يعلم الله أنني لا أعرف ما الذي يمكنني أن أفعله من أجلك!»

عادا إلى الفندق، وكان إدوارد يبحث طوال الطريق عن موضوعٍ للحديث لا يسبب ضررًا لهال. ذكر أنه توقع أن تكون المتاجر مغلقة، فاشترى ملابس لأخيه. وأضاف بجدية أنه لم تكن ثمة حاجة إلى أن يشكره؛ فلم يكن ينوي العودة إلى ويسترن سيتي مع مُتشَرِّد.

ومن ثَم اغتسل، وكان أول غُسل فعلي يأخُذه منذ فترة طويلة. (لن تتمكن السيدات مرة أخرى من أن يقُلن في حضور هال وارنر إن الفقراء يمكنهم على الأقل الحفاظ على نظافتهم!) حلق ذقنه، وقص أظافره، ومشَّط شعره، ولبس زي رجل نبيل. ورغمًا عنه،

وجد أنه قد استعاد بعضًا من بهجته. إحساس غريب ورائع أن يعود المرء لارتداء ملابس الرجل النبيل. تذكر مقولة الزنجي العجوز، الذي يُحِب أن تصطدم إصبع قدمه بشيء؛ نظرًا إلى الارتياح الذي يشعر به عندما يزول الألم!

خرجا للبحث عن مطعمٍ، وفي الطريق مرَّ إدوارد بمغامرة أخيرة. رأى هال عامل منجم عجوز يمرُّ بجانبه، وتوقف صائحًا: «مايك!» نسي على الفور أنه رجل نبيل، ونسي عامل المنجم العجوزُ ذلك أيضًا. حدق لحظة في حيرة، ثم اندفع نحو هال، وأحاطه بعناقٍ مثل دُبٍّ جَبَلي أشيَب.

صاح: «رفيقي! رفيقي!» وأعطى هال ضربة قوية على ظهره. «بحق يهوذا!» وضربه بيده الأخرى. «أنت! أيها الشقي العجوز!» وقبَّله بحرارة!

ولكن في خضم هذه النشوة، خطر له أنه كان ثمة خطبٌ ما بشأن صديقه. تراجع إلى الوراء وهو يحدق. وقال: «لقد حصلتَ على ملابس جيدة! لقد أصبحت ثريًّا، أليس كذلك؟»

من الواضح أن الرجل العجوز لم يسمع أي شائعة بخصوص سر هال. قال هال: «لقد قمت بعملٍ جيد جدًّا.»

«مهلًا، ماذا تعمل؟»

«كنت أعمل في إضراب في نورث فالي.»

«ما هذا؟ هل يجني المرء المال من العمل في الإضرابات؟»

ضحك هال، لكنه لم يشرح. «وأنت ماذا كنت تعمل؟»

«أعمل في إضراب أيضًا ... إضراب بمفردي.»

«أليس لديك عمل؟»

«أعمل يومَين في السكة الحديدية. أزيل القضبان هناك. يدفعون لي دولارَين وخمسة وعشرين سنتًا في اليوم. ولا يوجد عمل آخر.»

«هل جرَّبت العودة للعمل في المناجم؟»

«ماذا؟ أنا؟ إنهم يعرفونني جيدًا! لقد ذهبت إلى سان خوسيه. وقال لي رئيس العمال: «اخرج من هنا أيها العجوز المتذمِّر! لن تحصل على أي عمل آخر في هذه الناحية!»»

نظر هال إلى مايك، ورأى أن وجهه العجوز المُلطَّخ بالفحم أصبح هزيلًا وشاحبًا، ويناقض البهجة الواهنة في كلماته. قال: «سنذهب لتناول شيءٍ ما. ألن تأتي معنا؟»

قال مايك بلهفة: «بالطبع! لا آكل كثيرًا الآن.»

قدم له هال «السيد إدوارد وارنر»، الذي قال له: «كيف حالك؟» قبل بحذرٍ شديد مصافحة اليد ذات المخالب التي مدَّها إليه السلوفاكي العجوز، لكنه لم يستطع أن يخفي نظرة الانزعاج التي بدت على وجهه. صبره قد نفد تمامًا. أملَ في العثور على مطعمٍ لائقٍ، وتناوُل بعض الطعام الحقيقي، ولكن الآن، بالطبع، لم يستطع الاستمتاع بأي شيء، وهذا الغول العجوز أمامه.

دخلوا مطعمًا كان مفتوحًا طوال الليل، حيث طلب هال ومايك شطائر الجبن والحليب، وجلس إدوارد متعجبًا من قدرة أخيه على تناول مثل هذا الطعام. وفي هذه الأثناء، أخبر كلٌّ من الصديقَين الآخر بما جرى معه، وضرب مايك العجوز ركبته وصرخ فرحًا بمآثر هال. صاح: «أوه، أيها الرفيق!» ثم قال لإدوارد: «أليس رائعًا؟» وضرب إدوارد على كتفه. «بحق يهوذا، لا يمكنهم التغلب على رفيقي!»

كان هال قد شاهد مايك سيكوريا آخر مرة من نافذة سجنه في نورث فالي، عندما كان يوزع نُسَخًا من توقيع هال، وقبض عليه بود آدامز. ثم اقتاده حارس المنجم إلى سقيفة خلف محطة الطاقة، حيث وجد كوسر وكالوفتس، وهما زميلان آخران قُبِض عليهما في أثناء مساعدتهما في التوزيع.

حكى مايك تجربته بالتفصيل بإيماءاته المعتادة. قلت: «أنت يا سيد بود، إذا كنت ستُخرجني من الوادي، فأنا أريد الحصول على أغراضي.» فقال: «فلتذهب إلى الجحيم أنت وأغراضك.» ثم قلت: «يا سيد بود، أريد أن أحصل على أَجر الفترة التي عملت فيها.» فقال: «سأُعطيك حسابك جيدًا هنا!» وصفعني وطرحني أرضًا. ثم أمسك بي، فرفعني مرة أخرى وسحبني إلى الخارج، ورأيتُ سيارة كبيرة تنتظر، وقلت: «بحق يهوذا! سأستقل سيارة خاصة! وأنا العجوز الذي يبلغ من العمر سبعًا وخمسين، ولم أركب سيارة مطلقًا في حياتي. كنت أظن أنني سأموت ولن أركب سيارة أبدًا!» خرجنا من الوادي، ونظرت حولي ورأيت الجبال، وشعرت بريحٍ باردة لطيفة تُداعب وجهي، قلت: «أحسنت يا سيد بود، لن أنسى هذه السيارة أبدًا. لم أحظَ بوقتٍ ممتعٍ كهذا في أي يومٍ طوال حياتي.» فقال: «اخرس أيها العجوز الحقير!» ثم خرجنا إلى البراري، وصعدنا جبال بلاك هيلز، وتوقفوا وقالوا: «اخرجوا من هنا أيها الأوغاد.» وتركونا هناك وحدنا. ثم قالوا: «إن رجعتم مرة أخرى، فسنُمسك بكم ونمزقكم إربًا!» غادروا مسرعين، واضطُرِرنا إلى السير لسبع ساعات، نحن الرجال، قبل أن نعثر على أحد المنازل! ولكنني لم يزعجني ذلك، وطلبت

بعض الطعام، ثم حصلت على عملٍ في إصلاح خطوط السكة الحديدية، لم أنزعج إلا عندما خرجت من السجن، واعتقدت أنني ربما قد فقدت رفيقي ولن أراه مجددًا.»

هنا توقف الرجل العجوز، وهو يحدق بمودة إلى هال. وقال: «لقد كتبت لك رسالة وأرسلتها إلى نورث فالي، لكنني لم أتلقَّ ردًّا، واضطُرِرت إلى السير بطول السكة الحديدية بحثًا عنك.»

تساءل هال كيف مرَّ الأمر على الرجل؟ لم يرَ إلا الرعب في بلد الفحم هذا ... ولكن ها هو هنا، لم يكن سعيدًا تمامًا بتركه إياه! سيفتقد العجوز مايك سيكوريا، وقبلته الحارَّة، وعناقه الأشبه بعناق دب أشيَب!

استغلق على الرجل العجوز الكلام عندما وضع ورقة نقدية بقيمة عشرين دولارًا في يده. كما أعطاه عنوان إدستروم وماري، وملاحظةً إلى يوهان هارتمان، الذي قد يستخدمه للعمل بين السلوفاكيين الذين جاءوا إلى البلدة. أوضح هال أنه كان عليه العودة إلى ويسترن سيتي في تلك الليلة، لكنه لن ينسى أبدًا صديقه العجوز، وسيهتم بأن يحصل على وظيفة جيدة. كان يحاول البحث عن بعض الوظائف للرجل العجوز في ممتلكات والده. يا له من دب أشيب أليف!

حان وقت مغادرة القطار، واصطفَّ طابور طويل من عربات النوم المظلمة على رصيف المحطة. كان الوقت متأخرًا ... بعد منتصف الليل، ولكن العجوز مايك انتظر. شعر بالرهبة من هال الآن، بملابسه الجميلة والعشرين دولارًا التي أعطاها إياه، ولكنه تحت وطأة عواطفه عانقه عناقًا آخر وقبله مرة أخرى بنفس الحرارة. صاح: «وداعًا يا رفيقي! عُد مجددًا يا رفيقي! أنا لا أنسى رفيقي!» وعندما بدأ القطار في التحرك، لوَّح بقبعته الممزَّقة، وركض على طول الرصيف ليُلقي عليه نظرة أخيرة، ويودِّعه وداعًا أخيرًا. عندما ركب هال العربة، اغرورقت عيناه بالدموع.

تعقيب

عَلم المؤلف من تجاربِه السابقة أن الكثيرَ من الناس، الذين يقرءون رواية مثل رواية «مملكة الفحم»، يرغبون في معرفة ما إذا كانت تحكي عن واقعٍ حقيقي. ويكتبون له متسائلين عما إذا كان عليهم النظر إليها على هذا النحو، ويطلبون الأدلة ليتيقَّنوا، هم وغيرهم، من الأمر. ونظرًا إلى كونه قد ردَّ على آلاف من هذه الرسائل طوال حياته، فقد رأى أن من الفطنة أن يرُدَّ على بعضها مُقدَّمًا.

تُقدم رواية «مملكة الفحم» صورة لحياة العُمَّال في معسكرات العمل غير النقابية في عدة أجزاءٍ من أمريكا، وقد تجنَّب المؤلف ذكر اسم مكانٍ بعينه؛ لأن مثل هذه الأوضاع موجودة في مناطق متباعدة؛ مثل فرجينيا الغربية، وألاباما، وميشيجان، ومينيسوتا، وكولورادو. معظم تفاصيل الصورة التي رسمها مُجمَّعة في الولاية الأخيرة، التي زارها المؤلف في ثلاث مناسبات في أثناء «إضراب الفحم الكبير» في العامَين ١٩١٣ و١٩١٤، وفي أعقابه مباشرة. يُقدِّم الكتاب صورة حقيقية للأحوال والأحداث التي شاهدها في هذا الوقت. وغالبًا، جميع الشخصيات لأشخاص حقيقيين، وكل حادثة ذات طابعٍ اجتماعي لم تكن حادثة حقيقية فحسب، بل ومُتكررة أيضًا. الحياة التي تُصوِّرها رواية «مملكة الفحم» هي الحياة التي يعيشها اليوم مئات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال في «أرض الحرية» هذه.

يمكن للقارئ الذي يرغب في الحصول على أدلة أن يجدَ مُراده بسهولة. فلم يُجرَ هذا الكم من التحقيقات لإضرابٍ قطُّ إلا لإضراب الفحم في كولورادو. ومستنداتها التي في حوزة المؤلف لا يمكن أن تقل عن ثمانية ملايين كلمة، ويحوي الجزء الأكبر منها شهادة تحت القَسَم في ظل إشرافٍ حكومي. يوجد في البداية تقرير لجنة الكونجرس،

وهو وثيقة حكومية مكوَّنة من ثلاثة آلاف صفحة مُكدَّسة بالكلمات، التي تبلغ نحو مليونَي كلمة، وشهادات تُعادلها في عدد الكلمات مُدلًى بها أمام اللجنة الأمريكية للعَلاقات الصناعية، وهي أيضًا وثيقة حكومية، وتقرير خاص عن إضراب كولورادو، أُعِدَّ للجنة نفسها في سجلٍ من ١٨٩ صفحة، يدعم كل ادعاء في هذه القصة، وما يقرب من أربعمائة ألف كلمة من الشهادات المقدَّمة أمام لجنة عُيِّنَت بِناءً على اقتراح حاكم ولاية كولورادو، وتقرير أعدَّه القَس هنري إيه أتكينسون، الذي حقق في الإضراب بصفته مُمثِّلًا للمجلس الاتحادي لكنائس المسيح في أمريكا، ولجنة الخدمة الاجتماعية للكنائس الجماعية، وتقرير لتحقيقٍ مفصَّل أجرته ميليشيا ولاية كولورادو، ونشرات أصدرها كلا الطرفين في أثناء النزاع، والشهادات التي أُدلي بها في تحقيقات الطب الشرعي المختلفة، وأخيرًا، المقالات التي كتبها كُتَّاب مختلفون وهي موجودة في ملفات صحيفة «إيفريبوديز»، وصحيفة «ذا متروبوليتان»، وصحيفة «ذا سيرفي»، وصحيفة «هاربر ويكلي»، وصحيفة «كولير ويكلي»، وجميعها في أثناء عام ١٩١٤.

وقد أعدَّ المؤلف مجموعة من المقتطفات من هذه المصادر المتنوعة، التي اعتزم نشرها في هذا الكتاب، ولكن في أثناء وجود مخطوطة الرواية في أيدي الناشرين، ظهرت وثيقة واحدة يبدو أنها، لأهميتها وثِقَل سُلطتها، قد استَبعدت جميع الوثائق الأخرى. وصدر قرار المحكمة العليا لولاية كولورادو في القضية التي تضمنت عددًا من أهم المسائل التي أثيرت في رواية «مملكة الفحم». ليس من المعتاد أن يحالف الحظ كاتب رواية عن الحياة المعاصرة إلى درجة أن يرى أعلى محكمة في البلاد تؤكد صحة ما ذكره في عمله!

في انتخابات نوفمبر عام ١٩١٤، في مقاطعة هويرفانو، كولورادو، أُعيد انتخاب المرشح الجمهوري جيه بي فار لمنصب رئيس الشرطة، وهو شخص معروف في جميع أنحاء مناجم الفحم بلقب «ملك مقاطعة هويرفانو»، وقد فاز بأغلبية ٣٢٩ صوتًا. طعن منافسه، المرشح الديمقراطي، في الانتخابات بدعوى «سوء السلوك، والاحتيال، والفساد». حكمت محكمة المقاطعة لصالح فار، ونُظرت القضية للاستئناف أمام المحكمة العليا للولاية. في ٢١ يونيو عام ١٩١٦، بعد أن قضى فار كامل فترة ولايته تقريبًا، أصدرت المحكمة العليا قرارًا بإقالته هو وجميع المنتخَبين معه، وحُسم الأمر من جميع النواحي لصالح المستأنِفين.

كان قرار المحكمة طويلًا ... نحو عشرة آلاف كلمة، ولن يهتم القارئ بجوانبه القانونية المتخصصة. ويكفي إعادة نشر فقراته الأساسية. سيتعين على القارئ دراسة

هذه الفقرات دراسة مُتَأنِّية، آخذًا في اعتباره، ليس فقط الجريمة المحددة التي أدانتها المحكمة، ولكن أيضًا آثارها الواسعة النطاق. كانت جريمة لم يُسبَق لها مثيل إلى درجة جعلت قضاة المحكمة، وهم الرجال الذين اختيروا لمنصبهم لخبرتهم في تاريخ الجرائم، يقولون: «لا نجد مثيلًا لها في الاحتيال في الكتب، ويجب أن نسعى لتحقيق نص القانون ورُوحه في حكومة حُرة، ليكونا معيارَ الحكم على مثل هذا السلوك.» وتجدر الإشارة إلى أن هذه «الجريمة غير المسمَّاة» لم تكن ناجمة عن عاطفة، بل عن سياسة؛ فقد كانت جريمةً خُطِّط لها عمدًا ونفَّذتها شركات هادفة إلى الربح ذات قوة هائلة. وليتخيل القارئ نفسية الرجال ذوي الثروات الكبيرة الذين أمروا بهذه الجريمة ابتغاءَ الحفاظ على ثرواتهم وزيادتها، وليدرك موقف هؤلاء الرجال تجاه عمَّالهم العاجزين، وليسأل نفسه عما إذا كان هناك أي فعل صوَّرته رواية «مملكة الفحم» قد يمنع مثل هؤلاء من إصدار أوامرهم بمثل تلك الجرائم.

يستعرض قرار المحكمة في البداية الخطوط العريضة للقضية، مستدلًّا في معظمه بأقوال محامي المدعى عليه، فار؛ ومن ثَم، ولأغراضٍ عملية، يمكن اعتبار ما يلي شأنًا خاصًّا بشركات الفحم في ملكيتها: «حول آبار جميع المناجم تتجمَّع مقالب الفحم، ومكتب الإدارة، والمتاجر، والسقائف، والمباني الملحَقة، وبالقرب منها تتجمَّع، على مرمى حجر، أكواخ عمال المناجم المبنية على أرضٍ مملوكة لشركة التعدين. وجميع سكان المعسكر هم عمال في المنجم. لا توجد صناعة أخرى. هذا هو «المعسكر». يبدو أن الظروف نفسها كانت موجودة في «المعسكرات المغلقة» الثمانية كلها، وأن تلك الظروف تمثَّلت بوجه عام في أن أعضاء اتحاد عُمَّال المناجم الأمريكي، ومنظميهم النقابيين أو محرضيهم كانوا ممنوعين من دخول المعسكرات، ويبْعَدون قدر الإمكان، وتحقيقًا لهذه الغاية نُشر الحراس على الحدود. كان من بين المعسكرات الثمانية «المغلقة على نفسها» معسكر «والسِن»، الذي كان لا يزال، في وقت المحاكمة، محاطًا بسياجٍ وُضِع في بداية الإضراب في أكتوبر عام ١٩١٣، فضلًا عن معسكرَي «روس» و«كاميرون» المحاطَين بسورٍ جزئيًّا، واللذين لم يُحاطا بسورٍ كليًّا على الإطلاق. من المسلَّم به أن كل شخص يدخل هذه المعسكرات والضواحي كانت الشركات تلزمه بالحصول على تصاريح، ويقال إن هذا الأمر كان «ضروريًّا للصناعة».»

ثم تابعت المحكمة على النحو التالي:

«دخلت القوات الفيدرالية المنطقة في مايو عام ١٩١٤، وأجمع الشهود على عدم وقوع أي أعمال عنفٍ خطيرة بعد ذلك، وظلَّ الأمن مُستتبًّا حتى بدء الانتخابات وبعدها وحتى وقت هذه المحاكمة.

في ظل هذه الظروف، غيَّر مُفوِّضو مجلس المقاطعة في يوليو ١٩١٤ بعضَ الدوائر الانتخابية، بحيث يُشكِّل كلُّ معسكر من هذه المعسكرات دائرة انتخابية، مع استثناءٍ واحد، وهو عندما تضم المنطقة عددًا من المزارع؛ في هذه الحالة تُشكَّل هذه الدوائر بحيث تشمل الأسوار والأراضي المحيطة بكل معسكر، التي تكون محمية بالأسوار في بعض الحالات، وبالحراس المسلَّحين في جميعها. وهكذا وُضِعَت كل دائرة انتخابية بموجب هذا القانون غير المسبوق للمفوضين حصريًّا داخل الأراضي الخاصة بشركة من شركات الفحم وخضعت لسيطرتها الخاصة، ومن ثَم أصبح لهذه الشركات السلطة للإعلان — على نحوٍ استبدادي — عمَّن يجوز لهم أن يكونوا جزءًا من هذا الكيان السياسي للدولة، الذي تعمَّد مفوِّضو المقاطعة فرض سيطرتهم عليه بالكامل، ومَن لا يجوز لهم ذلك.

وبِناءً عليه، امتلكت شركات الفحم جميعَ الأراضي والمباني في الدوائر الانتخابية، التي تشكَّلت على هذا النحو، وخضعت لسيطرتها؛ وأصبح كلُّ شخصٍ مقيم في هذه الدوائر موظفًا في هذه الشركات الخاصة أو الشركات الحليفة لها، مع استثناءٍ وحيد، وهو أن كل قاضٍ أو كاتب أو موظف انتخابات، فيما عدا أصحاب الحانات، وشريك فار، هو موظف في شركات الفحم.

أُقيمت مقرات الاقتراع على أرض الشركات وفي مبانيها؛ وحُفظت قوائم التسجيل داخل المكاتب أو المباني الخاصة لتلك الشركات، واستُعمِلت وعومِلت معاملة الملكية الخاصة.

هكذا كانت دوائر الانتخابات العامة، وتحوَّلت آليات الانتخابات العامة إلى الهيمنة المطلَقة والسيطرة الإمبراطورية لشركات الفحم الخاصة، وأصبحت تستخدمها بشكلٍ مطلقٍ وخاصٍّ كما لو كانت مناجمها، ولأغراضها الخاصة، ولا يجوز لأي شخصٍ دخولها لأغراضٍ عامة أو خاصة إلا بإذن صريحٍ من هذه الشركات الخاصة.

يبدو من السجلات أن الشركات قد استخدمت هذا الحق في تحديد مَن يجوز له أن يدخل مثل هذه الدوائر الانتخابية المزعومة مع جميع الطبقات، من تجار أو حرفيين أو غير ذلك، وسواء أكانت أعمالهم عامة أو خاصة. يبدو في الواقع أنه حدث ذات مرة أن الحاكم والمساعد العام للولاية في أثناء وجودهما في مهمة رسمية قد مُنِعوا من دخول أحد هذه المعسكرات المغلَقة على نفسها.

وأنه في يوم الانتخابات، اضطُر المراقبون والمنافسون الديمقراطيون لدائرة منجم «والسن» الانتخابية، وكان أحدهما هو نيلي المرشَّح الديمقراطي لمنصب رئيس الشرطة؛

إلى جلب جنود فيدراليين، والالتجاء إلى حمايتهم ومرافقتهم إلى المنطقة وإلى صناديق الاقتراع، وأن هؤلاء الجنود ظلُّوا يحرسونهم في أثناء النهار ولجزءٍ من الليل ...

ولكن إذا كان هناك أي شكٍّ فيما يتعلق بوضع المعسكرات المغلقة والدوائر الانتخابية، واستبعاد مُمثِّلي الديمقراطيين من مناقشة قضايا حملتهم الانتخابية داخل الدوائر التي تضم تلك المعسكرات، فستُبدِّده تمامًا شهادة الشاهد وينزل لصالح المطعون في انتخابه (فار). فقد شهد بأنه كان مقيمًا في بويبلو، وكان مديرًا لشركة كولورادو للوقود والحديد، وأن معسكرات روس وليستر وإيديال وكاميرون ووالسن وبيكتو وماكنالي هي المعسكرات الخاضعة لولايته. وأنه كان المسئول العام عن المعسكرات، وأنه لا يوجد مسئولٌ للشركة في كولورادو أعلى منه في هذا الصدد باستثناء الرئيس، وأن المشرف، وغيره من الموظفين، تحت إشرافه، وأن القوات الفيدرالية جاءت إلى المكان في الأول من مايو عام ١٩١٤، واستمرت به حتى يناير عام ١٩١٥. وأنه في جميع تلك المعسكرات حاول إبعاد الأشخاص الذين كانوا مُعادين لمصالح الشركة، وأنها كانت ملكية خاصة؛ وقد تعاملت شركته معها على هذا الأساس، وأنه من خلاله افترضت الشركة ومسئولوها أن مِن حقِّها ممارسة السلطة فيما يتعلق بمَن يجوز له الدخول ومَن لا يجوز له الدخول، وأنه إذا استطاع شخصٌ ما أن يجعل الرجل عند البوابة أو المشرف على المناجم يعتقد أنه لم يكن، بأي شكلٍ من الأشكال، على صلة باتحاد عُمَّال المناجم، أو أنه في خدمتهم بصفته محرضًا، فإنه يُسمح له بدخول المنجم. وأنه لا يمكن لأي شخصٍ نعتبره خَصمًا لنا أن يدخل المناجم للتواصل الاجتماعي أو غير ذلك، وأنه هو والموظفون الذين يعملون تحت قيادته في إمكانهم أن يُقرروا ما إذا كان أي شخص قد جاء إلى هناك لغرض التحريض. وأن السيد ميتشل، رئيس اللجنة الديمقراطية، على حد قوله، كان يُعَد من بين المحرضين، وكان يدير صحيفةً وعلى صلة مباشرة أو غير مباشرة مع اتحاد عُمال المناجم، وأن السيد نيلي، المرشح الديمقراطي لمنصب رئيس الشرطة، كان يُعَد من المضرِبين، وأنه كان يُعَد شخصيةً تستحق الشجب. وأنه عندما وصلت القوات الفيدرالية، أعادوا السلام والنظام، ولم يعُد هناك أعمال شغب بعد ذلك، ولم تكن الشركة تخشى شيئًا إلا الاضطرابات بين العُمال عندما كان الجنود هناك. وعندما سئُل عما إذا كان قد منع إجراء المناقشات في المعسكر، ضد مناصرة موقف الشركة، أجاب: «... لم نشجع على ذلك.» لم تكن الشركة لتشجع المنظمين النقابيين على القدوم إلى المعسكر، مهما كان سلوكهم سلميًّا، ولم تسمح

للأشخاص بالقدوم إلى المعسكر لمناقشة المسائل المبدئية مع موظفي الشركة، أو لخوض الجدال معهم أو الاحتكام إلى رأيهم أو مناقشة الأمور معهم على أُسُسٍ معقولة؛ لأنه كان معروفًا من خلال التجربة أنه إذا سُمِح لهم بالحضور، فسيبدءون بالتهديد بالعنف. قد لا يلجئُون إلى أي عنفٍ في ذلك الوقت، لكن قد يؤدي ذلك إلى خوف الناس ومغادرتهم، وقد كانوا حريصين على الاحتفاظ بموظفيهم. كما سُئل عما إذا كان العمل هناك يعتمد على قرار المسئولين، فأجاب أن المشرف ربما كان ليُستفسَر منه عن طبيعة عمله. وأن أي شخص كان فار يأمر بأن يُمنَح تصريحًا لدخول المعسكر كان من المرجح أن يحصل على التصريح ...

لم تكن هناك إلا محاولة واحدة لعقد اجتماعٍ سياسي في الدوائر الانتخابية المغلقة. وجاءت شهادة جوزيف باترسون، الذي حاول عقد هذا الاجتماع، كما يلي:

«كان هناك اجتماعٌ سياسي في أوكفيو. ونظرًا إلى أن مشرف منجم أوكفيو كان صديقًا مُقربًا إلى السيد جونز، فقد كتب له رسالة يطلب فيها الإذن بعقد اجتماع سياسي. وتلقَّى مساء السبت رسالة مفادها أن في إمكانه عقد مثل هذا الاجتماع. وفي اليوم السابق للاجتماع، تلقَّى الشاهد رسالة هاتفية من مساعد المشرف، حيث استفسر الأخير عما إذا كان الشاهد سيأتي إلى هناك ليُسبِّب أي مشكلة، وأجاب الشاهد بأنه بالطبع لا، وأنه إذا شعر المشرف بذلك فلن يأتوا. وقد أبلغ المشرف بأنه وآخرين سيعقدون اجتماعًا سياسيًّا للحزب الديمقراطي. صرَّح المشرف جونز أن الشاهد عليه أن يأتي إلى المكتب في تلك الليلة قبل أن يذهب إلى مبنى المدرسة لغرض الاجتماع، وأنه عندما وصل الشاهد إلى الاجتماع كان هناك نحو ستة أو ثمانية من المتحدثين باللغة الإنجليزية ومن اثني عشر إلى أربعة عشر مكسيكيًّا. وكان المشرف، والسيد مورجان، والسيد برايس بالخارج معظم الوقت. لاحظ الشاهد أن المشرف قد وقف مع الرجال القليلين الذين جاءوا نحو مبنى المدرسة، وتحدث إليهم ثم استداروا للعودة إلى المعسكر. حدث هذا عدة مراتٍ؛ بمجرد أن يتحدثوا إلى مورجان يعودون. بعد أن رأى الشاهد ذلك، دلف إلى مبنى المدرسة، وقال إنه لم تكن هناك فائدة من عقد أي اجتماعات، وإنه لا يبدو أن أحدًا كان مسموحًا له أن يأتي. كان من المفترض أن يُعقد هذا الاجتماع في مبنى مدرسةٍ عامة مُقامة على ممتلكات الشركة. وكان يجب الحصول على إذن من مشرف شركة تعدين أوكفيو لعقد الاجتماع السياسي المذكور.»

يبدو أن عدد الناخبين المسجَّلين في الدوائر الانتخابية المغلَقة كان يتجاوز، إلى حدٍّ كبيرٍ، عددَ الأصوات التي أُدلي بها، وهذا في حد ذاته كان كافيًا للمطالبة بإجراء تحقيقٍ مفتوحٍ وعادلٍ فيما يتعلَّق بأهلية الناخبين المزعومين.

يبدو من الشهادة أنه في هذه المناطق المغلَقة يوجد الكثير من أولئك الذين صوَّتوا، ولم يكونوا ممن يستطيعون التحدث باللغة الإنجليزية أو قراءتها، وأنه في كثير من الحالات، ساعد قُضاة الانتخابات هؤلاء، من خلال التأشير على بطاقات الاقتراع لهم، في وقوع مخالفة للقانون. مرة أخرى، يبدو أن بطاقات الاقتراع قد طُبِعَت بحيث ... (يواصل قرار المحكمة توضيحه بالتفصيل للطريقة التي طُبِعَت بها بطاقات الاقتراع، بحيث يمكن التحكُّم في التصويت بمساعدتها.) وهكذا لم يكن هؤلاء الناخبون يختارون مُرشَّحيهم، ولكن، تحت إشراف الشركات، كانوا يضعون علامة الصليب فحسب عندما يجدون حرف R المحدد على ورقة الاقتراع، ومن ثَم فلم يكن الاقتراع تعبيرًا عن الرأي أو نابعًا من قرارٍ، لم تكن ممارسة ذكية للاقتراع، ولكن كان اقتراعًا تُمليه على الناخبين شركاتُ الفحم، تمامًا كما كان سيُصبح الحال لو أن وُكلاء هذه الشركات قد وضعوا العلامات في أوراق الاقتراع دون تدخل من الناخبين. لا يمكنك التفكير في إساءة استخدام أكثر غدرًا وشناعة للانتخابات ...

يؤكد المحامي أن المناطق المغلَقة كانت «ضرورية للصناعة»، ولهذا السبب كان سلوك شركات الفحم في أثناء الحملة مبرَّرًا. وبغض النظر عن مدى انتقاد مثل هذا السلوك عندما يتعلق الأمر بأنشطة هذه المجموعات ضمن نطاق ملكيتها الخاصة، تبقى الحقيقة أنه لا يوجد أي مبرر لذلك عندما كانوا يتعاملون مع هذه المنطقة بعد أن خُصِّصَت لاستخدام العامة، ولا سيما فيما يتعلق بحق الأشخاص في ممارسة واجباتهم وسلطاتهم بصفتهم ناخبين في حكومة شعبية.

في واقع الأمر، يبدو أن أعضاء مجلس مُفوِّضي المقاطعة وجميع موظفي المقاطعة الآخرين كانوا من الجمهوريين، وكما ذكر محامي المطعون في انتخابه، فقد كانت شركات الفحم تنظر إلى نجاح المرشحين الجمهوريين باعتباره أمرًا مهمًّا لمصالحها. يبدو أن العلاقة الوثيقة بين شركات الفحم والمسئولين الجمهوريين ومرشحيهم كانت واضحة للغاية قبل الحملة الانتخابية وفي أثنائها، إلى درجة تجعل المرء يفترض أن هؤلاء المسئولين اعتبروا واجباتهم تجاه شركات الفحم أهم من واجباتهم العامة. وإذا زُعِم أن تلك المناطق المغلَقة لم تُشكَّل مراعاةً لراحة هذه الشركات ومصالحها، أو أنها لم تُشكَّل على هذا

النحو بِناءً على نصيحة هذه الشركات وموافقتها، يكون ذلك طعنًا في الذكاء البشري، وإنكارًا للتجربة الإنسانية. كان الغرض الواضح من إنشاء مناطق جديدة هو إتاحة الفرصة لشركات الفحم لإجراء الانتخابات والسيطرة عليها في تلك المناطق، مثلما جرت هذه الانتخابات. الاستنتاج الذي لا يمكن تجنُّبه هو أن هذه المناطق القريبة قد شكَّلها مُفوِّضو المقاطعة بالتواطؤ مع مُمثِّلي شركات الفحم، إن لم يكن بأوامرها الصريحة.

لا يمكن أن تكون هناك انتخابات حرة وصريحة ونزيهة كما يُصوِّرها الدستور حيث تعمل الشركات الصناعية الخاصة على قمع الرأي العام، وإنكار الممارسة الحرة للاختيار على يد الناخبين من ذوي السيادة، وإملاء الأوامر على جميع موظفي الانتخابات والتحكم بهم، وحظر المناقشة العامة للمسائل العامة، وإصدار الأوامر التعسُّفية التي تحدِّد أي المواطنين المسموح لهم، وأيهم غير المسموح لهم، بأسلوبٍ سلمي ولأغراضٍ مشروعة، بالمشاركة في الانتخابات أو دخول الأراضي العامة …

إنها حالة من الاحتيال لا نطالعها في الكتب، وعلينا أن نسعى إلى تحقيق نصوص القانون ورُوحه، ليكونا معيارَ الحكم على مثل هذا السلوك …

لم يكن الحرمان من الحق في التجمُّع السلمي لأي غرضٍ آخر إلا للتأثير في الانتخابات. لم تقع أي إضرابات في إحدى هذه المناطق بعد إنشائها، حتى وقت الانتخابات، وحتى وقت هذه المحاكمة. وكانت القوات الفيدرالية حاضرة في جميع الأوقات للحفاظ على السلام وحماية الأرواح والملكية. لم يكن هناك سببٌ لتوقُّع حدوث أي اضطراباتٍ. ومن ثَم، فقد كان هذا الإنكار الوقِح انتهاكًا فاسدًا ولا يُغتفَر لحقوق المواطنين الطبيعية وغير القابلة للتصرف.

لا يعتمد الدفاع على أدلة مُتضاربة، بل على الادعاء بأن إجراء الانتخابات كان له ما يبرره، وهو أنه «ضروري للصناعة».

سمعنا الكثير في هذه الولاية خلال السنوات الأخيرة عن التذرُّع بمبدأ «الضرورة العسكرية» في تبرير مسألة إنكار الحقوق الأصيلة والدستورية للمواطنين، ولكننا نعتقد أن هذه هي المرة الأولى في تجربتنا التي نسمع فيها عن أن انتهاك الحقوق الأساسية للأحرار يُحاوَل تبريره بحجة أنه «ضروري للصناعة».

حتى لو سلَّمنا بأنه قد يكون هناك بعض التخفيف في حجة الضرورة العسكرية على أساس النظرية التي تزعم أن مثل هذه الأعمال مفادها تصرفات الحكومة نفسها، من خلال ذراعها العسكرية، وبغرض الحفاظ على السلام والسلامة العامة، ولكن أن تَنتهِك

شركة خاصة، بقواتها المسلحة الخاصة، الحقوقَ الأكثر قدسية لمواطني الدولة، وتجد العذر الشرعي في أن ذلك «ضروري للصناعة»، فهذا أمرٌ فَوضَوي إلى درجة لا يمكن أن تقبلها المحكمة.

من الواضح أن هذه الحالة تأتي ضمن استثناء آخر للقاعدة؛ حيث يبدو أن النتائج قد تأثَّرت بتحيُّز قاضي المحاكمة.

إن القراءة المتأنِّية للمستندات تُظهِر أن المحكمة رفضت قدرًا كبيرًا من الأدلة الواقعية والصحيحة التي قدَّمها المنافسون، بدرجة تُمكِّن من الاستنتاج بأن قاضي المحاكمة كان متأثرًا بالتحيُّز، إلى الحد الذي جعله — على الأقل — مُتَّهمًا بنقل الدعوى من محكمة إلى أخرى، ويكون كافيًا في حد ذاته لتبرير بطلان الحكم …

وللأسباب المتقدمة، فإن المحكمة تُبطِل الحكم في كل قضية أمامنا، وتحكم بأن الاستطلاع بأكمله في الدوائر المذكورة، وهي نيجرهيد، ورافينوود، ووالسن ماين، وأوكفيو، وبريور، وروس، وكاميرون، مُلغًى وباطل، كأنه لم يكن، وأن الانتخاب في جميع الدوائر المذكورة مُلغًى على هذا الأساس. وبذلك تكون للمتنافسين في المقاطعة الأغلبية المطلَقة، وحق التعيين في المناصب التي ترشَّحوا لها.

نجد كذلك أن جيه بي فار، المُدَّعى عليه بالخطأ، لم يكن رئيس شرطة مقاطعة هويرفانو المنتخَب حسب الأصول ولم يعُد كذلك، وأن إي إل نيلي، المدعي بالخطأ، كان، ولا يزال، رئيس شرطة المقاطعة المنتخَب حسب الأصول. وعليه، نأمر بأن إيه إل نيلي، فورًا وبموجب الأهلية التي يتطلَّبها القانون، يتولى واجبات منصب رئيس الشرطة، ويضطلع بها في مقاطعة هويرفانو المذكورة …»

نكتفي بهذا القدر فيما يخُص آراء المحكمة بشأن سياسة تعدين الفحم. وعليه، فإن المؤلف يريد أن يذكُر نقطة أخيرة. وهي ألَّا يترك القارئ الكتاب معتقدًا أنه نظرًا إلى طرد مجموعة واحدة من المسئولين الفاسدين من مناصبهم في إحدى المقاطعات الأمريكية، فإن العدالة أصبحت بذلك مَصونة، ولم تعُد هناك حاجة إلى القلق بشأن الظروف المذكورة في رواية «مملكة الفحم». فهزيمة «ملك مقاطعة هويرفانو» ليست إلا خطوة واحدة في طريقٍ طويلٍ يتعيَّن على عمال المناجم في كولورادو أن يخوضوه إذا أرادوا أن يصبحوا رجالًا أحرارًا في يومٍ من الأيام. وتظل القوة الصناعية للشركات الكبرى بمنأًى عن هذا القرار، وهي قوة أكبر من أي سلطة سياسية مارستها في أي وقتٍ مضى حكومةُ مقاطعة هويرفانو، أو حتى ولاية كولورادو. هذه القوة الصناعية هي جذرٌ عميقٌ وواسع الانتشار،

وما دام سُمح لهذا الجذر بالنمو والتوغُّل، فسيُرسل مرارًا وتكرارًا نباتاته السامة المتمثِّلة في «سوء السلوك، والاحتيال، والفساد». إن المواطنين والعاملين في هذه المجتمعات الصناعية، سواء في ولاية كولورادو، أو في فرجينيا الغربية، أو ألاباما، أو ميشيجان، أو مينيسوتا، أو في حظائر شيكاجو، أو مصانع الصلب في بيتسبرج، أو مصانع الصوف في لورانس، أو مصانع الحرير في باترسون، سيجدون أنهم لن ينعموا بالسلام أو الحرية حتى يقضُوا على نظام الإنتاج من أجل الربح، ويؤسسوا في مجال الصناعة ما يُفترَض أنهم يتمتعون به بالفعل في مجال السياسة ... حكومة شعب، يديرها الشعبُ، من أجل الشعب.

ملاحظة: في اليوم الذي انتهى فيه المؤلف من قراءة الأدلة على الظروف الواردة في رواية «مملكة الفحم»، ظهر المقال التالي في جريدته اليومية:

> عُمَّال مناجم كولورادو يطالبون بالإذن في الإضراب (بقلم إيه بي نايت واير)
>
> دنفر (كولورادو)، ١٤ يونيو ... مسئولو اتحاد عُمَّال المناجم، الأعضاء الممثِّلون لهذا التنظيم العاملون لدى شركة كولورادو للوقود والحديد، أرسلوا برقية إلى مسئوليهم الوطنيين يطلبون فيها الإذنَ بالإضراب.
>
> وفي الجلسة الصباحية اتُّخذ قرارٌ يُعبِّر عن استنكار تصرُّف جيه إف ويلبورن، رئيس شركة الوقود، لعدم حضوره الاجتماع الذي كان جزءًا من «برنامج السلام» لمنع الخلافات الصناعية في الدولة خلال الحرب.
>
> كانت تظلُّمات العُمال، حسب ما قاله جون ماكلينان، المتحدث باسمهم، تتمحور حول تنفيذ ما يُسمَّى بـ «خطة روكفلر» في المناجم. وقال ماكلينان إن فشل السيد ويلبورن في حضور الاجتماع ومناقشة هذه المظالم مع العُمال قد عجَّل باندلاع الإضراب.


هنـــداوي


MOHAMED KHATAB